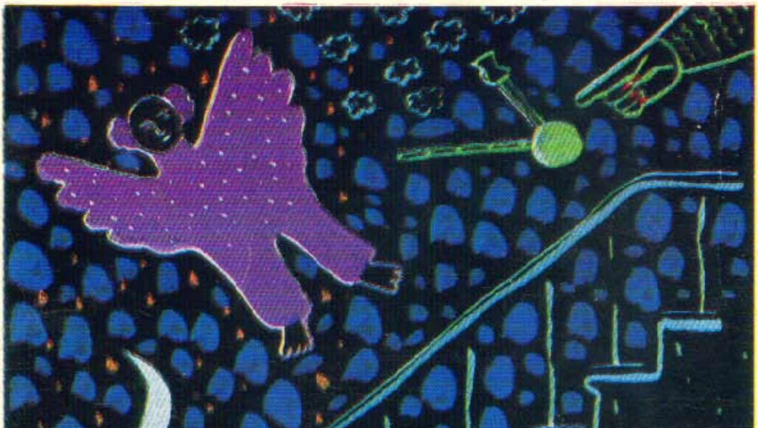
موال البيات والنوم

خيري شلبي



B..HAMDAN

12-4-2008

الاشراف الفنى : حلمى التونى

روايـــة

موال البيات والنوم

خـــيرى شـــــلبى

إلى شاعر مصر الأكبر .. القطب العظيم .. المسحراتى فؤاد حداد .. الذى ألهمنى كتابه هذا الموال ، وإلى صديقى الحميم إبراهيم منصور .. الذى تسلط علىَّ بالضغط حتى كتبته .

«خيري»

إزاى أفضـــل أهــيم

ع الخـط المســـتقيم

من حاره لجـوه حاره

وأفضل قلبى سليم ؟

فـؤاد حـداد

- ١ -
نـــزول الليــل

كنا جلوساً فى غرفة أشبه بالقاعة الريفية ظلماء رغم وجود مصباح كهربى صغير كالبلحة بارز من أحد الأركان ..

وكان من الواضح أننا قد وصلنا إلى هذه القعدة بعد متاعب جمة وبعد لف طويل غامض فى حوارى الليل ملئ - ومليئة - بالمساومات الطريفة المحوطة بأخطار هازلة ! ..

وكنا نجلس على الأرض متربعين فوق شلت ناشفة ومخدات مزيتة الوجوه كالحة كأنها منجدة بالحصى . أمامنا برتقال مشقق على صينية كبيرة لكن أحداً لا يأكل منه ومن ثم فلا تواتينى الجرأة على الإمساك بشريحة واحدة ، إذ بدا من الواضح أن صاحب هذا المكان الذى استضافنا بناء على رغبتنا يعرض علينا هذا البرتقال كديكور من لوازم الضيافة . وكان ريقى ناشفاً . وكان صاحب القاعة كما فهمت واحدا من طائفة الكومبارس الذين يستأجرهم «سيد بك دسوقى» ، الذى بدا من الواضح أنه هو الذى اقتادنا إلى ها هنا أنا وصديقى مهندس الديكور وصديقى السيناريست لكى نعمر رؤوسنا بنفسين يصعدان بنا إلى نشوة عالية .

صاحب القاعة الكومبارس قد فرش فوق الكليم الرخيص قطعة مشمع عريضة ، وضع فوقها المنقد الفخارى الكبير ورص حوله عشرا من حجارة

الجوزة ، والجوزة ، وطبقا مليئاً بالدخان المعسل ، وكوباً به ماء ملوث ينظف فيه أصابعه بعد تنظيف الحجارة وتعسيلها . وكان «سيد بك دسوقى» مدير الإنتاج المشهور قد راح منذ وقت طويل يقتطع الحشيش من كُلكيعة فى حجم ليمونة كزلطة سوداء ، يضع فوق كل حجر بصمة كبيرة منه . الكومبارس ينتقى قطعة نار يطحنها فى المصفاة ، يثبت الحجر فوق بُخش الجوزة ويقدم البوصة لـ «سيد بك دسوقى» قائلا : «ميه مسا» . فيشد «سيد بك» الأنفاس المتلاحقة ينفث على أثرها أطنانا من دوائر الدخان الأزرق المتدافع فى سرعة . تنتقل البوصة إلى فم صديقى الديكوريست ، ثم إلى صديقى السيناريست ، ثم إلىَّ ، فأعتذر فى كل مرة ، فيلحون علىَّ بإصرار شديد قائلين : «ياراجل ولع .. والله لتولع» ، فأشد أنفاسا واهنة وأكح حتى أكاد أدلق صدرى كله ودموعى كلها . لكننى مع ذلك استحسنت الأمر ورأيتنى فى حالة من الشرود اللذيذ وخيالى بجناحين عريضين يحلقان به فى سماوات شاهقة الارتفاع ، نسيت أننى كنت مرهقا أبحث فى الأصل عن مكان أبيت فيه ليلتى ، ونسيت نشفان الريق وخواء البطن ونسيت وجوه الحرس والخفراء العكرة التى تعترض طريقى فى كل مكان أذهب إليه للبحث عن عمل أو للسؤال عن صديق !!

ثم بدا أننا نتهيأ للانصراف فنهضت مثلهم وسلمت على الكومبارس مثلهم ، وخيل لى أننى شكرته أيضا مثلهم على حسن هذه الضيافة ، وخيل لى أنه رد علىَّ قائلا : «الزيارة دى ما تتحسبش» ! ..

ثم فوجئت بأننا قد رحنا نهبط فى جوف الظلام درجات متآكلة متخالفة تبعا لاستدارة السلم ، وصوت رجل أظنه الكومبارس ، لاينى يصيح من أعلى منبها إلى أننا يجب أن نحذر الدرابزين فلا نعتمد عليه لأنه مقطوع الصلة فى مسافات كثيرة ، وعلينا محاذاة الحائط حتى لا تقع أرجلنا على الجانب الضيق

من درجات السلم القريبة من البسطات عند الحودايات . وكان صوته يبتعد فى الأعلى شيئا فشيئا ونحن نتساند على الحائط ممسكين فى بعضنا البعض مندمجين فى ضحك هستيرى متواصل تهتز منه أجسادنا بعنف فنضطر للتوقف عن الهبوط لبرهة ثم نستأنف الغوص فى الظلام والرطوبة والعفن !

أيقنت أننا قد نظل نهبط هكذا إلى مالا نهاية . لكننى فوجئت بباب مفتوح على وسعه ينبثق منه ضوء عليل خافت فتنفست وفرحت ودخلته فى حين واصل رفاقى الهبوط ، فصرت أهتف بهم ضاحكا أننى قد عثرت على باب الشارع ، فإذا بصديق منهم يلحق بى صاعدا درجتين بسرعة ثم يسحبنى هامسا فى حرج : «أنت دخلت شقة مفتوحة . لا مؤاخذه يا أسيادنا» ، مع أن أحدا لم يكن موجودا فيما تبينت أنه صالة عريضة ممتدة خالية من أى أثاث . لكننى استأنفت الهبوط معهم إلى أن اشتدت كثافة الظلام تماما ، وصلت قدمى الأرض بحثا عن درجة تهبطها فلم تجد ، فصرنا نمد أذرعتنا فتصطدم ببعضها وهى تبحث عن موضع الباب المغلق ، وكنت أتبين صوت «سيد بك دسوقى» يقول وسط الظلام والرطوبة والعفن – كأنه مستغرق فى حلم وردى – أن الجرائد زمانها الآن قد وصلت إلى بوفيه المحطة وأننا سوف نشرب الشاى الفاخر باللبن ، فلم يرد عليه أحد إذ أن عقولنا قد كمنت فى أيدينا فصارت تصطدم بالحوائط المتباعدة فتقشعر أبداننا من ملمسها الخشن اللزج وملحها الذى يعلق بالأصابع.. ولم يكن ثمة باب للخروج على الإطلاق .

- ٢ -
مدافعة

أخيرا بدأ الشارع يتضح أمامى بصورة شبه جلية ، فعرفت أننى يجب أن أدخل حارة ها هنا يقبع على ناصيتها دكان كبابجى ، فأظل ماشيا فيها أتعثر فى بلاطها العريض المتفصص من بعضه ناعما زلقاً تحيط به أخاديد من مياه الغسل والمجارى والمطر القديم . البيت الذى أقصده مميز ، إذ هو جديد نوعاً ، وبارز عن كل البيوت بضلع أنيق مزدوج يحمل فوقه ثلاث بلكونات ، البلكونة الأولى يحتلها رجل بلدياتى ، ليس يمت لى بأية صلة قربى ، لكنه يعرف أبى وأهلى معرفة جيدة ، ويعرف أننى مغترب فى هذه المدينة من أجل التعليم ، وهو - كما يلوح لى كلما قابلته فى البلدة أثناء أجازة العيد - يحبنى ويقدرنى لأننى أتغرب من أجل التعليم متحديا الفقر الذى يعيشه أبى العجوز الغلبان بحمل إخوتى الكثار ، ودائما يوصينى بأن أزوره فى منزله ، وقد وصفه لى حتى حفظته تماما .

رأيت نفسى جالسا فى داره . راح يستقبلنى بحفاوة بالغة . أحاط بى زوجه وأولاده ، صاروا يدللونى ، يعزمون علىَّ بالعشاء ، يظهرون أمامى ذكاءهم وشطارتهم فى المدرسة ، ويبرزون أطقم الأكواب التى اشتروها من السعودية حيث كان بلدياتى يعمل هناك لأكثر من خمس سنوات تبع أحد المقاولين ، ويقدمون لى مشروبات متعددة تثبت لى أن عندهم أكثر من خلاط للعصير . فى

الصالة المربعة ثلاث من الكنب البلدى وبعض كراسى منجدة من النوع المسمى بالأسيوطى . على الترابيزة – المصنوعة خصيصا – تليفزيون ملون مفتوح على التمثيلية . على الرف راديو كبير جدا مفتوح على أم كلثوم . على الكنبة جهاز تسجيل كبير أيضا مفتوح على أحمد عدوية !! ..

بدا لى أننى أحب هذه الأسرة رغم ذلك الصخب وهذه «الغلوشة» . وبدا أيضا أننى رغم ذلك غير مستريح فى جلستى هذه مع كل ما يحيطونه بى من كرم واهتمام زائد كأنما قد زارهم بالفعل النبى . شئ ما فى أعماقى كان يمنعنى من الانطلاق والاندماج الحقيقى . ذكريات البلدة اللطيفة التى راحت تحكيها الزوجة فى ود وحلاوة ، تذكرنى بالبلدة وبها هى نفسها أيام كانت صبية حلوة فاتنة نتعشقها ونؤلف فى حبها الأغانى والمواويل .. حتى هذه الذكريات الحميمة رحت أستقبلها بابتسامة شاحبة معلقة على شفتى أكسرها أحيانا بضحكة جوفاء أو بهزة رأس غائب عن الوجدان . النكت العتيقة التى اشتهرت فى بلدتنا زمنا طويلا لكونها مشاهد حقيقية لناس من أهلنا ، والتى كان مجرد تذكرها يصيب المرء بهستيريا الضحك المتواصل إلى أن توجعه بطنه وتعصر عيناه كل دموعها .. حتى هذه النكت رحت أستقبلها هى الأخرى بضحك فاتر ولا أشارك فى حكى جوانب منها تزيد فكاهتها عمقا كما كان من المفروض أن يحدث . وكنت أشعر أننى ربما كنت السبب فى كل هذا الهياج الأسرى الصاخب إذ أن كل هذه الأصوات منطلقة للعمل على إرضاء مزاجى بأى شكل ، صحيح أن فيها ما يخدم حبهم للاستعراض الفطرى ولكننى أشعر كما لو كنت سيد الموقف وإذا مال مزاجى نحو صوت أسكت ماعداه من الأصوات ! ..

ثم بدا كأننى أعرف سر هذا القلق الذى يعترينى مشوها هذا اللقاء الذى تم بعد إلحاح ، معلقا إياى فى فراغ كئيب ممرور ! .. ثم بدا كأن هذا السر

ربما يكون رغبتى فى أن أنفرد بالرجل بلدياتى : فها أنذا – بشكل خفى – أتحين الفرص وأكاد أدبر تدبيرا للانفراد به ، لولا أن الأولاد يحيطوننى تماما بود واحترام وعواطف بريئة ساخنة . شعور بالحرج المرير يكبلنى فيما لو ظهر أمام الأولاد أننى راغب فى الانفراد بأبيهم ! هذا أمر سوف يشغلهم لابد ! وسوف ينزعجون منه لا محالة ! ويتساءلون ما الأمر ؟ ! ..

ثم بدا لى أن الأمر فى غاية الفظاعة ، إذ أننى فى حقيقة الأمر – كما يلوح لى – كنت قد صادرت الخطة التى اتضح لى أننى فى حقيقة الأمر جئت إلى هذا المكان من أجل تنفيذها : وهى أن أرسم علامات الحزن والكدر على وجهى تمهيدا لأن أحكى عن شئ هام ضاع منى فى زحام المدينة التى بلا خلق أو ضمير ! زوادتى مثلا وفيها مصروف الأسابيع المقبلة ! كتب الدراسة وأود شراء غيرها ! أزعم أننى أفكر فى إرسال برقية إلى البلد أبلغهم فيها بالخبر غير أننى متخوف من شدة إنزعاج «الجماعة» عند تلقيهم البرقية ولهذا فسوف أرجئ الأمر مضطرا لحين السفر ! أزعم كذلك أننى أفكر فى الاقتراض من صاحبة البيت الذى أسكن مع رفاقى حجرة فوق سطحه !! هدفى من كل هذه المزاعم ثقتى فى أن بلدياتى سوف تركبه النخوة فيعرض علىَّ قرضا حسنا ! يمد يده فى جيبه العامر يغمزنى ببضع جنيهات أدبر بها نفسى مؤقتا، واحنا اخوات يا راجل المليان يكب على الفاضى مفيش داعى تقلق البلد ! .. وحينئذ رأيتنى مقبلا على مطاعم المدينة بواجهاتها اللامعة ثم أدخلها منتفخ الأوداج منغمسا بلذة فائقة فى رائحة الشواء الشهى التى تدير كيانى وتوقظ بأعماقى جوعا أبديا لم أكن أعلم قبلا أنه فىَّ.. ثم رأيتنى جالسا على رصيف إحدى المقاهى التى لم أكن رأيت فى حلاوتها قط والجرسون ينحنى أمامى واضعا صينية حافلة بالأكواب والأطباق .. ثم رأيتنى بين زملائى الطلبة فى حوش المدرسة أمام «الكانتين» وأنا فى مقدمتهم أمسك طبقا من المهلبية بالكريمة كان السبب فى أن أضحك مثلهم وأكتشف أنهم جـديرون بأن أحبهم وأصاحبهم هكذا !!..

انبعث فى أذنى رنين ملعقة تدور فى كوب زجاجى ، وبدا أننى قد عدت إلى منزل بلدياتى من جديد ولكن فى حجرة أخرى بها سرير سفرى عليه فرش أشد كلاحة من بطانية مخلفات الجيش التى نتغطى بها أنا ورفاقى فى غرفة السطح ، تذكرت أن هذه الحجرة التى نجلس فيها الآن هى حجرته قبل الزواج . وكنت أشعر أن انفرادى به الآن يعبر عن رغبة قديمة شديدة الأهمية بالنسبة لى غير أننى لست أذكرها الآن على وجه التحديد !! .. ثم بدا أننى أشعر بالغثيان ، أكاد أتقيأ روحى ، أفعل بعض حركات توحى بأننى أتهيأ للإنصراف مع أننى أشعر فى قرارة نفسى برغبة فى البقاء برهة لعلنى أكتشف سر حرصى الدفين على هذه الفرصة النادرة التى هى بين يدى الآن . إشتد شعورى بالغثيان والمرارة الغامضة المبهمة . بدون مقدمات وجدتنى أفرك يدىَّ قائلا للرجل بلدياتى : «مايلزمش أى خدمة ؟!» . فإذا هو قد نهض فى التو قائلا : شكرا ياحبيبى مايلزمش انت ؟! .. قلت بحماسة : «مش عايز فلوس ولا حاجة ؟! إطلب مايهمكش» . تبسم الخبيث فى عبه قائلا : «يعنى الحاله رايجة معاك ؟!» . شعرت باستياء شديد من هذا التعريض المستتر خاصة وأن لهجته فيها إيحاء ودى بأنه يأخذ عرضى هذا على نحو عكسى مظهرا - بطريقة ملفوفة - إستعداده لمساعدتى . تزايدت ضربات قلبى واشتد عنفها فاشتد ضيق أنفاسى ، قلت دون نظر فى العواقب : «طبعا رايجة والحمد لله إطلب وأنا رقبتى ! جيب المؤمنين عمارا !» .. ثم ارتعدت مفاصلى حين رفع عينيه وسلطهما فى عينى بخبث شرير لكنه حميم مع ذلك خفت أن يتمادى فى العشم قائلا طب ورينى اللى معاك عشان اطمئن عليك ! قررت التعجيل بالانصراف ! .. ثم رأيتنى أعدو راكضا فى شارع كئيب عليل الضوء عريض بلاطات الأرض تتخللها أخاديد مياه عطنة والأرض زلقة والبيوت على الصفين المتقابلين كنمور

متهالكة تترصد بعضها بعضا من تحت الجفون الساجية ، وصوت صديقى بلدياتى يلاحقنى من شرفة الدور الأول صائحا : «بس خد أما أقول لك ! اسمع بس ما تبقاش عيل !» . وكان صوت ضحكاته الساخرة الصاعقة يجلجل فى أذنى فيما أنزع نفسى من هذه الحارة إلى أفق عريض لا أدرى مداه لكنه رمادى ملئ بالرياح العنيفة المتعاكسة المليئة بالضباب والتراب تكاد تقتلعنى من الأرض . ولم أكن أعرف إلى أين ينبغى أن أسير ولكننى مع ذلك كنت أسير مدافعا دفع الرياح لى من جميع الاتجاهات .

- ٣ -

رقائق ثلج أسود

كنت أسير فيما بدا أنه شارع عمومى عريض إلى حد أفقدنى الإحساس بمبانية المترامية على الجانبين ؟ فى مدينة تبدو إقليمية صغيرة ونائمة فى أحضان صمت أزلى طويل . وكنت متعباً ومترددا ، قد بدا لى أننى أذهب إلَى مشوار فى مكان ما فى هذا الشارع .

وضح لى أننى نسـيت هذا المشوار مع أننى أسعى إليه بحماس يشوبه التردد ، وفى تردد يشوبه الحماس بدا أنه لامفر أمامى من الذهاب إلى هذا المشوار واستمرار السير من ثمة فى نفس الشارع الذى وضح أننى أجهله تماماً وأننى ربما أتعرف عليه إذا عرفت طبيعة المشوار ، وربما إن تعرفت عليه عرفت طبيعة المشوار على وجه التحديد !! .

اكفهر الشارع فجأة ، احتشد بالضباب الكثيف ، تعذرت على الرؤية ثم إنعدمت لبرهة وجيزة . بدا كأنى آلف هذا الضباب وإن كنت أشعر الآن تجاهه برعب دفين ، تتسارع دقات قلبى أسمع بها ، يداخلنى يقين بأنه أعلى صوت فى الكون كله هذه اللحظة ! أشعر بالخطر ، أشعر كذلك أننى موشك على الدخول فى قلب ما يشبه الأمان ! .

خفت صوت الدبّ فى حنايا صدرى . رقت كثافة الضباب شيئا فشيئا ، بدت كأنها الثوب يتخلله البلى فى رقع كثيرة منحولة كسدى بلا لحم ولحم بلا سدى .

منذ برهة طويلة جداً وأنا أتوقع مدى الرهبة التى ستعترينى حينما أرانى قد بدأت أدخل فى صفحة هذا النسيج المتحول إذ خيل إلى أنه سيطبع بصمته هذه فى دماغى .

فوجئت بأننى ودعت خلفى عشرات من هذه الصفحة المنْحولة ولا تزال نفس اللوحة تواجهنى بخيوط سوداء قاتمة تتخلل صفحة أقل سواداً اعرضها عرض الأفق تتراجع قصادى إلى مالانهاية .

ينتفض الرعب فى قدمى ، ارتفعت فروة رأسى ، اتسعت حدقتاى . ميزت أن رقائق السواد التى كانت تسد الأفق راحت تتساقط كرقائق ثلج أسود لتكشف عن مساحات مبيضة قليلاً ، سرعان ما بدت كأنها نوافذ على أفق مجهول سرعان ماراحت هذه النوافذ تتسع شيئاً فشيئاً تجور على مساحات الظلام تحولها إلى كتل هرمية سوداء . سرعان ماراح اللون الأبيض يتخلل هذه الكتل الهرمية السوداء يصنع منها سلالاً من الخيوط الرمادية المنسوجة على أوتار عالية . وضح لى أننى سائر بين صفين من أشجار الكافور والجزورين والحناء والصفصاف والزيتون . وضح لى أن يد بستانى بداع قد أبدعت فى خرطها بهذه الدقة الهندسية البديعة .. فعرفت أننى سائر فى شارع أظنه الشارع الخامس على وجه التحديد ، فى ضاحية أظنها ضاحية المعادى فيما يشبه اليقين ! ..

وضح لى أننى كنت أقطع فى ليل بهيم لا أذكر متى بدأ ، وأننى أخيراً قد بدأت أنجح فى امتطائه والوصول إلى هذه اللحظة .. وعرفت أنه قد بقيت من الليل ساعات قاتمة على أن ألف الشوارع المحيطة لأدهنها بفرشاة اللون الأبيض ، ثم أتولاها بالدعك والصنفرة إلى أن تتآكل جلدة الأفق الرمادية عن ثقوب تتسلل منها خيوط الشمس .. حينئذ يحل لى أن أدلف إلى عتبة العمارة

المهيبة الكائنة فى عمق الشارع ، وأطرق باب شقة رفيق صباى الوحيد الذى أعرفه فى هذه المدينة ، لأجده قد استيقظ وتناول فطوره وتهيأ للخروج إلى عمله ، فيصير من حقى أن أستخدم سريره فى النوم بضع ساعات .

- ٤ -

الرمـــــاد

لم أكن أعرف من أنا على وجه اليقين ، ولكن ادراكى بأن هذا هو شارع سليمان ، وهذه هى سينما مترو ، وهذا هو مسرح ميامى ، وهذا هو مقهى الإكسيلسيور ؛ كل ذلك يؤكد أننى من هذه المدينة . كما أنه فيما يبدو أن هذه الأماكن كلها ، وحتى أرض هذا الشارع ، تعرفنى حق المعرفة ، لها معى - كما لى معها - ذكريات طويلة غامضة لعلها خمدت مختبئة كجمرات النار تحت ركام الرماد .

كنت أرتدى قميصا قديما وسروالا أقدم وحذاء يشكو لطوب الأرض عذاب المر الأليم . ليس فى يدى أية حقائب ، ولا فى جيبى أية أوراق . يداى فى جيبى السروال المخرومين من الداخل حتى لتنفذ اليد من كل ناحية لتلامس ذلك الشئ الذى انكمش بين ساقى كبلحة ذابلة . وفى رأسى كانت يد الشرطى تقبض على مخى من الكتف بخشونة تكاد تفريه . وكنت أحس لسبب ما أننى يجب أن أتستر فى مكان ، بمكان ما .

يشملنى توق شديد إلى معرفة من أنا وما هى شغلتى وما علاقتى بهذه المدينة وبهذه المنطقة منها على وجه التحديد ، هذه المدينة التى أذكر أنها تبدو مفتوحة فى النهار موصدة فى الليل كمصيدة الفئران . ضبطت نفسى واقفا منذ

وقت طويل أستند إلى السور الحديدى فوق رصيف الشارع أمام محل الأمريكين ، الذى أطفئت أنواره الخارجية كلها فبدا كبيت عتيق مهجور .. فلم أعرف إن كنت قادما من جهة ميدان التحرير أم من جهة باب الحديد ! ولكن ارتفاع الضغط فى ساقى وقدمى كأسراب من النمل تحاول رفع جسدى على ظهورها وحملى إلى حجورها ، يؤكد أننى كنت أمشى منذ برهة وجيزة وأننى توقفت عجزا عن مواصلة السير ، فمن أين كنت قادما وإلى أين كنت أتجه ؟ ذلك ما يحيرنى الآن بالفعل .

وَقْع خطوات يرن يقترب من بعيد ، تلفت حوالى بحثا عن أحد . كنت مشوقا لملاقاة أى مخلوق فى هذه اللحظة لعلنى أرى فيه من قد يعرفنى ، يتعرف على أو أتعرف عليه ..

لم أدر كم من الزمن مضى علىَّ فى وقفتى ، لكن وقع الأقدام كان يتزايد من حوالى ، ويقوى ، ويتجسد فى أشباح تظهر من حين إلى حين خارجة من الممرات الجانبية إلى الشارع العمومى ، لتختفى فى ممرات جانبية أخرى . ثم بدأت بعض السيارات تظهر من بعيد لتقترب ثم تختفى فى البعيد لا تلوى على شئ ، من جميع الإتجاهات إلى جميع الإتجاهات . بعض عربات اليد جعلت تقعقع فى الشوارع الخلفية لابد أنها عربات الفول والكشرى ؛ كم يطربنى صوتها هذا ، إنها مثل صياح الديك ايذانا بقصف عمر الأرق . داخلتنى بعض الطمأنينة ، روادنى بعض الأمل فى معرفة أشياء كثيرة تختص بى . فجأة انطفأت كل الأضواء الخافتة فى الشارع دفعة واحدة ؛ فإذا العمائر والأرصفة والدكاكين والأشباح والسيارات ترتدى كلها ثوبا من البوية الزرقاء القاتمة الكابية كجلابيب قدامى الفلاحين ، لونها لون طين المصارف ..

تذكرت أننى من قرية معينة ، فلابد إذن أن لى أهلا فيها وأننى لست فرعا

منبت الجذر . رموش عينى كانت متلبكة بلزوجة العماص ، أحاول رفعها عن بعضها بصعوبة لإفساح الطريق أمام ناظرىَّ . مددت ظهر يدى لأدعك عينى أزيل عنهما العمأص ، فاصطدمت بمنظار طبى فوق أرنبة أنفى ، فتذكرت اننى من أهل القراءة والكتابة ، وأننى كثيرا ما قرأت وكثيرا ما كتبت حتى اضطررت للبس هذا المنظار . تذكرت أن لى مشاكل عديدة جدا مع القراءة والكتابة لم أعد أعى تفاصيلها الكثيرة الكثيرة . رفعت المنظار ودعكت عينى فسالت الدموع منهما غزيرة ، وغــامت الرؤية كثيرا فى عينى ، شعرت بدوار كأن الأرض تميد بى ، ملت مستندا إلى السور الحديدى .

أشعر أن وقتا طويلا مضى ورأسى مستند إلى عمود النور المشتبك بالسور الحديدى . هى برهة وانشق الفضاء عن صوت خشن يشرخ الصمت فى قوة بالغة . إستدرت خلفى فزعا ، فإذا هى أبواب بعض الدكاكين يرفعها أصحابها داخل مجاريها فى الحوائط لتتكور على بكرة داخل الدكان . وكان اللون السماوى الزاهى قد انتشر فى الشارع كما انتشر الناس والسيارت والدراجات وعربات اليد ، وراحت الحركة تتدفق آتية من كل ناحية إلى كل ناحية ، وأوراق الصحف تنتشر من حولى على الرصيف وفى أيدى الباعة ..

تذكرت أننى كنت أطوى الجنان على حلم كبير فيما يختص بالقراءة والكتابة. تذكرت أننى كنت قد نسيت هذا الحلم منذ وقت طويل . تذكرت أننى يئست حتى من العثور على الرغيف الحاف . تذكرت أننى منذ ساعات قليلة كنت أحمل هم المبيت والخوف من صقيع الليل ، فأحسست كأن كابوسا مروعا قد انزاح عن كاهلى كأنما إلى الأبد . ثم بدأ ذهنى ينتفض فى الحال مفكرا فى دروب وحَوَارِ ومنعطفات . بكثير من الفرح انخرطت فى قلب الشارع المتدفق متغطيا بالجماهير ، رحت أمشى بينهم كأننى مثلهم مربوط بموعد ينبغى أن أدركه بسرعة ، وقد بدأت أشعر بشئ من الأمان .

- ٥ -

الأقفـــال

كنت أضع يدى فى جيبى سروالى وأمشى مترنحا، ويدا أننى لم أكن شربت شيئا على الإطلاق ، كما أننى لست أذكر متى أكلت آخر مرة . وكانت رائحة التقلية الزاعقة تشى بملوخية وأرانب محمرة ، تنبعث من شقة ما ، فى عمارة ما، من هذه العمائر التى تحف بى على الجانبين ، حيث الشارع هادئ تماما وقد خلا من الناس وشمله صمت مريب ، تتخلله خرخشـات وطرقعـات صفيحية سـرعان ما يتضح أن رهطا من القطط يتقاتل على صحيفة قمامة كبيرة كالصندوق مندلقة فوق الأرض على ناصية حارة جانبية ضيقة ، فتختلط القمامة بالأرض الزلقة وبرك من مياه المجارى تحمل لون الصابون برائحة زنخة تزكم الأنف تكاد تزهق روحى .

تجاوزت معركة القطط بمسافة كبيرة . السكون يتحول إلى وشيش غامض خفى . بعض نوافذ مضاءة فى الأدوار العليا ، وبعض الشرفات . لم أكن أعرف أى شارع هذا الذى أسير فيه الآن ، لكن ما تخلف منه ورائى كان يبدو طويلاً ، طولاً يقاس بالشهور والسنين لا بالأميال والأمتار ، وأن نهايته لا تزال بعيدة بعيدة . يخيل لى أننى آلف بعض معالمه ، فكثير من هذه العمائر تبدو غير جديدة على ، أكاد أعرف بعضها حق المعرفة ، بل لعلنى دخلتها وصعدت

سلالها ذات يوم لسبب من الأسباب، وبدا لى كأننى أمشى فى شارع معروف لدى ، فلابد إذن أننى أقصد وجهة بعينها وإلا ما مشيت فى هذا الشارع على وجه التحديد ، تذكرت أن الشوارع فى هذه المدينة تتشابه كما تتشابه البيوت والدكاكين والبشر، حينئذ انتفض قلبى كفردة حمام مذعورة ، وشعرت بأن مشكلة تكمن خلفى وأننى مطالب بحلها على الفور قبل الشروع فى الخطوة القادمة ، سرعان ما انسحبت هذه المشكلة – التى لم أعرفها على وجه التحديد – من خاطرى ، وبدا أنها التحقت بما يشبه أن يكون مأساة حارقة كبيرة تقودنى إلى السير هكذا فى هذا الشارع فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ..

صوت طرقعات متسقة الإيقاع ينبعث من خلفى فى شئ من الإنسجام ، يقترب ، يعلو ، يتحول إلى خبب ، كانت عربة حنطور يجرها حصانان ، تفر بجوارى وعلى جانبيها فانوسان يفرشان أسفلت الشارع بضوء شاحب محمر قليلا ، لمحت بداخلها بعض السياح العرب لابسى الدشداشة والعقال . تذكرت أننى لابـد أن أتوقف الآن عن السـير لأبت فى وجهتى ، لابد أن ألتقط أنفـاسى من التعب لأعرف – على الأقل – إلى أين أنا ذاهب الآن على وجه التحديد ولماذا ..

أول شعور دهمنى بمجرد توقفى هو الرغبة فى الارتماء فوق رصيف الشارع والإستغراق فى نوم عميق لا أصحو منه أبد الدهر . هممت بفعلها ، ولكن الصقيع شملنى فجأة من أذنى إلى أصابع قدمى . وكانت لسعة من الصقيع فى بطن قدمى كلسان من اللهب ، سرعان ماتذكرت أن نعل حذائى مثقوب تحت مخزن الأصابع ، وأن بلل الطريق وترابه قد صنعا فى الجورب نعلا داخليا من اللزوجة الخشنة . تبين لى أن الدفء قد غادرنى بمجرد توقفى عن السير . تبين لى أن لا مفر من استئناف السير ..

توقفت وأنـا لما أشرع فى السير بعد ، صرت أتلفت حوالى ناظرا إلى الأرض ، وبدا أننى أبحث عن شئ مهم كان بحوزتى ثم ضاع منى ، ترى ماذا يكون ؟ إنتفض قلبى ، نفس الإنتفاضة وغاض اللعاب فى حلقى ، فيما رحت أمعن النظر فى الأسفلت على وافد من ضوء فانوس بعيد معلق فى صدغ بارز من بيت ذى مشربيات تشرئب مكررة نفسها لعدة طوابق عليا علاها القدم والشيخوخة والصدأ ، وكانت جدران البيت مجرد طوب صغير تلتحم رءوسه ببعضها ، وجدته ، وجدتها ، إنها هى ، هذه الزلطة الصغيرة التى علقت بقدمى منذ وقت طويل مضى ، ولا أذكر من أمرها سوى أننى كلما أدركتها ضربتها ببوز حذائى ، فتفر زاحفة على الأسفلت إلى مسافة بعيدة ، ليصبح كل همى أن أدركها بعد خطوات ، لأشوطها ببوز الحذاء إلى بعيد .. حتّامَ ستنتهى رحلة هذه الزلطة ؟ هى لا تحيد عن الطريق ولا تنط على الرصيف بل تجرى فى خط مستقيم أو متعرج ، لكنها لا تنحرف إلا لترتد مسرعة . أهى قدمى أم الزلطة ؟ الحذاء سيبلى إن عاجلا أو آجلا ، خير البلى ما كان آجلا .. تذكرت أننى لست أرتدى سوى هذا القميص الأزلى ، الذى لا أذكر متى ارتديته ولا متى اشتريته بل لم أعد أذكر لونه الحقيقى الأصلى ، لكننى أذكر أنى خيطت أزراره عشرات المرات ، ورفوت عراويه مرارا ، وصارعت الشواشى والشراشيب المتسللة من خياطة ياقته بشكل خبيث جدا ، فبوز حردة الياقة الشبيه بورقة الفجل منسولة ، وعبثا أدارى خيوط النسل فى داخل ثنية الخياطة ، وعديد من الإبر تتكسر فى هذا البوز المجلد المكلكع ، فقماشة القميص نوع غريب من القماش لا أعرف إن كان صوفا أم جبردينا أو كتانا ، أما السروال فقد بدا أنه كان مصلوب الحيل يوم استعرته ذات صباح يبدو قريبا من أحد معارفى فى مدينة غير هـــذه المدينة ، حين بلى سروالى وأنا ضيف عليه فتنازل لى عن هذا السروال الذى

تهدلت ساقاه وانتفخت ركبتاه وتكونت فوقها طبقة مجلدة من الوسخ المخلوط بالعرق فبدتا لامعتين حتى فى الظلام . وكنت أحسُ أن الريح السامة قد شوت وجهى وأذنى ، وها هى ذى تنفض بدنى ، ترنحنى متصلبا ويداى فى جيبى السروال تبعثان بعض الدفء فى فخذى ..

رأيتنى فيما يشبه الميدان الصغير ، مجرد فراغ كبطن دائرية للشارع ، يقف فى قلبها عمود ينتهى بفانوس صدىء عاطل . تذكرت أننى كنت هاهنا منذ وقت طويل مضى ومع ذلك يبدو كأنه حدث منذ وقت قليل أننى مررت حول هذا العمود لأدخل هذه الحارة الضيقة فى هذه المنطقة التى تدعى بأم المصريين ، لكى أسأل عن صديق عمرى « بدر صفوان » ، مخرج التليفزيون الذى يسكن فى شقة صغيرة فى الطابق الثانى فى ثالث بيت على يدك اليمين وأنت داخل ، مع صديق له بلدته دمنهور يعمل موظفا فى إحدى إدارات محافظة الجيزة ، تعودت أن أبيت عنده ليلة كل بضعة أسابيع . لو كانت الشقة شقته وحده لأوانى فيها ، لكنها فى الأصل شقة صديقه وقد وفد هو عليه وشاركه فى إيجارها . هى عبارة عن حجرة وردهة صغيرة ، ومرحاض ضيق ، ومطبخ كبرج الحمام ؛ فى الحجرة سريران صغيران من الحديد لايتسع الواحد منهما إلا لجسد واحد. صاحب الشقة هو الذى يتركنى أنام بجواره بحكم أن سريره أعرض بحوالى عشرين سنتيمترا ، وهو سمين ، فكان جسده يطرد نصف جسدى خارج السرير ، فينكسر عظمى ، ومع ذلك يغمغم هو فى الصباح بما يعنى أنه لم يأخذ الليلة راحته فى النوم . يقولها رغم يقينه بأننى ليس لدى مانع من التمدد فوق الأرض لاعطائه حرية التقلب على راحته ولف البطانية جيدا حول جسده ، لولا أن الأرض عارية تماما وليس من فائض فى الفراش يسترها بله أن يسترنى ..

أعرف كل هذا ، ولهذا قررت أن أستدير عائدا دون أن أعرف لى وجهة أخرى . ولكننى حين اعتدلت لأشوط الزلطة بقدمى اليمنى فى اتجاه الشارع العمومى المؤدى إلى ميدان الجيزة رأيتنى قد شطتها بقدمى اليسرى ، فإذا هى تنحرف فى اتجاه الحارة التى يسكن فيها صديق عمرى ، بل وتدخلها منزلقة على الأرض إلى قرب باب البيت . اندفعت وراءها فيما يشبه الغضب وأنا زعيم بأنى سأردها بضربة معاكسة إلى الشارع الفرعى كما كانت . غير أننى حين واجهت باب البيت وجدتنى أدخله متخبطا فى ظلام المدخل ، الذى درست كل بلاطة فيه حتى بداية درجات السلم المتهالكة فى ركن خفى كما أعرف كيف أتلافى المسافة التى بلا درابزين ورأيتنى أطرق الباب القائم بدرفتيه المستطيلتين بلونهما القاتم والشراعة المستطيلة بشبكتها الحديدية . سمعت صوت طرقاتى ترن داخل الشقة ، فخفق قلبى وأحسست بكثير من الخجل الدافق لجرأتى وسخفى على محاولة إيقاظ النيام فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . مر بخاطرى صوت صامت يهيب بى ألاأعاود الطرق ثانية ، وأن أستدير عائدا ، وكانت قبضتى لاتزال على باب الشراعة ، فلما استجبت لصوت العودة تذكرت شيئا خفق له قلبى ثانية قبل تأكدى من حدوثه ، ولأتأكد من حدوثه مررت بيدى على مفصل الدرفتين صاعدا هابطا بحثا عن رزة القفل للتأكد مما إذا كان القفل موجودا على الباب فى رزته أم لا ، فإن كان موجودا فإن الأمل فى النجاة من الزمهرير يبقى ممتدا . القفل لم يكن موجودا وهاهى ذى الرزة فى قبضتى سائبة . مادريت إلا وقد شرعت فى الطرق من جديد بشدة وإلحاح . ولحظة أن تذكرت أنه كان يجب على الإنصراف كما انتويت سمعت صوت تكتكة السرير . وكنت قد استدرت بالفعل وتهيأت لهبوط الدرج حين سمعت صوت انتفاض وهبوط على الأرض فيما يشبه الذعر ، فهبطت الدرجة الأولى ببطء مذعورا مرتعشا وقد أحسست بندم شديد على مافعلت . جاءنى من خلف الباب صوت تشققت فى حباله صخور النوم ، فيه ذعر وغضب واحتجاج واستنكار وعدوانية

وتهديد : « مين ؟! » . نويت ألا أرد ، لكن صوت هبوطى الدرجة الثانية فضح وجودى ، فإذا بالصوت المتسائل يقتحمنى هذه المرة آمرا مهددا : « مين اللى بره ؟! » . إستدرت صاعدا الدرجة من جديد ، وقلت : « أنا يا أستاذ عبده !» ، وخيل لى أن صوتى لم يخرج وإن سمعت هديره فى صدرى ، فإذا باللمبة المعلقة على واجهة الباب تضاء فجأة فكأنها شبكة انطرحت فوقى فعرتنى ؛ وإذا بالصوت المتسائل يصيح فى شخطة مرعبة داوية ، فيما يده تعكرش فى ترباس الشـــراعة الداخلى « باقول مين إللى بره ؟! » . كححت مسلكا صوتى صائحا بصوت مرتعش « أنا ياأستاذ عبده ! » . قال وقد خفت عدوانيته قليلا : «سامى ؟! » . قلت : « نعم ! » . قال فى ود مفتعل : « الأستاذ بدر سافر ياسامى ! دخل الجيش منذ شهر ولن يجئ هنا ثانية ! تفضل ياسامى ! » . ومضت برهة طويلة ، فلم أعرف ماذا يقصد بكلمة : تفضل ، لكن اللمبة قد أطفئت فجأة ، وسمعت صوت خطواته عائدة به إلى الحجرة ، ثم سمعت صوت صيحات السرير وهى تتلقى جسده السمين ..

حين انسللت من الباب إلى الحارة وقفت تائها لبرهة طويلة ، شعرت خلالها أن ثمة شيئا مما كان معى قبل أن أدخل هذا البيت ، عاودنى الخفقان . رحت أجهد ذهنى محاولا تذكر هذا الشئ ما هو بالضبط وأين نسيته . وكانت عينى قد اعتادت ظلام الحارة المخفف بفانوس الشارع الفرعى ، فإذا بها تنادينى كالواقفة فى انتظارى واثقة من أننى سأخطف رجلى عائدا إليها بعد قليل . فى الحال كف ذهنى عن تشنجه ، وأقبلت على الزلطة باسما ، فضربتها بقدمى فى رفق حتى تصل فى زحف محسوب إلى أول الشارع الفرعى . ثم لحقت بها معطيا ظهرى للحارة . ضربتها بيوز الحذاء فى إتجاه الشارع العمومى الكبير . كانت الضربة - فيما بدا لى - قوية مغتاظة غاضبة ، جعلت الزلطة تنط قافزة إلى بعيد تكاد تختفى ، فهرولت خلفها وقد أحسست بذعر هائل، خوفا من ضياعها .

- ٦ -

اللبـن الفـــائـر

.. كان الضجيج قد تلاشى تماما من الوجود ؛ لعلى أنا نفسى قد تلاشيت ، تحولت إلى خاطرة محلقة تحت مظلة كبيرة من السحب الداكنة الغامضة . كنت أشعر أننى أتسائد فى الفضاء على كتل من الأصوات المعجونة فى بعضها، صرت صوتا ، ربما نغما ضاع وانكتم صوته فى موجات متلاحمة متلاطمة . الأرض من فرط سرعة دورانها تبدو ثابتة راسخة والأثير من فرط الضجيج والصخب يبدو مكتوم الصوت وإن كان يعبق برائحة التوجس ؛ إذ يبدو أن فى الأعماق البعيدة رجة عنيفة عنيفة . أحسنى فى القاع برهة وعلى السطح فى البرهة التالية ؛ وفى الخلاء التام برهة ، كخيط من الدخان ينسلخ من الكتل الثقيلة ويصل موصولا بها إلى مالا نهاية . ها هى ذى تلتقطنى من الجانب الآخر ، فيحتوينى حضن سحابة هابطة من عل ..

صرت أرى بين طيات السحب غرفا من الصفيح مفروشة بالحصير ، ومقهى فوق علواية يضج بصخب يبدو من وجوه الجالسين أنه عال جدا بل وعنيف .. أرى كذلك بعض حارات مقفرة ذات أبنية قديمة الطراز عتيقة كابية ، تحترق أسافل جدرانها بآثار قش الأرز المحترق تحت كوانين مبيضى النحاس ؛ تعبق فيها رائحة الفول المدمس الطازج ورائحة « القرمل » ، والرماد ، والقمامة ...

رغم خلو الحارات من المارة ومن مظاهر الحياة فإننى على يقين من أن هذه الشقوق وما خلف هذه الأبواب التى تفتح على غموض مظلم تحتوى على ناس ينشرون بطاطينهم فى صفحة الشمس تزحف فوقها جحافل من القمل والبراغيث والبق والبعوض ؛ رجال تفوح من جوفهم رائحة الجوع ومن أجسادهم رائحة العرق المعتق الزنخ ؛ ونساء صدئات نحيفات يفضن رغم ذلك بالأنوثة . أوقن أنه على مبعدة خطوات قليلة حمام عتيق ذو باب غائص فى الأرض لبوابة كبيرة ؛ ومن خلفه موقد يحتل حوشا كبيرا يمتلئ بأحمال القش والحطب المشتعل ، ترتص بينها قدور الفول الخزفية كفصيلة من الفئران الخرافية المنتفخة البطون ...

لم أكن أتوغل فى الحـارات إنما صارت هى التى تتوغلنى زاحفة بإيقاع بديع ؛ فأرى أخصاصا منزوية تحت جدران شاهقة مهيبة لعلها جدران مسجد ابن طولون أو مسجد قلاوون أو مسجد برقوق أو المؤيد شيخ ، لعلها إحدى الخنقاوات القديمة أو بقايا قلعة عظيمة احتلها أحد الغرزجية فأقام بها خصا يحرق فيه الحشيش للزبائن ؛ أو أحد البلطجية أقام بها بنكا لبيع السجائر والحلويات . أخيرا بدأت السابلة ؛ رهط من الرجال والنساء بتشكيلة غريبة من الأزياء يقفون لصق عمود صغير مائل ؛ من الواضح أنهم ينتظرون إحدى المركبات ؛ من الواضح أيضا أن انتظارهم بدأ منذ قرون موغلة فى القدم وأنهم مهيأون لاحتماله قرونا أخرى قادمة ...

زحفت بهم أرض الحارة كشريط ينطوى بين كتل السحاب يتحول إلى ركام من الظلال القاتمة . ثم رأيتنى فى علو شاهق ؛ والحارات من أسفل تبدو كأخطاط بارزة تتسرب من بينها المركبات والرءوس والحافلات وعربات اليد ، وتحتشد فيها أرهاط من الباعة وأرتال من المارة وتزأر فى حدودها قطارات

تمرق فى غطرسة لتختفى كديدان ؛ كل ذلك دون أى صوت على الإطلاق ، لكننى كنت واثقا أن أعنف الأصوات الصاعدة من أسفل هو الذى يرتفع بى شيئا فشيئا إلى هذا العلو الشاهق . غير أن كل ذلك سريعا ما ينطوى ، يتحول إلى سحب تجدد خيمة الظلام ، التى صرت أراها تتسع شيئا فشيئا وتعلو قبتها حيث تمتلئ بثقوب من الضوء البارق فى ومضات ثابتة أشبه بومضة لحام الأكسوجين ....

فجأة رأيتنى أتثاقل وأتثاقل ، وأميزنى بين السحب ، فأتعرف لى على يدين وقدمين وذراعين وساقين ورأس ورقبة ؛ وكلما تميز فىَّ شئ انفصل شيئا عن كتل السحاب ، فإذْ تميز لى كامل جسدى إرتج لى قلب بعنف رهيب فصرت لأول مرة بعد طول صمت أسمع صوتا يدق فى لهاث ورعب .. وكنت واثقا أننى هاو فى الفراغ اللاَّ نهائى لامحالة ؛ لولا أن بقايا من حبال دخانية لاتزال تربطنى بكتل السحاب كالحبل السُرى . وكنت قد بدأت أهوى بالفعل وخيوط الدخان تمتط وترق هابطة معى . لدهشتى أننى لم أرتطم بالصلد دفعة واحدة كما توقعت ؛ إنما فوجئت بأنه حتى الهبوط الفجائى هو الآخر رحلة طويلة بين عبث الرياح المختلفة مع الهوى ..

إرتطمت بصلب ناعم مزلط ، إصطدم أنفى به فإذا هو خشب مسطح ، شريط رفيع من الخشب ، سرعان ما تبينت أنه مسند لسور طويل ممتد على الجانبين . انفتحت عينى على فراغ هائل جدا بينى وبين الأرض ؛ فانتفضت صارخا متشبثا بإفريز السور كأنما لأمنع نفسى من مواصلة الهبوط إلى الأرض البعيدة جدا ماتزال . أغمضت عينى مرتجفا وشعر رأسى يطقطق وركبى السائبة تنتفض محشورة بين حديد السور ، انضمت صرختى إلى السحب القريبة جدا فى متنـاول اليد . كالعصفور تحت هـاطل المطر كان عقلى

قد بدأ يعود فيسكننى ، فجعلت أتبين شيئا فشيئا أننى واقف فوق سطح عمارة شاهقة جدا وعتيقة فى حى أظنه حى العباسية ، وأننى منذ وقت بعيد مضى صعدت إلى هذا السطح لأزور صديقا تعرفت عليه حديثا ، يسكن فى هذه الغرفة الصغيرة القائمة وحدها فى هذا الركن من خلفى ؛ وكان فى نيتى أن أتلكأ فى السهر حتى أضطر للمبيت عنده ؛ لكننى وجدت القفل على الباب ، فرأيت أن أستند إلى هذا السور حتى يستكن قلبى المضطرب وتهدأ أنفاسى اللاهثة من صعود هذا السلم القاتل الأليم . حينئذ حاولت عدل ظهرى فشعرت أنه قد تصلب فى إنحناءته تحت جبل ثقيل من الرطوبة الندية . ولما شعرت أن أرض السقف تستقر تحت قدمى فتحت عينى باطمئنان وألقيت ببصرى فى الفضاء .. كانت السحب قد بدأت ترق ، وتتجه شواشيها نحو لون اللبن الفائر حيث تتدافع موجات زبده المتخثر تلتهمها السماء .

- ٧ -
سـواد العيـن

كان الصقيع ينفضنى نفضا ، ولم أكن أملك له دفعا ، فلقد كنت أعرف أننى نائم خارج جسدى فى مكان بعيد مجهول ، لكن انتفاضه الشديد استدعانى على عجل ؛ فإذا بى أشعر كأن الرياح تهب على من جميع الجهات فتتلوى عظامى وتتشنج ، ويمتلئ جلدى بقروح ملتهبة . كنت أعرف أننى أنام متكورا على نفسى دافنا ذقنى بين ركبتى ، عاقدا ذراعى فوق رأسى أصد عنه غوائل الصقيع القارس اللاهب . خيل لى أننى نهضت جالسا ، فعرفت أننى أزمع الإعتدال على جنبى اليمين ، فانتبهت إلى أننى أنام فى سيارة ملاكى على المقعد الخلفى الضيق الذى لايسمح لى بالتقلب إلا إن جلست واعتدلت، شعرت بدماغى يتلكأ على باب الغيبوبة لكى ينبه جسدى بأن يخف من ثقله ما أمكن حتى يظل على أهبة فى اللحظة التى بدت قريبة ، فصاحب السيارة سيحضر بعد قليل ليتسلم سيارته من الجاراج ، فلابد أن أكون خارجها قبل حضوره بوقت كاف لإعادة ترتيب المقعد وطرد رائحة النوم من داخل السيارة . تذكرت أن هذه السيارة ليست من زبائن الجاراج التى تدفع الحساب كل شهر ، إنما هى سيارة عابرة طلبت المبيت ليلة واحدة ؛ ولأنها ستتأخر قليلا فى الإنصراف أزيح بها إلى الداخل بعد العمدان لصق الحائط الأخير وتقدمتها صفوف السيارات

التى ستبكر فى الإنصراف حسب الترتيب الذى يعرفه السايس بحكم الإعتياد؛ ولهذا اختارها لى السايس كى أنام فيها ، واستكن هو فى حضن زوجه فىحجرة تحت سلم للخدم فى نفس العمارة موصول بالجاراج بممر ضيق. تذكرت شيئا بدا أشد أهمية ، كدت أنتفض جالسا وأنزع الدفتر الصغير من تحت إبطى لأراجع عدد السيارات العابرة التى تبيت عندنا هذه الليلة وهى دائما كثيرة كما أنها مصدر الدخل الحقيقى بالنسبة للجاراج . حاولت استعراض ألوانها – بدلا من أرقامها – فى رأسى . كنت على يقين أن السيارة التى أنام فيها الآن لم يتم تقييدها فى الدفتر بادئ ذى بدء ، وبالتالى فهى منزوعة من الحساب السرى القائم بينى وبين السايس . ليس من حقى التطلع إلى البقشيش لأن « حمدين » السايس هو الذى ينظف ويلمع ويدفع السيارات وحده بدربة هائلة بظهره فيما يده ممسكة بعجلة القيادة توجه مؤخرة السيارة كما يشاء على الشعرة فلا تحك فى عمود أو تصطدم بجارتها ، رغم تأكدى من دقة الحساب داخلنى الشك فى « حمدين » إنه هو الذى فتح عينى على هذه السرقة . فأنا – كما بدالى – أعمل كأننا فى مكتب الأستاذ « حبيب الحبيب » المحامى الكبير جدا بمدينة المنصورة ، ومكتبه فى عمارة خطيرة الشأن بهذا الحى الأفرنجى المعروف بإسم « توريل » ويحفل بعدد هائل من الموظفين والوكلاء والكتبة والفراشين والمحامين الشبان الذين يعملون تحت التمرين ، ولديه فى كل يوم عشرات الجنايات والجنح فى محاكم الدقهلية برمتها ؛ وسيارته الفورد المكشوفة أشهر من نار على علم ؛ ومجرد ظهوره بجوار المتهم فيه تخفيف لثقل المصيبة وفيه أمن واطمئنان أحلى من حكم البراءة نفسه ؛ فالأستاذ « حبيب الحبيب » ليس مجرد محام كبير شهير لامع فحسب ، إنما هو صحفى بنفس الحجم ونفس الدرجة من الشهرة واللمعان ؛ صحفى صحفى بالمعنى

الحرفى للكلمة وليس مجرد هاو يمارس الكتابة فى الصحف ، يكتب التحقيقات الصحفية الكبرى التى تهز الرأى العام فى المجالات القانونية والقضائية والمسائل التى تهم الرأى العام ، ويتابع محاكمات السياسيين على صفحات كاملة من جريدة (الأنباء) وهى من كبريات الصحف ؛ وله إلى ذلك زاوية أسبوعية ثابتة بحجم ربع صفحة فى الصفحة الأخيرة يتابع فيها أخبار القضاء والشئون القانونية ونشاط المحاكم . هو حاصل على شهادتين : ليسانس الحقوق وليسانس آداب قسم اللغة الإنجليزية ؛ وهو خطيب مفوه جهير الصوت رصين الأسلوب متزن الفكرة ضيق العبارة فى بلاغة ناصعة ، موفور المفردات ، مرافعاته فرجة مابعدها فرجة ، يحتشد لها الناس خصيصا ويعرفون مواعيدها فى جميع المحاكم إذ أن لمكتبه فروعا فى جميع مراكزها وبنادرها ، ولأنه من أسرة غنية فى الأصل فإنه يملك عمارة مكتبه وهذه العمارة التى يحتل هذا الجاراج دورها الأرضى كله بمساحة شاسعة يجرى فيها الحصان . هو إلى ذلك رجل غاية فى اللطف والدماثة والرقة واتساع الأفق والحنو ، لدرجة أننى حين اقتحمت مكتبه ذات يوم منذ مايقرب من عامين وطلبت مقابلته أذن لى بعد مضى ثلاث ساعات ؛ هكذا أبلغنى مدير مكتبه وطلب منى الإنتظار فى الاستراحة وهى عبارة عن ردهة كبيرة فيها أكثر من صالون وأكثر من أنتريه وأكثر من طاقم على النظام المسمى بالأسيوطى . جلست بين عديد من الزوار على مختلف الأشكال والألوان ، جلابيب وعباءات وزعابيط وطرابيش ورءوس عارية مصففة الشعر ، وهوانم يرتدين التاييرات وسيدات عجفاوات ونساء حافيات يرضعن أطفالا مهزولين . ولم يكن ذلك غريبا لأن الأستاذ « حبيب الحبيب » عضو بمجلس الأمة عن أكبر دوائر الدقهلية لأكثر من مدة . حين طلبت لمقابلته تلقانى فى ترحاب ، بجسده الضخم الممتلئ ، وجه كالفطيرة الفلاحى

المحمرة فى الفرن ؛ متناسق الملامح فى وسامة فاتنة ؛ بفم ضيق مكتنز الشفتين وأنف مستقيم وعينين حالمتين خلف منظار ذهبى الإطار سميك العدسات ؛ تحت الأنف شارب كالخنفساء مشذب؛ والشعر أسود قصير مصفف ومفلوق من الجنب الأيسر من قرب الأذن مباشرة ؛ أما السوالف فطويلة نوعا ؛ وأما الرقبة فقصيرة جدا ، تضيع تماما تحت ياقة القميص السمنى الكبيرة المحرودة بزاوية منفرجة تتوسطها عقدة رباط العنق المسحوبة كرقبة الديك؛ وأما الكتفان فعريضان ممتلئان تنطرح فوقهما سترة من الشركسكين الأبيض اللاّمع لون سن الفيل ، السروال الأسود من الصوف الهيلد ، رائحة العطور تملأ الغرفة العريضة الحافلة بالسجاجيد الكثيفة الشعر والألوان؛ الأثاث والرياش فاخران ، المكتب ضخم كتحفة فنية مشغولة بالأصداف ، ترتص فوقه عشرات الملفات والأجندات والمجلدات والكتب وعلب السجائر والغلايين ؛ جميع الحوائط مغطاة بدواليب الكتب المجلدة تبرق على كعوبها حروف الذهب ، المرايا فى الأركان والمراوح فى السقف والحيطان ؛ أين الجنة الموعودة من هذه الغرفة .

أشار لى باسما فجلست ، بهيبة كبيرة زحفت يده السمينة البيضاء المليئة بالشعر والنمش والخواتم الذهبية الدقيقة الصنع ، مقدما لى علبة السجائر فارتعشت ؛ كنت أنوى الإعتذار عن التدخين أمامه حتى يأخذ عنى إنطباعا طيبا ، لكن حركة يده كانت حاسمة ، كَرَّمتنى بإصرارها بأن أتفضل بأخذ واحدة . كانت سيجارة أجنبية طويلة القامة ؛ قلت : شكرا ، لكنه نزع السيجارة وقدمها لى فأخذتها . ثم دخل فنجان القهوة مع أفندى شاب يرتدى بذلة مشغولة بالقصب مكتوب عليها اسم مكتب الأستاذ بطريقة مموهة فى شكل تنكرى جميل. قال الأستاذ : « تحت أمر سعادتك » . قلت إننى من قرائه وإننى من هواة الكتابة الأدبية لكننى بلا عمل وأطمع فى الإلتحاق بمكتبه إذ أننى أعرف

بعض الخبرة بشئون مكاتب المحامين . ببساطة لم أكن أتوقعها سألنى عن آخر مكتب اشتغلت فيه ؛ فقلت إنه مكتب الأستاذ « أنور الخُبى » فى بلدتى مركز قلين بمحافظة كفر الشيخ . فلماذا تركته ؟ زعمت أننى جئت إلى المنصورة لمواصلة التعليم من منازلهم تحت اشراف زوج خالتى رجل التربية والتعليم المقيم فى قرية قريبة من المنصورة سوف أبيت فيها كل يوم ، قال بأريحية عظيمة : « معك أوراق ؟ » . قدمت له استمارة الشهادة الإبتدائية التى حصلت عليها من عامين مضيا ، وصحيفة سوابق مطوية تكاد تتهرأ ، وعدد من مجلة الأدب لأمين الخولى منشور به رسالة بإسمى ورد بها عبارة : جاءنا من الأديب فلان الفلانى - أى أنا يعنى - وكراسة فيها أشعار وأغنيات وخواطر أدبية كتبتها . تصفح كل ذلك بهدوء عجيب وصبر مذهل ، فلم أعجب من نجاح رجل يتسع صدره ووقته لقراءة ماقدمته له بكل اعتبار وبدون أدنى استهانة أو استخفاف . ثم إذا به يسحب ملفا جديدا فيضع كل هذه الأوراق ويكتب فوقه اسمى وعنوانى ، ويضغط على زر الجرس ، فيدخل مدير مكتبه ، فيعطيه الملف قائلا وهو يشير إلى : « فلان افندى سيتعاون معنا ! سلمه للسعداوى افندى يساعده فى شغل المختلط !» ثم وجه الكلام لى : « يا فلان افندى سأعطيك راتبا قدره ثلاث جنيهات فى الشهر ! ولكن عملك ليس هنا فحسب ! إنما سأكلفك بمسك حسابات الجاراج وتكون ملاحظا عليه ! تقيد أرقام السيارات الواردة كل ليلة ! وأما مشكلة المبيت فتستطيع أن تدبرها فى أى لوكاندة شعبية! سأزيدك خمسين قرشا لذلك ! وحينما يعجبنا شغلك سنعطيك علاوة طيبة ! وستكون مبسوطا ! توافق ؟ ! » . قلت والفرحة تغمرنى : « طبعا أوافق ! هذا شرف كبير لى ! » . قال مدير مكتبه فى لهجة كالإنذار : « العمل يبدأ هنا من الثامنة صباحا ! تحافظ ما أمكن على نظافة ثيابك وكيها واتساقها ! » كاد

الدمع يطفر من عينى ، قلت : « حاضر ! » قال الأستاذ : « ستكون مبسوطا ! ولكن إياك وفعل أى شىء يضر بسمعة المكتب ! كن عنوانا لنا ! وابتعد عن السـلوكات التى يسلكهـا الصبيان مع العملاء فى سبيل البقشيشـات ! نحن نستخلص لك البقشيش الكريم بطريقتنا ! إعتمد على الله » . قلت : « شكرا يا سعادة البيه » .

قال : « حمدين » السايس فيما نجلس فى الهزيع الوسيط من الليل نتبادل شرب الشاى والجوزة فى الممر أمام سلم الخدم : « ثلاثة ملاطيش ونصف ؟ ! معك الإبتدائية وتقبل هذا المرتب ؟! إن أصغر فراش جاهل عنده يتقاضى سبعة جنيهات ونصف ! الولد الذى قدم لك القهوة مرتبة تسعة جنيهات غير البقشيش ! على كل حال الأستاذ طيب وابن حلال ! الواحد يحب أن يخدمه ولو بالمجان ! هو فى الحقيقة يستاهل ! لكن كيف تستطيع تدبير نفسك بهذا المبلغ ! أنت كييف سجائر وشاى وتحب التأليف والتأليف لابد له من مكيفات تعدل الدماغ ! إسمع ! بدلا من دفع الفلوس فى اللوكاندات المليئة بالبق والقمل ضيع الليل معى ها هنا ! نم فى أى سيارة ! على شرط أن تصحو مبكرا ! أتظن أن الأستاذ تهمه حسابات ؟ قلبك أبيض ! كنت أقيد فى الدفتر وأعرضه كل يوم عليه فلا يفتحه ! إنه رجل بركة ! لن يعد وراءك وليس من طبعه التخوين ! مدير مكتبه سوسة ! هو الذى يُوَحِّيه ! لكنه طيب هو الآخر ! سيجارة ترضيه ! علبة سجاير هدية ! أنت والله صعبان علىّ ! لكنك تستطيع أن تكسب كل ليلة ثلاثين قرشا لو لينت مخك قليلا ! لدينا سيارات الأبونيه معروفة ! أما السيارات الطيارى فكثيرة ! تمكث بضع ساعات وتدفع إيجار الليلة ! لماذا لا تكون من نصيبنا نحن ؟ هو رجل غنى لديه دخل من هذه العمارة وعمارة مكتبه ومكتبه وأرض زراعية فى بلدته ! وهو ملء العين لن ينظر لهذه الملاليم التى نختصرها من

ورائه ! أقول لك : نقسم البلد بلدين ! سيارة له وأخرى لنا ! أنا رجل عندى زربة عيال وأهلى فى المنوفية لا يملكون اللضى ! وأنت رجل صاحب مكيفات وغريب عن الأوطان ! ولو رحت له الشغل بقميص مقطوع لردك فى الحال ! فهل الثلاثة الملاطيش ونصف يكسونك ويعالجونك ويكيفونك وينيمونك ؟! ليِّن مخك ! يفوز باللذات كل مغامر ويموت بالحسرات من يدرى العواقب كما قال ابن عروس ! » قلت بشىء من التوجس : « قد يرسل من يفتش علينا فتكون الكارثة ! » . دارت عيناه فى محجريهما بسرعة ، تكاثفت التجاعيد فى خديه المستطيلين الغائرين ، انعوجت البسمة الخبيثة على حنكه الواسع المخرب من الدروس والأنياب ، قال هامسا : « لا يشغلنك هذا الأمر ! أنا أرتب كل شىء ! السيارات التى تقيدها ندخلها إلى الجاراج ! السيارات التى نأكلها نتركها فى الشارع على مقربة منا فتكون تبعنا وليست تبعنا فى نفس الوقت ! مع أنى واثق أن أحدا لن يفتش وراءنا ! دعها على الله ! » . كنت على ما يشبه اليقين بأن شيئا كهذا قد بات يحدث منذ وقت طويل مضى ، مع ذلك كنت على ما يشبه اليقين أيضا بأنه لم يحدث بعد ، وأننى مازلت متوجسا من مجرد التفكير فيه . ثم رأيتنى فى الحال واقفا على باب إحدى المحاكم ممسكا ببعض الملفات فى انتظار الأستاذ أو من ينوب عنه من أساتذة المكتب ؛ وكان من الواضح أننى قد أخطأت خطأ فادحا ، إذ كان من المفروض أن أكون فى إحدى المحاكم بالأمس فى لحظة معيَّنة فى انتظار أن ينادى الحاجب على القضية الفلانية رقم كذا فى الرول ، لكى أتقدم بالملف من أى محام من الجالسين على المنصة فأعطيه الملف راجيا منه باسم الأستاذ أن يتكرم بالوقوف لإرجاء النظر فى هذه القضية بعض الوقت أو تأجيلها لجلسة أخرى لحين حضور المحامى الأصلى نظرا لظرف عارض عطله ، لكننى بسبب سهرة تحشيشة مع « حمدين » السايس نسيت أن أفعل وذهبت

متأخرا فتم شطب القضية نهائيا . ثم رأيت الأستاذ نفسه مقبلا ، فتقدمت منه لكى أمضى خلفه بالملفات حتى قاعة المحامين ، فإذا به يتناول الملفات ويقلبها فيأخذ منها ملفا ثم يرد لى الباقى ، ثم بكل هدوء وبساطة يقول : « ليكن فى علمك أنك ستفصل اليوم حينما نعود إلى المكتب ! » . إنتفضت فى الحال جالسا أحاول فتح عينى بصعوبة واستدعاء عقلى من مناطق مجهولة ...

إذا بى على حرف سرير سفرى فى مساحة لاتزيد على شبرين ، وبجوارى شخص متكلفت بالبطانية . تذكرت أنه لم يكن يريدنى أنام بجواره . الحجرة كانت صغيرة مربعة ، ضمن شقة صغيرة فى البدروم ، مكونة من هذه الحجرة وحجرة أخرى على ممر جانبى ، وردهة ضيقة ، ودورة مياه . تذكرت أن الحجرة المطلة على الممر الجانبى بجوار باب الشقة يسكنها صديق لنا اسمه « مسعود كامل دهب » ، من كتاب القصة القصيرة . أعرفه من الإسكندرية حيث كنا معا أعضاء فى جمعية أدبية وهمية مكونة من مجموعة أصدقاء يزاولون هواية الكتابة الأدبية . أبوه صاحب مقلاة لبيع اللب والفول السودانى فى حى محرم بك ، يشترى الكتب والمجلات القديمة بالأقة ليحيلها إلى قراطيس يبيع فيها ، مسعد ابنه منذ طفولته كانت هذه هى مهمته ، التى وكلت إليه بشكل رسمى منذ أن سقط فى أمتحان الشهادة الإبتدائية ، فدأب على قراءة كل هذه الأوراق قبل تحويلها إلى قراطيس ، فركبه الجنون ، جنون القراءة ثم جنون الأدب ، فراح يقلد ما يقرأه فى كتابات إن افتقرت إلى أصول الكتابة المتبعة حينذاك فإنها تنطوى على صدق وحرارة وتجربة . كان نصف مجنون نصف عاقل ، يبدو الجنون على وجهه لأول وهلة ، فى منظاره الطبى العريض الذى يبتلع كل وجهه المكلبظ الغليظ ، بعينين واسعتين بشكل يبعث على الخوف ، وحنك واسع كبير الأسنان ، وضحكة موصولة لاتنقطع مجلجلة ممطوطة بمناسبة

وبلا مناسبة ، وسمت عام أقرب إلى سمت البلطجية والشوارعية ، حديث هو لغة الحوارى فى أحط صورها مخلوط بمفردات فخيمة رنانة وشعارات المثقفين التقدميين ، ومن يستمع إلى حديثه المرسل فى عفوية وثقة عمياء يدهشه الكثير من الخلط والتناقض والإبهام ، لكنه لودقق فيه فسوف يخرج بأفكار لابأس بها ، ومعان على شىء من العمق والوجاهة ، وبعض الحكمة المستقاة من موروثات رجل الشارع والحرفيين ، ومن مأثورات الفلاسفة القدامى ورجال الدين وكونفوشيوس . كان يسهر الليل بطوله يدبج الكلام فيملأ الكراريس ، ويستيقظ فى الضحى مغلق العينين ، يبدأ الشجار اليومى مع أبيه، فيتفرج عليهما كل عابر سبيل ، ويلتم الجيران والزبائن فيصلحون بينهما بعد لأى ، فيبقى كل منهما مزوراً عن الأخر بقية اليوم ، حتى يئس الرجل فطرده من المحل والبيت معا ، فانطلق متحررا ، استأجر غرفة من الصفيح فوق سطح بيت عتيق فى حارة الفرارجى بحى بوالينو ، والتجأ إلى إحدى المقليات فأخذ منها - على حس أبيه - تشكيلة من اللب الأسمر والأبيض والفول السودانى المقشر ، عبأها فى قراطيس وأكياس ،رصها فى سلة مفرطحة ، إتخذ من سينما ريالتو سوقا له ، يلف بين الكراسى صائحا : سودانى واللب ! سودانى واللب ! ، ويدفع عمولة للمتعهد . كان على شىء كثيرمن الجرأة والصفاقة ودقة الملاحظة والذكاء، يعرف لجميع الكتاب والشعراء والمفكرين المشهورين بصورهم وأخبارهم ونتاجهم ، بل يعرف مواعيد نزولهم إلى المصيف وعناوينهم والشواطىء المفضلة عندهم ، فيقتحمهم ، يقدم لهم نفسه على حقيقتها دون أى محاولة للتجميل ، يعرض عليهم كتاباته ، يفتنهم ويثير فضولهم ، يرحبون به فعلا ، يقرأونه بحماسة كبيرة ، يتلطفون فى التعليق عليها وعليه . أحدهم بالغ فى الإعجاب به، هو كاتب سياسى تقدمى يكتب فى الأدب

أحيانا ، ويحرر صفحة فى جريدة المساء يملأها بصور الكادحين والعمال والقضايا الإشتراكية ، استخفه الطرب بـ « مسعد كامل دهب » فكتب عنه مقالة كبيرة صب فيها كل إعتزازه بالطبقة العاملة والبروليتاريا والتيارات التحتية ، ونشر له أقصوصة وصورة أحدثت دويا فى الأوساط الثقافية والأدبية وأحسن « مسعد » إستغلالها بذكاء كبير ، إذ نزع هذه الصفحة وأرسلها فى خطابات مسجلة لجميع المسئولين المرموقين فى مراكز العمل الثقافى والفنى نفعت بالفعل ، تحمس له أحدهم ، ألحقه بوظيفة كتابية متواضعة فى هيئة ذات صبغة ثقافية وفنية . وهكذا انتقل « مسعد كامل دهب » إلى القاهرة فى اللحظة التى كان قد صار فيها زوجا لبنت فقيرة ، فتركها ، وعاش شخصية الكاتب المرموق ، صارت الصحف والمجلات تنشر قصصه بإعجاب دعائى لا يعكس تقديرا حقيقيا ، إلى أن بدأوا يتمعنون فى كتاباته ، فيجدونها أقل مما تصوروا ، فبدأو يتراخون فى نشر قصصه ، وبدأ يشاكلهم ويعاركهم ، وباتوا يضيقون بإلحاحه وصفاقته وطول لسانه ، فيغلظون له القول ، ثم يتهربون بصريح العبارة ، حتى بات عصبيا لايطاق ، وأستفحل جنونه ، أصبح أسير عقدة الشعور بالإضطهاد ، حكم على نفسه بالعزلة التامة ، معتبرا أن الجميع يحقدون عليه ويصادرون نجاحه وموهبته ، لايكاد يكلم أحدا فى مكان العمل ، فإذا آب إلى المنزل أغلق على نفسه حجرته وراح يقرأ ويكتب عن خسة البشر حتى يدهمه النوم ..

الشقة أصلا كانت بإسمه ، فى شارع المتحف الزراعى بحى العجوزة . إيجارها ستة جنيهات . لم يكن يقبل أن يشاركه فيها أحد ، حيث كان يزمع أن يقيم فيها مع زوجه ، لكنه حين أتى بها أكتشف أن منظرها ومستواها لايليقان بشخصية كاتب مشهور ، كما أنها يمكن أن تبادله الردح مثلما كان يفعل مع

أبيه ، فأعادها الى الاسكندرية حاملا ، ثم أهملها حتى أنجبت طفله ، فطلقها ، ثم ردها ، ثم طلقها ثم ردها ثم طلقها ، وبات يدفع نفقة ، فبات يستكثر إيجار الشقة . إلى أن ساقت له الظروف صديقنا « البرديسى محمود البرديسى » . كان هو ثانى مسافر إلى القاهرة من شلة الإسكندرية التى كنا نطلق عليها جمعية الطليعة الأدبية ، يترأسها « مسعد كامل دهب » بحكم أنه مكونها ومانحها رصيف دكان أبيه كمقر ثابت للإجتماعات والندوات التى كانت تدور عادة حول قصص « مسعد »» وأرائه المتطرفة فى الحياة والناس والأباء وتفاهة جميع الكتاب ، وحول قصص يوسف إدريس ويوسف الشارونى وادوارد الخراط ونجيب محفوظ وأزجال بيرم التونسى وشعر عبدالرحمن الشرقاوى وصلاح عبدالصبور ، وحول الأفلام الأجنبية التى لا يفوتنا فيلم واحد منها . لم يكن فى المجموعة كلها من كاتب فيه الرمق الحقيقى سوى « البرديسى محمود البرديسى » يليه «مسعد كامل دهب » لولا جنونياته الكتابية غير المبررة ، غير المفهومة أحيانا . البرديسى كان أقرب لى ، كان صديقى الوحيد بينهم . كنت بائعا سريحا فارتقيت إلى مستوى أخر من الباعة، أحمل عينات فحسب ، لأبيعها بموجب طلبيات كتابية لحساب شركة بويات كبيرة . تنتهى رحلتى اليومية – بتدبير منى – فى حى الشاطبى ، حيث تكون الساعة قد بلغت الخامسة مساء ، أتجه إلى مقهى حميدو فأشرب الشاى والبورى فى أنتظار البرديسى . بيتهم مواجه للمقهى ، بابه يفتح على حارة ضيقة ، وشبابيكه الخلفية تفتح هى الأخرى على حارة ضيقة أيضا ، له مدخل بسلم كثير الدرج ، والبيوت ذات طابع رومانى يونانى قديم . حينئذ يكون البرديسى على وشك الإنتهاء من حسابات أبيه . فأبوه مقاول مبان متوسط الغنى ، خلفته كلها بنات فيما عدا البرديسى وغلام أخر صغير . كان البرديسى قد واصل التعليم حتى شهادة الثانوية العامة وعجز

عن حيازتها لثلاث سنوات متتالية بسبب انقطاش مخه السارح دائما فى القصص والروايات ، فتحرر من المدرسة ، لم يعد له عمل سوى أن يظل طول النهار يقرأ ويكتب حتى يئوب أبوه إلى البيت فيمكث فى خدمته ساعتين على الأكثر يجرى فيهما حساباته ينظم دفاتره ويقبض عماله ، يكون موقنا أننى فى إنتظاره ، مايكاد ينفلت من أبيه حتى يجيء بمشية كمشية أولاد البلد الصنايعية فيها لهوجة وتشويح بالذراعين ، بقامته النحيلة المديدة قليلا ، ووجهه الشبيه بحبة مانجو كهرمانية اللون مكتنزة وجذابة ، أنف صغير رشيق بين عدستى منظار مشرق أبيض العدسات أرجوانى الإطار، شعره قصير مفلفل منسق ، يرتدى على الدوام سترة ثمينة وسروالا من لون مختلف ، وصديريا من الصوف المشغول باليد بأزرار صدفية كبيرة ، ورباط عنق ، ودائما أبدا يتأبط بعض المجلات والكتب ، فى عينيه نظرة تأمل رصينة حانية دافئة ، وفى صوته صلصلة جميلة حين يضحك أو ينفعل ، هو نادرا ما ينفعل وكثيرا مايضحك متفجرا ، كثرة الضحك عنده نابعة من شدة الذكاء وعمق الملاحظة وأكتشاف المفارقات ، لذا فضحكه دائما مفهوم ومشع وباعث على الإنتباه ، عكس كثرة الضحك عند مسعد الذى ينبع من التضخم والإستهانة والإستخفاف ولذا فضحكه دائما فيه مسحة البلاهة ودائما غير مفهوم . أول مايطب البرديسى يبدأ فى الحال يحدثنى عما قرأه اليوم فى المجلات ، الروايات العالمية التى يلخصها أحمد بهاء الدين بعبقرية مدهشة ، سخطه على نجومية يوسف إدريس المترهلة التى ستحجزه عن الشارع . ثم نقوم لنتجه إلى السينما ، أو يختطفنا صديقه « فاروق عريشة » بائع الأحذية صاحب الدكان المجاور للمقهى ، الشاب السمهرى القوام الذى يبدو لأول وهلة أنه من أصل طليانى أو رومانى فى حين أنه ابن بلد صرف ، قد يذهب معنا إلى السينما ، قد يعزمنا

على تحشيشة فى دكان آخر فى حارة خلفية ، يستقطب شلة من أبناء الحى فنمكث الليل كله على رصيف مقهى آخر نتبادل النكت والقافية الساخرة ونمنح جائزة لمن يستطيع إرسال الكلام الفارغ التافه لمدة ربع ساعة بدون توقف فى لهجة جادة رصينة ، غالبا ماكان يفوز بها البرديسى لما عنده من حصيلة هائلة من المفردات الجوفاء التى جمعها ذهنه الإنتقادى من برامج الإذاعة والتليفزيون والندوات التى ينبرى فيها المتحدثون دون أن يقولوا شيئا مهما . من البرديسى تعلمت عادة جميلة نفذتها حرفيا بل اخترت لها نفس المقهى ، إذ تعرفت على « محمد » صاحب أكبر فرش للجرائد على محطة الرمل ، كان لطيفا جدا ، يفخر دائما أمامنا بأن إدوارد الخراط كان زبونه أيام طلبه العلم فى الجامعة . فى صباح كل يوم أمر عليه ، فيجمع لى الجرائد الثلاث ، مع كل المجلات الأسبوعية والشهرية التى صدرت اليوم ، والكتب التى صدرت مؤخرا . فأعبر الشارع ومقهى التريانون الفاخرة ، لأعرج على حارة جانبية شديدة النظافة لامعة الأسفلت مطلة على البحر مباشرة ، وفيها مقهى بلدى يؤمه الموظفون والعمال والبوابون ويوزع المشروبات على مكاتب الشركات والمحلات فى الشقق حتى منتصف شارع صفية زغلول . ساعتان بالضبط ، من الثامنة إلى العاشرة صباحا أكون قد أنتهيت من تصفح كل ذلك وقرأت مايهمنى فيه ، لأعود به إلى « محمد » فأدفع له إيجار ذلك قرشا أو قرشين ، فإن أعجبنى كتاب احتجزته يوما أو يومين بالإيجار أيضا أو ربما اشتريته بالأجل ، ثلاثية نجيب محفوظ كلها اشتريتها منه بالأجل ، وكذلك أرض الشرقاوى وديوان الناس فى بلادى لعبد الصبور وديوان القمر والطين لچاهين وجمهورية فرحات لإدريس وحيطان عالية للخراط ، أظن أننى اشتريت نصف ذلك واشترى البرديسى النصف الآخر وصرنا نتبادل الأنصاف . أدمن البرديسى دخول المسابقات حتى لقد فاز . بجائزة نادى القصة فى القصة القصيرة لمدة أربعة أعوام متوالية

وصل فيها إلى المركز الثانى . وكانت قصصه الفائزة تنشر فى مجلات الرسالة الجديدة والتحرير والبوليس والإذاعة وقصتى . حدث أن مجمع اللغة العربية أقام مسابقة للقصة الطويلة فاشترك فيها وفاز بالمركز الثالث ، وأقامت إحدى الهيئات مسابقة لإكمال الرواية التى كتبها الرئيس جمال عبدالناصر بعنوان «فى سبيل الحرية » عن معركة رشيد ، وكان الرئيس قد كتب فى صباه حوالى أربع صفحات ، فاشترك البرديسى فى هذه المسابقة التى فاز غيها عبدالرحمن فهمى بالمركز الأول ، وفاز البرديسى بمركز لابأس به ، فكانت هذه هى شرارة الإنطلاق ، على أثرها سافر إلى القاهرة والتقى بمسئول كبير عن هيئة ثقافية كان فى نفس الوقت كاتبا مشهورا ، قدم له طلبا ، فعينه فى نفس الهيئة التى عين فيها من قبل صديقنا « مسعد كامل دهب » فى وظيفة مشابهة . للبرديسى صديقان من أصدقاء الطفولة يعملان فى القاهرة ، كنت أعرفهما بحكم أوبتهما الأسبوعية إلى أهليهما فى الشاطبى بالإسكندرية : « سعيد شنقار » ، ربعة القوام صدىء الوجه غائب الملامح واسع الفم بأسنان كبيرة مسودة متزاحمة متلاحقة فكأنها مقطع واحد ، يرتدى هو الأخر منظارا طبيا غليظا متهدلا على أنفه ، خشن الثياب والمظهر لكنه ينطوى على كثير من الرقة وروح الفكاهة ، وحديثه ملىء دائما بالغمز واللمز ولغة السيم المغطاة شأن أولاد البلد ، شغلتة سباك ، فى شركة مقاولات كبيرة ، يتقاضى مرتبالا بأس به ، يفهم قليلا فى السياسة والأدب بحكم عشرته للبرديسى ، ينفق نصف ساعة قبل النوم فى قراءة الروايات البوليسية أو مقالة بصراحة لمحمد حسنين هيكل التى يقرأها على مدى الأسبوع كله . الثانى هو « فخرى الحباك » طويل القامة نحيف البدن مسخوط الوجه كأنه مجرد قناع مشدود الجلد مأزوم الملامح كأنها منحوتة من الفخار بيد مثال بدائى ناشف الأصابع ضنين بالحيوية ؛ فى أنفه قليل من الخنف ، وفمه ضيق يكاد يكون بلا شفتين ، قليل الكلام لكنه يشارك فى الحوار

بعينيه البراقتين اللتين لاتهمدان كأن وراءهما مهمة عاجلة جد خطيرة . يعمل فى نفس الشركة التى يعمل بها « شنقارة » ولكن فى وظيفة كاتب حسابات إذأنه يحمل دبلوم التجارة المتوسطة ؛ متأنق فى ملبسه يقلد أبناء الذوات المنقرضين فى لبس السترة البليزر فوق القميص المفتوح الياقة وأزرار الصدر؛ يشترى جريدة الأخبار كل يوم ليطويها تحت إبطه كجزء من الأناقة . أتى بهما البرديسى ليشاركاه المسكن فى شقة « مسعد كامل دهب » ، على أن يستقل « مسعد » بحجرته الكبيرة الشرحة مقابل جنيهين اثنين فى الشهر ، ويستقل البرديسى وصديقاه بالحجرة الثانية والردهة التى لاتزيد عن باحة يتحرك فيها باب الشقة ، مع ذلك وضع فيها البرديسى مكتبا ومقعدا . منذ سفر « البرديسى » شعرت أنه لابقاء لى فى الأسكندرية ؛ شعرت أن انتظار الفرصة قد يطول ويطول ، شعرت بضرورة السفر ؛ قررت المغامرة ؛ بعت مكتبتى التى جمعتها بجوع السنين ، ملأت ثلاث حقائب كبيرة بتشكيلة من الملابس كنت قد اشتريتها بواسطة أحد أقاربى من السنن الأجنبية بأسعار تافهة لاتليق بشدة فخامتها وأقمشتها الثمينة وتفصيلاتها المبهرة ، لدرجة أنها كانت تضفى على شكلى طابعا أرستقراطيا فريدا وتسلكنى فى زمرة الأنقاء من نجوم السينما؛ وتَخِذْتُ طريقى إلى القاهرة لأبدأ مهمة شاقة وعسيرة : البحث عن عمل . غير أننى كنت موقنا أننى لن أدوخ طويلا ، فالذى عمل بائعا سريحا فى مدينة الثغر لن يستنكر عملا مثلة فى العاصمة الكبرى فى رحاب الصحف والمجلات ودور النشر والإذاعة والتليفزيون . لم أكن أعرف أحدا فى القاهرة سوى البرديسى ، ولا مسكنا سوى مسكنه ، وهكذا رآنى أهبط عليه ذات ليلة ومعى حقائبى ، فاستقبلنى استقبالا حافلا واحتفى بى صديقاه ، ووسع لى « فخرى » مكانا بجواره على السريرالخاص ، ففى الحجرة ثلاثة أسرة من الحديد ، إثنان منها لا يتسعان إلا لشخص واحد ؛ سرير « فخرى » وحده أعرض منهما ، ويتميز ببعض الميزات الآخرى . كان معى حوالى مائة جنيه حصيلة بيع المكتبة وبعض

المدخرات ، صرت أصرف منها ، أدفع نصيبا معلوما فى الأكل والشرب والمسكن ، وأجلس على مقهى البرابرة فى حى الزمالك لأشرب الشاى الميزا الثقيل وأقرأ الصحف والمجلات بشغف هائل ، وأقوم بزيارة بعض المحررين والكتاب فى مكاتبهم بهدف التعرف عليهم ؛ وأعود إلى الشقة آخر النهار ، فنقضى جزءًا من الليل نتندر بعزلة « مسعد كامل دهب » ونوادره الجنونية ، ونردد أخبار الكتاب والشعراء والرجال المشهورين فى إنبهار وغبطة ونزق طفولى كأننا فرحون باكتشاف أنهم حقائق موجودة من لحم ودم وليسوا مجرد أسماء نقرأ لها وعنها من بعيد . إلى أن جاء اليوم الذى هربت دائما من توقعه فلم أحسب له حسابا ، يوم أن وضعت يدى فى جيبى فلم أجد به نقودا ؛ أكلت مرة ومرتين على نفقة الزملاء ؛ أختفى من الشقة فى مواعيد الطعام ، ثم صرت لا أجئ إلا للنوم فى وسط الليلة بعد مشقة مضنية فى الشوارع ، ثم صرت أفتقد جميع البسمات والبشاشة وكل علامات الترحيب ..

كنت لا أزال مستندا على حرف السرير أحاول اختراع وضع يريح جسدى ولو لبضع دقائق ، تذكرت أننى منذ دقائق مضت فكرت نفس الفكرة . مع ذلك تجولت ببصرى الملبد بالعماص فى أنحاء الحجرة : كل واحد متكلفت ببطانيته على سريره . لو لم تكن الأرض عارية لتمددت فوقها . وأتانى جسدى بما أفعله دائما فى الليالى السابقة فى نفس هذه اللحظة المتكررة : تقرفصت مسندا ظهرى إلى حاجز السرير ، تكورت ، دفنت رأسى بين ركبتى واستسلمت لزحف زورق خفى مجهول راح يمضى بى فى متاهة ظلماء حالكة ، كانت مع ذلك لذيذة مريحة ، لكننى مع ذلك سرعان ما شعرت بذراعى تتثاقلان ويدب فيهما نفخ وشد وألم شديد ؛ رقبتى تكاد تنكسر تحت ثقل داهم ؛ كنت عـــاريا تماما ، كل

مهمتى راحت تنصب على محاولة إخفاء عورتى ما أمكن ، أحاول عدل نفسى طلبا للسترة فلا أستطيع تحريك أى عضو فى جسدى ، يخيل لى أن عورتى تطل من كل بقعة فى هذا الوضع الزرى ؛ الظلام الحالك يبصبص لى بعيون لاحصر لها تومض فى خيمة العتمة كنجوم خشبية شديدة الخسة والنذالة ؛ أكاد أنفجر من الغيظ إلى شظايا من دموع ؛ شئ فى أعماقى يحاول طمأنتى بأن الأمر ليس خطيرا كما أشعر ، وأن فى الأعماق المطوية ثَمَّ ورقة رابحة سألعب بها معركة النجاة من خطر مجهول . تراءى لى فجأة كأننى تمكنت من رفع رأسى وعدل رقبتى ؛ فوجئت بأعين الحلكة النجمية قد اتسعت وأغرقتنى ببياضها كأننى البقعة السوداء التى ترى فى هذه العيون . وافانى شئ كاليقين بأننى أجلس هكذا فى إنتظار شئ لابد أن يحدث ، سرعان ما تبينت أنه باب لابد أن يفتح أو ينبغى أن يفتح ؛ سرعان ما تبينت ما قد حدث بالتفصيل : لقد أنهكنى المشى فى شوارع المدينة ونشفنى الصقيع فصرت أبحث عن أى خن أستكن فيه ؛ لم أكن أنوى العودة إلى شقة البرديسى بعد أن تهرأت أحاسيسى من فرط اللسع والكى بنار التجهم والإنكار وعدم الترحيب ، لكننى مع ذلك رأيت قدمى قد شارفتا بى إلى شارع المتحف الزراعى ثم قادتانى إلى شقة البرديسى؛ مع ذلك رأيت يدى تمتد لتطرق الباب ، وكأنه صوت المذيع جلال معوض يسرى متسللا من شباك خفى يقدم برنامج أضواء المدينة ويصف منظر الفستان الذى ترتديه الشحرورة صباح ، وكان يقول أن الساعة تقترب من الثانية صباحا ولازال فى جعبة الحفل الكثير من الفقرات الممتعة وكان الضوء العليل ينبعث من خصاص شباك « مسعد » وصوت أنفاسه منتظم وصوت كحته العابرة وصوت هزهزة السرير السفرى فيما هو يعتدل فوقه ؛ لو ظللت أطرق هذا الشباك حتى الصباح فلن يفتح لأنه ليس ينتظر قدوم ضيف بل ليس يحتاج

إلى أى أحد ، لو كان أبوه نفسه يسأله بشخطة خسيسة ولدغة لسان همجى عمن يكون وماذا يريد ، وقد يتبادل معه حوارا طوله عشر دقائق وقد يتركه يرن ملتزما الصمت المطبق ؛ أما الثلاثة النائمون فى الحجرة الداخلية فقد لا يبلغهم صوت الطرق وهم مستغرقون فى النوم ؛ وإن وصلهم فإنهم واثقون أن أحدا لم يجرؤ علىطرق الباب فى هذه الساعة المتأخرة من الليل سواى وحينئذ لن يكلف أحدهم نفسه مشقة القيام من تحت البطانية . كنت موقنا من هذا ، موقنا فى نفس الوقت أننى لن أقبل الطرق على الباب ، بل لن أقبل الدخول حتى لو فتحوا لى ، فلماذا جئت هاهنا إذن ؟ سرعان ما تبينت أن خاطرا دفينا فى أعماقى هو الذى جاء بى هاهنا ، لقد أبديت لنفسى استعدادى للإنزواء فى أى مدخل بيت والاختباء خلف بابه وليكن مايكون ، أو فى بكية الباب من الخارج ، هذا الخاطر جر خاطرا آخر بأن الباب الوحيد الذى يمكن أن ألوذ به دون التعرض لفضيحة هو هذا الباب على وجه التحديد ؛ على الأقل توجد ذريعة يمكن أن أسوقها إذاما اشتبه أحد فى وألقى القبض على باعتبارى لصا ؛ لن تقبل دعواى بأننى لص فعلا ولكننى متخصص فى سرقة النوم ، لكننى يمكن أن أكون مقنعا إذا قلت أن أصدقائى يسكنون فى هذه الشقة وأننى طرقت الباب فلم يسمعوا فجلست فى انتظارهم فغلبنى النوم . كان للباب ميزات كثيرة ، إذ أنه فى أعماق حارة سد ضيقة فلن يرانى عابرو السبيل فى الشارع العمومى ، ثم إن بكيته عريضة وبارزة الصدغين بحيث أننى فى جلستى القرفصاء هذه والباب فى ظهرى قد لايلحظنى البواب نفسه وهو مار فى نفس الحارة . وكان طائر النوم الذى عشش فى دماغى قد بدأ ينتفض من فرط القلق والذعر، وبدأ يتأهب للطيران ، فينقرنى بمنقاره المدبب فى رأسى لكى أنتبه إلى الخيط الأبيض وهو ينسلخ بارزا عن الخيط الأسود لكى أنهض فأستأنف المشى فى الشوارع مطمئنا فى رداء الضوء

الربانى قبل أن يصحو أحدهم لشراء الفول المدمس . كنت أستشعر أن عش رأسى يهدهد طائر النوم لكى يخفف من غلواء قلقه بعض الشئ إعتمادا على أننى سأسمع صوت النهوض عن الأسرة وصوت الإغتسال تحت الحنفية فألوذ عند ذلك بالفرار . كنت لحظتئذ على درجة من القلق فظيعة ، إذ بدأت أسمع صوت هزهزة أحد الأسرة فتحفزت كل مشاعرى وأنصت فى إنتظار صوت النهوض أو صوت الاغتسال .. فما دريت إلا بركلة قوية غادرة تُسدد إلى وجهى مباشرة تكاد من عنفها تتساقط أسنانى وتتورم عينى . غريقا كنت وانتشلتنى هذه الركلة من القاع السحيق فإذابى على البر ألهث أحاول التقاط أنفاسى ، وإذا بى ممسك بالقدم التى ركلتنى . كانت قدم « فخرى الحباك » الذى تقلب أثناء نومه وأراد فرد ساقه فعاقه جسدى تدفعها فى غيظ لتستقر على وجهى . هو الآخر نهض مذعورا يسب ويسخط بألفاظ مضغمة غامضة ، ثم دعك فى عينيه ونظر لى ، ثم همهم بما اعتبرته اعتذارا عما حدث ، ثم أحكم لف البطانية حول نفسه ثم انداح فى أفق النوم البعيد تاركا مساخة من السرير لاتزيد على شبر واحد . إعتدلت ، تمددت فوق هذا الشبر على جنبى قابضا بيدى على حديدة من حاجز السرير المتاخم لرأسى . وكأن البرد يرعشنى بشدة ، فأحاول لصق جسدى بوبر البطانية ، فكلما استشعر النائم ظلى تقلب داخل البطانية لينبهنى إلى أننى قد تجاوزت حدودى ، فأنزاح قليلا ، وكنت أستنيم مدفوعا بأمل غامض فى شئ ما ، سرعان ما تبينت أننى أترقب هذا النائم حتى أتأكد من استغراقه لكى ألصق جسدى بوبر البطانية . وكانت قدمى تتسلل خلسة شيئا فشيئا لتلامس طرف البطانية المنطرح بجوارها . فلما لم يردها استقرت على هذه البقعة مستشعرة خشونة وبر البطانية ، ثم سرعان ماراح الدفء يسرى فى ساقى وجميع أنحاء جسدى . وكنت واثقا أن النائم سوف يعدل نفسه بعد دقائق معدودة ليجذب طرف البطانية ليحكمه حول ساقيه ، ولكنى سأكون قد اختطفت برهة من النوم المطمئن ربما تعادل دهرا بأكمله .

- ٨ -

سلالة الطين

كنت مقعيا على الملاقى ، فوق أرض زلقة قذرة عرفت أنها قاعدة الكنيف . كنت صبيا يافعا فيما بدا لى ؛ وفتحة الكنيف تحت مؤخرتى مفشوخة كحنك التمساح الذى أراه فى كتاب المطالعة . فوق رأسى درجات السلم الطينى متراصة فوق عرقين تخينين من الخشب الأسود ينكسران فى إتجاه العلو . أمامى إبريق الفخار الكالح المسود ، إحدى أذنيه مكسورة وبزبوزه مقطوش ورقبته ضائعة . أمسكته من الأذن السليمة ، هززته مختبرا عمق ما فيه من مياه ، لم أسمع سوى خرخشة حبات الرمل والحصى المختبئة فى جوفه . التعب ثقيل جدا جدا فى جنبى ؛ مؤخرتى تدفق التعب مبقللا فى فتحة الكنيف ؛ لمبة الجاز الصاروخ مشبوكة فى مسمار على الحائط الطينى تتصاعد من شريطها فرشات الهباب تصبغ مكانها ويرسم ضوؤها العليل على الحائط أشباحا غامضة مفزعة ...

بحثت عن ورقة أمسح بها ؛ لم أجد . تحسست الأرض بحثا عن حصوة كبيرة ؛ لم تكن الأرض إلا حصيرة من الطين اللزج الناضح بالمياه النتنة . شعرت بحيرة ؛ جاءنى إحساس بأن الدار تخلو من المياه ، ربما لأن أمى لا تزال فى مستشفى البندر تعالج عينيها من رمد مزمن ، عجز أبى - لأول مرة - عن علاجه بيديه . عرفت أن خارج تقفيصة الكنيف فناء كبير نصفه مسقوف

بشبكة من الحصير والجريد وأعواد الحديد الخردة.. عرفت أن جدتى «أم العز » تنام الآن فى الحوش الكبير ، حيث تطل عليه ثلاثة أبواب هى قاعة المنام ذات المصطبة الكبيرة المنتهية فى ساحة بابها بفرن للخبيز ، عليها حصيرة مصنوعة من ورق البردى المدهون بالأحمر والأخضر والأزرق لكنها كلحت بتقادم العهد وبولنا ونحن فى لفائف الطفولة لعدة أجيال ؛ تغسلها جدتى أم العز فى مياه الترعة المواجهة لدارنا مباشرة كل يوم جمعة ، وتنشرها فى سفح الترعة أو أمام الدار فوق الحبال الممتدة . إلى جوار قاعة المنام مخزن التبن ، الذى يستخدم أيضا مخزنا للقمح والذرة والأرز وما شاكل ذلك من محاصيل ترد إلينا على سبيل المعاونة من أولاد عمومتى الفلاحين على اعتبار أبى هو آخر الكبار فى العائلة كما أنه آخر فقرائها ولا يصح فى نظرهم أن يكون كبير العائلة فى وضع زرى . أما ضرورة التبن بالنسبة لنا فإن عبد الودود وصدقى ابنى عمى المتوفى حديثا يقيمان معنا فى نفس الدار ، ويقومان برعى الأغنام وتربية الماشية التى يشتريها لهم ناس آخرون ، إذ تصبح البهيمة فى عهدتنا أمانة الله نتكفل بأكلها وشربها ورعايتها وتطبيبها فى مقابل أن نقاسم صاحب الرسمال فيما تدره البهيمة من لبن وعيال . ولأن أبى الزعيم الوفدى السابق قد بات عضوا فى أمانة الإتحاد الإشتراكى فقد سعى لأن يحصل عبد الودود وصدقى على فدانين فى الإصلاح الزراعى من أرض الباشوات المؤممة . أما الغرفة الثالثة فهى زريبة كبيرة . وفوق القاعـات الثلاث ثلاثة مقاعد وسيعة نصعد إليها بسلم مبنى بالطين ؛ المقعد الأول ينام فيه أبى و أمى ؛ المقعد الثانى ينام فيه عبد الودود وزوجه الصغيرة الفاتنة التى تقضى يومها كله سارحة بالبهيمة ؛ المقعد الثالث ينام فيه صدقى مع طيف خطيبته النائمة على مبعدة سطح واحد فى بيت عمى ، وبفضل سمعة أبى الطيبة فى قرى الدائرة الإنتخابية أدخلنى المدرسة الإبتدائية

فى البندر ؛ حمار يوصلنى كل يوم إلى المحطة وينتظرنى آخر النهار على المحطة ؛ قطار يومى فيه أحلى الأصبحة وأبهج الأمنيات ، ووجوه الفتيات اللائى من المعروف أنهن سيركبن من المحطة القادمة أو التى تليها ؛ فقلوب تخفق ووجوه تترقرق وعيون تطير حمام السلام وتتلقى صباح الخير ؛ محصل التذاكر يعرفنا بالإسم واللقب والعنوان . يعتبر موسوعة فى قصص الحب التى نشأت وترعرعت فى كنف قطاره على مدى الأجيال ؛ باعة المياه الغازية فى الدلاء يجعرون بلا ملل ودون توقف ؛ موكب الضجيج البهيج يتكامل بصفير القطار الزاعق كالنذير لكنه يطربنا فننتبه فجأة على جحافل الأشجار وأعمدة البرق الزاحفة علينا فى سرعة داهمة تمرق فى اللانهاية ؛ نشوة ركوب القطار على موعد تصل فيه إلى ذروتها حينما تطرأ على الأنوف رائحة المازوت المحترق برائحة الشحومات ؛ فإذا ما داهمتنا روائح الطعمية المقلية الساخنة ، وانضم إلى صخب القطار صخب جديد مضاء بلمبات النيون ؛ أيقنا أن المدينة قد أتت ، وأن علينا أن نتأهب للنزول ، حيث ينهض البعض واقفا ، ليسحب لفة أو حقيبة أو قفة من فوق الرف الخشبى الضيق ، ويمضى مقتربا من باب القطار ما أمكن، لتكون له أولوية النزول على الرصيف بمجرد توقف القطار ؛ هى اللهفة على المدينة بجـاذبية منبهرة على بعض الوجوه ؛ وهى الفرحة بالوصول والمبادرة بالفرار على وجوه أخرى ...

أنـا الآن مقع فوق الملاقى فى كابينة خشبية ضيقة لابد أنها مرحاض القطار ؛ فتحة الملاقى من المعدن الأبيض اللآمع لكنها جافة ملطخة بنعال الأحذية والبلغ ؛ يوجد صنبور أسفل ماسورة من النحاس الصدئ ؛ كان من الواضح أن الصنبور كان مفتوحا إن لم تكن جلدته فاسدة . مددت يدى وحركت رأس الصنبور فلف بدون توقف لايحكمه فتح أو غلق . كانت رائحة الصنان

قوية ؛ وكنت مرتاعا ، قلقا ، أشعر أن بطنى كانت تكركب منذ برهة ، وأننى انتهيت لتوى من إزاحة أرياح وجبال صلدة ، وأن القلق لم يهمد بعد ، مع أن بطنى لم يعد فيه شىء فيما بدا لى ؛ كل ما أسمعه يدور الآن فى بطنى هو فلول ثورة كاذبة انتهت منذ قليل وهذه بقايا من شراذم ريح غزتنى ، لكنها لعينة تكلفنى حزقا وعتلا حتى لتكاد فتحة الشرج كلها تسقط منفصلة عنى . من شارع خلفى بعيد فى رأسى جاءنى خاطر يقول لى أن السبب ليس فى بطنى إنما هو فى مكان أخر من نفسى ؛ حاولت أن أعرفه . تذكرت أن أبى نصحنى بكل جدية ورهبة أن أجعل بالى من نفسى ، أن أحذر عيال المدينة الرقعاء الصياع ، أن أفيق لكل درس وكل كلمة أتلقاها ، أن أقتصد فى مصروفى ما أمكن ، فالقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود ، أن أبحث لنفسى عن تربة تلمنى أو قطار يأكلنى إذا لاقدر الله رسبت فى الإمتحان أو ضاعت حوائجى أو ضحك أحدهم على عقلى . كذلك نصحتنى أمى بأن أضع عينى فى وسط رأسى، أن أحترس من القطارات والسيارات وأمشى بحذر جنب الحائط على الرصيف فى شوارع البندر ، أن أتغطى جيدا عند النوم مهما كانت حالة الجو ، أن أكون حلو اللسان مع الناس كلهم وخصوصا مع الأفنديات الذين يعلموننى ، أن أصاحب زملائى بالمعروف ولا أبدأ بالغلط ، أن أكون راسيا متفاهما واعيا فلا أقبل عزومة أى أحد ولا أذهب مع أى شخص لا أعرفه إلى أى مكان . حمل كبير ثقيل من المخاوف والمحاذير أشعر أنها تزلزلنى ؛ يهتز قلبى بعنف كلما تذكرت إحدى هذه النصائح خشية أن أكون نسيتها فى موقف من المواقف ..

رائحة الصنان تزكم أنفى . من الواضح أننى جالس هكذا هاهنا الآن على رغمى ، وأن سببا مجهولا يمنعنى من القيام ومغادرة هذا المكان . لامست يدى صنبور المياه من جديد ؛ قرصنى اليأس مرة ثانية ؛ دارت فى رأسى مجموعة

أوراق وقصاصات عبثت بها الريح فى مخيلتى وهى راقد فى جيبى ؛ بدا أننى أفكر فى انتخاب ورقة منها أو قصاصة صغيرة أزيل بها بقايا الروث عن مؤخرتى ؛ خشيت أنها كلها جداول حصص وعناوين ناس وخطابات لناس سأقوم بتوصيلها لناس . كان الروع قد نفضنى فجأة بخوف أن تكون المحطة التى سأنزل فيها قد بدأت تحل ، فلابد حينئذ من النهوض فورا ومغادرة هذا المكان . ثم إن الطرق على الباب من الخارج قد بدأ يشتد ويتواصل بشكل أزعجنى ؛ أكاد أصرخ فى الطارقين بجماع انفعالى : لو عرفتم ورطتى لأمهلتمونى وأشفقتم على . شرعت فى الصياح فعلا ، لكن يدا خفية مجهولة فى بطنى أمسكت صوتى عن الحركة ، شعرت أن ثمة مانعا قويا يحول بينى وبين أى اتصال بمن هم خارج هذا المكان على الإطلاق حتى ولو كان فى يدهم مساعدتى ؛ لكنى مع ذلك تأهبت للوقوف ، وبدا كأننى قررت النهوض بأوساخى، وصعب على أن يحملها سروالى الذى سيرافقنى أسابيع طويلة ، والذى لابد سيصبح منظره عارا فى نظر من سيراه وخاصة أمى التى عدتنى رجلا أتعلم فى البندر فإذا بى أتبرز على نفسى كالأطفال الصغار ؛ رأيت أن الزعم بضياع أحد الخطابات التى معى ليس جرما أحاسب عليه ؛ وهكذا شرعت أستل خطابا من جيبى لأستخدمه أسوأ استخدام خلق له ، وكلى أسف شديد ؛ وبدا كأننى منذ وقت طويل وأنا أخشى أن يقع لى شئ من هذا وأنه أخيرا قد وقع . على أننى لم أجد بجيبى أوراقا على الإطلاق ، وتبين لى أن أمى ربما تكون قد وضعتها مع مصروفى داخل الزوادة فى قلب القفة . إرتعت ، انتابتنى حالة من العصبية العنيفة ، رحت ألف حول نفسى يمينا وشمالا أكاد أقع مغشيا على من فرط الإختناق ..

****

.. رفعت رأسى وهو يوشك أن يصطدم بالأرض ، فأفقت لنفسى دفعة واحدة ؛ فإذا بى فوق الملاقى مفشوخ الساقين ، ولكن دون أن أفك حزام سروالى ؛ فاندهشت لذلك بالغ الدهشة . نظرت فى المكان من حوالى : الحجرة ضيقة نوعا ، واسعة نوعا ؛ جدرانها كلها من القيشانى الأبيض اللامع النظيف ، والأرض كذلك . على يمينى صنبور أنيق برأس كبيرة مستديرة من النيكل الأبيض ؛ يتفرع منه خرطوم مشروخ طوله حوالى نصف متر ، يكفى للوصول إلى منطقة العورة بكل راحة ، وسرسوب رفيع جدا من المياه ينساب منزلقا إلى فتحة كبيرة مستديرة تحت مؤخرتى مباشرة ؛ غير أننى لم أكن فى حاجة إلى مياه ، بل لم أكن فى حاجة إلى الإرتحاض . كان واضحا أن بطنى فارغة تماما من كل شئ ، ودماغى أكثر فراغا . عرفت فى الحال أن هذه الحجرة هى مرحاض فى دورة مياه عمومية . إقتحمتنى أصوات قادمة من المراحيض المجاورة المتلاصقة لايفصلها عن بعضها البعض سوى جدر قصير القامة غير مسقوفة : حزق وضراط وتأوهات وأنين وزحف كيزان صفيحية على الأرض ودفق مياه من الصنابير ، وكان يخيل إلى أنه كان ثمة من يطرق الباب منذ برهة مضت ، وأن الطارق ربما يكون قديئس أو انفتحت له محلات مجاورة . عرفت أنى بإمكانى معرفة ماإذا كان الطارق قديئس فعلا أم أن مشكلته انحلت بفتح باب مجاور ، كما عرفت أننى قد دربت على هذا جيدا . ملت برأسى تلقائيا بشكل مدروس ، حيث ركعت بيدى وركبتى على الأرض ، فصار بإمكانى النظر من تحت عقب الباب الذى يفصله عن الأرض بمسافة طيبة . رأيت عددا كبيرا من الأقدام واقفة بجوار المحل الذى أقطنه ، فعرفت أنها تنتظرنى أو تنتظر خروج غيرى ..

خفق قلبى حينما تحركت إحدى الأقدام زاحفة نحو بابى ، بسرعة اعتدلت

مقعيا ، بسرعة انتبهت إلى أن سروالى لا يزال مربوطا فى خاصرتى بحزامه الجلدى ؛ رأيت من باب الإحتياط أن أفكه وأنزله وأتخذ وضع المرتحض بالفعل. فعلت ذلك ؛ سخرت من نفسى كيف أنى لم أسقط السروال طالما أننى أقعيت هكذا برسم الارتحاض حتى لو لم أكن أريد ذلك بالفعل . غير أن مؤخرتى ما كادت تتعرى ، وما كدت أستوى فى قعدتى على الملاقى حتى شعرت ببطنى تتحرك بالفعل ، ووافد من الريح يتأهب للإنطلاق من مؤخرتى ، ليشعرنى براحة كبرى ؛ لكننى ماكدت أستشعر الراحة حتى انتصب فى أعماقى خاطر غامض يطالبنى بإيقاف خروج هذا الريح أو خنقه قبل أن يرن صوته فيفضح وجودى هاهنا فيحدث مالا تحمد عقباه ؛ وكانت ضرطة قصيرة جدا قد أفلتت رغما عنى وانداحت خلفى لتخلط بمثيلاتها المنطلقة من المحلات المجاورة ؛ واستطعت كتمان الصوت فخرج وشيشا كخرخشة أوراق الخريف . أدركت فى الحال لماذا كنت أجلس دون أن أسقط السروال ؛ فسخرت من نفسى مرة أخرى ونهضت واقفا على حذر شديد لأرفع السروال من جديد ؛ لكننى فى منتصف القيام شعرت بضرورة إبقائه ساقطا لأمر ما تبينته فجأة ..

بدا كأننى على شئ من الثقة بأنى فى الأمان ، وأننى يمكن أن أغفو قليلا ولو نصف ساعة أخرى أتمكن بموجبها من استئناف السير فى شوارع هذه المدينة التى جئتها طامحا فى الإلتحاق ببلاط صاحبة الجلالة الصحافة فإذا هى تضن على حتى ببلاط الشوارع . غير أننى لم أكن تبينت بعد : فى أية دورة من دورات المياه العمومية أحاول الآن الإستغراق فى النوم ؟! فى أى حى هى ؟! ..

وقع الأقدام بدأ يتزايد فى الممر الخارجى ، فوجف قلبى ، وركعت ناظرا تحت عقب الباب ، رأيت قدمين تمشيان على الأرض فى زحف شبه راقص ، إذ تنتقل القدم بهدوء وروية فتقترب من أختها تكاد تلمسها وتكاد فى نفس الوقت

ترتد عائدة لكنها لم تلبث حتى تلحق بأختها لتعود أختها فتفعل نفس الحركة ، داخل صندل من الكاوتشوك صنع باتا بتسعة وتسعين قرشا ، يطل من فتحاته جورب رمادى . عرفت صاحبه فى الحال ؛ إنه عم عبده الجرسون فى بوفيه محطة مصر الذى يسهر حتى الصباح ، وكانت أطراف المريلة البيضاء تظهر من فوق ، وشخشخه النقود الفضية تشخلل فى جيبها الكبير . كان يروح ويجئ أمام أبواب المراحيض فى إنتظار أن يفتح أي باب ، وكان متعجلا قلقا ، فعرفت أن مرحاض البوفيه معطل كعادته فى معظم الأوقات ، وتيقنت أننى لائذ بمرحاض فى دورة مياه محطة مصر ، كما عرفت أن هذه ليست أول مرة ألوذ فيها بهذا المرحاض على وجه التحديد ، وأن هذ المرحاض ليس هو الوحيد الذى تعودت أن ألوذ به ..

فجأة سمعت طرقا على الباب عميقا ملحاحا ، فراح قلبى يتراقص وينتفض بين ضلوعى على نغمات الطرق ؛ حينئذ بدأت أتأهب لفعل شئ انتويته من قبل ؛ غير أننى سمعت صوت عم عبده الجرسون يقول بنبرته الطيبة المدربة على اليأس القاطع :

- « لا ! لا ! متحاولش الباب ده عطلان من قبل المغرب ! يظهر أن الغفير قفله وروح ! » .

وقال الرجل الطارق :

- « مع إنه بيكسب منه ! دى دوره مخصوصه لوكل واحد يدفع قرش تعريفه حيروّح متعشى ! » .

قال الجرسون :

- « دورتين مخصوصين ! حضرته قافلهم بقفل خزنة زى خزنة التليفون !

سايبهم متعطلين والناس مش لاقيه تِشخ ! » .

قال الطارق :

- « مش معقول محطة كبيرة زى دى فيها موظفين وعمال وركاب من كل البلاد ! ويبقى فيها تلات مراحيض بس شغالين ! ده حرام ! » .

وراح يهز الباب بعنف يكاد يخلعه . وقال الجرسون : - ريح نفسك ! روح دوّر على الغفير فى الناحية التانية عند دورة النسوان حتلاقيه مع مراته ! » .

فمضى الطارق ، وابتعد الجرسون ، وهدأت الخطوات والحركة بعض الشئ . وصرت أنظر حوالى كاتما أنفاسى التى شرعت تتدفق بقوة وغزارة حتى خشيت من ارتفاع صوت خرخشة بلغم الدخان فى صدرى ، وخشيت أن أنسى فأكح ، فصرت أتنفس من فمى ، فوجئت بملف جلدى يشبه حافظة الأوراق ، شكله لم يكن غريبا على ، صرت أتعرف عليه شيئا فشيئا ، تبينت أنه يخصنى ، أعارنيه صديقى الشاعر فخر الدين إسماعيل ، طبيب الأسنان الناشف الصارم ، ذو الوجه المشدود التياه والقامة الطاووسية المذيدة المختالة ، الذى يهوى قرض الشعر مع أنه لا يحمل فى قلبه أية مشاعر حية ، بل إنه بعيد كل البعد عن العاطفة بمختلف أنواعها ؛ قادم هو من إعارة فى اليمن بعد تسريح دفعته كلها ؛ عامر الجيب ببضعة آلاف ، وسيارة أنيقة بسقف متحرك وشقة خطيرة فى حى الزمالك ، بلا زوجة أو عشيقة ، فى أنتظار التقاط أى بغى من بغايا الليل السارحات فى الطرقات ، لايعرف من الشعر إلا دواوين نزار قبانى ، ولا يعرف من أهل الأدب والصحافة إلا بعض أسماء خاملة من الدرجة الثالثة ، قدمه لى صديق صحفى أراد أن يهرب منه فزحلقه على ، ورجانى أن أستمع لأشعاره وأوجهه كيفما شئت ، وكان قد قرأ هذه الأشعار ونفر منها حيث لم يجد فيها

متسعا للكلام أو النقد فقرر الخلاص منه بصنعة لطافة ، فى مقابل أن يداعب غرورى ويصفنى له بأننى أقدر منه على فهم الشعر وتذوقه . وكنت قمينا بأن أعطيه رأيى الحقيقى فى محاولاته هذه الساذجة بكل صراحة ووضوح فى أول لقاء ، لولا أن السيارة والشقة وفلوس اليمن كل ذلك أقنعنى بتأجيل الرأى قليلا، ولقد تركنى أبيت فى شقته بعض ليال متفرقة ، على وجه التحديد الليالى التى نجحنا فيها - بواسطة صديقى الممثل الناشىء سمير أبو حشيش - فى التقاط امرأة ضالة نعبث بها حتى الصباح مع لفائف الحشيش وزجاجات النبيذ التى يشتريها فخرالدين ، فيما عدا ذلك من الليالى لم أنجح فى المبيت ليلة واحدة ، لأنه مثل فرقع لوز ، دائما فى حالة تحليق خفاشى على مناطق الضوء ، يتحرى عن السهرات التى تضم مشاهير الكتاب وكبار الصحفيين وأعاظم الشعراء والنقاد من أولئك الذين زودته بمعلومات كافية عنهم لم يكن من قبل يعرف شيئا منها على الإطلاق ، ثم يتحرى عمن يعرف فلان ، ومن هو صديق فلان ، ومن الذى يملك التأثير على فلان ، أو له الدلال على فلان ، لكى يتعرف عليه ، يعزمه على الغداء فى نادى الضباط ، يوصله بالسيارة إلى حيث يشاء ، ليكون هو فى المساء التالى ساهرا بالفعل مع فلان الفلانى الشهير . فى ظرف شهور قليلة جدا أصبحت أقرأ قصائده فى أكبر جريدة فى البلاد، قصائد لاعلاقة لها بمحاولاته القديمة الساذجة ، فإذا به قد فهم اللعبة جيدا ، وألم بالقاموس الذى يستخدمه شعراء العصر مثل شاكر السياب.والبياتى وعبدالصبور وحجازى والفيتورى وأدونيس وخليل حاوى ، صار يحاكيهم بقدرة فائقة ، يصنع قصائد تشبه قصائدهم الخالق الناطق بدون أى فوارق لقد أقتحم الحياة الأدبية بتكتيك حربى ماهر. لم أستفد منه بغير هذا الملف الجلدى الأنيق، المطاط ، الذى يستوعب الكثير من الأوراق والكتب دون عناء ، ويمكن حمله تحت

الإبط أو براحة اليد فيبدو أنيقا عريقا متينا ، جاء به فخر الدين من روسيا. حيث أخذ هناك إجازة تدريبية قصيرة ؛ ولو لم يكن قد أحضر مثله اثنين أو ثلاثة ماتنازل لى عنه ، لأضع فيه كل أوراقى وكتبى التى طالما حيرتنى وتهرأت بفعل العرق ..

سحبت الملف من الأرض ، أمسكته ، فتحته ؛ انتزعت منه كتابا أدفن فيه نفسى كما تعودت فى مثل هذه اللحظات الحرجة ، تبينت أنه كتاب : الثورة والأدب للدكتور لويس عوض . لأمر ما وجدتنى أعيده وأنزع كتابا آخر ، فإذا هو كتاب : فى أزمة الثقافة المصرية لكل من عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم . ولم أكن أعرف لماذا هذين الكتابين بالذات أحملهما بين أوراقى . فتحت الكتاب وشرعت أفتح عينى ظنا منى أننى أستطيع القراءة أو أننى أستطيع أن أهرب من الصخب الذى بدأ يتزايد أمام الأبواب . وكان ضوء الصباح قد بدأ يتسلق الجدران ويتسلل من تحت الباب ، والأصوات الصاخبة المحتجة قد بدأت ترتفع بصورة مزعجة ، فعرفت أننى قد غبت عن الوعى ساعات لا بأس بها ولكننى مع ذلك مصدوع وفى حالة من « الدوخة » عظيمة ، مفصول عما يحدث كأنه يحدث لشخص غيرى أغلب الظن أنه موجود فىّ أيضا . تبينت بين الأصوات صوت بيومى خفير المبولة يقبل نحو الباب :

- « القفل زرجن مرة واحدة ماأعرفش جرى له إيه ؟ ! ياإما القفل ياإما الخزنة ! على كل حال أنا بعت أصحى ولد بتاع مفاتيح قريب من هنا ! » .

أخذنى الروع ، بكل هدوء أعدت الكتاب إلى الملف دون أن يصدر أى خرخشة ، ثم أعتدلت واجف القلب أطلب من الله الستر العاجل . ثم شملتنى الدهشة : كيف توصلت أنا إذن إلى هذا المرحاض طالما أنه مغلق ؟ سرعان ماتبينت أننى قد أعددت لذلك خطة شديدة الغرابة والدقة ، حيث وقفت

منذ وقت طويل مضى أترصد هذا المرحاض النظيف وأدرس وضعه ، فلما لاحظت أنه مغلق على الدوام ظننته مهجورا ، فرأيت أنه مكان يصلح لإيوائى بضع ساعات بعيدا عن البرد ودوريات الشرطة التى لاتتشطر الإ على أبناء السبيل أمثالى ، فجعلت أترصد المرحاض المجاور له حتى يحين وقت تخلو فيه دورة المياه من الزحام ، بحيث يكون المرحاض المجاور والذى يليه خاليين تماما ، وألا يكون ثمة من يرانى أدخل . فلما جاءت الفرصة المناسبة دخلت المرحاض المجاور وأغلقت الباب خلفى ، ثم تسلقت الجدار القصير القامة بواسطة ماسورة المياه ، وهبطت بسرعة وسلامة إلى هذا المرحاض المغلق ، لأجلس هذه الجلسة ، وأغفو بضع ساعات ، على أن أتحين الفرصة للخروج بنفس الطريقة بعد وقت يقصر أو يطول ..

ثم كفت الأصوات كلها فجأة كأن الكون كله قد مات ، فعرفت أنه السكون الذى يسبق العاصفة والذى قرأت عنه طويلا دون أن أراه رؤية العين . ثم ارتج الكون فجأة بهدير عنيف يتقدمه صفير حاد ، فعرفت أن قطارا قد وصل الآن إلى المحطة ، سرعان ماامتلأ الفضاء المنداح خارج المرحاض بضجيج غامض مكتوم يدلق الهدير إلى بعيد فبعيد ، وكنت قد أسندت رأسى بين يدى خوف أن يغادرنى إلى غير رجعة ، ورأيتنى صبيا يافعا بين أنفار نقاوة الدودة نجرى فى نزق على صفير قطار الظهر الذى لولا قدومه لما خرجنا إلى الغداء ، وكنا نغنى بمرح كبير فيما نجرى نحو أشجار الجزورين والكافور على الطريق الزراعى : « أبونا الحنين اهوه .. و .. ه .. يلا بينا نسلم عليه » . ثم رأيتنى أسف مسحوق العيش المقدد بعد أن فركته بيدى ، ثم أندفع إلى شاطىء الترعة فأنام على بطنى وأمد بوزى فى الماء الراكد لأعب منه حتى أرتوى ، مستشعرا طعم الطين والطمى فى حلقى كأنه الحلاوة الطحينية . ثم رأيتنى طفلا أتربع على شاطىء بركة بحر السبيل القريبة من دارنا القديمة وقد أمسكت بقطعة من

طـين البركة الأزرق رحت أكلها بلذة فائقة ؛ إذ أننى سمعت الأولاد ذات يوم يقولون ان أكل الطين يقوى الجسد ويطـيل العـمر ، وكنت أستلذ مذاق الطين وأشعر أنه قريب الشبه بأطعمه كثيرة نأكلها مطبوخة ومقلية ثم رأيتنى أمشى مساقا بعصا الخولى ، والحرقيظ يصب النار على جسدى النحيف الرهيف ؛ وكتل من الطين تعلق بقدمى وتلتصق بجلد ساقى لاتريد أن تنفصل حتى مياه الترعة لم تفلح فى تليينها ؛ كنت أبكى بحرقة ، وأشعر أن أحدا فى الكون لايسمعنى ولا يعنيه أمرى ، لن يغيثنى أحد . كان الخولى يلاحقنى بالخيزرانة كأنه مسلط على وحدى ، إذ لم يكن ثمة من أحد سواى ، والذى طلع عليه عفريت من الجن يقول : « مدّ ياابن الكلب ! » ؛ فيما أنا أواصل الجرى صارخا موحوحا من لسع الخيزرانة على مؤخرتى وجنبى ورقبتى ورأسى ، أتعثر أنكفىء أعتدل قبل الركوع على الأرض ، فمهمتى هى الهروب من العصا . أحرقت الدموع خدى ، غلّقت عينى ، صرت أجرى فوق الأشواك والحلفاء أغوص فى أعواد التيل والبوص ؛ إلى أن غاصت قدمى فى الأرض فتهاويت غاطسا غاطا تحت كتل من الروبة والنيلة الزرقاء العطنة راحت تتخلل حلقى وخياشيمى .. حينئذ كففت عن الصراخ والعويل واستسلمت لراحة أبدية ..

كنت أسمع صوت أنفاسى المتعبة اللاهثة كخرير المياه فى جداول المصرف . وكنت أعرف أننى قد سكنت أخيرا تحت طين المصرف العتيق المتلبد . بربشت بعينى رافعا رأسى ، ربما لأبحث عن شبح الخولى ؛ لكننى رأيت أمى واقفة بعين مرمدة منتوفة الرموش لكنها واسعة كفوهة البندقية تطق شررا ؛ وكانت تضرب صدرها مولولة فى حرقة : « قلب أمك ! » وشمرت ساقيها وخوضت فى النيلة الزرقاء حتى حاذتنى فمدت يديها وانتشلتنى ، ورأيتنى أستل من قلب الروبة كقرموط شيطانى التكوين يخر حبرا متجمدا . حملتنى على صدرها وراحت تزيل بيديها عن جسدى ورأسى مركزة على عينى وحلقى ، وقلبتنى

جاعلة رأسى قرب الأرض وساقى قرب السماء تهزنى بقوة ، وفمى يدلق أطناننا من العناء الأزرق القاتم ، روحى مع ذلك كلما خرجت من الحلق إرتدت عائدة ككساحة كهربية تعود لتمتلىء بالطين كى تخرج زائحة . مالبثت أمى حتى ألقت بى فى قلب الترعة القريبة ثم انتشلتنى ، ثم غطستنى وانتشلتنى ، لا أدرى كم مرة شهقت من الفزع وتنفست الصعداء من زوال الجبال ؛ لكن ملامحى ما كادت تظهر على حقيقتها بعض الشىء حتى أوقفتنى على الشاطىء ونزعت عنى كل الخرق ، وخلعت ثوبها الأسود وراحت تجففنى . وكنت أنتفض وأشهق ؛ فلما انطرحت على صدرها أرحت رأسى على كتفها مصعدا وجهى نحو السماء فاتحا فمى منتظرا أن تستقر روحى فى صدرى ؛ وكنت أشعر أن أمى قد بدأت تمشى ، فشعرت بأننى أتلاشى ، لكن أمى ما كادت تضعنى فوق الأرض حتى رأيتنى أنتفض فى الحال واقفا ؛ لدهشتى لم أجد أحدا حولىَ على الإطلاق . خرجت من الغرفة مرتعدا أجرى ، رأيت الحوش فارغا حتى من جدتى أم العز ، صحت مناديا ؛ إرتد صوتى مكررا النداء ؛ إرتعدت ؛ عرفت أن مصيبة لابد قد حلت ببهيمة فخفوا جميعا لتداركها قبل الغطس النهائى . خفت ، فتحت باب الدار بالسقاطة ، خرجت أهرول فى الطريق ، كان الطريق بدوره خاليا ، فقلت لابد أن أهل القرية كلهم قد هرعوا إلى مكان الحادث فى الحقول البعيدة . مشيت ، لعلنى أصطدم بمن يعطينى جلية الخبر . كنت أظن أن الوقت مغربا فإذا هو غبشة الصباح الباكر وهاهى ذى الشمس قد بدأت تطلع وتصبغ السماء والأشجار وشواشى القش والحطب على أسطح الدور بلون الذهب الأحمر . وكنت أظننى وحدى ؛ ولكننى حينما استدرت عفوا رأيت الخيزرانة ممتدة فى محيط جسدى كله ، من خلفها خفير نظامى طيب الوجه طويل الشاربين المتدليين على حنكه ؛ فعرفت أنه يقتادنى إلى مدرسة البلد ، حيث

ينتشر الخفراء لجلب الأولاد من الدور والحقول رغما عن أنوف أهاليهم بالقوة الجبرية لكى ينفذوا قولة طه حسين بأن التعليم إلزامى كالماء والهواء لكل طفل . وكانت طبقة الطين لاتزال متكلسة فوق قدمى وساقى ؛ فجاءنى شعور يشبه الخزى ، تبعه مشهد أولاد الناس لابسى الأحذية والصنادل والمرايل البيضاء ووجوهم كالورد الصابح وبأيديهم حقائب ولفائف أطعمة . على أننى اندمجت بينهم ، وكان الطين قد خف ثقله عن قدمى لكننى مازلت حافيا ، تنبهت إلى أننى أحمل مخلاة كانت فى الأصل رجل سروال قديم ، قد حشوتها بالكتب والكراريس ؛ وكانت كراريسى هى مصدر فخرى الوحيد ؛ لولاها ماحق الجلوس بينهم فى الفصل جنبا إلى جنب حيث كانت هى أنظف من شكلى بكثير ، إذ هى مرتبة وخطها جيد منظم أنيق ولا مجال لكثرة الأخطاء فيها ، وكلها عشرات من عشرات وعبارات جيد وممتاز . غير أننى كنت نافرا أشد النفور من صحبة هؤلاء الأولاد ، ولهذا دأبت على الانزواء وحدى للقراءة وعمل الواجب ، ها أنذا أنتحى ركنا فى غرفة الأشغال لأصنع التماثيل من الصلصال ، ها هى ذى صورتى – لأول مرة فى حياتى – قد ألصقت باستمارة الشهادة الإبتدائية ، ها هى ذى مطبوعة على ورق جرنان ، ها أنذا أهبط من قطار العصر أكاد أرقص كالبهلوان ، وقد انتشيت بطول قامتى ورجولتى وشعورى بأننى من هذه اللحظة صرت شيئا مستقلا فى البلد ، صرت كيانا ، أستطيع قبض راتب شهرى ، أستطيع خطوبة البنت رئيفة حبيبة القلب من أبيها تاجر الأخشاب الثرى . برهة وجيزة رأيتنى بعدها أرتمى فى حضن أمى ، كانت نائمة على سرير أبيض فى أبيض ، لابد أنه فى مستشفى ، وكانت معصوبة العينين ، فلابد أنها أجرت عملية جديدة من عشرات العمليات التى تقلقنا مدى الحياة . قلت لها : « اليوم نلت الشهادة الكبيرة ! وسأذهب إلى مصر لأتوظف فى العمل الذى أحببته ! » .

من فرحتها حاولت أن ترفع العصابة عن عينيها لترانى ، لكن صوتا كالنذير انبعث من الغرفة شاخطا فيها محذرا إيـــاها ، فارتدت يدها ، صارت تتحسسنى ، تضع رأسى فوق صدرها وتضحك بدلا من البكاء حيث أن الطبيب حذرها من البكاء ، وكنت بدورى أبالغ فى الضحك لأغطى دموعى المنهمرة . وكان صفير القطار قد راح يجلجل فى البعيد البعيد ، وكان يبدو أننى على موعد ما ، فجعلت أقبل أمى فى كل مكان ، ثم هرولت خارجا ، وكنت فى هذه المرة أحمل حقيبة شديدة الأناقة كحقائب البكوات القدامى ، وأرتدى حلة فاخرة لفقتها بأعجوبة ، وأنتعل حذاء من فتارين شارع فؤاد ، لكن قدمى كانتا تحتفظان بمذاق الطين داخل الجورب . إن هى إلا برهة وجيزة حتى رأيتنى أهرول مسرعا لاهثا على الطريق الزراعى ، وفى الأفق البعيد قطار وهمى يوشك أن يصل إلى المحطة ولا يظهر منه إلا سحب غامقة اللون لانهاية لها .. تعثرت فوقعت ..

***

رفعت رأسى عن أرض المرحاض متحسسا مكان البطحة ، فإذا بى أسمع الضجيج أمام الباب وصوت الأسطى بتاع المفاتيح يعكرش بآلة حادة ويهزهز الباب بعنف . حينئذ أعدت نفسى إلى الوقعة من جديد ، رأيت أنها اتفقت مع ماكنت انتويته : أن أقع مغشيا على ، وأن أتقن الدور جيدا حتى ألهيهم في مشكلتى الصحية إلى أن أفكر فى مخرج منطقى معقول ، كأن أزعم أننى عالجت الباب فانفتح فلما دخلت وأغلقته زرجن ثانية ورفض أن ينفتح ، وأننى مصاب بالدوخة أو التعنية أو التشنج العصبى أو ماشاكل ذلك من العلل . لدهشتى كان التمثيل أقوى من الحقيقة ، إذ أننى ارتميت على الارض فعلا فاقد الحركة ، لكننى سمعتهم يلغطون يتعجبون يتصايحون فى طلب الإسعاف ،

وسمعت عم عبده الجرسون يقول بإشفاق أنه يعرفنى وأننى إبن ناس طيبين وأننى راحت علىّ نومة فى المرحاض إذ أننى كما يعرفنى مصاب بداء النوم فور جلوسى فى أى مكان . هنا قاومت بعنف حتى لا أبتسم ، ولاأظننى كنت قادرا على الإبتسام . غير أننى استنمت للراحة القصوى حين رأيتنى قد حملت إلى كنبة مريحة جدا فى سيارة فهمت أنها ملاكى ، وأن صاحبها تطوع بنقلى إلى أقرب مستشفى ؛ ثم انقطعت صلتى بكل شىء لوقت طويل ، ثم انتبهت قليلا على لغط من حولى وقد كفت الحركة تحت جسدى تماما ، فعرفت أننى على سرير فى مستشفى ، فازددت تشنجا وتصلبا فى رقدتى ، ومر وقت طويل خيل لى فيه أننى قد وضعت بالفعل داخل تابوت خشبى صلب يحيط بجسدى إحاطة السواربالمعصم . بعدها بقليل سمعت جلبة تدخل من الباب وسمعت صوتا غليظا أعرف أنه صوت ضابط التحريات ، ينطلق مجلجلا فى ضحكة ساخرة صافية منطلقة كادت تدفعنى دفعا إلى مشاركته البهجة مشاركتى له فى سر خفى نعرفه معا ، على أنه اندفع نحوى قائلا فى مرح عظيم :

– « تانى ؟ ! أدفع عمرى كله وأعرف حكاية الجدع ده إيه ؟ ! » .

- ٩ -
انعتاق القمر

رأيتنى أتسلق سلما حلزونيا رفيعا ضيق الدرج ، ذا درابزين من الحديد الأسطوانى المجوف ، وأما درجاته فمن الصاج الثقيل ذات سطح ملىء بالحبيبات المنتفخة كوجه مريض بالبثور وحب الشاب . البسطات متعاكسة متقابلة فى آن ، والدرابزين يتكسر إلى اليمين تارة ، لينحرف بعدها مباشرة إلي أقصى اليسار ، كثعبان خرافى بلى جثمانه وبقيت أضلاعه واقفة فى قلب هذا البئر المظلم ..

لست أذكر متى بدأت صعود هذا السلم ، لست أعرف لإمتداده نهاية ، إذ كلما نظرت إلى أعلى ، جوبهت بشبكة حديدية من الأضلاع والخطوط والدوائر والكتل السوداء تحاول أن تخطب ود قمر خائف يترقب مذعورا بين كتل من السحاب المظلم كقباب من الجهـــل والعنجهية كأقدام دكتاتور خرافى غشـــوم ..

قمرنذل جبان ، وسلم ثعبانى رعديد ، وقلب بائس مضطرب تتصاعد دقاته من أسفل البئر إلى تخوم القمر ، أغلب الظن أنه قلبى ..

لست أعرف إن كنت على صعود أو على هبوط ، إنما كنت على بسطة عالية جدا ، حتى لا أرى الأرض من تحتى ، فلابد إذن أننى كنت على صعود قبل برهة وجيزة . وكان القمر من فوقى يبدو غائرا فى البعد ، خنيسا ، فلابد إذن أننى كنت على هبوط منه إلى قرار مكين ..

كنت واقفا على أطراف قدمى ، أحاول من فرط الخوف والرعشة أن أحتفظ بتوازنى قدر الإمكان ، أغلب اليقين لأمسك بقلبى ذاك النافر ككرة القدم ما إن يلامس صدرى حتى ينط فى الهـــواء يكاد يبتعد يتلاطم بالشبكة الحديدية . إنجابت طاقية من السحب عن وجه القمر فاتسعت قبة الضوء قليلا فانسكبت فى البئر فتضاعفت أضلاع الشبكة الحديدية فأرسلت على برق الضوء الفضى الصدىء صورا عديدة من خطوطها ودوائرها وكتلها وبسطاتها على حوائط البئر وعلى الشبكة نفسها ، فتقاطعت رأسى مع ظلال الخطوط الشبكية فصرت لا أستطيع التفرقة بين الظل وأصله الحديدى ، أكاد أمسك ظل الدرابزين متساندا عليه ، تكاد الدرجات العليا تلامس أنفى وهى تلتف حولى . رائحة التراب تخترق خياشيمى . إستطرد التراب فتابعنى بروائح القمامة المنبعثة من أماكن غير معلومة ..

تقصد الضوء فى عينى قليلا كأنه عرق الظلمة المجهدة من مشوار طويل حافل بالمشقة المؤسية والأوجاع الأليمة . الدرجة التى رأيتنى واقفا عليها كانت تعلو بثلاث درجات عن بسطة معينة أحس أننى أعرفها جيدا ، مستطيلة ، تمتد من اسطوانة السلم إلى ممر لصيق بالحائط ممتد على جانبى السلم بدرابزين منفصل ، وفوق بثلاث درجات بسطة مشابهة تماما . على الممر ، فى مواجهة البسطة مباشرة ، باب مغلق ، من الواضح أنه لم يفتح فى يوم من الأيام ، يتراكم على أعقابه ظلام كالح وتراب زنخ ، بجواره شباك مغلق هو الآخر . فى نهاية الممر فوهة مفتوحة مستطيلة فى قامة رجل عملاق ، كشاروقة الفرن ملآنة بالرماد الأسود . كانت روائح القمامة ترق أحيانا فتشف عن رائحة تقلية حديثة القلى ورائحة لحم بلدى أنضجه الإستواء فى سبائك من الخضراوات ، ورائحة بن محروق ، ورائحة سمن بلدى ، وزيت وبصل وفوم ..

سرعان ما تبينت أننى مأسور فى سلم الخدم فى عمارة سكنية كبيرة شاهقة . تبينتنى قليلا قليلا : كنت أرتدى صندلا من الكاوتشوك قديما جدا من

صنع باتا ، وسروالا من الكتان رمادى اللون غير متسق ، وقميصا نصف كم كحلى اللون ، ولم يكن معى أى شىء ، سوى أن إبطى كان ينطوى بحرص شديد على شىء أذكر أنه يمثل أهمية جدخطيرة ، سرعان ما تبينت أنه جرنان قديم ذو صفحات كثيرة طويته على نفسه منذ وقت ما ، ونسيت ماذا كنت أبغى من الاحتفاظ به طوال كل هذا الوقت ..

رغم خوفى وذعرى بدا أننى على صلة وثيقة بهذا السلم على وجه التحديد ، وبهذه العمارة كلها .. بدا كأن القمراختفى خلف أسوار السحب العالية ، ثم بدا كأنه انعتق ، أو لعله قفز هاربا من فوق الأسوار ، بدا كأنه قد استدعى طلائع الفجر الكاذب ليطلعها على ما يحدث فوق هذا السلم فى هذه اللحظة التى لفظها متن الزمن فراحت تتسلق الهوامش تحاول الإندساس فى السياق ولو برقم بين قوسين يشير إليها ..

ثم بدا كأننى على علاقة – تبدو مشبوهة – بهذه البسطة التى تركتها تحتى بثلاث درجات ، وأننى تركتها لسبب ما ، وأننى ربما هدفت إلى هذه البسطة التى أقف عليها لسبب ما ، وأن هذا السبب يدخل فيه كون هذه الفوهة المستطيلة الشبيهة بشاروقة الفرن ، المماثلة لفوهة البسطة التحتية ، مغلقة على الدوام بباب صدىء ، مما يؤكد أن هذه البسطة ليست مطروقة من سكان هذا الطابق . وبدا كأننى أعرف كل ماوراء هذه الفوهة المستطيلة الشبيهة بشاروقة الفرن المفتوحة على البسطة التحتية على الدوام ، أعرف أننى لو تركت السلم ومشيت على الممر المتصل بالبسطة ودخلت من هذه الفوهة فسأجد نفسى فى قلب العمارة من الداخل ، أغلب الظن فى الطابق السابع أو الثامن ...

رأيتنى أهبط من مصعد العمارة ، أذكر أثناء الصعود أن كان معى ثلاثة ركاب لابد أنهم كانوا من أصدقائى ، خيل إلى أننى ميزت بينهم « شكرى

الخضرى أمين » ، سكرتير الكاتب الصحفى الكبير « عبدالقوى السعداوى » ، دائما أبدا شكرى الخضرى أمين ، شكرى الخضرى أمين دائما أبدا . هو أعجب من أستاذه وإن يكن صورة طبق الأصل منه ، يتكلم مثله بلباقة بألفاظ رنانة فخمة تخرج من حنكه الفلاحى ذى الأصل المدقع ، يشوح بيده عند الكلام فى رصانة الجهابذة وهدوء الحكماء ، يكاد سامعه ينخدع فيه ، يتصوره فيلسوفا كبيرا جدا على ثقافة موسوعية عالية المقام متينة البنيان عميقة الجذور، لكنه بعد دقائق يكتشف أن هذه العبارات الرنانة اللامعة المصكوكة العميقة ليست إلاصكوكا بدون رصيد من الثقافة على الاطلاق ، ليست إلا أصداء ما يتركه حديث أستاذه فيه طول النهار والليل . إلا أن كل من يكتشفه سرعان ما يزداد له حبا وإعجابا ، نظرا لحقيقة أصله كفلاح يعرف بالكاد فك الخط ، جاء به الأستاذ عبد القوى فى الأصل كخادم مشاويرجى ، فاكتشف فيه إمكانيات تطورية فطرية ترشحه لأن يكون أعلى قليلا من درجة الخادم ، فبات يستخدمه كخادم وسكرتير ومندوب وقواد ومتحدث رسمى باسمه ومتصد لجحافل الدائنين الذين يبحثون دائما عن الأستاذ .حقيقته هذه سرعان ما تدهش المرء فيستلطفه ويستحسن ذكاءه ، يرى فيه صورة أستاذه بكل حذافيرها ، إذ أنه يسلك نفس السلوك يفكر نفس الأفكار يتحدث نفس العبارات ، لاينقصه ليكون الأستاذ نفسه إلا أن يضاجع حريمه بالمرة ، لولا أن حريم الأستاذ طهقانين من شراهة الأستاذ وشبقه الذى لا ينطفىء . مثله مثل أستاذه له محلات بقالة ومحلات خمور وخضرجية وفكهانيه وأكشاك سجاير يتعامل معها بالأجل ، على النوته . ومثل أستاذه فإن أى صاحب محل لن يكسفه إذا تقدم بقلب جامد وثقة هائلة وطلب كذا وكيت وطلب لفها جيدا ثم بكل بساطة وثقة يقول له : سأمرعليك غدا لأحاسبك ! سيوافق صاحب المحل فى الحال ، لأن فى شكرى الخضرى أمين كما فى أستاذه نبرة توحى بالثقة والهيبة التى لا يصح خدشها . الشىء الوحيد

الذى فاق فيه أستاذه هو كيفية الزوغان من الدائنين ، فإذا كان أستاذه يتذكر المحل فجأة وهو يمشى فى الشارع نشوان سرحان فيستدير عائدا فى الحال أو يحود متسللا من حارة جانبية ، فإن شكرى الخضرى أمين لا يفعل هذا بل يجابه الدائن بكل ثقة ، ولربما مر على البائع الذى يكون منشغلا عنه غير منتبه إليه فينبهه بنفسه إلى نفسه كأن يلقى عليه التحية بصوت عال أو يقتحمه وسط زحام الزبائن مسلما بحرارة ، ودائما لسانه زرب ، جاهز بالحجة المنطقية والعذر الذى لابد أن يقبل ، أليس هو الذى يخلص أستاذه من مآزق الدائنين ومن المواقف الصعبة ؟ ! .. بيت أستاذه حافل على الدوام ، إذ هو شاعر وموسيقى وممثل ومؤلف ومخرج سينمائى وصاحب فرقة مسرحية ، لذا فشكرى الخضرى أمين شخصية معروفة لجميع الأوساط الفنية والثقافية ، تكاد تكون ألمع من شخصية أستاذه فى بعض الأماكن ، وقد استطاع أن ينقل من كل هذه النماذج الزائرة الساهرة المقامرة المتبذلة المتناقشة فى جدية كثيرا من السهر والمقامرة والتبذل والنقاش الجاد حتى ولو كان أجوف ، فهو جاهز دائما للتحدث فى أخطر القضايا السياسية والأدبية والفنية بنفس بساطة أستاذه وسيولته ، لكنها جدية تستوى عنده والإيقاع بفتاة ضالة أو النصب على ولد من الكومبارس معه بعض النقود . اللهجة الخطابية الزاعقة الجادة المهيبة يتكلم بها فى السياسة والفن ويخاطب بها المومسات وباعة الخضراوات والجزارين ونوادل المقاهى وماسحى الأحذية . هو متوسط القامة ربعة ، ليس سمينا ، لكنه صلب القوام ناشف الملامح والأطراف من شغل الفأس والمحراث ونقاوة اللطع ، مستطيل الوجه كنمس البطيخ الكحيان ، حاد الملامح غليظ الشفتين قد احترقتا من فرط التدخين المتواصل بشراهة ، بعينين ضيقتين قليلا لكن بريقهما يقظ نشط مشع لا يهدأ ، فى تقاطيعه سماحة رصينة وقورة لا تتناسب مع سن الثانية والعشرين من عمره، فيما بين عينيه وكربى خديه حركة استعداد دائمة

للمزاح الثقيل الفجومى الضاحك حتى الجنون الأجش ، لا يتنازل عن لبس البدلة الكاملة صيفا وشتاء ، فصلها له ترزى أستاذه ، مع رباط عنق فخم من مخلفات أستاذه ، وأزرار مفضضة ، وعطر الياسمين عند حلاقة الذقن التى يحلقها يوميا حتى باتت صفحة وجهه يشوبها الإخضرار .. لست أذكر متى عرفته ، أغلب الظن أننى عرفته مثلما عرفه الجميع ، فلو سألت أحدا ممن يعرفونه كيف عرفه فإنه سيحار ، مع أنهما أصدقاء خلص ، لن يعثر مطلقا على المناسبة الخاصة التى تعرف فيها على شكرى الخضرى أمين ، سيذكر عشرات بل مئات المناسبات الخاصة والعامة التى التقى فيها شكرى الخضرى أمين واجتمعا كأصدقاء ، لكن متى بدأت معرفته أول مرة وكيف ومن الذى عرفهما ببعضهما فذلك ساقط من ذاكرة كل من عرفوا شكرى الخضرى أمين وصادقوه مثلما هو ساقط من ذاكرتى ، لأنك من المألوف أن تلتقى شكرى الخضرى أمين فى أى مكان ، ومن المعروف أن تألفه فى الحال دون وسيط ، وأن يصطحبك أو تصطحبه لشرب كأسين أو طرقعة حجرين أو اصطياد مومس أو لتمثيل خناقة حامية فى موقف يدبره هو لصاحب البيت أو لأحد الدائنين ..

كنت متأكدا أنه ركب معى نفس المصعد ، بل أذكر أننا ربما نكون قد جئنا معا لركوب المصعد . تذكرت أن كلانا تعود أن يموه على الآخر كلما دخلنا هذه العمارة أو ركبنا هذا المصعد ! مع يقين كل منا أن الآخر ذاهب إلى نفس المكان ! غير أن كلانا يفضل دائما أن يفاجأ بالآخر بعد وصول أحدنا قبل أو بعد الآخر . لابد إذن أنه اختفى فجأة فى مكان ما حتى لا نطرق معا نفس الباب فى لحظة واحدة ، لاجدوى من محاولتى معرفة أين اختفى ، فشكرى الخضرى أمين سرعان ما يظهر وسرعان ما يختفى ، تنشق الأرض فتظهره ، وتنشق فتبتلعه ، فعلى الرغم من البذلة الأنيقة التى يرتديها ، والقاموس المستنير الجارى على لسانه ، فإنه لا يزال يحمل الكثير من مواهب الحشرات الضئيلة

التى تجيد الاختباء فى الشقوق الضيقة . ورغم أننى فلاح مثله ولى علاقة وثيقة بالأرض فإننى أحاول دائما أن أتعلم منه سر هذه الموهبة ولكن دون جدوى ..

صرت واقفا فى الردهة العريضة أمام باب المصعد ، أمامى أربعة أبواب متباعدة ، أحدها فى كوعة منزوية بجوار هذه الفوهة المستطيلة الشبيهة بشاروقة الفرن والتى توصل إلى سلم الخدم . لم يكن ثمة أثر لمن خيل لى أنهم كانوا معى فى المصعد ، عاودنى الإحساس بالتطفل السمج ، لشعورى بأنهم قد هربوا منى ودلقونى فى المصعد وحدى واختفوا بصنعة لطافة . لم أتبين لماذا هربوا منى ، كان من الواضح أننى جئت أطلب هدفا فى هذه الردهة ، أغلب ظنى أننى مشغول بأحد هذه الأبواب المغلقة يخيم عليها السكون المخيف ، فليس ثمة من حركة أو صوت أنفاس تترددخلف هذه الأبواب . إنها ليست شققا سكنية ، فكما هو واضح لى الآن يوجد على كل باب لوحة نحاسية ، بعضها تضاف إليه لافتات كبيرة بالنيون الخافت : فلان الفلانى محاسب قانونى .. فلان الفلانى المحامى لدى محكمة النقض ومجلس الدولة .. شركة النيل للكيماويات .. شركة نفرتيتى للإعلان والتصوير والخدمات الإعلامية ، تلك هى الشقة التى يبدو أننى جئت أقصدها . هاأنذا أقترب من بابها على أطراف أصابع قدمى . حاولت النظر من العين السحرية فى الباب ، تبينت استحالة النظر فيها من الخارج . ألصقت أذنى بالباب ، ليس ثمة من صوت على الإطلاق . ركعت على ركبتى ، ملت برأسى ناظرا تحت عقب الباب بحثا عن ضوء بداخلها ، لم أجد سوى الظلام ، اعتدلت واقفا ، مضيت نحو باب المصعد من جديد ، ربما لكى أهبط خارجا من العمارة . كان باب المصعد مغلقا ، وبئر المصعد فارغا يفح منه الظلام والصدأ . ألصقت عينى بحديد باب المصعد ، نظرت فى أسفل البئر ، رأيت سطح المصعد فى القاع البعيد البعيد ، ضغطت على الزر ، لم يحدث أى شىء ، تبينت أن الكهرباء مسحوبه عن المصعد ، تذكرت أن ذلك يحدث دائما بعد الثامنة أو التاسعة مساء ، وأن باب العمارة هو الآخر مغلق الآن بالقفل والجنزير من الداخل ، وأن البواب مستغرق فى النوم مع زوجه وأولاده فى

حجرته الكائنة تحت سلم العمارة بجوار باب سلم الخدم ، تذكرت أن العمارة كلها مكاتب وشركات ، فيما عدا القليل من الطوابق العلوية والسفلية ، البواب ليس كأى بواب ، إن فيه لعجرفة وكبرياء قد لا يتوافر فى عمدة البلاد ، أصله نوبى ، طويل القامة ، أسود اللون ، فى عينيه قرشان من الفضة اللامعة بخرمين فى وسطهما ، ضيق الجبهة تحت عمامة كبيرة بشال حريرى أبيض ، ضيق الخلق أيضا ، غليظ الكبد ، غليظ الصوت ، إن وقع فى يديه تائه أو عابر سبيل فياويله يا سواد ليله ، أما إن وقع فى يديه لص أو متسلل بليل فالخنجر فى جيب الصديرى يقفز من تلقاء نفسه لينذب فى جنب الضحية أولا قبل أى تفاهم ، له فى كل شهر ثلاث أو أربعة محاضر فى قسم الشرطة ، كل محضر بجريح ، كل جريح لابد أن يتضح فى النهاية أنه برىء وله عذره فى محاولة صعود العمارة ليلا . لكن « محجوب » البواب لابد أن يخرج بضمان صاحب العمارة ، التى كانت لأحد أفراد عائلة البدراوى قبل أن توضع تحت الحراسة لتئول ملكيتها بطريقة سحرية غامضة إلى واحد من كبار الضباط الأحرار ...

تحسست ساعة يدى العتيقة ، الوحيدة التى حرصت على ألا أبيعها أو أرهنها مثلما فعلت مع أشياء كثيرة سرعان ما ضاعت وانتهت من حياتى إلى الأبد . كانت الساعة تشير إلى قرب منتصف الليل ، فلابد إذن أننى صعدت إلى هنا منذ وقت مبكر ، وبدا لى أننى كنت أعرف حقيقة الباب المغلق والكهرباء المنسحبة وأننى اندسست بين الصاعدين فى زحمة العمل فى فترة ما بعد الظهر القصيرة غير أننى لم أعرف أين اختبأت طوال كل هذه المدة ..

أفقت فجأة على حقيقة أننى وحدى فى هذه العمارة كلها بجميع أدوارها العليا ، فشعرت براحة كبيرة جدا لأن عينا لا ترانى ، صار بوسعى أن أتربع جالسا على الأرض ، فلربما سكت هذا اللهب المتلظى فى قدمى وساقى من طول ما مشيت ووقفت . شرعت أفعل ، سمعت طقطقة خياطة السروال فاعتدلت فى الحال مذعورا وجعلت أتحسس مواضع الخياطة بين ساقى ، غاصت أصابعى

فى فتق طويل تحت المؤخرة ، شعرت بندم وغيظ عميقين ، داهمتنى الكآبة ، كدت أخبط دماغى فى الحائط لأفتته وأستريح من توريطاته التى يوقعنى فيها دائما . أخذت أروح وأجىء فى الردهة . صافحت عينى درجات السلم الرخامى اللامعة بجوار باب المصعد مباشرة ، إحلوت الفكرة فى نظرى ، جلست على إحدى الدرجات ، أسندت جانب رأسى إلى الحاجز الأسمنتى ، حاولت الغطس فى الفراغ اللانهائى ، لكن بارقة ضوء لمعت فجأة كومض الرعد مصحوبة بتكة سريعة خفيفة ، إهتز قلبى كاد يندلق من حلقى ، ظل يدق بعنف حتى بعد أن تبينت أن البواب قد أشعل نور بئر سلم الخدم ، سمعت خطواته فى الفناء وصوت باب المرحاض تحت السلم مباشرة يفتح ويغلق ، مضت برهة طويلة ، سمعت باب المرحاض يزيق مرتين ، وصوت الخطوات والهمهمة ، وصوت التكة ينسحب معها شبح الضوء عن أرض الردهة ..

ظل بصرى معلقا بلافتة : شركة نفرتيتى للتصوير والإعلان والخدمات الإعلامية لصاحبها عبد العليم العشرى ، فى علبة من البلاستيك بداخلها لمبة صغيرة جدا حمراء اللون لا تضئ سوى الحروف فحسب ...

رأيتنى أخترق ردهة مستطيلة حافلة بالمكاتب ، ودواليب الأوراق ، أغلب الظن أنها مقر مجلة (البوليس) كنت أتأبط ملفا جلديا كالحا أعرف أن به أوراقا كثيرة من ورق الدشت الذى أختلسه من دور الصحف التى أتردد عليها ، سطرت عليه بعض موضوعات أعرف مقدما أن الصحيفة لن تقبل نشرها لسبب أو لآخر ؛ لكننى مع ذلك أصر على مقابلة مدير التحرير وتقديمها له ، على الأقل ليقرأ ولو صفحة منها ، فلربما اقتنع من طريقتى فى الكتابة أننى أصلح للعمل محررا فيكلفنى بشئ أكتبه أو يلحقنى بالعمل بالقطعة . مررت فى طريقى

بمكتب عبد العليم العشرى ، الذى يعمل كبيرا لمصورى هذه المجلة رغم أنه شاب لا يتعدى الثلاثين من عمره ؛ لا هو بالطويل ولا بالقصير ، لكنه يصلح نجما سينمائيا لفرط أناقته رغم بساطة ملبسه الذى قد لا يتعدى أحيانا مجرد قميص وسروال وحذاء من أثمن وأغلى الأنواع . القميص دائما مفتوح الأزرار حتى منتصف الصدر ، حيث تظهر غابة من الشعر الأسود المتكور تصل حتى منابت الرقبة الممتلئة بالعضلات المكسوة باللحم كأنها منحوتة من البازلت ذات لون نحاسى ، تحمل رأسا محندقا ، مثلث الوجه كقمر تختفى نصف دائرته العلوية تحت قبة من الشعر الأسود اللامع المصفف فيما يشبه الفوضى المنظمة، مفلوق من الجانب الأيمن لكن الخصلات النافرة من الجانبين غطت الفلق من أعلى فبدا كممر مندثر فى قلب غابة فقدت بكارتها الخشنة . فى أسفل وجهه المثلث طابع الحسن كحبة الجوافة ؛ وفى خديه غمازتان خفيتان تلوحان كلما افتر ثغره عن مشروع ابتسامة ؛ فكل ابتساماته مجرد مشاريع ما تكاد تكتمل حتى تتفجر فى ضحكة عنيفة مكتومة صافية ، يهتز لها كتفاه العريضان النحيلان الأنيقان ، حيث يهفهف القميص عليهما بشفافية تنطبع من خلالها خطوط الفانلة بطوقيها وحمالتيها ، حيث تتألق فى عينيه السوداوين الطيبتين نظرة إشفاق رحيمة لوعتها الأيام وصبغتها بمشاعر الحزن والألم والحكمة . ذلك أنه ولد حلو بكل معنى الكلمة ، غاية فى الرقة والعنوبة والأدب والحياء . تظنه ابن ذوات من أولئك الذين يقال إنهم ولدوا والملعقة الذهبية فى أفواههم ، ولذلك تكون دهشتك عظيمة حين يألفك - وسرعان ما يألفك - فيحكى لك شيئا من قصة حياته ، كتلميذ فقير من بلدة البدرشين ، لفظه مجتمع المدارس لضيق ذات اليد ، فتعلم التصوير وكافح حتى اشتغل مصورا صحفيا ، وعن طريق الصحافة لمع كمصور للحفلات والأفراح والليالى الملاح ، فكسب الكثير حتى استأجر هذه

الشقة فى أكبر عمارة فى شارع فؤاد بقلب المدينة ليفتحها محلا للتصوير الخاص . وعن طريق الصحافة أيضا عشق التصوير السينمائى فالتحق مساعدا لأحد كبار المصورين ، ثم صار مساعدا أول ، ثم أصبح مصورا مستقلا : « كاميرامان » كما يطلق عليه الوسط السينمائى ، أو رجل الكاميرا كما يطلق على نفسه باعتباره من أهل الكلمة . وحينما افتتح التليفزيون العربى فى البلاد التحق به مصورا ، وحوّل شقته تلك إلى شركة للإعلانات التليفزيونية والسينمائية واختراع النشرات الإعلامية للشركات الكبرى ، وبات من ركاب السيارات الخاصة ، وصاحب رصيد فى بنك مصر ، وزوجة حسناء فى شقة أخرى يحدثها بالتليفون كل دقائق لينهى إليها أخبار تحركاته أولا بأول ..

بدا لى أن هذه أول زيارة أقوم بها لمجلة البوليس . ها هو ذا يتابعنى بنظراته . كنت متهيبا ، حذرا ، غريبا ، أتوقف بجوار كل مكتب لأسأل محرره عن مكان مدير التحرير . لا أحد يرفع بصره إلىّ ، إذ يبدو أنهم جميعا ينكرون علىّ جرأتى فى اقتحام عرينهم وصفاقتى فى محاولة فرض نفسى ، لم يجبنى أحد بغير عبارة : إسأل الساعى بتاعه . فلما يئست شعرت بالبواخ واستدرت لأنصرف مجررا أذيال والخجل ، لكن صوتا ذا نبرة فلاحية مغموسة فى رقة بندرية صاح بى كالنجدة كالأم الرءوم قائلا : تعالى يا حبيبى ! .. وإذ استدرت إليه وجدته يقف نصف وقفه ماداً يده ليسلم علىّ . عندما احتوت يده يدى شعرت بصدق شديد وحنو أشد كأنه يعتذرلى عن سوء ما قوبلت به . بحركة نصف دائرية جذبتنى يده فأجلستنى على كرسى بجواره ، ثم سحب يده وتناول علبة السجائر الأمريكية فقدمها لى : سيجارة ، كانت أمرا ، فنزعت واحدة ، فبسرعة تكت القداحة الـ « دنهل » رافعة شعلتها الجميلة تحت طرف سيجارتى ، فأشعلتها . ثم ضغط على زر جرس فجاء الساعى متجهم الوجه ينظر لى فى

استنكار كمن يتوقع اللوم على تركى أدخل دون استئذان ، إلا أن عبد العليم العشرى همس له برقة : هات شاى هنا للأستاذ . أحببت هذه الكلمة وهى تخرج من بين شفتيه إذ شعرت أنه ينطقها بكل جدية وصدق وبلا مجاملة . فى الحال جاء الشاى . إنعوج عبد العليم فى جلسته نصف عوجة ليواجهنى قائلا بكل رقة : « حضرتك عايز مدير التحرير ليه ؟ أى خدمة نستطيع القيام بها ؟ » كنت قد قرأت اسمه وشغلته على لافتة خشبية هرمية الشكل فوق مكتبه ، وعرفت أنه لن يكون صاحب فتوى فى أمر الكتابة والتحرير الصحفى ، لكنه فى النهاية من هيئة تحرير المجلة ، أى أنه ليس أى مصوراتى على الرصيف ، ثم إن وده الجميل قد أضعفنى ، فقلت له على الفور دون لف أو دوران : « معى موضوعات صحفية أريد نشرها فى مجلتكم » . تخايلت الإبتسامة فوق الغمازتين كخيال الظل ، وقال : « أهلا بيك ! » ، كانت صادقة ودودة ، أتبعها بقوله : « تعرف طبعا أننا مجلة خاصة إسمها البوليس ! يعنى لنا موضوعات صحفية خاصة بنا كصحافة نوعية أوقل صحافة مهنية ! أنت من أهل الكلمة وتستطيع اختيار التعبير المناسب أفضل منى ! فأنت لاشك تفهم قصدى ! » . قلت : « نعم ! أعرف ! وهذه موضوعات كتبتها عن أساليب الجريمة فى القرية المصرية ! وأسبابها ودوافعها المعلنة والخفية على السواء ! وأنواعها وألوانها !». كانت الغمازتان كسنارة خفية توشك على النجاح فى اصطياد الإبتسامة وللوصول بها إلى شاطىء ثغره مع كل عبارة نطقت بها ، إلا أن الإبتسامة سرعان ماكانت تنفلت مختبئة فى بريق الإعجاب فى عينيه الشبيهتين بلوزة القطن المتفتحة ، ثم هتف بصوت متهدج : « جميل ! هايل ! ورينى كده ! » . فتحت الملف بكل حماس ، نزعت الأوراق مكتوبة بخط أنيق ومزينة بعناوين كبيرة داخل مربعات وكورسوداء ، ومانشتات مثيرة ، ومقدمات بحروف كبيرة

تحتها خطــوط سوداء أخذ يقلب فيها بإعجـاب شديد ، يقرأ بعض السـطور ، ثم حملها ونهض واقفا قائلا : « عن إذنك ! » ، ومضى نحو الداخل مشيعا بنقرات قلبى كالدربكة تحتاط بإيقاع مؤخرته داخل السروال الأنيق من صوف الفانلة الرمادى الفاتح ، حتى اختفى داخل إحدى الغرف، مكث بها مدة طويلة ، ثم عاد متهلل الوجه كمحض خيال فى خيال ، يقول : « إبسط يا عم ! مدير التحرير قرأها بنفسه كلها ووافق على نشرها بعد عدد أو عددين ! » ثم جلس وهو يستدرك فى شىء من الأسف : « بس ! .. » وبدا أن ما سيقوله صعب عليه، فتردد قليلا ثم أردف : « بس مع الأسف ! المجلة لا تدفع أجرا ! » ثم صمت ناظرا فى عينى بعمق كأنه يختبر وقع المصيبة على ، وبدا فى الحال كأنه أدرك عمق الفاجعة فى عينى ، فإذا به يقول دفعة واحدة " « على فكرة ! أنت معك نقود ؟ ! » فوجئت ، ألجمتنى الدهشة ، حرت فى الجواب ، لكن يده كانت أسرع من جوابى ، إندبت يده فى جيب سرواله الخلفى فأخرجت محفظة جلدية ثمينة متخمة ، فتحها ، نزع منها ورقة خضراء من فئة الجنيه ، يتألق فيها وجه أبى الهول مصبوغا بحمرة الأصيل ، طواه بسرعة ودسه فى جيب قميصى على الصدر ، كل ذلك فى لمح البصر دون أن يشعر أحد . كانت فى عينيه نظرة حانيــة ترجـونى ألا أعترض ؛ وكانت فى أعطافى فرحــة شاملة تحملنى على ألا أعترض ؛ إذ بمجرد أن لامست ورقة الجنيه صدرى تفتحت كل أبواب المدينة فى وجهى ، وامتلأ أنفى برائحة الشواء ، ودغدغت أضلاعى حشيات الأسرة فى الفنادق الرخيصة ، واتسع صدرى للهواء ، وأشرقت فى ذهنى كتابات كثيرة ، وأطلت نواص كثيرة لمقاه حميمة بمقاعد ومناضد مرصوصة على الأرصفة فى ساعات العصارى ، حيث الحياة قلم وأوراق وأفكار تجرى إلى مستقر لها ، وعلبة سجائر كاملة ، وفنجان قهوة ، وشارع يتدفق بالحسان والألوان

والعطور؛فلم أنبس بحرف ، بل نكست وجهى الى الأرض فى محاولة فاشلة للإدعاء بأننى لم أر شيئا مما حدث . أفقت على صوت عبد العليم العشرى يقول فى دفء هامس : « إعتبرنى أخا لك بمعنى الكلمة ! كلما احتجت لشئ تعال واطلبه منى بقلب جامد ! على فكرة ! أنا لى مكتب آخر يمكن أن تزورنى فيه متى شئت بعد الظهر ! » ؛ وسحب ورقة من نتيجة أمامه ، فكتب عليها عنوان مقر شركته فى شارع فؤاد ...

صراخ حاد وكركبة ومطاردات هزتنى من الأعماق . كنت متقرفصا على درجة السلم الرخامية ؛ رفعت رأسى عن ركبتى ، عرفت أن معركة القطط تدور رحاها على سلم الخدم فى الخلف حول صفائح القمامة المتناثرة أمام أبواب المطابخ فى الطابق الأخير الذى يشغله مالك العمارة ورهط من عائلته ..

عدت أنظر فى باب الشقة التى تحمل إسم عبد العليم العشرى ؛ لاحظت أن النور يتسرب من تحت عقب الباب ، مما يؤكد أن فى داخلها أحدا ، هو على وجه التحديد « عاطف سنبل » الذى يعتمد عليه عبد العليم فى إدارة هذه الشركة رغم أنه ليس على شىء من الكفاءة ..

رأيتنى أدخل هذه الشقة ساعة الأصيل . كان من الواضح أننى أدخلها لأول مرة ، وأننى منبهر بنظامها ونظافتها وأثاثها الرشيق الهادئ السمات . الردهة مربعة على مساحة كبيرة تساوى أربعة فى أربعة أمتار مربع ، مفروشة بسجادة فستقية اللون عليها رسوم مزركشة ؛ الحوائط مغلفة بورق الحائط المشجر القريب هو الآخر من اللون الفستقى ؛ يوجد مكتب مستطيل على شكل مودرن ، دائرى ، أصفر اللون ، عليه لوح زجاجى تحته كرنفال من الصور الفوتوغرافية الملونة لمناظر عديدة ، وبطاقات متعددة الأشكال بأسماء شركات وناس مشهورين ؛ أمام المكتب بضعة مقاعد جلدية وثيرة . يتفرع من هذه

الردهة ممر يتسع لشخصين متجاورين ؛ يؤدى إلى ثلاث غرف تطل على شارعين عموميين بشرفات كبيرة ونوافذ مستطيلة ؛ وعلى اليمين دورة مياه ومطبخ كبير يصلح غرفة للمعيشة ؛ لكن عبد العليم العشرى إقتطع منه جزءًا حوله إلى غرفة ظلماء لتحميض الأفلام المصورة ؛ وجعل الغرفة المطلة على شارع فؤاد مكتبا له ، أين منه مكاتب الوزراء والكبراء ؛ وجعل من الغرفة المجاورة مقرا للسكرتارية الفنية التى تقوم بوضع التصميمات والماكينات والرسوم الإعلانية وصياغة المواد والأفكار وتخليقها فى تجسيدات فنية تخدم غرضا إعلانيا أو إعلاميا أو ما شاكل ذلك من الأغراض الداخلة فى اختصاص الشركة ؛ وليس فى هذه السكرتارية موظف واحد تلتزم الشركة تجاهه بأى التزامات ؛ إنما هم جميعا من العاملين فى الحقل الفنى والصحفى من أنصاف الموهوبين أو الموهوبين المضروبين فى حظوظهم ؛ يؤمون هذه الغرفة مساء كل يوم على فيض الكريم ؛ إن جاءهم شغل نفذوه وقبضوا عليه أجرا هامشيا ؛ وإن لم يجئ شغل فإنهم يقضون مع بعضهم وقتا طيبا يشربون القهوة والشاى ويدخنون السجائر ويستخدمون الهاتف على نفقة عبد العليم كإغراء لهم على الحضور المستمر . كما أنه جعل من الغرفة الثالثة مقرا للإدارة ؛ وفيها عدة دواليب تحوى الأوراق والمستندات وكافة المواد المكتوبة ، وفيها أربع مكاتب ماركة إيديال ، يجلس إليها أربعة من الشبان الموظفين فى جرائد ومؤسسات أخرى لكنهم يعملون لدى عبد العليم فى فترة المساء نظير مرتب ثابت ؛ إذ هم يقومون بأعمال جوهرية : مقابلة العملاء والإتفاق معهم وكتابة العقود والإشراف الإدارى على التنفيذ والإنتاج ؛ كما يقومون بتنظيم دفاتر الحسابات وترتيب كل شىء وتجهيزه لأى مراجعة مفاجئة . هؤلاء وأولئك جميعا من الشبان الباسمين سمحى الوجوه مهذبين على درجة كبيرة من الرقة .. مررت بهم فى الغرف قبل

أن أختار أحدهم لأسأله عن الأستاذ عبد العليم . على أننى اقتحمت الغرفة المواجهة المطلة على شارع فؤاد . كانت مواربة لا يظهر من بداخلها . قبل أن أطرق الباب خرج من خلف خوان شاب طويل القامة أبيض اللون أزرق العينين مستطيل الوجه غزير الشعر مجعده، فى عينيه بريق يشبه جدية النبلاء ويقرب من توعد قطاع الطرق ، رفيع الشفتين طويل الأنف بارز الخدين ، تنكمش شفتاه من الجنب على بسمة فيها قليل من الخبث وكثير من الشقاوة . قال دون أن أسأله : « أنا خدامك عاطف سنبل ! نائب رئيس الشركة ! أى خدمات ؟! » . قلت : « أريد مقابلة صديقى الأستاذ عبد العليم العشرى ! » . قال بأريحية فلاحية شهمة : « أهلا وسهلا ! اتفضل استريح ! زمانه جاى » ، ثم تقدمنى إلى شرفة الغرفة المطلة على شارع فؤاد ، وأشار على مقعد من الجريد ، فجلست عليه ، جلس هو قبالتى على مقعد آخر من الجريد أيضا – قدمت له نفسى بالشكل الذى أحب أن يعرفنى به . فوجئت بأنه يعرفنى من قبل ، كما فوجئت بأننى سبق أن رأيته كثيرا فى أماكن كثيرة ولم أكن أعرف ما هى شغلته على وجه التحديد . الآن وضح أننى قد عرفته حق المعرفة . إنه من السنبلاوين ، من قرية مجاورة لقرية الأديب الكبير عبد القوى بك ، وقد جاء إلى القاهرة على حسه ، إذ هو فى الأصل يعشق فن التمثيل السينمائى ، والأستاذ عبد القوى يعرف ذلك عنه ، ويتمنى لو يساعده ، وكثيرون غير الأستاذ يحبون مساعدته ، لكنه يتقاعس وهم يتقاعسون حتى تجىء الفرصة المناسبة التى يثقون أنها تستأهله ، فلو كان الأمر أمر تمثيل فحسب لملأ الدنيا تمثيلا وكسب آلاف الجنيهات ، إنما المشكلة أنه لا يقبل بغير دور الفتى الأول ، إذ أنه يملك كل مواصفات الفتى الأول فى السينما المصرية على الأقل .. وإلا فقل لى من هو أفضل منى فيهم ؟! عماد حمدى ؟ كمال الشناوى ؟ رشدى أباظه ؟ شكرى

سرحان ؟ كل هولاء مجرد نجوم،لكنهم فى التمثيل أجهل من دابة ! كلهم تنقصهم موهبة التمثيل المتوافرة فيه ، كما ينقصهم عنصر مهم جدا هو عنصر الثقافة الذى يرى أنه متوافر فيه أيضا ، الأمر فى نظره لا يحتاج أكثر من منتج جرىء مثل رمسيس نجيب يقدر على المغامرة بتقديم الوجوه الجديدة ، لكن يبدو أن العصر لا يقدم إلا رمسيسا واحدا فقط ..

هكذا قال وهو يقدم لى سيجارة من علبة متكورة متلوية ، ثم قال كلاما كثيرا جدا ، فهمت منه أن شكرى الخضرى أمين هو حلقة الوصل بينه وبين الأستاذ ، وأنهما أصدقاء طفولة ، وأن شكرى يقضى سهراته كل ليلة فى هذه الشقة وانهما كثيرا ما يبيتان معا ها هنا حتى الصباح مع زجاجة خمر أو قطعة حشيش للف السجائر ، أو حتى مع بضعة أكواب من الشاى القرديحى ، ثم قال لى : « ليتك تنتهز أى فرصة وتجىء لتسهر معنا حتى الصباح لو أردت!». وكان من الواضح أنه يعرف قيمة المكان بالنسبة لى ، وأن شقة كهذه يمكن أن تكون مأوىً عظيما يستحق أن أشكره عليه . واضح أنه قرأ الفرحة والحماس على وجهى ، وأنه قد سر بذلك سرورا كبيرا ، قلت له : « سوف أجىء فى أقرب وقت تتصوره ! » . قال كأنه يساعدنى على اجتياز الخطوة الحرجة : «تعال من الليلة إن أردت ! من الآن ! فبعد ساعات قليلة جدا ينصرف كل هولاء ويجىء شكرى فنسهر سويا نتكلم فى الأدب والفن ! على فكرة ! أنا لى فى الأدب ! أكتب بعض الخواطر الشعرية والقصصية وبعض الآراء ! نشر لى الأستاذ كثيرا فى بريد القراء ! غير أننى مشغول هذه الأيام عن الكتابة وأشعر أن وجودنا معا سيشجعنى على معاودة الكتابة سمعت أنك تكتب التمثيليات الإذاعيـة ! قرأت خبرا أنك تعـد بعض القصص الأدبية للإذاعة فى صوت العرب ! أنا يمكن أن أنفعك فى هذه العملية ! إن أردت أن تكلم المخرجين لكى

يستعينوا بى فى بعض الأدوار فسأوافق من أجل خاطرك فحسب ! إنه مجرد تدريب على الصوت لا بأس به ! ثم إن الاذاعة ميــدان فسيح ومهم بالنسبة للممثل ! »

وكان الليل قد تقدم بصورة لم أشهدها من قبل ، إذ فوجئت بأننى فى الهزيع الأخير من الليل بدون قميص ، وبدون حذاء ، وبالسروال الداخلى والفانلة أم حمالات فحسب ، أضطجع على السجادة القطيفة متكئا على حشية كرسى ، وبيدى سيجارة حشيش مشتعلة ، وأمامى كوب شاى بارد ، وعاطف سنبل على نفس الوضع على مقربة ، وشكرى الخضرى أمين على نفس الوضع أيضا ولكن فوق كنبة استديو . كان من الواضح أننا مسطولين جدا ، حيث أهلكنا كومة هائلة من السجائر الملفوفة بالحشيش من قطعة أتى بها شكرى الخضرى أمين من حى معروف الذى يسكن فى إحــدى حاراته الجانبية الضيقة . وكان خيط الحديث قد انقطع بيننا منذ وقت بعيد لم أتبينه ، وبدا أننا تهنا من بعضنا ، فانفرد كل واحد بنفسه يضرب فى مجاهل غامضة مبهجة ..

وكان يلوح لى أن هذه القعدة راسخة متكررة ، كما كان يلوح لى أننى مهموم بمشكلة خطيرة قابعة فى جيب سروالى الخلفى فى محفظة تضم البطاقة الشخصية والمفكرة ، تلك هى خمسة جنيهات كاملة قبضتها اليوم من الإذاعة عن حلقة كتبتها لبرنامج «من الحياة» إخراج ديمترى لوقا . ورقة خضراء شكلها محترم جدا ، حرصت على إخفائها فى جيب سحرى للمفكرة ، وانتويت أن أقتطع منها بضعة ملاليم كل يوم لزوم الأكل فحسب ، لكى تكفينى أطول مدة ممكنة ، حيث أنى لا أعرف متى تجىء نقود ولا من أين ، كما أنى لم أعد مستعدا لتجربة الجوع فى هذه المدينة أكثر من ثلاثة أيام . كنت أعرف أن سروالى معلق على ظهر الكرسى من خلفى ، وكنت قلقا بعض الشىء ، فرغم

أنتمائى لهذين الصديقين فإننى كنت أخشى ضياع الوقة المالية الخمسية التى أحس الآن أنها كل مستقبلى . مع ذلك كنت أشعر أننى لا مانع لدى من أن أعزم الصديقين على عشوة أو فطور أو قطعة حشيش بخمسين قرشا ، على أن يتم ذلك دون أن تظهر الورقة الخمسية ، وإلا فأنا مضطر لإنفاقها كلها على ثلاثتنا ، ولن أستطيع التذرع بأى حجة تبرر تقاعسى عن القيام بواجب طالما أن معى نقودا كهذه ، مثلما يفعل كل منهما بالقروش القليلة التى معه . فكرت أن أفعل ذلك فى الغد ، أن أفك الورقة فأخفى معظمها وأبرز ما أنتوى صرفه موحيا إليهما بأن هذا المبلغ هو كل مامعى ...

ثم رأيتنى أتجول فى شارع فؤاد وحواريه الجانبية ، أتوقف عند كل مقهى ، أتلكأ عند مقهى الكومبارس . كان من الواضح أننى فرح فرحة غامرة ، وأن سبب هذه الفرحة وجود قطعة الحشيش فى جيبى ، وأننى أبحث عن عاطف سنبل لكى نعود معا إلى الشقة ونشرع فى تدخينها مع شكرى الخضرى أمين، الذى لابد أن يكون هو الأخر قد تصرف فى بضعة كئوس يجمعها من بقايا قعدة الأستاذ كما يفعل دائما ...

ثم رأيتنى أطرق باب الشقة ولا من مجيب . وكانت أصوات همهمة ومقارعة كئوس تبلغنى من خلف الباب فأعاود الطرق بشدة . كان يخيل لى أن قطعة الحشيش لا تزال فى جيبى أدخرها منذ وقت طويل ، حيث أعطانيها ممثل كبير فى مقابل إرشادى له إلى بائع لديه صنف جيد . وكنت على ما يشبه الثقة من أن أحدا لن يفتح لى الباب . تذكرت بقلب منتفض أن شكرى الخضرى أمين قد رآنى.. منذ أيام بعيدة أقف أمام شباك الصرف الفورى فى الإذاعة ، وقد تلكأ حتى رآنى أصرف الجنيهات الخمسة ، ولابد أنه أخبر عاطف سنبل بأن

معى نقودا كبيرة أخفيهـــا عنهما . كنت واثقا أن شكرى الخضرى أمين لن يغفر لى هذه « النتانة » أبدا ، ولن يقبل أى شرح أو تفسير . تذكرت أننى وقفت أمام هذا الباب نفس هذه الوقفة ليالى كثيرة جدا ولم يفتح لى أحد ، ومع ذلك لاأدرى لماذا أعاود المجىء والطرق رغم يقينى بأن عاطف سنبل وشكرى الخضرى أمين قد لفظانى إلى الأبد ..

ثم رأيتنى أجرى بأقصى سرعة ولهاث داخل نفق مظلم رحيب وقد وقر فى ذهنى أن ثمة فتحة قريبة توصل إلى سلم للخروج . ثم رأيتنى مشرفا على حالة إغماء ، ثم تهاويت جالسا ، ثم رأيتنى ألهث فى جلستى بجوار عبد العليم العشرى فى مكتبه بمجلة البوليس ، وكان يحاول استدراجى لمعرفة سبب حضورى المفاجىء على هذا النحو العصبى المنفعل . لم أكن أعرف لماذا جئت ، ولكن بدا لى أننى أحاول النهوض والانصراف قبل أن ينزلق لسانى بالدس فى حق عاطف سنبل وشكرى الخضرى أمين ، وإبلاغ عبد العليم العشرى بأنهما يبيتان فى شقته ويمارسان فيها السكر والعربدة . كان من الواضح أننى مضطرب جدا ، وأننى أؤنب نفسى على إقدامى على هذه المحاولة الخسيسة التى لاشك تصغرنى فى عين عبد العليم ، وتصمنى بالنذالة . وقفت مستعدا للإنصراف . إستبقانى ، أصر على معرفة السبب وراء زيارتى : عايز فلوس ؟ لأ ! فيه حاجة حصلت ؟ ! فيه حد متخانق معاك ؟ لأ ! لأ .. فما الأمر إذن ؟! مجرد زيارة فحسب .. إذن فاجلس لتشرب الشاى . جلست على مضض وقد شعرت كأن حبل المشنقة ملتف حول رقبتى ، وثمة مجهول فى مكان خفى يشيع لى بصقة ساخنة تستقر على جبهتى ملتصقة بها ليتناثر منها رذاذ إلى عينى . شعرت بالتقزز فانتفضت فى غضب أتلفت حوالى باحثا عمن فعل بى هذه الفعلة الحقيرة ..

مرت دقائق طويلة كنت أنتفض خلالها ، ثم تبينت أننى قد تقرفصت فوق بسطة فى سلم الخدم ، حيث كانت البصقة لا تزال عالقة بجبهتى ، فمددت يدى لأمسحها ، وكانت فردة حمام قد وقفت على حديد الدرابزين فوق رأسى مباشرة ، وألقت فوق جبهتى بصقتها الثانية ، فمسحتها هى الأخرى بقرف . وكان ضوء الصباح قد دهن السماء والسلم والبئر بلون تريكوازى رائق ، فتبينت أننى كنت - منذ ساعات طويلة مضت - قد فرشت الجرنان على هذه البسطة وتمددت مستغرقا فى النوم بعد يأس من فتح باب الشقة ، مثلما تعودت أن أفعل كلما تعبت من اللف ويئست من فتح الأبواب ..

ظللت متقرفصا لدقائق أخرى طويلة خيل لى خلالها أننى لن أستطيع فرد جسدى . ثم تبينت أننى يجب أن أراقب حركة البواب ، فأنتظر حتى يجىء كعادته كل يوم ليدخل المرحاض تحت بئر السلم مباشرة ويغلق على نفسه الباب من الداخل ، لكى أتسلل على أطراف أصابعى فأهبط إلى بئر السلم ، وأتجه إلى الباب الخلفى للعمارة ، فأزيح الترباس برفق وهدوء ، لأفتح الباب وأتسلل خارجا ثم أجذبه ثانية ، وأسرب يدى من خلال شبكته الحديدية لأغلقه من الداخل كما كان . وهكذا لمت الجرنان وطويته بعناية تحت إبطى ، ووقفت منزويا على إحدى الدرجات مداريا نفسى فى شبكة الحديد . وكان القمر قد انعتق تماما ، وانفرجت فى وجهه أسارير السحاب ، وصفا الأديم .وحين ظهر البواب يكح ويضرط ويهمهم دق قلبى بعنف شديد . فلما دخل المرحاض وأغلق الباب من الداخل هدأت دقات قلبى وانتقلت الرعشة إلى ساقى ، فشرعت أهبط فى هدوء وحذر ، وقد راح القمر يرقبنى بفضول شديد ، ويميل نحوى فى نزق ونشاط ، ثم يهبط معى إلى البئر درجة فدرجة .

عرق الحلاوة

كنت واثقا من أننى لست نائما بالفعل ، إنما أنا - فحسب - أجرب النوم على هذا النحو الذى لم يكن ليخطر ببال أى إنسان بالمرة ، وإن خطر بباله فإنه لا يمكن أن يقدم على تنفيذه إلا أن يكون شخصا غريب الأطوار ، أو فرض عليه أن يكون غريب الأطوار مثلى . وكنت واعيا بأننى يجب أن أكون واعيا بهذه الحقيقة وألا أغفل عنها برهة واحدة مهما استغرقت فى النوم الفعلى، كان علىّ أن أترك جانبا منى يستغرق فى النوم ، ولهذا الجانب أن يتعاظم شيئا فشيئا حسب طبيعة اللحظة وظروفها ، لكنه مهما تعاظم فلا بد أن يبقى منى جزء متيقظ ينبهنى إلى أننى لم أتحول بعد إلى حقيبة من بين عشرات الحقائب المتراصة على هذا الرصيف أو ذاك ، هذا المخزن أو ذاك ..

وهكذا فقد انتبهت الآن إلى ما صار يحدث حولى من ضجيج هائل وعنف ورجة وهزات متكررة تكاد تفتتنى : زغد وشد وهبد ورزع وزحزحة قاسية ، مما جعلنى أزداد انكماشا داخل الحقيبة لعلنى أزداد ثقلا أو أكتسب ثقل الرمل وإن استطعت فالحديد أو الصخر ، خوف أن أتدحرج فترتض عظامى أو أهوى من عل فتتكسر . وكنت قد تنبهت إلى أننى متكور داخل الحقيبة فوق رف قطار قشاش من قطارات الصعيد ، وأننى ألقى بى على هذا الرف من

محطة الجيزة ، وفى مخططى أن أستفيد بالوقت الذى سيقطعه القطار من الجيزة إلى أسوان فى النوم دون أن أضطر إلى دفع أجرة أو قطع تذكرة أو تطويق يقتادنى مفضوحا إلى مخفر الشرطة ، وهى مسافة طيبة تستغرق ما يقرب من ثمانية وأربعين ساعة قد تتضاعف وتتضاعف ما بين رواح ومجىء القطار على نفس الخط إلى أن يمل جسدى ويتعب فلا يفكر فى النوم إلا بعد دهر طويل ، مع أن الشوق العظيم إلى النوم شوق مقيم بالنسبة لى على الدوام لا يفتر ولا يهدأ . كان لابد أن أختفى لتبقى الحقيبة ، لأتحول إلى مجرد شىء لا تصح محاكمته أو لومه ، غاية ما هنالك أن تظل الحقيقة فى حالها على الرف إلى أن يأخذها صاحبها أو تأخذ هى نفسها وتنصرف .

ذات لحظة بائسة عبقرية طرأت الفكرة على رأسى فنفذتها فى الحال دون تردد ، على سبيل التجربة المازحة . أهى عبقرية البؤس أم بؤس العبقرية؟! لست أدرى ، لكننى لحظتها كنت فى قمة اليأس والرغبة الشديدة فى الموت والتلاشى نهائيا من الوجود بدون أن أترك أى ذكرى أو أى إشارة تتعلق بى . كان البرد قارسا ، فى عز شهر طوبة ، فى بداية النصف الثانى من الليل ، إذ أحمل هذه الحقيبة الكبيرة ، المحشوة بالخرق البالية ، فى يدى ، وأمضى متنفضا من شدة البرد ، تصطك أعضائى فى بعضها تكاد أسنانى تنغرز فى لسانى ، وأهمهم وأدمدم فى هذيان غير مفهوم ، ملتزما جانب الحوائط من الأرصفة ، متجنبا برك المطر ووحلها فى نهر الشارع ، شارع الجمهورية المؤدى إلى ميدان رمسيس . ذلك الميدان هو الملاذ الأبدى ، فبما أننى أحمل حقيبة ملابس كبيرة فإننى تبعا لذلك يجب أن أكون على سفر ، هكذا ينبغى أن يفهم من يقابلنى سواء من الشرطة أو من المعارف ، كما أن السير فى ميدان رمسيس يمكن أن يغنينى عن مطلب التبرير أو الهدف من السير الآن فى الشارع حيث يكمن

الجميع فى مأمن يتوافر حتى لصغار الحشرات ، أما التواجد فى قلب محطة مصر ، بين جمهرة المسافرين والعائدين من السفر ، يمكن أن يصرف عنى كل عين ولو إلى حين . أشعر إلى ذلك أن سببا آخر يكمن فى محاولتى الدائمة أن ألوذ بباب الحديد ، ربما كان شعورى بأنه الباب الذى يمكن أن يعيدنى إلى قريتى فى أية لحظة . ذلك أننى رغم كونى أكاد أكون مقيما فيه أأوب إليه مساء كل يوم لامحالة ، أرانى كلما أقبلت عليه ينتابنى فرح عظيم مفعم بالأمل القريب فى رؤية الأهل والأصدقاء وذكريات الصبا والطفولة ..

كان ميدان المحطة خاليا تماما ، أما مدخل المحطة نفسه فقد كان على درجة عظيمة من الهدوء والسكينة ، قطرات المطر تلمع فوق بلاطات الأرض العريضة الأنيقة الملونة ، ولمبات الكهرباء الخافتة وأعمدة النيون ذات اللون الغزدقى تنعكس خيـالاتها فى الأرض ، فكأنك تمشى فى بحر من الضوء البهيج ، بوفيه المحطة يبدو خاليا من الرواد ، فالمقاعد المنجدة بالجلد ذات المساند المعدنية المنكلة تصطف أمامه حول مناضد عليها مفارش منقوشة بالكاروهات فوقها طفايات سجائر ، وليس من جالس إليها ، لكنك تلمح من خلال النوافذ الكبيرة كثيرا من الرواد يجلسون فرادى فى الداخل يشربون القهوة والشاى ويدخنون ، وبعضهم يقرأ الجرائد منهمكا ، والبعض الآخر يتثاءب ويتمطع وينظر فى ساعة يده . أمام البوفية - لصق سياج رصيف القطار ، المتكرر بجوار بعضه البعض - يقف كشك الجرائد والسجائر وثلاجة المياه الغازية ، حيث الجرائد والمجلات والكتب مفروشة على الأرض ومشكوكة فى حوامل معدنية ، وصاحب الكشك متلفع بتلفيعة صوفية كبيرة فوق معطف من الكاكى الثقيل وعمامة صعيدية غليظة . قد قبع فى ركن داخل الكشك الضيق لايظهر منه سوى رأس كبير يطل منه عينان كابيتان وشارب مصفر من التدخين

كشرابة كوز الذرة الأخضر . أما بوابات الأرصفة فمغلقة بأبوابها الحديدية الرمزية الفقيرة ، وليس من أحد أمامها ..

دخلت الساحة فى بحر الضوء ممسكا الحقيبة بيسراى ، وبيمناى رفعت جريدة قديمة فوق رأسى أتقى بها قطرات المطر التى تعنف حينا وترق أحيانا . الحقيبة كانت ثمينة حقا لدرجة استكثرتها على نفسى ، أذكر أننى استعرتها من أحد الأصدقاء منذ مدة طويلة ، على ذمة أن أسافر بها إلى البلدة وأعود فأردها له ، غير أننى لم أره بعدها ، واستوليت على الحقيبة التى لم تفارقنى من لحظتها إلى الآن ، إذ هى من نوع نادر المثال ، أصلها من مشمع ثقيل جدا ناعم كالقطيفة ، قيل إنها من قماش يسمى الشمواه . أعدت لاستيعاب حوائج أسرة بأكملها لرحلة طويلة ، تتميز بأنها يمكن تجميعها وضغطها فى بعضها بطريقة فنية متقنة الصنع لتصير حقيبة صغيرة تكفى لاحتياجات فرد واحد ، فإذا ما أراد صاحبها توسيعها فك بعض أزرارها العديدة لتصير فى طول الزكيبة ولكن على نسق شديد الرقى فى الصنعة والجمال الشكلى ، بأضلاع عريضة متينة ورءوس معدنية تصلح كأقدام تقف عليها ، فإذا ما امتلأت عن آخرها بما يملأ عديدا من الحقائب ، فعند ذلك يمكن إغلاقها بسوستتين متقابلتين ، تنشد كل منهما من طرفها ، لتتقابلا فى المنتصف ، بحيث يمكن ضم يديهما معا بقفل صغير ينفذ فى الخرمين ، وفوق ذلك يمكن تحزيمها بحزامين لكل منهما أبزين صغير ..

كانت منكمشة فى يدى بحجم حقيبة صغيرة تتسع لملابسى القليلة الوسخة الخلقة ، مضيت بها متجولا على الرصيف العريض فى الساحة الضوئية متخذا سمت من هو على سفر ينتظر موعد القطار . لحظتها لم يكن فى نيتى أى شىء أخر ، ولم تكن أية فكرة قد طرأت على ذهنى بعد ، لكننى حين انحرفت

فى سيرى نحو سقف يستظلنى فى مبنى المحطة وجدتنى أدخل باب قبو يفتح على ممر مسقوف مقبب ، وينتهى بممر على الجانبين . لم يكن ثمة من أحد ، فيما عدا واحدا رجحت من بدلته الصفراء المترهلة أنه ربما يكون أحد السعاة أو أحد أمناء المخازن أو ما أشبه ، كان آتيا فى مواجهتى يجرر ساقيه الهزيلتين ويطوح فى يده بسلسلة بها بعض المفاتيح ، وتتطوح اليد الأخرى بلفافة تبغ مشتعلة تتصاعد منها خيوط الدخان . وصلت إلى الممر المواجه ، نظرت شمالا فوجدت حجرة صغيرة بها مكتب وكرسى ورجل عجوز يسند رأسه على ذراعيه فوق المكتب ويستغرق فى نوم عميق ، وعلى باب الحجرة لافتة نحاسية مكتوب عليها كلمة : تشهيلات . أمام الباب مساحة فارغة . نظرت يمينا فرأيت ما يشبه الرصيف الضيق ، أمامه بضع عربات منفصلة من قطار البضائع ، متباعدة فوق القضبان . يوجد على الرصيف بابان وأربعة شبابيك مدهونة باللون الأخضر الميرى ، ومغلقة ، كما يوجد حوالى ثلاث دكك خشبية مستطيلة بمساند للظهر والذراعين . على إحدى الدكك يرقد رجلان يلبسان الثوب الأزرق وعلى صدر كل منهما نحاسة منقوشة عليها رقم ، فهمت أنهما من الشيالين . الرصيف مسقوف بسقف جملون ، ولكن مياه المطر كانت تأتى مع هبات الريح ومن خلال شرائح خشب السقف المتباعدة ، فتغسل الرصيف وتبلل الدكك ، وقد عجبت كيف تسنى لهذين الشيالين الإستغراق فى النوم رغم البرد ..

ليس فى استطاعتى رؤية مقعد بالمجان ولا أجلس عليه ولو لدقائق معدودة ألّين فيها ساقى . وهكذا جلست على أول دكة قابلتنى ، واضعا الحقيبة بجوارى . منذ سنوات عديدة ما بين ربوع الإسكندرية والقاهرة تعودت أن يدهمنى النوم فجأة بمجرد استوائى على أى مقعد فى أى مكان فى أية لحظة ،

ما أن تلوح لجسدى فرصة متكأ حتى يتهاوى تحت ثقل من الهديم كأنما انهارت فوقى الرواسى ، حتى وأنا أجلس أمام المديرين ومسئولى الجهات التى أتردد عليها للبحث عن عمل ، أشعر بزحف الثقل . إذ تغيم الدنيا فى ناظرى شيئا فشيئا ويمتلىء الفراغ بغبار ترابى رمادى اللون كأنها ظلال الجبال تقبل داهمة لترتد فى الحال عائدة ، وفيما بين إقبالها وإدبارها تنجاب البهمة عن وجه محدثى لبرهة وجيزة يغيب بعدها فلا يبقى منه سوى صوته الرتيب الذى سرعان ما يترامى فى الأفق البعيد ليرتد هو الأخر عائدا ، لأفتح عينى بصعوبة هائلة مركزا البصر على وجه محدثى ، لأستبين من ملامحه أى علامة تشير إلى انتهاء الحديث ، أما جوهر الحديث نفسه فلست أظن أنه بات يهمنى استماعه فلست أندم على ضياعه لأنه أصبح معروفا لى من قبل أن أسمعه دون أن أسمعه ، إذ النتيجة النهائية هى الإعتذار بطرائق متعددة تلف حول العمالة الزائدة وضعف الميزانية وما إلى ذلك ، كل ما بات يعنينى هو هذه اللمحة التى تشى بأن محدثى قد أنهى حديثه ، حينئذ أكتفى بما نلته من قسط راحة ونوم مقداره ثلاث أو أربع دقائق ، فإن كان محدثى كريما واكتشفت أنه طلب لى واحد شاى أو حاجة صاقعة على سبيل التحية أو المواساةأو جبران الخاطر فإننى أتلكأ قليلا فى الشرب ، لإظهار القناعة وامتلاء العين من ناحية ، ولإطالة فرصة الراحة على مقعد جلدى وثير من ناحية أخرى . فى العادة كان محدثى يمهلنى دون ضجر أو استياء ، يكفيه أننى لم أوجع دماغه ولم ألح عليه أو أجادله فى شىء بل تقبلت الأمر بكل بساطة وأريحية بما فى ذلك الكلمات الجارحة التى ربما يكون قد تفوه بها فى حديثه الذى لم أشرف بالإستماع إلى حرف واحد منه ..

لسعتنى قطرات المطر التى بدت كأن مجهولا ينشن بها على عينى مباشرة لتنفرش على عدستى المنظار الطبى وتعوقنى عن الرؤية . برب..شت بعينى تحت المنظار ، فرأيت العربات السائبة من قطار البضائع فبدت كملاجىء حصينة ؛ لكننى استثقلت النهوض ثم الهبوط من الرصيف إلى القضبان لأتسلق إحدى العربات وأنمحى بداخلها . توقفت عينى وهى عائدة على جثة أحد الحمالين النائمين على الدكة المقابلة ، لاحظت أن أحدهما يرتدى فوق الجلباب الأزرق سترة من المشمع الثقيل جدا كقماش الخيم ، يشبه إلى حد كبير جدا قماش حقيبتى ، حينئذ تمنيت أن لو كانت هذه الحقيبة سترة أذن لكانت أعظم شىء أحتاجه فى هذه اللحظة ، ثم تمنيت لو أن هذا الحمال قايضنى بسترته مقابل حقيبتى . نفيت هذا الخاطر باشمئناط ؛ حاولت مد ساقى على الأرض ليتخذ جسدى وضعا مريحا . كان من الواضح أن أحدا لن يشعر بى ولن يطردنى من هذا المكان قبل ثلاث أو أربع ساعات على الأقل ؛ فاعتدلت تمددت على راحتى فوق الدكة المستطيلة واضعا الحقيبة تحت رأسى . غير أن البرد القارس كان ينفضنى مهما تقرفصت دافنا ذقنى بين ركبتى ، وقطرات المطر تنقش فوق جسدى لوحة من طين السقف لاهبة لاسعة مزعجة ، فاستحال على النوم ، فانتفضت جالسا يعقد اليأس رأسى وأعصابى بحبال من الغيظ والغضب ، وقلت إن المشى أرحم ، وأجلب للدفء ؛ فنزعت الحقيبة وهممت بالإنصراف . إنبثقت فى رأسى صورتها وهى مفرودة عن آخرها ؛ فأحسست بشىء فى داخلى يبتسم ابتسامة عريضة مشرقة ، فجلست من جديد وجعلت أفرد الحقيبة فإذا هى فى حجم جوال كبير ؛ فتحتها عن آخرها ، قاصدا أن أفردها على ظهرى ؛ شرعت أفعل ، خطر لى أننى لو ألبستها ظهرى من الخلف يكون أفضل ، فسربت رأسى بداخلها وسربت كتفىّ برفق ، واحدا وراء الآخر ؛ فإذا هى تتسع وتستطيل . ثم جربت النوم هكذا فتبينت أن بإمكانى إدخال

مؤخرتى هى الأخرى ؛ وإذا بساقى ينزلقان داخل الحقيبة وإذا بى غارقا تماما فيها بل وأستطيع تحريك رأسى وذراعى بداخلها بل أستطيع عدل نفسى على أى جنب أشاء بداخل الحقيبة دون أن تتحرك الحقيبة نفسها ؛ بل تمكنت من سحب الثياب التى كانت بها من تحت قدمى ، وتكويرها ، ووضعها تحت رأسى فيما يشبه الوسادة ، ثم خلعت الحذاء وصلبت به الوسادة ودقرت أصبع قدمى اليسرى فى عقدة السوستة ساندا بالقدم الأخرى ، وجعلت أدفع ظفر الأصبع الكبيرة بعقدة السوستة وهى تنزلق فوق قضبانها الرقيقة بسلاسة تضم طرفى الحقيبة ؛ فلما اقتربت عقدة السوستة قليلا وصارت فى متناول يدى مددت أصبعىّ فقبضا على عقدة السوستة من الخارج والداخل ثم صرت أسحبها ؛ فانغلقت الحقيبة حتى بداية صدرى ، وصار بإمكانى أن أمد يدى لأجىء بعقدة السوستة الأخرى المقابلة من تحت رأسى مباشرة ، لكننى لم أجد لذلك ضرورة، إذ أن طرفى الحقيبة كانا مضمومين تماما حتى لكأننى فى التابوت المحكم الذى رقد فيه أوزير فى حفل الخيانة التاريخية ؛ ولم يعد المطر قادرا على النفاذ وإن كان الهواء يجد لنفسه شرخا فوق رأسى مباشرة ؛ ثم استكن كل شىء . وكان الضوء العليل يتسرب من شرخ الطرفين المشرشرين فيرسم على صدرى خطوطا متعرجة كفك التمساح يستقطب طائرا من الطيور التى تنظف له أسنانه من بقايا لحم الفريسة ..

كنت أتصور أن الدفء يجلب النوم العميق ؛ لكن يبدو أن النوم الذى كان يداهمنى منذ دقائق قد رواغنى ولم يدخل معى إلى الحقيبة ؛ ولابد أن دماغى يقف الآن حائما حول الدكة مع الجزء المتيقظ من عقلى يحاول حراستى يتأهب لتنبيهى قبل أن تدهمنى يد العدوان . شعرت بالإمتنان الشديد لهذه الحقيبة العظيمة . تذكرت بكثير من الحنق أننى طوال السنوات الفائتة طالما تمردت على الحقائب وكرهتها . كانت أكبر عبء يثقل كاهلى . أول أمنية كانت تراودنى عند

وصولى إلى أى مكان آمن هى محاولة التخلص من الحقيبة لأمشى بعدها خاليا متحرراً من كل عبء آخر سوى عبء جسدى نفسه . وأول شىء أفكر فيه عند وصولى إلى أى مكان هو خلع جوربى المنتن وغسله بالماء وغسل قدمىّ المتهرأتى الأصابع ....

***

رأيتنى أنظر فى مرآة عريضة أنيقة ، لأرى فى مواجهتى رجلا كهلا قد خط الشيب رأسه وتغضنت ملامحه وغاضت الدماء فى صفحة وجهه ذى الخدين الغائرين ؛ تعرفت فيه على الكثير من ملامحى المخزونة فى رأسى منذ وقت بعيد ؛ وقد بدا لى كأننى صاحب زوج وعيال مع أننى لست أذكر أى شىء عنهم أو ملامحهم أو أسماءهم ؛ كما بدا لى أننى استقر بى المطاف أخيرا فى عمل ثابت لعله عمل كتابى فى شركة من شركات القطاع العام ؛ أغلب الظن أنها شركة تشبه أن تكون شركة الغزل والنسيج الرفيع بالمحلة الكبرى أو كفر الدوار، الشركتان اللتان طالما حلمت بالإلتحاق بواحدة منهما طوال سنوات الصبا . ثم إن المرآة اتسعت فجأة ، فبدا لى أن حقيبة جلدية أنيقة تتدلى من كتفى الأيسر ؛ وكنت أرتدى بدلة مفرطة فى الأناقة لها جيب على الصدر يطل على حافته منديل ملون على شكل الأهرامات الثلاثة ؛ ومشبوك فى أسفله قلمان من الحبر الباركار أحدهما سائل والآخر جاف . فلما رأيت ذلك تذكرت أننى متوجه إلى موعد يبدو أنه شديد الأهمية . سرعان ما استبان أننى ذاهب لمقابلة شخص لعله أحد الوزراء أو الكبراء ؛ ثم سرعان ما استبان أننى أعمل محررا فى إحدى الجرائد السيارة المرموقة ، وأننى منتسب لهذا العمل منذ سنوات بعيدة جدا لا أذكر الآن بدايتها ، وأننى ربما أكون ذاهبا لإجراء تحقيق صحفى مع أحد كبار المسئولين ، وأن الشىء الذى يقلقنى الآن هو أننى لم أحدد بعد طبيعة الحوار ولا النقاط التى سأحاور منها ؛ وأننى أكاد الأن أنفجر غضبا وعصبية

ربما لهذا السبب . رحت أحاول تحت ثقل الغضب والعصبية أن أفكر بسرعة فى بعض النقاط العامة أو حتى مجرد مداخل أبدأ بها الحديث تاركا الباقى كالعادة لما يتمخض عنه الحديث من مفاجآت كثيرا ما تجيء سارة ؛ غير أننى لم أكن عرفت بعد مع من سأتحدث ، فكاد رأسى يتفتت . رحت أنفر من ذلك الوجه الذى يواجهنى فى المرآة يكاد يطعننى بسكين مع كل رمشة عين بملامح ملتوية مشحونة بالكآبة والقرف ؛ وكانت ذقنه نابتة كثيفة الشعر تخترقها شرائط من البياض ولطع من الشقرة واللون الرمادى . شعرت بذقنى تأكلنى ، فجعلت أهرشها وراحة يدى تتأذى من شعرها الشائك المهوش . كان ثمة اعتقاد كاليقين فى أعماقى البعيدة بأن هذه المرآة التى أرانى فيها الآن إنما هى فى دولاب ملابس تمنيت كثيرا أن يكون لى بيت يحوى مثله ؛ صار أنفى يعبق برائحة عطرية منعشة ؛ ورأيت أننى يتعين على أن أنصرف الآن منجذبا بنداءات كثيرة وغامضة لكنها ملحة . تراجعت عن المرآة بضع خطوات قصيرة ، فاتسعت المرآة أكثر وبدا أنها عريضة جدا تكاد تغطى حائطا بأكمله . ثم سرعان ما ظهر فى المرآة أكثر من شخص؛ فمن خلف ذلك الذى يواجهنى ناس يجلسون على مقاعد من الخيزران ودكة خشبية منجدة من الجلد ؛ بجواره رجل يجلس على مقعد بمسند ظهر عال ، يتكيء بمرفقيه على مسندى المقعد الجانبيين ، على صدره فوطة بيضاء كبيرة يلتف طرفها حول رقبته ، ووجهه كله مغطى برغوة الصابون، وثمة رجل آخر يقف خلفه مرتديا معطفا أبيض فوق القميص والسروال وشعره لامع مصفف ناعم ، أحمر الخدين باسم الثغر ، يمسك بشفرة الحلاقة يمررها على وجه الجالس فتكتسح الصابون مخلفة وراءها شرائح من بشرة بيضاء لامعة نضرة ؛ وكان الرجل الجالس تحت شفرة الحلاق يحدجنى بنظرات ثاقبة فيها كثير من الود وقليل من الإرتياب الغامض ؛ ثم إذا به يقول بلهجة ذات معنى فيها غمز ولمز ومزاح فى منتهى الشقاوة والغلظة لكنه غير سخيف غير ممجوج ، موجها الكلام للحلاق :

- « قال أهل زمان : مصير الحى يتلاقى ! وقد صدق هذا المثل ! »

قال الحلاق منفضا الغبار عن ابتسامته المعلقة على شفتيه :

- « طبعا ! طبعا ! بعد أهل زمان لا أقوال هناك ألبتة ! لم يعد سوى العتبة قزاز والسلم نايلو فى نايلو ! وشنبو فى المصيدة ! والست بنبه ! »

قال الجالس تحت شفرة الحلاق :

- « أى والله صدقت يا أسطى ! جاءوا لنا بالهزيمة ! ومهمتهم الآن التخليص علينا ! على البقية من عقولنا ! »

قال الحلاق بلهجة ذات معنى :

- « الدور والباقى على الاستنزاف ! هع ! هع ! إستنزاف ! حرب استنزاف ! لابد أنهم يقصدون استنزافنا نحن طبعا ! »

ضحك الجالس تحت شفرة الحلاقة :

- « المقصود استنزاف جيش العدو وذخيرته وتدمير قواه حتى لا يقوى على خوض المعركة الفاصلة ! »

- « فاصلة إيه ووصلة إيه ياسعادة البيه !

المعركة انتهت والسلام ! نحن الآن فى عصر الضباب ولا مؤاخذة ! »

ضحكنا كلنا ، فدفن الحلاق رأسه فى كتفيه بشكل مسرحى علامة الإرتعاد ، وعلق أحدهم :

- « مات الذى نكسنا وجاء الذى سيخوزقنا ! »

وعلق آخر :

- « الضباب الآن يسمونه الرخاء أحيانا ! الرئيس السادات يؤكد فى كل

عام أنه عام الرخاء مع أنه يشكو من الضباب ! أصله كان سائق عربة كاميون ! لهذا يشكو دائما من الضباب ! »

– « ضباب زويله ! ها .. ا .. ا .. ى ! »

هكذا علق الحلاق ؛ فعقب عليه رجل بدا أنه صاحب عربة فول مدمس :

– « مسكين من يبحث عن شعر فى رأس الأقرع !

لا تنتظروا خيرا بعد اليوم ! الأقرع لا يجىء من ورائه سوى الزن ! »

ضحكنا بعمق صاعق ، وعلق شيخ ضرير بجواره :

– « مسكين من يطبخ الفأس ويريد مرقا من حديده ! هكذا قال ابن عروس ! »

صاح الحلاق كأنه يشجعهم على الاسترسال :

– « كفى يا جماعة ! لا تلقوا بنا إلى السجون ! »

فرد من بدا أنه صاحب عربة فول مدمس :

– « إطمئن ! فقد هدم السجن ! إنه الأن يعتمد على الفرم ! من يقف أمامه يفرمه ! فما حاجة البلاد للسجون ووجع الدماغ ؟ ! »

ضحكنا بصوت مكتوم ؛ واندمج الحلاق فى تنعيم ذقن الرجل ونتف شعر الأذنين بالفتلة ؛ وحط علينا صمت مفاجىء ذو طنين ، استمر لدقائق طويلة جدا، كان الرجل خلالها لا يزال يحدجنى بنظراته الثاقبة وقد بدأ يعبئها بشحنات من الأسى والغضب الساخر ..

لم أكن أظن أننى أعرفه أو رأيته من قبل . كذلك لم يكن يبدو أننى أعرف هذا الحلاق أو ارتدت هذا الصالون من قبل . فجعلت أشحذ الذاكرة وأستدر

المعلومات أكاد أخطفها من الهواء أستنبطها أستقطبها أحاول أن أفهمها كما يقولون وهى طائرة . ثم غاب عن عينى ..

رجحت أننى ربما جئت ها هنا لكى أتخلص من لحيتى وزوائد شعر رأسى وفودى بسوالفهما الطويلة الواصلة حتى نهاية الصدغين تمشيا مع الموضة السائدة كما ظهر لى على وجوه الجالسين . كان ثمة مقعدا خاليا بدا أنه ينتظرنى بين الجالسين ، فتراجعت بظهرى نحوه ؛ فلما استويت جالسا عليه وضح لى أننى كنت جالسا عليه منذ برهة وجيزة وأننى قمت إلى المرآة لألقى نظرة على وجهى ؛ ثم تبين لى أننى ربما جئت إلى هذا الصالون الأنيق لأتزين لمناسبة بد أنها شديدة الأهمية ؛ سرعان ما تبينت أننى بعد هذه الحلاقة سأتوجه إلى قريتى لأخطب فتاة لم أرها من قبل ولكن قيل لى إنها تصلح عروسا محترمة . وكان الرجل الجالس على مقعد الحلاقة قد أنهيت حلاقته وأقبل نحوى يملس على ذقنه ومن خلفه ثلاثة صبيان يمسحون له قفاه بالفرشاة . مد يده للسلام علىّ . نهضت واقفا للسلام عليه . قال :

– « إزيك يا فلان ! أنت فلان الفلانى أليس كذلك ؟ ! »

كان واضحا أنه مهذب جدا ، وأنه حميم بالنسبة لى ؛

قلت :

– « نعم أنا هو ! وتحت أمرك ! »

أعاد السلام على بحرارة :

– « واضح أنك نستينى ! »

قلت بخجل وارتياب وتوجس :

– « العتب على النظر ! فاعذرنى ! إنها قسوة الزمان ! »

بدا أنه يبحث عن شيء قوى يذكرنى به على الحقيقة :

- « ألست تحب أن تستعيد حقيبتك ؟ ! »

تمشى الصقيع فى مفاصلى ، مع ذلك شعرت بعرق غزير يتفصد من جبهتى . ضحك هو فيما يشير إلى كرسى الحلاقة :

- « خذ دورك ! سأنتظرك على هذه المقهى فى مواجهة الصالون ! سنشرب الشاى معا وحجرين على الشيشة ! والله زمان ! »

ثم غمز الحلاق والصبيان بقروش مجهولة وخطا نحو الباب وخطوت نحو الكرسى ؛ وشخللت حبال الستارة المعدنية وهو يمرق من بينها ....

***

.. رأيتنى اتدحرج متهاويا فى شارع حافل أغلب اليقين أنه شارع البستان بحى عابدين . نعم هو ؛ الدليل على ذلك هذه الكوعة السحرية التى تنسلت من الشارع خلسة ببروز لطيف لتصنع حارة جانبية ضيقة كشريحة بالطول بين خرطتين من العمائر القديمة العالية التى لا تزال تحتفظ بشىء من رهبتها البائدة ، بأفاريز ونوافذ وشرفات رصينة برحة شرحة بشغل دقى محكم لا نظير له عصر ذاك . من المؤكد أن هذه الكوعة سوف تستغفلك ، إذ ترى نفسك ماضيا تخترقها وفى ظنك أنك لا تزال تمشى فى شارع البستان ؛ لولا أنك تكتشف أن الهدوء الشامل قد حل فجأة ؛ وبقدرة قادر تباعدت أصوات الضجيج واختفت السيارات واضمحل نداء الباعة ولغط المشاة ودقات شواكيش الورش ؛ وبدلا من التراب والقمامة وطفح المجارى تفاجأ بأرض نظيفة كأرض المسجد ببلاطات عريضة متقاطعة تشبه أن تكون من الرخام أو ما يعادل ، حيث تطل أبواب العمائر ؛ وتطل من الشرفات آنسات وسيدات يتكئن على الأفاريز بمرافقهن المتختخة كثمار فاكهة المانجو والكمثرى والتفاح والمشمش فوق أفرع

بعيدة المنال ؛ يتبادلن الحديث الودئ الهامس الرنين مع جاراتهن المقابلات لهن على الناحية الأخرى ؛ ولربما امتدت بين الأفاريز حبال ملونة تجرى فوقها السلال وصناديق الكرتون حاملة رسائل وأغراضا وإعارات ؛ وحبال الغسيل ممتدة بطول الحارة على الجانبين طبقات فوق طبقات مزينة بكرانيش الثياب من كل الأنواع والألوان والأحجام تهفهف كأعلام المودة والسلام تنشر فى جو الحارة رائحة الصابون المعطر . خلف أفاريز الشرفات أبواب مستطيلة ونوافذ مواربة الشيش أو منفرجة قليلا ، عن شرائح من جوانب ستائر مخملية ثقيلة وأخرى بيضاء خفيفة ، فإذ تنزاح المخملية الثقيلة عن البيضاء الخفيفة قليلا بدت كأن الهواء طوح بثوب العذراء فانكشف طرف لباسها الداخلى الجميل الساحر الشفاف . صوت أم كلثوم ينتقل من شرفة إلى شــباك إلى رف فى محل ، يصدح بهلت ليالى القمر وأروح لمين والحب كده ..

هذه الحارة الطويلة كالجيب أعرفها حق المعرفة بل أعشقها عشقا ، لا أمنية لى فى الحياة تعادل حلمى بالسكنى فيها ، أو حتى بالتربع فوق أى دكة أو على البلاط أمام أحد أبوابها بين مجموعة من أصدقاء الصبا والطفولة . من فرط ما تمنيت صرت لا أعرف إن كنت أسكن فيها بالفعل أم أن علاقتى بها مجرد أمنية من الأمنيات . لا أعرف متى اكتشفتها أول مرة ؛ أغلب اليقين أنها هى التى سحبتنى وجاءت بى إليها فكأننى حين دخلتها دخلت فى رحم الأمنيات، كأنما رحلة تطوافى وعذاباتى قد أذنت أخيرا بالإياب النهائى ؛ كأن إخوة يطلون من هذه الشرفات فى قلق انتظارى أو فرحة رؤيتى فى الحارة مقبلا؛ كأن أماً لى تنام على سرير طرى حميم، لا شك أنه ممدود خلف باب واحدة من هذه الشرفات مستظلا بهذه الستائر السخية ؛ وأن صياح فرحة إخوتى لن يلبث حتى يرتفع فيستفزها ويحملها على المجىء إلى الشرفة هى الأخرى لتتأكد من أننى أخيرا عدت حتى ولو بدون خفى حنين ؛ لابد أنها ستكون سمينة بعض

الشيء ، مدملجة ، مقببة العجيزة من فرط الجلوس الدائم فوق الشلت ؛ لابد أن يكون شبهها منتشرا على وجوه إخوتى ؛ إن بناتا فهن إلى السنايير الشقراوات أقرب ؛ وإن صبيانا فهم فى شرخ الصبا ومطلع الشباب لهم فى الحارة شنة ورنة ؛ ولابد أن يستقبلونى جميعا بمهرجان جميل ، وأن نختلى ببعضنا البعض فى الشرفة الكبيرة تحت لفح الهواء الطيب الأليف وفوق الضوء الخافت المنبعث من فوانيس الحارة تحجبها أسقف الشرفات كالقبعات ، ولابد أن يستدرجونى لكى أحكى لهم عن سهر الليالى ، والتشرد الطويل فى الغربة الظلماء ، ولابد أنهم جميعا سيتأثرون وبخاصة إخـوتى البنات ، وسيبكين مما حل بى من عناء فوق مانلته من فشل ، ولسوف يغلبنى البكاء أنا الآخر ، ولسوف أسرع بإزالة الدموع قبل وصول أمى من المطبخ حاملة الشاى الذى صنعته لى بنفسها؛ لسوف أبتسم كأننى فى منتهى البهجة ؛ ولسوف أغمز بعينىّ لمن سمعنى بأن يكفأوا فوق الخبر ماجورا كأنهم لم يسمعوا شيئا ؛ ولسوف أكون فى أعماقى سعيدا لأننى تخلصت من همومى مؤقتا ، لأننى وجدت من يحمل بعضها عنى ويشفق على ؛ آه ما أجمل أن يحس بك شخص ما فيظهر الإهتمام بأمرك ؛ ذلك هو الأخ الحقيقى الذى قيل أنه ربما لم تلده أمك ..

كل الأمنيات وإن علا قدرها واستحال تحقيقها لابد وأن تنيل صاحبها هامشا من رحابها قد يتسع بمعجزة وقد يؤوب إلى خيط رفيع يزداد متانة ومنعة على مر الزمان ؛ هذا ما كنت أردده لنفسى دائما عند تجوالى فى هذه الحارة رائحا جائيا بغير هدف ظاهرى ، كطفل تائه يبحث عن أهله الضائعين منه ؛ أحمل حقيبة سفر لا يزال منظرها يحتفظ ببقايا عز قديم ، سليمة الأقفال لامعتها ، متينة اليد ، تتسع لكل ملابسى وغياراتى وعدة حلاقتى وأوراقى وفوطة متاكلة الأطراف حائلة ؛ هى بقايا ثياب جئت بها من الإسكندرية أيام كنت ذا عمل أقبض منه راتبا وعمولة قبل أن أتمرد عليه وأتركه بحمق شديد سعيا وراء وهم الإشتغال بالصحافة والأدب ؛ الحقيبة هى الأخرى من بقايا خير

الإسكندرية وقد صار منظرها الآنْ يتناسب مع من أدركتهم حرفة الأدب ؛ ليست ثقيلة ، لكنها ليست خفيفة ؛ أنقلها من اليمنى إلى اليسرى كل بضع خطوات ؛ أمنيتى أن أطوح بها فى أى ملقف ، أن أتخلص منها بأى شكل ، فقد تعبت منها ، تعبت ، تعبت ، وكيف للجسد الذى حرم النوم أياما طويلة قضاها شريدا فى الشوارع أنْ يقوى على حمل نفسه بله أن يحمل حقيبة ويتجول بها ليل نهار بحثا عن مكان يأويهما . الدّوار يدركنى فجأة ، أتمالك نفسى بصعوبة حتى لا أتهاوى على الرصيف مغشيا على ؛ فى العادة أقفز إلى رصيف أقرب مقهى ، رغم العياء الشديد أنشن على كرسى فى مكان بعيد عن عيون النادل ، يا حبذا لو كان فى بقعة محايدة بينى المقهى ودكان مجاور لها ؛ إذ أرتمى عليه فأسند رأسى بكفى محاولا التقاط أنفاسى ، ألوى ساقى بقسوة تحت الكرسى لكى تحتبس الدماء فى عروقهما فيكف النقح والنشر والفوران ، تتسلل إلى أنفى رائحة الجورب الكريهة ، أروح أقرأ الفاتحة فى سرى لكى يستجيب الله لرجائى فى أن يبعد أنظار النادل عنى أطول فترة ممكنة ؛ ولربما مر من أمامى وراجعنى بنظرة فأحاول تضليله بنظرات شاردة للإيحاء إليه بأننى شربت مشروبا ودفعت ثمنه وها أنذا أتأهب للنهوض والانصراف ، فإن هو تجاوزنى تلكأت فى النهوض واختلقت أسبابا تعطلنى كأن أفك رباط الحذاء وأعيد ربطه أو أفتح الحقيبة وأعبث فيها بانشغال مصطنع أو أسند رأسى على حافة مسند الكرسى ، أو ربما أصطنع الكبرياء ، فبعين قوية أستوقف النادل ، وبأدب ورقة أطلب منه كوب ماء ؛ فإذا ما أعطانى ظهره وانصرف نهضت متسللا مختفيا فى زحمة الجماهير ..

المشكلة الأن ليست هى التعب والإشتياق لأرض أتمدد فوقها ؛ إنما المشكلة إلى ذلك أننى أريد أن أغير ثيابى ، إذ لو تمهلت فى ذلك حتى المساء فلن أنجو من قبضة الشرطى لا محالة ؛ هذا منظر لا يتميز كثيرا عن أى

سبرسجى أو صبى ورشة حدادة ؛ لعل أهم وأقيم شىء فىّ الآن هو المنظار الطبى ذو العدسات الخضراء . ثم إن رائحة الثياب لم تعد تطاق ، فضلا عن سوء منظرها ، فلقد نمت بها فوق تراب الحقول المتاخمة للمدينة وعلى أجولة البضائع فى شوادر البطيخ وعلى أرصفة المقاهى ، واندلقت فوقها مشاريب وأطعمة ، ولطختها عفاريت عمال الألمونيوم والفحامين ؛ صرت أشعر كأنها من جلد سميك صلب . أعرف أن ليس فى الحقيبة ثيابا نظيفة على الإطلاق ؛ إلا أننى سأخلع الوسخة وألبس الأقل وساخة ؛ ولكن أين يتم هذا ؟ على إذن أن أبحث عن دورة مياه عمومية لأدخل أحد محلاتها بالحقيبة لأخرج بعد قليل بثياب أخرى ، مثلما أفعل فى كل مرة .. لحظتذاك كانت هذه الحارة قد جذبتنى دون أن أدرى فكأنهـا تستمهلنى ربما يكون قلب الله موجـودا فى ركن ما هاهنا ..

فى الحارة ثلاثة دكاكين ، أولها على اليمين ، وهو ذو شكل خارجى يحكى عزا بائدا ؛ على واجهته لافتة مكتوب عليها بالخط الثلث الكبير : مكوجى الأمراء لصاحبه الحاج فيظى العزازى . الواجهة كلها مدهونة بالزيت الأخضر الباهت منذ سنوات طويلة . فى مدخل الباب على الجانب الأيسر معرض زجاجى برفوف زجاجية كمعارض الترزية لكنه لا يعرض شيئا إنما تنحشر فى أرضيته بقبح الملابس المتكورة بعضها نظيف وبعضها متسخ ؛ أما فى الداخل فيوجد فى المواجهة بنك مستطيل يشبه سرير العمليات النقالى فى المستشفيات ؛ يقف خلفه رجل طويل القامة محنى الظهر بما يشبه القتب ، أسمر اللون بمسحة رمادية كلون قراميط السمك ، مستطيل الوجه مسحوب الذقن مثل شكل الطاجن ، خداه مليئان بالتجاعيد الكثيرة المتجاورة بالطول كملاءة سرير بعد موقعة حافلة ؛ غليظ الشفتين . شفته السفلى أضخم كثيرا من العليا واكثر امتلاءً ، ومتدلية بصورة لافتة للنظر ؛ خرب الفم إلا من نابين فى الفك العلوى على جانبين متباعدين ، وحوالى أربع أسنان فى مقدمة الفك السفلى مصبوغة بلون الشاى والدخان ، حيث أن كوب الشاى بجوار المكواة على يمينه لا ينفد ،

والسيجارة الهوليود التخينة حفرت لنفسها بقعا كثيرة على أطراف البنك رغم أنه يضعها دائما بحرص على حافةُ الجندرة لكنه حين يأخذها ليشد نفسا لا يجدها إلا تحت الجندرة فوق الخشب . الدكان واسع ؛ فيه بنك آخر فى الركن الأيمن يشتغل عليه صنايعى شاب ؛ وفى الركن الأيسر خلف البنك الأول دورة مبنية على نصف طوبة لها باب تنسدل عليه ستارة من الكتان الأصفر ، بداخلها الوابور ذو الماكينة الساكتة التى تمتد بماسورة طويلة معقوفة بعيدا عن خزان الجاز ذو المحبس الكبير ويد للكبس خشبية . النار ألسنة خضراء حمراء تهتف بالفحيح والوشيش تحت شبكة سلكية موضوع فوقها أربع كوايات ..

أما الدكان الثانى فإنه بقال أفرنجى نظيف جدا ، بابه يشبه باب البيت ، ليس له أى مظهر من مظاهر الدكاكين ، لكن العين إن وقعت عليه من الداخل ارتاعت من نظامه الدقيق ونظافته ورفوفه المتجددة ذات الأبواب الزجاجية بجرارات كرفوف الصيدليات ، ومن أنواع البضائع التى لا حصر لها .. على واجهته لافتة نحاسية صغيرة مكتوب عليها : الدانوب الأزرق ، تحتها بضعة سطور بالخط اليونانى والإنجليزى . يقول منظر الدكان قبل ألسنة أهل الحارة أنه كان ملكا لبقال يونانى تم ترحيله مع الأجانب فتنازل عن ملكيته للعامل الذى كان عنده ، الذى يحتمل أن يكون هو بعينه ذلك الأفندى الوقور المحترم الجالس دائما كرئيس الوزراء على مكتب كبير فى مدخل الدكان يقبض ويعطى بونات صغيرة ويعدل المنظار الذهبى على أنفه كل برهة ليلمع الخاتم الذهبى الكبير ذو الفص العقيق الأحمر ، ويرطن مع الزبائن بكل اللغات بجدية هائلة فلا يبتسم أبدا ولا يمزح قط . منظر الدكان من الخارج رغم عدم البهرجة فى الإعلان يغريك بأن تدخله ، لهذا كثيرا ما رأيت الناس يدخلونه منبهرين ، فيلفون بداخله لفة أو لفتين كالمخدرين التائهين الحائرين بين أصناف لم تكن لتخطر لهم على بال . نظرت أول مرة فى وجه الأفندى الوقور فأيقنت أن علاقة « شكك » لا يمكن

أن تقوم معه على الإطلاق ، فاكتفيت بالفرجة على المحل دائما ثم الإنصراف . أطرف ما فى الأمر أن الرجل الوقور اعتاد ذلك منى فبات ينظر لى فأحييه فيرد التحية بكل وقار وجدية يكاد يقف بنصف انحناءة ..

أما الدكان الثالث والأخير فى هذه الحارة الساحرة فإنه دكان ألبان ، لافتته : من خير بلدنا ، ورسم لبقرة وجاموسة تحت شجرة فى حقل أخضر مطل على ترعة . تشم رائحة اللبن الطازج والزبادى والجبن والعسل النحل من أول الحارة بفضله . يملكه أخوان توأم ، كل منهما يقف وردية فيما الآخر يستريح أو يتسوق فى . داخل الدكان بنك زجاجى كبير هو فى نفس الوقت ثلاجة كبيرة جدا ، فيها تشكيلة من كل ما فى المحل . بجوار البنك منضدتان بمفرشين نظيفين جدا ، لمن يرغب فى شرب كوب من اللبن الساخن مع قليل من البقصماط ..

هذان أول توأم أراه فى حياتى لا يتشابهان فى شىء على الإطـلاق اللهم إلا فى نوع المهنة الواحدة . فيما عدا ذلك فأحدهما جميل الصورة جدا والآخر دميم كوجه القرد لكنه أطيب قلبا بكثير جدا من أخيه ؛ ثم إنه طويل نحيف والأول قصير تخين ، هو رفيع الصوت والأول غليظه ، هو يعشق الغناء ويدندن أحيانا مع نفسه بأغنيات محمد قنديل وعبد المطلب . أما الأول فلا يجيد سوى الهلضمة وتبادل النكات الغليظة السمجة مع الزبائن المتحفظين فيسخرون منه بدلا من الصدام معـه ؛ إسمه « حسن » ، أما النحيف الطـويل فاسـمه « حسين » ؛ الإسمان المكتوبان على اللافتة : حسن وحسين ، بطريقة تتخذها الحارة كلها مثارا للتريقة الجميلة ، فحسن وحسين يتقابلان مع رسم البقرة والجاموسة ، فكثير ما كان بعض الزبائن ذوى العشم يسألون حسن نفس السؤال الأزلى : أيهما البقرة وأيهما الجاموسة ؟ وقد اعتاد حسن أن يرد مع ضحكته الغليظة المجلجلة : بس يا طور . ويوم يصبح فى جيبى عشرة قروش

من باب الله أرانى أدبر لزيارة حسين فى المساء الجوانى لأحظى بكوب ملآن عن أخره وفوقه لهطة قشدة إكرامية منْ حسين ، أما البقصمات فلا حساب له عند حسين إلا ما تقوله أنت ؛ على العكس من حسن الذى يحسبها بالفتفوتة ..

حومت حول دكان الكواء وقتا طويلا ؛ ثم وقفت أمام المعرض الزجاجى على الباب ، لأقرأ نقشا باللون الأحمر على لوح الزجاج العمودى فاذا هى كلمات صغيرة تحت بعضها : غسيل ، تنظيف بالبخار ، مصبغة ، مستعد لتوصيل الطلبات إلى المنازل . رقص قلبى من الفرح حين قرأت كلمة : غسيل ، بعدها اقتحمت الباب فى الحال : سلام عليكم .. عليكم السلام ..

- « من فضلك ! عندى هدوم أود غسلها ! »

- « وماله ! إحنا خدامين ! »

هكذا قال الرجل العجوز ، ثم أردف :

- « شوف البيه يا ولد ! »

ثم نظر فى مظهرى نظرة متأنية كأنه ينبهنى إلى أنه من ذوقه وكرمه منحنى لقبا لست أستحقه على الإطلاق ، لكن الطيبة فى عينيه العسليتين الكابيتين قالت لى إنه يريد أن يرفع من روحى المعنوية ، فابتسمت . وكان الولد الصنايعى قد رد قائلا : حاضر يا حاج ؛ لكنه لم يتحرك من مكانه ؛ فنهره الرجل صائحا :

- « ياد انت شوف البيه ! »

كان الولد يعالج نفخ الماء المتكور بين شدقيه ، فقال من خلال بقلة الماء فى فمه :

– « حاضر يا حاج فيظى ! حاضر يا اسطى ! »

يبدو أن الحاج فيظى قد أعجبته لهجة الولد فقرر إعفاءه من المهمة ، فترك المكواة على الجندرة مشيرا بأصابعه السرحة المشوية إلى الحقيبة فى يدى قائلا :

– « ورينى سعادتك ! »

وضعت الحقيبة بحذر على حافة البنك وشرعت أفتحها وهو يركز البصر على الملابس التى أرتديها كأنه يود أن يقول بالفم المليان : أنت نفسك فى حاجة إلى غسيل ، الأمر الذى جعلنى أنتهز الفرصة قائلا بشىء من الأسف فيما أشير إلى ملابسى :

– « كان نفسى أغسل ده كله ! »

قال بأريحية :

– « ما المانع ؟ الهدوم لن تقول لا ! ونحن أيضا لن نقول لا ! »

قلت فى شىء من التردد :

– « المشكلة الآن أن أجد مكانا أغير فيه ملابسى هذه ! »

أشار بكوعه وراء ظهره إلى دورة الوابور قائلا :

– « إدخل غَيرٍّ هدومك على كيف كيفك إنزل الستاره عليك وخذ راحتك على أقل من مهلك ! »

فبلا تردد سحبت الحقيبة واتجهت إلى الدورة فدخلتها وأنزلت الستارة ثم فتحت الحقيبة فوجدت القميصين متكورين بصورة قبيحة جدا ، أحدهما شتوى من الصوف الشائط أما الآخر فصيفى بنصف كُم من قماش يسمى لينوه الشوربجى . القميص الشتوى هو الأقل وساخة لأنى خلعته منذ انتهى الشتاء ،

ولأنه غامق اللون فإن الوسخ لم يكن يظهر فيه ، فكان لابد من ارتدائه هو رغم ما فى الجو من حرارة ورطوبة لا تُطاق . يوجد ثلاث فانلات وثلاث سراويل داخلية تفوح منها رائحة العفن ، فتجاهلتها . يوجد سروالان خارجيان ، أحدهما من الصوف الفانلة الرمادى للشتاء ، والآخر من الكتان الأصفر الغامق ، مترهلان منبعجان عند الركبة صلبهما زيت العرق اللامع . إقتنعت بعدم جدوى تغيير الملابس أغلقت الحقيبة واكتفيت بالخلاص منها . وقال الحاج فيظى :

– « متى تجىء سيادتك ؟ »

قلت :

– « وقتما تحدد ! »

قال :

– « على الأسبوع القادم إن شاء الله ! »

قلت :

– « على أقل من مهلك ! أنا لست متعجلا ! »

نظر فىّ بشىء من الإرتياب :

– « كله على الله ! »

أحسست أنه يحرك لسانه فى فمه يحاول إذابة شىء فيه مع رشفات الشاى ؛ أيقنت أنه أفيونجى قرارى ؛ ثم قلت له :

– « على فكرة ! سأترك لك الحقيبة كلها لكى تضع فيها الملابس بعد كويها ! »

بخُ الماء على المنضدة المجاورة وصل إلى وجهى ، فنظر المعلم للولد بغيظ واعتذر لى نيابة عنه : لمؤاخذه ..

لاحد لفرحتى وأنا أخرج من المحل ثم من الحارة بدون الحقيبة . أخيرا تخلصت منها ، وجدت لها مأوى ، فالعقبى لى يارب ..

الأسبوع القادم جر أسبوعا آخر ، فأسبوعا ثالثا ؛ أوشك الشهر أن ينصرم دون أن أعود إلى الحقيبة ؛ ولابد أن الحاج فيظى يلعننى . فى نهاية الشهر داعبتنى السماء بمعجزتين : أذاعت إحدى المجلات الإذعية بإذاعة ركن السودان ، لعلها مجلة البريد الطائر لمحررها ومصدرها مأمون النجار ، أقصوصة من تأليفى ممهورة بتوقيعى لمدة خمس دقائق ؛ ودفعت لى فوق ذلك أربع جنيهات كانت ثروة كبيرة بحبحت حبال القحط حول رقبتى فابتعت قميصا جديدا ، وتوجهت من فورى إلى مكوجى الأمراء ، فقابلنى الحاج فيظى بحرارة ودهشة ، فنفحته أجره ، ونفحت الصنايعى بقشيشا مجزيا ، واشتريت شايا وسكرا فخرطنا زردة على وابور المكواة ، وسجائر دخناها معا ؛ وقمت بزيارة لألبان حسن وحسين فتغديت باللبن والزبادى والجبن الحلوم ودفعت عن سعة ؛ ومررت على الأفندى المحترم فى بقالة الدانوب الأزرق فحييته فرد تحيتى بنصف وقفة مع نصف انحناءة ؛ وكان يوما مشهودا ..

بعدها جفت الحليبة والرائبة تماما ، مضت أسابيع طويلة نسيت عددها لم أعرف خلالها وجه النقود من قفاها ، فزرت الشاعر صلاح جاهين فى مكتبه فى جريدة الأهرام بشارع الساحة ، بعد انقطاع طويل ؛ وكالعادة تحسست شعرى المهوش متبسما ، ففهم أننى أريد أن أحلق شعرى وذقنى ؛ فمرر يده الصغيرة التى يرسم بها روائع النكت الكاريكاتورية ، سربها تحت بطنه الكبيرة فى جيب السروال ، سحبها بورقة من فئة الخمسين قرشا ، فأخذتها وانطلقت أرقص من الفرح ، قصصت شعرى على عجل بخمسة قروش ثم اتجهت من

فورى الى مكوجى الأمراء ، وقد ألهمنى الله فكرة طيبة ، فاشتريت فسيخا وسردينا بحوالى عشرة قروش ، وتلاً من الأرغفة ، والليمون والبصل ، وأقمت فى الدكان وليمة ممتعة يومها قال الحاج فيظى بصدق وهو يشرب الشاى :

- « لماذا تغيب ؟ تعال فى أى وقت لتغير ملابسك !

سواء معك نقود أو ليس معك ! رقبتى سدادة !

كلنا إخوة والحياة ليس لها كبير ! »

صدقته وفعلت ؛ صرت أزوره كل عشرة أيام أو أقل ، فأغير ملابسى وأترك له الملابس الوسخة ليغسلها ويكويها ثم أنصرف دون أن أحاسبه ؛ فكان يبالغ فى إزالة أثر الإفلاس بأن يدعونى للشاى أو يقدم لى سيجارة مكرمشة ، وأحيانا يعرض الطعام فأعتذر بشدة . تراكمت الديون على ، حتى باتت الحقيبة كلها بما تحويه من ملابس لاتفى بما فى ذمتى للحاج فيظى . تهرأت ملابسى ، فاستعرت ثيابا من صديقى محمود سالم ، متغاضيا عن اتساعها وطولها على جسدى ؛ ثم إنه اشترى لى ثيابا داخلية ، وعرفنى على ثلاثة من الطلبة الدمايطة بلدياته ، ورجاهم أن أبيت معهم فى مسكنهم المتواضع بحى أمبابة ، فرحبوا بذلك . وهكذا الم أعد محتاجا للحقيبة بملابسها ؛ ولم يكن معى نقودا أدفعها للحاج فيظى ، فنسيته تماما ، إلى أن انتهت أيام الدراسة فسافر الطلبة إلى بلدتهم ، فإذا بى أعود من جديد لأخبط جبهتى فى صخرة الليل البارد حاملا حقيبة هاندباج من المشمع الرخيص تنازل عنها أحد الطلاب نفورا من شكلها القبيح ، حشرت فيها ملابسى وانطلقت أعدو نحو المجهول المظلم ، فكأن قدماى مربوطتان بعرق حلاوة الروح يمتط إذا ما تباعدنا ويلتم إذا تقاربنا ليمتط من جديد ، كنت كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ..

شعرت بالأرض تدور بى دورانا ، وبريق ضوء ينجاب ليواجهنى ستار

معدتى يتسلل من خصاصه ضوء الشارع ، وكان ثمة لسع حارق فى صدغى تبينت أن الحلاق أدار الكرسى نحو فراغ الباب إيذانا لى بالنزول عنه . فنزلت محاولا استعادة رأسى التى خيل لى أنها غير موجودة على الإطلاق مع أننى كنت ألاحظ فى ركن من المرآة شخصا يشبهنى يتحسس جوانب ما خيل لى أنه رأسى . ثم انتبهت إلى يد الحلاق تناولنى منظارى الطبى ، فوضعته على عينى فأحسست أن الضوء قد بدأ يحل فبدأ المكان يتسع ..

***

قال الرجل الذى كان جالسا تحت شفرة الحلاق وهو يقلب لى الشاى على المقهى المواجه لصالون الحلاقة مباشرة :

– « والله زمان ! حقيبتك صارت معلما بارزا فى
منزلى ! تصور أنها لا تزال موجودة فوق
الصندرة بين الكراكيب » ؟

رأيتنى أمشى فى شارع الكورنيش بمدينة الإسكندرية أحمل فى يدى حقيبة أثقل من وزن جسدى كله ، حيث كنت صبيا صغيرا بينما الحقيبة تحوى خمسين باكو من الزهرة تزن ما يزيد عن خمسين كيلو جـراما من زهرة الغسيل ، مطلوب منى أن أبيعها لمحلات البقالة والبازارات ، ولو أكرمنى الله ببيعها كلها لحظيت بخمسين قرشا مكسبا . وكان يبدو أننى أحمل هذه الحقيبة منذ سنوات طويلة مضت دون أن أبيع منها شيئا يخفف ثقلها الراسخ الكريه ، حتى تمنيت أن لو كان لها عجلات لكى أتمكن من جرها على الأرض . كان العرق يتصبب من جميع انحاء جسدى النحيل الضامر ، والجوع يفرى معدتى ، والعطش يجفف حلقى كلما رأيت الناس والمصيفين يفرغون زجاجات المياه الغازية ويجرعونها فى شغف واستمتاع ثم يتجشأون بصوت عال كفرقعة السحاب ، وأملى فى رغيف الفول والطعمية مرهون بأن أبيع أول باكو لأكسب

قرشا ، أتوقف أمام كل محل لأسـأله فى خجل فلاحى « عاوز زهرة ؟ » ، فيقول : « عندى ! » ، فأجر الحقيبة إلى المحل الآخر وأنا موقن مقدما من أن الرد سيكون : «عندى» تهاويت من الجوع والتعب أمام محل كنت ألفه ويألفنى ، وكنت أشعر أنه يشفق على كلما رآنى غير أنه مع ذلك لا يشترى منى ، ويصرح لى بالسبب فى ذلك بأنه يشترى نفس هذه الزهرة من بائع قومسيونجى يبيع له بجوارها أصنافا أخرى مطلوبة . تركنى أستريح بجوار بابه ، فوضعت الحقيبـــة على الأرض وركبتها . غير أنه فاجأنى بصـوته : « وله ! .. وادانت يا بتاع الزهره .. معاك فكة جنيه ؟ ! » . قلت : « لا ! » . قال : طب خد فك الجنيه ده من بتاع الكازوزه ! هات شنطتك احسن حد يلهفها من الشارع ! » . أحسست أنه يطلبها كرهينة ، قلت : « حاضر يا عم ! » وزحزحت الحقيبة فأدخلتها عتبة الدكان ، وأخذت الجنيه ومضيت إلى بائع الكازوزة فى نهاية الشارع . غير أننى أفقت بعد مشوار طويل فتبيت أننى تجاوزت الشارع كله وامتلكت طريق الكورنيش أكاد أنطلق محلقا من الفرحة بالخلاص من ثقل الحقيبة . وكنت أعرف أن البقال يعرف أصحاب مصنع الزهرة ، وكنت موقنا أنه سيطلبهم فى التليفون ليحكى لهم الخبر ، لكننى كنت كالسجين الذى انعتق فجأة على غير انتظار ، فشعرت أن المسافة بينى وبين أهلى فى قريتى قد صارت قريبة وسهلة ..

– « إشرب الشاى يا رجل ! مالك ! لقد كبرت وعجزت على غير آوان ! هذه أول مرة أراك فيها بغير حقيبة فى يدك !! »

رأيتنى أتسلل بين جمع من المسافرين من محطة الجيزة فى قطار الصعيد ، كنت أحمل الحقيبة الشمواه الكبيرة وقد فردتها عن آخرها واندسست بين رهط من النساء فبدوت كشيال أحمل حقيبتهم ، ولهذا شيعنى موظف البوابة قائلا : «ترجع بسرعة !» ، فهززت رأسى دون أن أستدير بوجهى، ومضيت

بحذاء جمع النساء الذى بدا أنه وفد تعليمى من المدرسات والناظرات . دخلت معهن من باب القطار ، ثم تركتهن وتوغلت فى القطار حتى عربات الدرجة الثانية التى لم تكن قد ازدحمت تماما ، وضعت الحقيبة على الرف المستطيل ، ثم تسلقت الرف جالسا فوقها ، بعدها بدقائق نسينى كل من شاهدنى واستغرق كل فى واديه الخاص ، وبدأت العربة تزداد ازدحاما بشكل مذهل كيوم الحشر ، فيما كنت أتململ فى جلستى بطريقة فنية لأخفى أعضائى فى فتحة الحقيبة جزءا بعد جزء حتى اختفيت بداخلها تماما وبأصبع يدى جذبت السوستة حتى نهاية رأسى ..

– « ولع ! »

أمسكت مبسم النارجيلة وأخذت أجذب أنفاس الدخان فى شرود . إنطلقت « سارينة » سيارة النجدة من مكان مجهول لكنه قريب ، فأخذت أتلفت حولى فى زعر . وقال الرجل :

– « مالك ؟ ! »

وكنت لحظتها ممددا داخل الحقيبة أئن من الألم والهلع ، وكان واضحا أننى انتزعت من قرار عميق جدا فى بحر نوم استمر دهرا طويلا حتى تصلب العماص على رموش عينى ، وقد فهمت مما يدور حولى من حديث أن أحد عمال النظافة فى الوردية المسائية الأخيرة فى محطة الجيزة لاحظ وجود هذه الحقيبة فوق الرف ، فقرر تسليمها إلى الأمانات ، فجذبها بخطاف ، فتهاوت فوق مائدة المقاعد ليصطك جسدى ورأسى فى أجسام صلبة . فوجىء عامل النظافة بصراخ يرتفع من داخل الحقيبة ، فتركها واندفع يجرى صائحا من الذعر والدهشة ، وقبل أن أتمكن من فهم أى شىء رأيت الدنيا كلها قد انقلبت ، وسمعت « سارينة » سيارة النجدة من بعيد . بعدها بقليل شعرت بأيد تفتح

الحقيبة ، وعيون لا حصر لها تنقض ناظرة فى قلب عينى ، ويد الضابط تتحسسنى فى دهشة بالغة ، فإذابى أنهض جالسا ، ثم أعتدل واقفا لاأقوى على الكلام من فرط الذهول . إستسلمت ليد ضابط النجدة ، الذى سحبنى وسحب الحقيقة إلى سيارة النجدة ، ومنها إلى قسم شرطة الجيزة ، ثم إلى رئيس المباحث ، الذى فتح لى محضرا للتحرى والتحقيق ، حيث قدمت له بطاقتى الشخصية ، وأسماء ناس مرموقين وأرقام تليفوناتهم ، فحدثهم أمامى واستقى منهم بيانات كافية عن شخصيتى وظروفى التعبانة وحظى التعس . وبعد أربع وعشرين ساعة فى تخشيبة الحجز أطلق سراحى منبها علّى بعدم اللجوء إلى هذه الحيل مرة أخرى وإلا فأنا الجانى على نفسى . الطريف أنه قد صادر الحقيبة ، وأغلب ظنى أنه استولى عليها ..

– « أفق لى قليلا فى عرض النبى ! ما كنت أظن أنك أصبحت ثقيل الدم هكذا ! باى عليك ! ماذا جرى لك ؟ هل تزوجت أم لا ؟ ! »

إنفجرت ضاحكا ، قلت ربما قصد أن يكون مرحا :

– « إدع لى ! فأنا الآن متوجه لأخطب عروسا من بلدتنا ! »

ضحك فى مرح شديد ، إحمرت وجنتاه من شدة البهجة ، تدفقت الدماء فى وجهه الغليظ المكلبظ . بدا كأننى قد بدأت آلف هذه الملامح المتنفخة وهذا الصوت الجهورى المنطلق :

– « عال ! عال ! إذن فالحالة على ما يرام ! والله لقد كنت أحمل همك طوال السنين الماضية ! يا لها من أيام ! واضح أنك نسيت العيش والملح ! أما أنا فلم أنسك لحظة واحدة ! ليس لسمار حجا الذى تركته عندى منذ ما يزيد على عشر سنوات ! لكن لأننا صعايده لا ننسى العشرة !! »

كنت واثقا أنه صادق تمام الصدق فى كلامه ، صرت واثقا أننى أحبه جدا ، وصرت أشعر بالغيظ والنذالة لأننى نسيته ونسيت اسمه ، ربما لأن شكله تغير واكتسب مسحة من الرفاهية كالباشوات القدامى من ذوى الكروش الملآنة بكل ما لذ وطاب . قدم لى علبة سجائره الأجنبية ، أخذت واحدة ونحيت مبسم النارجيلة . أشعل لى ولنفسه بقداحة ذهبية . إنبثق فى داخلى عطر ذكريات قديمة عزيزة تقول لى أن هذا الشخص حميم ، وأنه طول عمره هكذا مستريح من الناحية المادية ، وأنه ينتمى إلى قوم ذوى خصوصية ما فى بلاد الصعيد . سرعان ما تذكرت أنه من قبيلة تحمل لقبا فيه سمو ، حصلت عليه بالوراثة نظرا لحسن سمعة العائلة واشتهارها بالكرم وسلامة الطوية ، لعلها أسرة ذات صبغة دينية .. الأشراف ، نعم ، لقبها هكذا : الأشراف ، وللعائلة كبير يدعى نقيب الأشراف . إنبثقت فى داخلى لحظة بهيجة مدوية ، زلزلتنى من القاع إلى النخاع . كدت أبكى بحرقة ، بل لقد طفرت الدموع من عينى ساخنة منهملة كالمطر ، وشع من خلل الدموع إسم صديقى القديم مقرونا بلقب عائلته ، إسمه فلان الشريف ، إسمه على ما أذكر فيه حلاوة وطلاوة وإشراف ، كمال الشريف أو جلال الشرف .. أهـ .. لا .. ا .. ا .. ن .. الواد هلال الشريف ؟ ! يا .. ه !! هلال الشرف ! . وخبطت جبهتى براحة يدى فى قوة ، فيما راح صوتى يتهدج زاعقا تكاد تخنقه حرارة العاطفة الجياشة :

– « إزيك يا هلال ! والله زمان ! »

وقمت فاحتضنته بقوة وقبلته فى وجنتيه :

– « ألازلت تعمل محاسبا ؟! »

كانت الضحكة قد كورت وجهه وضغطت أشداقه فى غبطة وسرور ، فظهرت أسنانه الكبيرة البيضاء النظيفة جدا ، المزرقة بطيف خفيف من دخان السجائر . قال من خلال الضحك :

– « .. نعم ! »

قلت مبتهجا :

– « وفى هيئة الآثار ؟ ! »

قال :

– « نعم ! غير أننى سافرت من وقت مبكر جدا ! فمكثت فى ليبيا سبع سنوات ! ثم عدت ! وسافرت ثانية ! فمكثت فى الكويت حوالى سنتين ! ثم عدت ! وسافرت ثالثة ! فمكثت فى السعودية عاما ونصفا ! ثم عدت ! وليس لى من سفر بعد ذلك !وقد تزوجت من زميلتى المحاسبة ناهد الشوربجى أظنك تعرفها ! تلك التى كانت تجلس إلى مكتب لصق مكتبى ! تلك السمراء النحيفة التى كان جدها لأمها رفقى باشا طلعت ! واشترينا شقة فى قصر جدها الباشا بحكم أحقيتها فى جزء من ميراثه ! كان لابد أن أهيىء لها بيتا يناسب البيت الذى نشأت فيه ! ولهذا سافرنا معا ! بعون الله تنام هى الآن فى بيت أفخم بكثير من قصر جدها الباشا عليه السلام ! جدها الباشا لم يكن يعرف الثلاجة الكهربائية الكبيرة والغسالة الفول أوتوماتيك أو الفيديو كاست أو جهاز التكييف المركزى أو لموكيت والسجاجيد التى اشتريناها رأسا من شيراز بأنفسنا فى رحلة سياحية لم يكن يعرف السيارة المرسيدس !! ترى ماذا وراءك الآن ؟! »

– « السفر فى الحال بعد مغادرتك »

– « كنت أود أن أفرجك ! فضـك من السـفر وتعـالى أعزمك على الغداء !! »

– « دعها ليوم آخر ! »

– « لن تندم إذا جئت معى ! أما سفرك الآن فربما تندم عليه طول عمرك فيما بعد !! »

- ضحكت لانفجاره في الضحك المباغت :

- « كله على الله ! نحن وبختنا »

إتسعت ضحكته وجعل يتفتف :

- « أنا مُصر على عزومتك اليوم ! الآن ! سافر بعد الغداء ! إسمع ! سأرافقك بسيارتى المرسيدس حتى محطة القطار ! لن يستغرق الغداء أكثر من نصف ساعة ! فكل شئ جاهز على الدوام ! وناهد ستتسر غاية السرور حين تراك ! وعيالى أيضا ! إنهم يعرفونك جيدا ! وإسمك يتردد فى بيتنا على الدوام ! أنسيت أنك تركت عندى مسمار جحا ؟ حتى اليوم لانزال نقول فى بيتنا ضع الشئ الفلانى بجوار حقيبة فلان ! أو هات الشئ الفلانى من خلف حقيبة فلان ! أو احذروا أن تمسوا حقيبة عمكم فلان ! تخيل أنت فرحة البيت كله الأن حينما يرون فلان بنفسه قد حضر ! لن ندعك تأخذ الحقيبة فهى باتت من ملامح البيت ! مع أنى أعرف أن فيها أوراقا تحوى مشاريع قصص وروايات وسيناريوهات ومقالات ! لابد أنك الأن استغنيت عنها كلها ! وأظن أنك لو قلبت فيها فقد تشعر بمتعة فائقة ! خذ الأوراق لو أردت ! هيا ! هيا ! » .

عشته تماما ، أجبته ، قمت معه ، وفى يقينى أنه لن يتردد فى توصيلى إلى البلدة نفسها لو سايسته بالحيلة ، ذلك هو صديقى هلال الشريف الذى عشقته ذات يوم ، المنطلق فى صفاء ، المصر دائما على تنفيذ ما يراه ولو بالقوة أو لوى البوز ، الذى عودنا على ألا نؤخر له طلبا أو نؤجل له حاجة ، الذى طالما عزمنا على الغداء الشهى فى لحظات إفلاسنا الكئيبة ، الذى طالما أقرضنا خمسينات قرش وأرباع جنيهات لا حصر لها ولا رد ، الذى أغرقنا بالفطير المشلتت والعسل النحل والجبن القديم ، ويخرط لنا الشاى بيده التخينة المظلظة ، ويشوح باليد الأخرى فى وجوهنا بعصبية محببة قائلا للواحد منا : « بس

بس بلاش كلام فارغ !ماتبقاش عبيط أمال ! ثورة إيه وبتاع إيه يا راجل تف من بقك ! الشعب المصرى انضرب بالجزمة وخلاص ! كلها وسكت يابوى ! » ..

كنا نسكن سويا فى بنسيون يسمى فندق فلوريدا فى شارع رمسيس ، حيث كانت تجيئنى بعض جنيهات من كتابة مسلسلات إذاعية وتليفزيونية تذاع بأسماء ناس آخرين لامعين ، فأول شئ أفكر فيه عندئذ - بنصيحة من هلال - هو أن أدفع مقدما شهرا أو شهرين أو ما استطعت ، أدفع النقود التى معى كلها أحيانا ، وأعيش على فيض الكريم ، ويعتبر هلال الشريف بعض هذا الفيض . كثيرا ما كان صاحب الفندق يمهلنى شهرا أو شهرين بعد انتهاء حسابى المدفوع مقدما . فإذا يئست من وصول نقود قريبة انسحبت من الفندق فى هدوء حتى تقع فى يدى نقود ، فأخرج إلى العراءحاملا حقيبة سفر صغيرة فيها كل ملابسى ومتعلقاتى وأوراقى ، لأبحث كل مساء عن سقف يأوينى . كان هلال الشريف يسكن الغرفة المطلة على الشارع الكبير ، أجمل وأهم غرفة فى الجناح بحكم أنه مقيم على الدوام والغرفة على حسابه حتى أيام الإجازات الطويلة يغلقها ويأخذ مفتاحها . وكنت أسكن الغرفة المجاورة له مباشرة ، وفى الغرفة المجاورة لغرفتى يسكن ولد يعمل ملاحظا فى مصنع سجاد شهير ، كان لزجا سمجا فارغ الذهن فج العواطف تافه الحديث ، فلم تقم بينى وبينه أية علاقة غير علاقة الجيرة . إنما قامت العلاقة بينى وبين هلال الشريف ، وشلة أصدقائه من زملائه فى الشغل يجيئون للسهر معنا كل ليلة ، نجلس طول الليل فى شرفة غرفته نتسامر ونحكى آخر النكت السياسية ، ألخص لهم آخر كتاب قرأته وآخر رواية ، يحكى أحدهم عن فيلم أجنبى شاهده ، يحكى آخر عن نوادر زملائه ، عن مباريات الأهلى والزمالك ، عن أهلنا فى الصعيد وما فيهم من براءة يهتز القلب ضحكا من طرافتها ، عن أهلنا فى الوجه البحرى وما فيهم من سذاجة وطيبة . هلال يشترى قطعة الحشيش من شارع

الصحافة فى بولاق ، ليخفيها تحت المخدة بعد أن ينتزع منها قطعة صغيرة يزعم أنها آخر ما معه ، لنلفها فى سيجارتين تدوران على القعدة ، فإذا ما شعشعت السيجارة الثانية دحلب يده تحت المخدة ثم يخرج مدعيا أنه واصل إلى دورة المياه ، ليعود بعد برهة وجيزة فيدحلب يده تحت المخدة ، ويحمر وجهه ويتكور بفعل الضحكة العريضة البريئة وهو يقول أنه عثر على قطعة تائهة تصلح سيجارتين أخريين . وهكذا إلى أن ينتهى الربع قرش ، ولربما نزلنا فى الجزء الأخير من الليل مرتدين المنامات والشباشب الزنوبه لنعبر شارع رمسيس الى شارع الجلاء فشارع الصحافة لنشترى تمناية من أية غرزة ساهرة ، لنعود فنلحقها بدماغنا حتى مطلع الفجر ليمدد الجميع فى أماكنهم حتى موعد العمل فى العادة يصحو هلال بعد قليل جدا ، ليشترى جرائد الصباح وهى طرية ، من بائع نسقط له السلة بحبل فيضعها فيها فنجذبها . قد نبقى وقتا طويلا نمزح مع بائع الصحف حول النقود هل أخذها أم سقطت من السلة ؟ لنضحك عليه إذ ينحنى ليقلب فى الأرض بحثا عنها ، أو نسقط له السلة بالنقود فإذا هى سيجارة ملفوفة نصالحه بها . أحيانا كان يتركنا ويجرى مؤجلا نقوده حتى يفيق لمزاحنا الثقيل ، فيصعد إلينا الغرفة ليجادلنا ، حيث يتمادى هلال حينئذ فى المزاح ، فيحمله مسئولية الأخبار السيئة التى تنشرها الجرائد ، ويمتنع عن دفع ثمنها مالم يأت لنا بجرائد تحمل أخبارا طيبة ، والولد يحتمل ذلك فى ود ويقول : « من أين يابيك الأخبـــار الطيبة ؟ ! » فيقول هـــلال : « صدقت والله يا ولدى ! » ، ثم يزفر فى أسى حقيقى شديد ، ثم يعطيه حقه زائدا قرش تعريفه أو سيجارة . كان جميـــلا جميـــلا جميـــلا ، كريما جـــوادا . فى سبيل ألا تفارقه صحبتى دفع لى ستة أشهر على ثلاث دفع ، على أمل أن تنصلح الأحوال . فلما أذنت الأحوال بغير انصلاح لمدى ثلاثة أشهر أخرى كان لابد من الإنسحاب فى هدوء وفى السر حتى لا أسبب له أى حرج . إتفقت مع صاحب الفندق على موعد قريب للسداد ، ثم جمعت حوائجى فى الحقيبة وأغلقتها ،

وقلت لهلال الشريف :

- « دع هذه أمانة عندك حتى أسافر البلد وأعود بعد حوالى أسبوع على الأكثر »

قال فى الحال :

- « معك أجرة السفر ؟ ! »

تلعثمت :

- « .. سأتصرف ! »

- « ولماذا تتصرف وأنا موجود ؟ ! »

واتجه إلى المشجب الواقف فى ركن الغرفة وسحب من جيب السروال رزمة من ورق البنكنوت خفيفة ، نزع منها جنيهين قدمهما لى :

- « سلم لى على الجماعة ! »

لم أجد معنى للإعتذار :

- « شكرا ! شكرا ! »

أخذت الجنيهين فدسستهما فى جيب سروالى ومضيت أعانقه ، ثم انصرفت مغالبا دموعى . أذكر أننى مكثت أياما لا أجد حماسة لصرف الجنيهين ، لكن الأيام كانت تمضى بى من سيىء إلى أسوأ ، وكلما توغلت فى الغياب إزددت خجلا من رؤية هلال ، وخوفا من صاحب الفندق . وكنت أتوقع أن يكون هلال قد دفع له المبلغ . لهذا رأيتنى أمعن فى البعد ، وأتجنب الظهور فى منطقة الفندق برمتها . وكان الشوق إلى هلال وقعدة الشرفة المطلة على الشارع يدفعنى فى عز الليل إلى التجول خفية أمام الفندق والتطلع إلى الشرفة لأرى شبح هلال جالسا وحده يدخن بعمق وشراهة ويستمع إلى أم كلثوم من

راديو كاست ؛ أكاد أناديه أكاد أصعد إليه ؛ لكننى أغلق فمى وأستدير عائدا بقلب مكلوم ؛ إلى أن جاء يوم سألت فيه عن هلال عبر الهاتف بصوت مستعار ، فقيل لى أنه غادر الفندق نهائيا إلى حيث لا يعرف أحد ؛ فسألت عنه فى الشغل بالهاتف أيضا فقيل لى إنه فى إجازة بدون مرتب ... ...

....

... ...

صرنا نخوض فى وبر السجاد الثمين المزدان بالألوان والأبهة ونحن ننتقل من غرفة إلى غرفة ، خلفنا زوجة حسناء جدا كأنها مصنوعة من الزبد ، تضحك بصوت رنان بهيج ، وأطفال على درجة كبيرة من الظرف وخفة الظل يحملقون فىّ بانبهار وغموض ... ...

... ...

ها أنذا أمضى فى شارع قاحل يبدو كأنه فى مدينة دمرها العدو منذ وقت وجيز فارتحل جميع من كان فيها من الأحياء . كانت بقايا الحياة فوق أكوام القمامة وبين انفاق الهديم تبدو على شىء من الطزاجة . وكان يبدو لى كأننى قادم من مشوار شديد الأهمية شديد الإرهاق ماصدقت أن أنجزته . ولم أكن أعرف بعد إلى أين أنا متجه . لم يكن فى ذاكرتى سوى بعض ملامح مضيئة من وجه حسناء صبوح ، وركن فى صندرة فى مطبخ أحد القصور حافل بكثير من الكراكيب والمتروكات وبطرمانات الطرشى وخزين التموين ، حيث يظهر من نهاية الركن وجه حقيبة جرباء صدئة الأقفال ، ورجل لطيف أغلب الظن أنه صديقى القديم هلال الشريف يشير إليها قائلا : تلك حقيبتك الأزلية سوف تعود إليها فى يوم من الأيام .

- ١١ -
المشَّاءُون

دائما أبدا هناك فى عمق الليل مأوى احتياطى ، قد ينساه الإنسان إلى حد فقدان الأمل فيه تماما ، فلا يتذكره مطلقا ، بل قد ينمحى من ذاكرته وهو على مبعدة خطوات قليلة منه بينما هو يبحث عن غيره . غير أن الليل كلما أوغل فى البهمة ، واليأس كلما اتسعت صحراوه وأظلمت آفاقه ، يقوى الإحساس بوجود هذا المأوى المجهول المختبىء فى عباءة الليل كثقب ضئيل يتخفى بين طيات العباءة فلا تدركه إلا الكائنات المفرطة فى الضآلة .. فكل ضئيل لا يشعر مطلقا بفقدان المأوى ..

قعدة الإمبابى كانت واحدة من هذه الثقوب . نمضى اليها عبر مجموعة من الحوارى الضيقة الملتوية التى يغلقها الليل ببوابات من الظلام الحديدى ، مع أنها تقبع خلف شارع سليمان الغارق فى الضوء النيونى المبهر ليل نهار ، ويخترقها من القلب شارعا عبد الخالق ثروت والأنتيكخانة ، ويخترقها بالعرض شارع شامبليون الذى ينتهى بدار القضاء العالى ونقابة الصحفيين ، فكأن هذه الشوارع الثلاثة قد قسمت حى معروف المظلم المتهالك بشرائح من الجير المخلوط بالرمل ..

ولقد يشعر الماشى فى هذه الشوارع الثلاثة بأنه ما يزال يعيش فى قلب المدينة العامرة بالوهج . فإذا كان مثلى يقصد ثقبا فى عباءة ليل القاهرة فإنه يضرب فى حوارى تتسع بالكاد لجسد واحد يمر فإن صادفه مقبل فلابد أن

يجتنب كلاهما الآخر ملتصقا بالحائط حتى يمر أحدهما أو كلاهما ، بين بيوت حاصلة على أمر بالإزالة منذ أكثر من خمسين عاما ، ومع ذلك لم تُزل ولم يفارقها أحد ، بل إن شاغليها أجروها لناس جدد وانتقلوا إلى أماكن أخرى خصصتها لهم الحكومة بموجب إزالة بيوتهم . وهى بيوت واطئة أزيلت أدوارها العليا ، بعضها بقى على طوابقه الأربع أو الخمس ، ببلكونات حديدية منبعجة ذات أفاريز ودرابزينات صدئة ، ومشربيات كالحة فى لون التراب ومفعصة ومخلوعة الأضلاع ، وشبابيك مقفلة بورق الكرتون بدلا من الزجاج ، وشرفات كالدمامل فى جسد موبوء بالجروح والقروح ، وأبواب عتيقة لا تفتح إلا نصف فتحة لما خلفها من أرض غير مستوية بفعل ماتراكم عليها من هديم سابق وبقايا طوب قد ينفع فى أى غرض . لابأس إن حوى الهديم ثعابين وعقارب منجذبة برائحة الرطوبة والبلل والقمامة وفضلات الغائط الذى يدلف من البطون فى فتحة فى الأرض ، لابأس طالما كل منهم فى حاله ..

عادة العين اعتياد الظلام ، فإن هى إلا دقائق معدودة بين هذه الحارات حتى ترى نفسك قد بدأت تبصر بعض ألوان شاحبة تبقع العباءة فى أكثر من موضع ، إنها لمبات الجاز السهارية ذات الفتيل المدخن ، ينبعث ضوؤها العليل من فتحات متباعدة ، من طاقة فى جدار ، من باب صغير كباب خن الدجاج ، من فتحة خص قائم وحده كالضريح فى ساحة تخلفت عن إزالة بيت ولا يزال الهديم يحيطها . ويتوسطها . لو كنت من دود الأزقة مثلى فإن عينك خبيرة بالتلصص فى هذه الفتحات واختلاس النظر . فى أى فتحة من هذه الفتحات يمكنك أن تميل برأسك وتطل دونما صفاقة أو تبجح ، بل يمكنك أن تنحنى داخلا ، ملقيا بالسلام عليكم ، أو مساء الخير ياجدعان ، أو حتى بدون أن تفتح فمك . هذا إذا كنت معروفا لديهم ، وإن لم تكن فيمكنك الإيحاء لأهل المكان أنك معروف لهم ، يكفى أن تذكر إسم واحد من المترددين على المكان ، أو من جيرانه . ستجد أطفالا تتكوم على مقربة منك تحت بطانية أو خيشة أو جلاليب قديمة ، فى حضن امرأة ، أو تراهم متناثرين . ستجد من يرحب بك ، يفسح لك

لك رقعة تتربع فيها ، أو يزغد النيأم يأمرهم بإفساح المكان ، أو بالخروج إلى الخلاء ، حسب ما يوحيه سمتك ومظهرك من خير متوقع . سيجيئك بائع الحشيش والأفيون ليفرجك على ما معه من الصنف . سيعد لك صاحب المكان حجارة الدخان المعسل ، أما النار فمشتعلة على الدوام ، يسقيك عشرين حجرا ، خمسين ، مائة ، الحجر بقرشين تعريفه . تخرج بعدها وأنت آخر تمام ، تخبط فى ظلام الحارة تدوس فوق كلاب وقطط وأكوام زبالة . بعد خطوات تصير فى شارع شامبليون ، ومنه إلى شارع سليمان ، أو شارع الأنتيكخانة أو شارع عبد الخالق ثروت ، فترى الشوارع والأشياء وقد تغير لونها واصطبغت بالصفاء وظهرت ملامحها الدقيقة ، وشملك هدوء نفسى منقطع النظيير . على أن الوصول إلى هذه الحالة الرائعة التى تستقبل بها الليل تقتضى وجود خمسين قرشا معك على الأقل إن كنت تشرب الحشيش الشعبى الكبس ، وجنيها كاملا إن كنت تشرب الهبو البريمو ، لتصير ليلتك آخر فل . بمبلغ كهذا قد تستطيع المكوث فى الوكر حتى مطلع الفجر فتقطع فرط الليل وتتكيف بنقود واحدة ..

بعضهم كان ميسوار ، يستطيع دفع نقود للمزاج ، ونقود للمبيت ، ونقود للتسكع فى كل خطوة . « فايق » مثلا ، رسام الكاريكاتير الشاب ، ذو الجسد النحيل ، لا بالطويل ولا بالقصير ، أحمر الوجه رقيق الصدغين بارز الخدين شفاف البشرة البيضاء ، إذا ما انفعل بالغضب أو بالمرح بدا كأن شايا أحمرا قانيا يندلق فى كوب من الحليب . هو منفعل على الدوام لكنه إلى المرح أقرب وعن الظرف والسخرية لا يحيد . يشع الذكاء فيه من عينين طفلتين وادعتين متحفزتين كعصفورتين لم تتعلما الطيران بعد . غليظ الشفتين ، يطبقهما على الدوام فوق ابتسامة أزلية أكبر حجما من فيه . غزير الشعر أسوده ، يحلقه دائما على طريقة عيال الفلاحين المؤدبين ، حيث لا طول فى السوالف ولا إعتناء

فى التصفيف ، إلا أن خصلاته الأمامية مهما قصرت فإنها تلقى بظلها على الجبهة التى لا تزيد عن حجم تفاحة كبيرة . أما رقة الإحساس والشعور فليس لهما مثيل فى شلته كلها ولا حتى فى أبناء المدينة ، لذا فالبشر لا يملكون إلا أن يحبوه بكل مافى قلوبهم من مدد ، وأما خطوطه وفنه فحدث ولا حرج ، كأنها خطوط إلهية تخرج من يده مرسومة جاهزة وكأن وحيا خفيا عليهما يحرك الريشة فى يده إلى هدف معلوم سلفا ، حركة الخط فى ريشته هى نفس الحركة التى نراها أثناء تفتح أوراق الورد فى صور الأفلام العلمية ، فإذا هذه الخطوط العفوية قد صارت نساء فاتنات مصريات ينافسن القمر ، وعمالا مكدودين وفلاحين يستلذون العرق وسماسرة بكروش بارزة وحلل أنيقة ثمينة والإحتيال فى عيونهم . ملامح مصر كلها فى خطوطه تلتقط المفارقات الناعمة وتكشف المستور من التناقضات الفادحة ..

وفد من الزقازيق منذ وقت قليل ،فلقى حظا عظيما ، وحظيت رسومه بتقدير منقطع النظير ، خدمته الظروف لأن مجلة شهيرة كانت تحت التأسيس عند قدومه فاختطفته فبات بين عشية وضحاها أشهر نجم بين رساميها المتخرجين فى كليات الفنون الجميلة رغم أنه لم يدخل الجامعة ولم يدرس الفن فى كلية ..

جرت النقود فى يديه بكثرة ، فاستأجر شقة فى وسط البلد لا أظن أنه يراها ليلا أبدا ، إذ هو يعدل مزاجه بالحشيش الهبو فى أول المساء ، وينتقل إلى إحدى الحانات أو إلى شقة أحد أصدقائه لقضاء السهرة فى لعب الورق ، وفى الهزيع الأخير من الليل يبحث عن الأماكن التى تمتد ساهرة حت الصباح ليجلس بين رهط من الأصدقاء يتكلمون فى كل شىء حتى تجىء الجرائد فيقرأوها . قعدة الإمبابى هى التى تصادفه فى معظم الليالى إن كان على مقربة

منها . فور طلوع النهار يتوجه الى المجْلة ، ليفتح حجرة مكتبه ويظل يرسم حتى الحادية عشرة ظهرا ، فإذ يكون المحررون قد بدأوا يتوافدون إلى المجلة يكون هو انتهى من عمله ، فينصرف ، لينام حتى مدخل المساء ، حيث يبدأ برنامجه اليومى ، وحيث ينتظر الجميع مقدمه بفارغ الصبر ، إذ هو بلسم حقيقى ، يوضع فوق الجرح فيطيب الجرح ، كريم إلى أقصى الحدود ، خفيف الظل وابن نكتة ، صاحب قفشة ، ما فى جيبه فى يديه ، ومن يديه إلى يدى الأصدقاء وأفواههم ..

شلته معروفة محدودة ، لكنه يستوعب الكثيرين من الذين يفرضون أنفسهم عليه فيقبلهم من الزاوية الإنسانية فحسب ولكنه قادر على ردعهم وصدهم عند اللزوم . « حنفى قمر » مثلا ، المحرر الفنى فى نفس الدار التى تصدر هذه المجلة . هو من دفعة رئيس تحرير المجلة ، إذ تخرجا معا فى كلية الحقوق ، لكن الفرق بينهما فرق السماء عن الأرض . فرئيس التحرير كاتب مشهور جدا ، له ثقل جماهيرى كبير ، وتأثير خطير فى الرأى العام ، وعلاقات واسعة بجميع رئاسات المنطقة العربية وبعض رؤساء العالم ، وذو مكانة خاصة فى نظر رجال ثورة يوليو ، وقد لعب دورا كبيرا مؤثرا فى مستقبل بعض أبناء جيله . أما « حنفى قمر » فقد بقى طول عمره هذا المحرر الفنى الكحيان ، لا تتجاوز قدراته كتابة خبر فنى يجلبه خلال التصعلك فى الأوساط الفنية وأوكار الليل الحاوية لصغار الفنانين . يقولون إن الحشيش هو الذى دمره ، إستغرق كل وقته فانصرف عن القراءة والمتابعة إلا أنه لم يكن فى الأصل مبنيا بناء سليما كما أنه لم يكن على موهبة أو ثقافة ، فبات مجرد شاب نحيل القوام ، صغيرالوجه كرأس الهدهد ، تبرق عيناه ببريق مخيف كأنهما معدتان على الدوام لالتقاط عدسة الكاميرا ، بخصلة شعر رومانسية نافرة على الدوام . سر

اشتغاله محررا فنيا حلمه بأن يكون ممثلا مرموقا ، وشيئا فشيئا ضؤل هذا الحلم ، وآب إلى قناعة بأدوار الكومبارس ولو لدقيقة واحدة على الشاشة ، على حسها يتكىء جالسا فوق سور الرصيف أمام محل البن البرازيلى فى شارع سليمان ، فلربما تنبه إليه المارة فأشاروا وتغامزوا وتهامسوا وبعثوا بالتحية - وهو مالم يحدث أبدا . وعلى حس هذه اللقطة قد يبيعه تاجر الحشيش ربع قرش على الحساب الشكك ، ويمهله بائع السجائر أياما أخرى فى دفع ماكان عليه ، ويحترمه نوادل البن البرازيلى عند تقديم القهوة كما يحترمون أنيس منصور ونبيل الألفى وصلاح سرحان وغيرهم من نجوم رواد البن البرازيلى ..

هو الوحيد من شلة « فايق » تراه فى قعدة الإمبابى كل ليلة . وهو الوحيد أيضا الذى جعله « فايق » يهجر هذه القعدة بعد أن كانت مقدسة لديه . لم يكن يزعجه سوى سخافات « حنفى قمر » ومحاولاته جر « فايق » إلى الإدلاء بآراء فى السياسيين والكتاب والفنانين ، فكان ينفر منه نفورا شديدا ، ويحتج بكل ظرف وخفة ظل قائلا له : « لقد ودعتك داخل الحارة فالمفروض أنك الآن لست موجودا والمفروض أننى انصرفت عنك ! » وليت الأمر يتوقف على هذا الإزعاج فحسب ، بل كثيرا ما يطلب « حنفى قمر » شايات وحاجات ساقعة وقهاوى عديدة وعلبة سجائر كبيرة وقد يلمع الحذاء ويأكل بعض السندويتشات ويتورط « فايق » فى دفع الحساب ، فكيف عن المجىء إلا فى اللحظات الأخيرة من الليل أو اللحظات الأولى من الفجر كى يتأهب لالتقاط عربة أجرة توصله إلى مكتبه بالمجلة فى نهاية شارع عماد الدين ..

« حنفى قمر » يعرف أنه لن يجد فى هذه القهوة سوى أخبار السياسة التى لا تهمه فى كثير أو قليل ، وبعض أخبار الأدب الذى ينظر لأهله باعتبارهم أنصاف مجانين يهرقون دماءهم على أوراق لا يقرأها أحد ، فضلا أنها لا تجد

من ينشرها بسهولة ، وقد تودى بأصحابها وتويهم إلى السجن . إلا أن «حنفى قمر» لا يمكن أن يجد مكانا ساهرا ولا يحود عليه ويجلس فيه بعض الوقت ، خاصة إذا كان مكانا يؤمه بعض المعروفين له ، ولا يكلف الجالس فيه أى نقود ، وبالأخص اذا كانت قعدة الإمبابى المتاخمة لكل جحور الليل فى قلب وسط المدينة .

هى عبارة عن دكانة صغيرة كانت فى الأصل فراغا فاصلا بين جدارين أشبه بمنور مفتوح على الشارع يستفيد به بيتان متجاوران . ومن الواضح أن الإمبابى قد استولى على هذا المنور ، وصنع له سقفا وبابا خشبيا وبنكا صغيرا، وملأه بالرفوف الخاوية ، وحوله إلى دكانة لبيع السجائر والدخان المعسل والأسبرين والفحم المعبأ فى أكياس من النايلون ، ووضع بجواره ثلاجة من الثلاجات التى توزعها شركة الكوكاكولا ، ثبتها فى الأرض وشغلها أياما ثم هجرهاوصنع لبابها قفلا بجنزير واتخذها مخزنا لبعض الحاجيات ، ذلك أن الدكانة ليس فيها متسعا لتخزين صناديق الكوكاكولا . يمر عليه مندوبو شركات السجائر كل يوم بالتروسيكلات ، فيتروكون له طلبيات الأمس ويأخذون ما جمعه من نقود . لا أحد يعرف كم يكسب من هذه الشغلة ، ولكن الجميع يعرف أنه ليس ينتظر منها مكسبا، إنما هذه الدكانة الصغيرة هى مركز يضيّع فيه وقته ، حيث قد كان موظفا بمصلحة البريد قبل أن يحال الى المعاش منذ مايربو على عشر سنوات . يكفيه معاشه الذى يقبضه كل شهر ، بثمنه يدخن السجائر ، أما المأكل والملبس والمأوى فإن أولاده قد بارك الله فيهم ، أكبرهم محام شهير ذو مكتب فى وسط المدينة وبيت فى عمارة حديثة بشارع شامبليون نفسه ، على مقربة من دكانة أبيه . من قعدته فوق الرصيف يستطيع رؤية السلة المدلاة بحبل من شباك الطابق الخامس فى العمارة المواجهة على الرصيف المقابل ، فيعرف

أنها تحوى عشاءه ، فينفض نفسه واقفا ويهرول ليأخذ عامود الطعام من السلة ويدفع بها إلى أعلى حيث تشدها إبنة إبنه العروس ، فى حين يعود هو ليأكل على عجل ، يلوك الطعام فى فمه الأهتم فتتحرك جميع التجاعيد فى وجهه فوق شفتيه الغليظتين ويبدو وجهه كطفاية سجائر مطبقة فى بعضها بلونه الفخارى الغامق ، ومن حين لآخر يرفع يده الملوثة بالطعام ليزيح الطاقية الصوف براحة يده عن رأسه الأصلع كالكرة الشراب ، ويهرش تحت الطاقة ثم يعدلها فوق جبينه ويواصل الطعام ، فإذا ما جاء زبون من المقهى المجاور له يطلب علبة سجائر أو كيس فحم أو باكو دخان معسل فإنه يأخذ الثمن ويشير له إلى مكان الشىء فيذهب الزبون ويأخذه ..

الأستاذ « جمعه الإمبابى » المحامى – الإبن الأكبر للإمبابى – من هواة السياسة وإن لم يشتغل بها فى يوم من الأيام ، ذو ميول وفدية ، ومؤيد للثورة ، لكنه متوجس على الدوام من جنوح رجالها إلى العنف وممارسة حياة الباشوات، ويشفق على الرئيس عبد الناصر من غيلان الداخل قبل غيلان الخارج ، خاصة عملاء المخابرات المركزية الأمريكية التى دأبت على محاربة الثورة فى الداخل والفصل بينها وبين الجماهير وهز ثقة الناس فى الرئيس وفى نواياه . ودائما يدعو الله بأن يكون فى عون الرئيس ويساعده على أولاد القحايب من أعوانه الذين ينفذون تعليمات المخابرات الأمريكية بإحالة البلد إلى سجن كبير نصفه حكام ونصفه محكومين ونصف الحكام والمحكومين مخبرون سريون على بعضهم البعض ؛ مثلما احتالوا على مقدرات البلاد فأفقروها وضيعو كل ثرواتها على ملذاتهم ..

قعدته المفضلة هى رصيف دكانة أبيه ، إبتداء من الحادية عشرة مساء ، حيث يكون هدير الحركة فى شارع شامبليون قد خمد . يسحب كرسيا من

المقهى ، يلتحق بالدكانة ، ليجىء النادل خلفه بعد برهة بفنجان القهوة على صينية ، وبعدها الشيشة النادية . يسْتوى على الكرسى جالسا بجسده الضخم وكرشه الكبير غير المنفر ، والروب دى شامبر الكاروهات الأحمر يلف جسده بالحزام ، تحته تبرز البيچاما الحريرية من الصدر والساقين ، ياقة الروب تحيط رقبته القصيرة التخينة فتبدو رأسه الكبيرة المستديرة كبطيخة مزروعة فى أصيص مزركش ، ويبدو وجهه المنتفخ بالصحة والدماء حليقا على الدوام ..

يجلس معظم الوقت صامتا يشد أنفاس الشيشة ، فإذا طلب رأيه فى أمر أو قضية لوى ملامحه ونطق بكلمة أو كلمتين فى مرارة وقرف يخيل إليك معهما أنه غير راض عن أى شىء على الإطلاق . أما إن اتسعت القعدة وحفلت بوجوه مهمة معروفة له أو من أصدقائه فإن صوته الرنان الواثق ينطلق فى لهجة بين الخطابة والتمثيل ، مرددا عبارات فخمة مثيرة لافتة للأذن ، تحوى دقيق المعانى عميق الآراء ، عن مصر ودور مصر المقدور ، الذى هيأتها الطبيعة له ، كى تقود المنطقة والعالم إلى بر الأمان ؛ عن فجر الضمير الذى لابد أن يعاود شروقه من ضفة الوادى الخصيب ؛ عن خطر إسرائيل الماثل الماحق ؛ عن القومية العربية وأعدائها الأوغاد من ورثة عهود الظلام ؛ عن دور الجماهير العربية العريض وكيف ينبغى على المثقفين سياسته ؛ عن حتمية انهيار العالم القديم من داخله ؛ عن وعن وعن ، إلى مالانهاية ..

تكتمل نشوته بحضور صديقه زميله « أسعد حامد » المحامى ، السياسى المحترف ، عضو اللجنة المركزية بالإتحاد الإشتراكى العربى ، وعضو سابق بمجلس الأمة ، أبوه ثرى من أثرياء القاهرة ، صاحب توكيلات عديدة للمحاريث والهندسة والأدوات الهكربائية والصحية بجميع أنواعها . محلاته الكبرى فى وسط المدينة ذات أفرع فى بقية الأحياء والمدن الصغيرة . غير أن الأستاذ

«أسعد حامد» المحامى - رغم حبه للثراء ونبرة التفاخر الخفيفة فى حديثه بما عند أبيه - يقف فى صفوف الفقراء ويتكلم دائما باسم العمال والكادحين من أبناء الفلاحين العظماء بناة مصر ، فإن كانت مصر فى نظر المؤرخ اليونانى القديم « هيرودوت » هبة النيل فإنها فى حقيقة الأمر هبة الفلاحين ، بل إن النيل نفسه هو هبة الفلاحين المصريين الذين امتطوه من قديم الأزل ولجموه وجعلوه يمضى حيثما أرادوا ..

طويل القامة بصورة لافتة للنظر ، نحيف البدن ، أبيض الوجه كالأتراك اليونانيين ، مضغوط الصدغين أحمر الخدين بجبهة ضيقة وشعر خفيف على جنبى رأسه الصغير ، وسالفين طويلين بجوار أذنيه ، أما الرأس فيخترقه شريط عريض من الصلع يبدأ بالجبين المقلوظ حتى مشارف القفا ، متحرر من كل عادات الأرستقراطية التى لا يزال ينتمى إليها شاء أم أبى ، حتى وهو يمارس التحرر من عاداتها بالجلوس على هذا الرصيف الترابى بين هؤلاء القوم المعدمين ..

متزوج من ممثلة فى فرق التليفزيون المسرحية أنثى بكل معنى الكلمة ، ممتلئة الجسد قليلا ، بارزة العجيزة والردفين رفيعة الخصر جدا يمكن أن تحيطه بقبضتيك ، مزنهرة الوجه ، تراها فتعتقد أنها ست بيت من الطراز البلدى الذى يؤكل بحق . وآخر شيء تتوقعه بالنسبة لها أن تكون ممثلة ، أن يخطر هذا الجسد المهرجان فوق خشبة مسرح ، ليترجرج هكذا فى كل خطوة على إيقاع الردفين كأنه ذاهب للإيقاع بفحولة كل رجال الكرة الأرضية ، مع ذلك فهى ممثلة لا بأس بها ، تستطيع إقناعك بكل حذق ومهارة ، لولا أن جسدها الفتى لابد أن يخرجك عن اندماجك ، يقودك إلى تمعنه كأنك تستعد لاعتلائها بعد خروجها من هذا المشهد رأسا ..

العجيب الطريف أن تكون هى الأخرى مصدر تفاخر خفى عند زوجها الأستاذ « أسعد حامد » المحامى السياسى الشهير . دائما أبدا يذكرها فى حديثه كأنما بشكل عابر : « سهير أوصلتنى الليلة بسيارتها لأن سيارتى عطلانه ! .. سهير طبخت لى بنفسها طبق كشك أفقدنى صوابى !.. سهير نبهت على بعدم الإفراط فى السهر خوفا على صحتى !.. سهير لم تنم ليلة الأمس بسبب هذا التعليق الغبى غير المسئول الذى كتبه ذلك المحرر الفنى الأحمق !! » ..

بعض الجالسين قد لا يعرفون سوى أن سهير هذه هى السيدة الفاضلة حرمه المصون ، وعدد كبير منهم هم الذين يعرفون أنها « سهير شعبان » الممثلة بفرق التليفزيون المسرحية . غير أن الأستاذ « أسعد حامد » المحامى يفترض أن كل الناس يعرفون أنها زوجته ، فيلمع الشعور بالإستمتاع فى عينيه الضيقتين الصافيتين لشعوره بأن الجميع يحسدونه على اقتنائه لهذا الجسد المتفجر الساحر ، شعور قوى واثق مدعوم بسمعة جيدة ، إذ يتناقل الجميع أخبار غزواته النسائية وفلوسه الكثيرة التى أنفقها على عضوه النشيط الذى لا يهمد والذى لم تستطع « سهير شعبان » بكل سيولتها أن تستنفد قواه الدليل على ذلك أن رءوسا كبيرة من الحكام ورجال المخابرات والفنانين والتجار والعسكر والأمراء العرب حاولوا الإيقاع بها بكل الطرق ، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، لكنها فلاحة ناشفة الدماغ سليطة اللسان حادة قارصة مفحمة ، رادحة عند اللزوم ، أجرأ واحد فى الوسط الفنى كله لا يقدر على مغازلتها حتى ولو كان بيده مستقبلها السينمائى . وأكبر كلمة غزل قيلت لها هى : يا أرض احفظى ما عليك . لهذا فإنها قليلا ما تظهر على خشبة المسرح ، ونادرا ماتشارك فى تمثيلية تليفزيونية ، أما السينما فقد أغلق بابها دونها تماما رغم أنها كانت مستعدة بكل كيانها لتمثيل أدوار الإغراء بشرط أن يتم ذلك فى إطار

التمثيل فحسب ، إلا أن كل المخرجين والمنتجين قد أساءوا الظن بها وتصوروها سهلة ، فردتهم على أعقابهم خائبين مفضوحين ، فباتت الفضيحة تهدد كل من يفكر فى الإستعانة بها حتى ولو كان شريف القصد والنية ..

حق للأستاذ « أسعد حامد » المحامى أن يفخر بها ، إذ هو يعلم عن يقين أن القعدة – قبل مجيئه – كانت تتكلم فى سيرتها من خلال الإشاعات الكثيرة المتجددة التى تدور حول محاولة المخابرات العامة تجنيدها ..

بمجرد جلوسه يضع ساقا على ساقا ، فيبدو الكرسى من تحته مجرد زاوية صغيرة تسند نخلة منكسرة الجذع فى رشاقة ، تتهدل سترة البذلة ذات الياقة أم صفين ، السوداء فوق سروال رمادى فاتح من صوف الفانلة ، والقميص الحرير السمنى ، ورباط العنق الثمين ماركة سولكا ، المعوج ، وقد انفك زرار الياقة من تحته واتسعت دائرة الرباط حول الرقبة حول العنق ، والرباط مشبوك فى القميص بدبوس من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة ..

بعد دقائق معدودة يجىء الكبابجى الملاصق لدكانة الإمبابى ، فيسحب منضدة من محله ، يضعها أمام الأستاذ أسعد المحامى ، يفرشها بالمفرش المزركش الأنيق يوفد صبيه بعديد من أطباق السلاطة المتنوعة : الطماطم بالخضروات ، الطحينة ، الباذنجان ، الطرشى ، مع أرغفة الخبز الطازج . يشرع هو فى الحال فيتسلى بغمس اللقيمات الصغيرة فى هذه الأطباق وتطويحها فى فمه ، فلا يبدو على وجهه أنه يلوك شيئا أو يبذل أى جهد ؛ لكنها دقائق معدودة تخلو بعدها كافة الأطباق ولا يزل نصف الرغيف باقيا أمامه ، حتى إذا ما وفدت رائحة الشواء واستعمرت الأنوف وحضرت فى الأطباق بمهرجان كبير من الدخان والنكهة ، شمر هو أسورة القميص عن رسغ يمناه وحشرها فى سمانة الساعد وانبرى يقطع الكباب بالسكين تحت ضغط الشوكة فى أناقة بالغة ، من فرط أناقتهاوتمهله فيها لا تكاد ترى اللقيمات وهى تصل

إلى فمه ، إذ أن يديه على الدوام فى حالة تقطيع وتسوية . حين يبدأ الصبى فى رفع الأطباق نفاجأ بأن على المنضدة أكثر من زجاجة كوكاكولا شربها هو أثناء الأكل ..

تنزاح الترابيزة من أمامه ، لتحل محلها طقطوقة المقهى ، النحاسية الصغيرة ، عليها صينية القهوة . ثم يبدأ ذراعه الطويل يرسم الخرائط فى الهواء مع حديثه ، وأصابعه السرحة تحتجز بينها سيجارة « لاك سترايك » طويلة ناعمة ، أستنامت علبتها بجوار صينية القهوة ومن فوقها الولاعة «الدنهل» الذهب . إذا نجح المستمع فى الإنصراف عن أناقته المفرطة وثيابه الثمينة وحذائه الذى خلق للفرجة بالجورب الحرير المزركش بالنقوش ؛ فانه سيكتشف عند الإصغاء أن الأستاذ أسعد حامد المحامى يتكلم كلاما مهما جدا ، عن ثورة الفقراء فى الإسلام ، عن اشتراكية أبى ذر الغفارى ، عدالة عمر بن الخطاب ، غشومية رأس المال الحر وعماء بصيرته الإنسانية ، حمورية الإتحاد السوفييتى فى السياسة الخارجية ، إضطهاد العرب لأنفسهم وشعورهم بالدونية والنقص تجاه كل ما هو أوروبى ، الثورة المضادة التى تهدد الثورة المباركة ، ثقافة اللامعقول العدمية التى بدأت تتسرب إلى مسارحنا وأدبنا لتشكل خطرا على النشء تصيبه باليأس والتشاؤم تملأه بالعنف والدمار ؛ يقول هذا فى رقة بالغة، مع نبرة رجولية واثقة راسخة ، واعتداد بالنفس يمنحه احتراما للآخرين ، إذ يعاملهم بكل تقدير ، بصرف النظر عن مستوياتهم الإجتماعية أو الثقافية ، فكل هاوٍ للأدب يزور القعدة ولو لأول مرة يصير على لسانه الأديب الأســـتاذ فلان ، وإن خاطبه فكأنه يخاطب توفيق الحكيم أو سارتر ، مستخدما الكثير من المصطلحات الأكاديمية والصيغ الفكرية المصكوكة فى الغرب الأوروبى : الوجود يسبق الماهية ، وأنت لا تنزل النهر الواحد مرتين ، وأنا أفكر إذن فأنا موجود ..

إلخ إلخ ، غير ملق بالا إلى المفارقات الضاحكة حين يمعن فى مخاطبة شاب يعرف بالكاد قواعد لغة الكتابة على أنه سارتر أو سلامه موسى ؛ أو حين يسخن فى مجادلة فتى طاهر النية من المبهورين بالفكر المادى فيخاطبه كأنه كارل ماركس شخصيا ، ويحمله ويلات الحروب كلها والكوارث التى ألمت بالبشرية المسكينة البلهاء .. ناهيك عن مخاطبته للجرابيع الكحيانين من هواة الزجل والأغانى ، حين يقولى للواحد منهم : حضرتك وسعادتك ولو تكرمت على وشرفتنى تأخذ سيجاره وتشرب قهوة ..

الواقع أنه - رغم مظهره الثرى الذى يمكن أن يقيم حاجزا بينه وبين الفقراء من زوار القعدة كما يطبعه بطابع الأرستقراطية الكبيرة القديمة - يخفى تحت هذه الثياب ابن بلد حقيقى صرف ، كأنما تحت هذه الثياب الأجنبية الفاخرة سروال بدكة وحجر ، وصديرى بأزرار صدفية كثيرة ، وفانله بكم طويل، ومنديل محلاوى يلف رأسه هذا الأصلع صلعا طريفا كأن طريقا مرصوفا قد اخترق رأسه من الوسط . يمكن عند الإنبساط آخر الليل حين تصفصف القعدة على القدامى من الأليفين ، أن يهزر معك بنكات ذات طابع بلدى عتيق ، يمكن أيضا أن يميل عليك هامسا : تتعشى معايه ؟ وقبل أن تجيب يكون هو قد طلب العشاء بالفعل ؛ فمجرد ترددك فى الإجابة - فى نظره - يعنى الموافقة ، ويعنى أنك تبحث عن مبرر مناسب للإعتذار ؛ وهو يعلن مقدما رفضه لاعتذار لا يقوم على موقف صحيح صادق . يمكن أيضا أن يقرضك جنيها كاملا أو نصف جنيه أو بريزة ولا يقبل أن تردها ..

يعتبر نفسه مسئولا عن مزاج شاعر العامية « سراج الجمل » الاسكندرانى ، الذى جاء القاهرة حديثا ليلتحق بعمل تحريرى صورى فى مجلة (نور الصباح) التى يعمل فيها « فايق » الرسام ؛ عن طريق رسام كبير فى

المجلة يقرض الشعر هو الآخر من باب العشق الصوفى للصورة المرسومة ، ويعتبر نفسه ناظرا على مدرسة شعر العامية المصرية . على أن « فايق » الرسام وجد فى « سراج الجمل » صديقا حميما فضمه إلى شلته ، وبات يرسم له قصائده ، ويشاركه فى رحلات فنية شعنونة .

صلة « سراج الجمل » بشارع شامبليون ليست ناتجة ، فحسب ، عن غرز الحشيش المتراكمة فى أحشاء حوارى حى معروف وهى كلها حميمة لفايق وسراج معا باعتبارهما من أشد الناس عشقا للنفس الهبو العظيم ، الذى يحرك خيالهما كفرس جموح يقتحم بهما آفاق النكتة النكيتة واللقطة البارعة .

إنما هناك سبب آخر يربط الشاعر بشارع شامبليون ..

فقد حدث أن الشاعر منذ قدومه إلى القاهرة وانتسابه لهذه الدار العريقة المشهورة بالجرأة والمكانة ، دأب على دعوة زملائه من المحررين والفنيين لزيارته فى بيته بالإسكندرية ، ليعرفهم على أهله البسطاء الذين يفخر بهم وبأصالتهم وتجذر فن الشعر فيهم أبا عن جد ، وأخا عن أم ؛ ويفسحهم فى حوارى الإسكندرية المخيفة ويذيقهم نكهة طبيخ أمه ذى الطابع الإسكندرانى . وكان لابد أن يعجب أحدهم بأخته ، إذ وقع فى غرامها موظف فنى فى السكرتارية الفنية فاختارها عروسا له .. وكانت نعم العروس ، ست بيت ممتازة . إستأجر لها شقة فى شارع شامبليون ، أمام قعدة الامبابى مباشرة ، فى بيت ذى ثلاثة طوابق ، مطل على الشارع بشرفات مستطيلة على الطراز الفرنسى السائد فى وسط المدينة ، وبابه يفتح على ممر جانبى واسع نوعا ، تحتل مدخله معلمة تخينه سمراء الوجه بسن ذهبية ضاحكة على الدوام ، بصوت مبحوح ملىء بشهامة الرجال وحنان النساء فهو جاذب للثقة والإطمنان بكل قوة . تضع على الرصيف فى مدخل الممر ثلاجة كبيرة جدا تمتلىء بزجاجات المياه الغازية تحت ألواح الثلج الذى تبيعه باللوح وبالقطعة ، وتملأ بقية الممر بصناديق الميـاه الغـازية

تلا لا، تلا لا . ولأن زجاجاتها مثلجة على طـول الخـط فإن المــارة لا ينقطعون عن التوقف أمامها لشرب الزجاجات باستمتاع ونشوة ، طوائف طوائف من الجنسين من جميع الأعمار . تصنع المعلمة « نوال » وحدها مهرجانا حلوا متميزا بين عربات الخضار والفاكهة المتناثرة حولها يحتشد بها الشارع على الجانبين . الخارجون من الجحور مسطولين فى الظهيرة أو فى صبا الليل يتوقفون على الرصيف بجوار الثلاجة لترطيب الصدور وسط ضحكات عميقة مكتومة أو منفلتة على موضوعات لا يعرفها أحد غيرهم فكأنهم عالم قائم بذاته وسط هذا العالم الحافل المتدفق على الثلاجة . والمعلمة « نوال » تعرف أخبار جميع سكان هذه البيوت حتى ما خفى منها ..

بالطبع جاء الشاعر فأقام فى شقة زوج شقيقته ، حيث أفرغت له حجرة خاصة مطلة على الشارع زودت بسرير سفرى ومكتب وكرسى . من حسن حظى أن كنت صديقا للشاعر فى الإسكندرية ، مما كان يعطينى الحق فى زيارته من حين لآخر على عشم أن أدركه لحظة تناوله للفطور أو الغداء ، الأمر الذى لم يتحقق لى أبدا مع أننى زرته فى أوقات عديدة متقاربة ..

كان مفلسا دائما ، فراتبه الضئيل لا يكفى بالكاد لطعامه وملبسه ؛ تبقى مصاريف يده وسجائره ؛ أما حشيشه فيتكفل به « فايق » عن طيب خاطر وأريحية ؛ فلم يكن أمامه من مفر إذن غير الشكك يشترى السجائر على الحساب . ما أسهل أن يطل من الشباك مناديا الإمبابى بعلبة بلمونت كبيرة يرسلها مع أى طفل يضعها فى السلةالمدلاة . دفتر الإمبابى نوتة صغيرة إذ أن الشاعر هو الزبون الوحيد الذى يسحب عنده بالأجل ، وكل رسماله لا يحتمل شهرا واحدا يتأخره الشاعر فى دفع ما عليه من الحساب . فإن طالت غيبة المكافات والحوافز والمنح عن الشاعر فإن زيارته الليلية للقعدة تبدأ فى الاختفاء التدريجى .

حينئذٍ يترك له الأستاذ « أسعد حامد » المحامى رسالة شفوية مع المعلمة « نوال » ملخصها أن الذى حصل قد وصل ، عبارة يفهم الشاعر منها أن الأستاذ « أسعد » قد دفع عنه الحساب . فإن هى إلا ليلة أو بعض ليلة حتى نرى « سراج الجمل » يستأنف عادته الليلية ، إذ يعود من سهرة « فايق » فى آخر الليل ، فبدلا من أن يتسلل على الرصيف المقابل مارقا من الممر بسرعة إلى بيته ؛ يعرج قادما نحو القعدة ، ليجلس ساعة أو ساعتين معنا ، ولابد أن يلقى آخر قصائده ، التى تجر عديدا من قديم قصائده . يلقيها باستمتاع شديد وأناقة أشد ، ونبرة تمثيلية مرعوشة متوجدنة ، مسبلا جفنه على عينيه الملونتين بما لا يتناسب مع بشرة وجهه القمحى حتى ليبدو كأنه استعار هاتين العينين من رجل أجنبى أشقر ، وترتعش شفتاه الغليظتان الشهوانيتان ارتعاشات بائسة ممرورة ، ويحرك ذراعيه وأصابعه يحدد بها ضرب الإيقاع ووحداته .

لا يصير شاعر العامية « سراج الجمل » فى قمة وهجه إلا إذا خلت القعدة من أى شاعر آخر محترف . وينطفىء تماما إذا فوجىء بوجود ، أو بحضور الشاعر الصعيدى العجوز السواح الدرويش « عثمان الأسوانى » ، بائع الدنيا والآخرة معا ، المتسربل بثوب فضفاض رث ، على كتفيه بطانية قديمة هى فرشه وغطاؤه ، فى أى مكان فى أية لحظة يدركه النوم يفرش وينام ، على أى رصيف على أى شاطىء ، فى القطار فى السيارة فى الطريق . هو فى الأصل لا يعترف بالمواصلات الصناعية إلا بحكم الشديد القوى : المرض أو بُعد المزار . فيما عدا ذلك فقدماه أعظم راحلة يمتطيها إلى أى مكان . طويل هو كعرق الخشب ، رمادى اللون صلب الملامح قاسيها ، مغبر العينين بتراب الطريق ووعثاء السفر الدائم ، شعره أسود مجعد كفرو الغنم ، طاقيته حائلة ..

تظنه للوهلة الأولى سائلا أو من مجاذيب أم هاشم . أنت حر تظن

ماتشاء ولكن ذنبك على جنبك إن بدرت منك بادرة احتقار أو استهانة أو استعلاء ، ستلقن درسا قاسيا فى الأدب لم تسمعه طول عمرك ، وبالأدب الجم ، يسلقك حتى لتكاد تقوم منحنيا على قدميه تقبلهما طلبا لغفرانه البعيد . وحتى إن غفر لك فغفرانه لا يمحو من نفسك الشعور بالألم بعد ذلك أبدا . أما إن كنت كيِّسا طويل البال تحسن فن الإصغاء والتعرف على الناس فإنك سترى نفسك قد حصلت فجأة على فرصة نادرة إذ جلست مع واحد من شوامخ التراث المعاصرين ، لعله المتنبى مثلا أو المعرى أو البحترى أو أبو نواس ، الشعر سليقته العظمى ، مطيته .فى قلبه غيطان القوافى ، فى صدره إيقاعات الإبل مع هدير القطارات والبواخر وأزيز الطائرات . فى جوانحه براكين الغضب : إخضع ، إركع ، أولى بك أن تخضع ، إنظر قدامك خلفك فوقك من تحتك مدفع ، لا ترفع رأسك لاترفع ، يقطع !..

يتلوى جسده كله إذ يلقى أبياتا كهذه . كل عضلة من جسده وكل ملمح من ملامحه يشارك فى الإلقاء ، فكأنه يمارس طقسا من الصلوات ، بل كأنه يمارس طقس الموت والميلاد وآلام المخاض وحرارة السعير كل ذلك فى آن معا . مباحث أمن الدولة العليا إنتبهت إلى القعدة بسببه . بعض الشبان كانوا يحضرون إلى القعدة من أجله ، حيث ينتشر خبر وجوده على كل المقاهى ، من مقهى ريش إلى زهرة البستان إلى سفنكس إلى لاباس إلى مقهى الحرية إلى مستودع بيرة ستلا . فإذا ما دخل الليل فى نصفه الثانى ترى القعدة اتسعت وشغلت رصيف المقهى كله ، حتى ليترك صاحب المقهى كراسيه فى عهدة الإمبابى حين يغلق مقهاه فى منتصف الليل ..

مثل هؤلاء الشبان كانوا يعانون الأمرين كى يصبحوا من رواد القعدة الدائمين ، خاصة إذا كانوا من غير المعروفين ؛ إذ لابد أن يتحفظ الأستاذ

« أسعد حامد » فى حديثه بعض الشىء ناظرا فى اتجاه بعض الشبان ذوى الوجوه الغامضة .فإن لاحظ أنها غير منبهرة بشىء أمامها يغير فى الحال مجرى الحديث معرجا إلى شىء آخر ، أو يكتفى بالإستماع . وليس من بأس فى أن يستأنف الحديث مرة أخرى إذا انصرفت الوجوه الغامضة التى كانت تقلقه . وغالبا ما يشيعهم بغمغمة وبرطمة يلعن بها المخبرين وشغل المباحث والمعيلة الفارغة . حينئذٍ يرمقه « عثمان الأسوانى » بنظرة لوزية ثاقبة سابحة فى بحر من السخرية العميقة ، ثم يهجم عليه فى الحال - من خلال صوته المبحوح - بغمز خبيث لطيف باسم الثغر ، ولا مانع من أن يقول له بكل صراحة ووضوح : « هذه الخصلة فيك تؤكد لى أنك كنت شيوعيا سابقا ! » . فيبتسم الأستاذ « أسعد » فى كثير من التفاخر كأنه يؤكد ما ذهب إليه الأسوانى وأن كان يضيف قائلا : « يا عم ماتوديناش فى داهية امال ! » . ففى الحال يدرك الجالسون أن الأستاذ « أسعد حامد » المحامى قد دوعب غروره السياسى أحلى مداعبة . فى نفس الوقت لا يخفى « عثمان الأسوانى » ضيقه بما حدث ، بل لا مانع لديه من استيقاف القائمين ، يتشبث ببقائهم قائلا : « بدرى يا أسيادنا ! نحن نرحب ببقائكم وبالأخص المخبرين منكم !! » . أما الأستاذ « جمعه الإمبابى » المحامى فإنه يكتفى بالنظر فى بلاهة صامتة . وفى معظم الليالى يكون هو أول المنصرفين ، كأن مهمته الرسمية هى الجلوس حتى يتجمع الرواد لينصرف .

حسنا ما يفعل ، إذ هو ما يكاد ينصرف حتى يجى « سليم شحيبر » ، أسخف من حملته الكرة الأرضية على الإطلاق مثلما يصفه « فايق » ويؤيده الأستاذ «أسعد» فيتحرج من ذلك الأستاذ « جمعه » باعتباره السبب فى جلبه . يتأفف الأستاذ « أسعد » وينثر طوقه علامة أنه سيخرج من ثيابه إذا جاءت

سيرة « سليم شحيبر » ، فيضحك الجميع علامة على أنهم يشاركونه نفس الشعور ..

لا يعرف الكثيرون أن « سليم شحيبر » هو الذى تسبب فى قيام هذه القعدة . هو شاب على مشارف الثلاثين من العمر ، أحمر اللون ، ربعه ، نحيف الجسد ، طويل الرقبة برأس مستطيل كالشمامة ، ممسوح الملامح ، ليس فى وجهه النحاسى سوى عينان وأنف وفم واسع غليظ الشفتين معووج الفتحة فى وضع ابتسامة مشمئزة قرفانة . فى لسانه لدغة بسيطة ، يحلو له التكلم بلكنة أجنبية ، وبعبارات مصكوكة مليئة بالشعارات الرنانة ، وفى لهجته استنكار دائم واستعلاء بارز . الكلمة تنعجن فى حلقه وتنبْطش ، فتخرج من فمه مبططة ممطوطة لها ذيل يرن رنينا أجوف كصوت غطيان الحلل . صوته عريض منطلق يحتوى فى أعماقه نبرة نوبية حادة الرنين لولا أن رنينها يذوب فى عرض صوته، فيبدو هو دائما كأنه سعادة الباشا الأرستقراطى يكلم خدمه ورجال حاشيته . يبدو فوق العشرين بقليل ، وتدل صفحة وجهه الممسوحة على أن السنين سوف تنزلق فوقها فلا تترك فيها أى أثر يدل عليها ..

المعروف السائد أنه صعيدى من الأقصر ، أبا عن جد ، لكن ذلك لا يمنعه من أن يكشف عن جذوره الحقيقية بأنه فى الواقع من أصل سودانى وأم مصرية صعيدية ، وأحيانا يقول العكس . حتى ذلك نفسه لا يمنعه من إعلان أصل ثالث ، إذ يتضح ذات لحظة أنه فى الأصل من المنوفية وله أخوال فى البلد الفلانية وأعمام فى البلد العلانية . وكلما ذكر أصلا من هذه الأصول يكون واثقا أن المستمع ربما يعرف أصوله السابقة التى ذكرها بنفسه من قبل ؛ غير أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا ..

نفس الظاهرة بالنسبة لمسكنه . فمن المعروف أنه يسكن فى حجرة بمنافعها فوق سطح منزل قديم فى حى الخليفة . ومن المعروف أيضا أنه نزيل بنسيون على ناصية شارع التوفيقية إذ يستأجر حجرة فيه مع بعض الوجوه المعروفة وكثيرا ما يلتقيهم على مائدة الإفطار فى البنسيون . ومن المعروف كذلك أنه يسكن فى شقة صغيرة أنيقة فى حى الزمالك ؛ هكذا شهد الكثيرون ممن عزمهم على الشاى فيها . وحقيقة الأمر - كما يهمس البعض فى غمز خبيث - أنه يستعير بعض الشقق المفروشة من مستأجريها الأجانب ليوم أو يومين يزعم بهما أنها شقته !..

يعمل محررا فى جريدة الأخبار فى القسم الخارجى ، إذ يترجم عن الفرنسية التى أشاع أنه درسها فى كلية الآداب قسم الأدب الفرنسى ، وأشاع أنه درسها جيدا فى معهد خاص ، ثم أشاع أنه درسها بالإحتكاك المباشر مع الفرنسيين أثناء بعثة دراسية له فى باريس . وفى بعض الإشاعات يتضح أنها لم تكن بعثة دراسية بل كانت سفرية عشوائية للبحث عن عمل . وفى شائعة أخرى يتضح أنها كانت نوعا من الهروب أيام كانت مخابرات عبد الناصر تقبض على الشيوعيين ، وقيل الإخوان ؛ ذلك أن الأخ « سليم شحيبر » من المعروف أنه كان شيوعيا ، ومن المعروف أيضا أنه إخوانجى ، ومن المعروف كذلك أنه ناصرى مؤمن بتحالف قوى الشعب العاملة ..

يحب الأنشطة الإجتماعية حبا شديدا ، بشرط أن يحصل منها على منصب رئاسى مهم . يخترع الأنشطة اختراعا ، لا ليديرها بحق ، بل ليكون رئيسا عليها والسلام . فى نقابة الصحفيين قاعات كثيرة فسيحة ؛ لا بأس من استغلالها لمصلحة الأعضاء . دائما أبدا مصلحة الأعضاء هى الإسم الحركى لمصلحته هو الشخصية . بمناسبة القاعات الكثيرة يفكر فى إقامة ناد للسينما ،

يعرض فيه كل أسبوع فيلما عالميا كبيرا . يبدأ فى عرض الفكرة على الأعضاء، يلتقطهم فى ردهة المطعم ، أو فى الحديقة ، أو على السطح . يجمع الإشتراكات من الأعضاء على أساس أنه سيدفع إيجارا كبيرا للأفلام باعتبارها أفلاما عالمية مرموقة . يذهب إلى مكاتب الشركات الموزعة ، يقنعها بعرض الفيلم بالمجان فى قاعة نقابة الصحفيين على سبيل الهدية باعتبارها دعاية مجانية للفيلم ، حيث أن الصحفيين الذين سيشاهدون الفيلم سيقرظونه فى مقالاتهم . هو يعرف كل أسماء شركات التوزيع ، وأساليب تعاملهم . لاغرو ، فإنه بعد الظهريعمل مترجما فى وكالة أنباء تاس السوفيتية ، وكثيرا ما يقوم بنشاط ثقافى فى مركز الثقافة السوفيتى ، ومركز جوته الإيطالى ، والمركز الثقافى الفرنسى . وكثيرا ما يحمل صحفا ومجلات مطوقة بخاتم البريد جاءته من مراكز ودور نشر فى أمريكا ولندن . ومن المألوف أن تراه يمشى فى وسط المدينة بصحبة وفد من الأجانب يزعم أنهم أصدقاؤه وفى ضيافته ، لكن بعض الخبثاء ممن يعرفونه يؤكدون أنه يشتغل مرشدا سياحيا لهم ، وأنه يورطهم فى شراء أشياء كثيرة بنقود كبيرة ، بعدها ينزوى مختليا بصاحب البازار ليأخذ منـه عمولة مجزية . أحيانا تجد معـه فتاة أجنبية يتردد بهـا على بعض الأماكن الشاذه . إنه لا يضارع فى سرعة التعرف على الناس واقتحامهم بجرأة مدهشة ..

فجأة تراه جالسا بجوارك ، مرتديا ذلك المعطف القصير الذى يقوم مقام السترة ، بياقة كبيرة محرودة تحته فانلة صوف برقبة من أجود الأصناف الشهيرة المستوردة لكنها قديمة ناضجة برائحة عرق عتيق متراكم . المعطف دائما مشبوك الأزرار ، وياقته مغطاه بتلفيحة صوفية رفيعة . يده فى جيب المعطف باستمرار ، كالذى يخفى سريقة غامضة . عندما يجلس يخرج يده

ممسكة بعلبة السجائر العشرين ، البلمونت ، وربما المستوردة ؛ يستخرج منها واحدة ، يشعلها ، يضع العلبة والولاعة فوقها أمامه على حافة المنضدة حتى لا يتسرب إليك الوهم بأن علبة سجائره صارت مباحة لك . يشد النفس بعمق شديد، ينظر إليك فى خبث باسم وهو يتوقع أنك خرمان لابد ، وإنك تنتظر أن يعزم عليك ، وأن الحركة التى فعلها قد أثارت غيظك . يعرف هذا ، وقد يتمادى فى السخف قائلا لك : « تاخد سيجاره ؟ » ، دون أن يحرك العلبة من مكانها. إن كنت تعرفه جيدا فإنك ستلكزه فى كتفه وتسحب العلبة وتشعل لنفسك واحدة. لهذا فإن « فايق » الرسام يعامله المعاملة اللائقة بنتانته ، ما أن يرى العلبة على المنضدة حتى يسحبها بصنعة لطافة وعشم موحيا أنه سيشعل لنفسه واحدة ، فإن انتبه « سليم شحيبر » فإنه ينظر إليه ببلاهة باسمة ولا يستطيع فعل أى شىء حتى لا يثير « فايق » فيتمادى فى عبثه ، يخفق قلبه بعنف وهو يرى « فايق » قد فتح العلبة ونزع ورقتها الداخلية وأزاح السجائر فأبرز صفها ثم قدمها للجالسين على حدة ، كل يأخذ واحدة قائلا : متشكر ! ، حتى الذين لا يدخنــون يعزم عليهم فيأخذون ، وإن انتبهو إلى أن العلبة علبـة «سليم شحيبر » فإنهم يصرون على الأخذ باستمتاع ..

تراه جالسا بجوارك فجأة ، ثم يندمج فى الكلام مباشرة بمداخل متعددة يجيدها بحذق ومهارة بحيث تنتبه بعد فترة فتكتشف أنك قد تورطت فى حديث حرج حساس دون أن يكون لك ناقة فيه ولا جمل ، بل قد يصيبك منه ضرر كبير يسألك فجأة : « إيه رأيك فى كذا ؟ » ويشعرك أنه يسألك من وجهة نظرك أنت . هو يعرف أنك ممرور من الوضع الفلانى ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة حدثت فى الأمر ، يجمعها بمهارة صحفى مطبوع لكنه فارغ من المحتوى الجاد، إذ يجيد التصنت فى الأماكن العامة ، وطبع الأحاديث الدائرة من حوله على شرائط فى

ذهنه لا تمسح أبدا . يجيد قراءة الأخبار والمقالات ليلتقط منها معلومات معينة قد لا تخطر على بال كاتبها كما أنها ليست من صلب الموضوع فى شىء ؛ إلا أنه يقوم بتركيبها فى ذهنه بشكل متقن ليحصل على معلومات قد تفيده : فبما أن رئيس الوزراء قد سافر اليوم إلى البلد الفلانى فلابد أن يكون فلان الفلانى قد سافر هو الآخر بالضرورة ولابد بالتالى أن يكون المكتب الفلانى مؤهلا لفعل كذا وكيت . قد يفاجئك باسم أمك التى لم يرها فى حياته ، ذلك الإسم الذى لم تلفظ به أنت فى أى مكان أمام أى أحد ، ولن يخطر ببالك مطلقا أنه قرأه فى شهادة ميلادك ، إذ كان بالصدفة واقفا فى الإدارة الفلانية عندما كان الموظف يضع ورقة فى ملفك فتمكن هو من التقاط إسم الأم فى سرعة مذهلة ، إسمها بالكامل . معرفته الإسم وحده قد تتيح له أن يبنى حكاية وهمية يرددها بين الأوساط للنيل منك أو مضايقتك أو إضحاك الأصدقاء عليك ..

إستطاع إيهام الأوساط الصحفية والفنية والأدبية كلها أنه عاش فى باريس أحلى سنوات عمره ، يحكى لهم مغامراته فى الحى الفلانى مع فلانة وفلانة حيث حدث كذا وكذا . فمن عاشوا فى بارس حقا يقتنعون أنه عاش بالفعل فى باريس ، لأنه يذكر أسماء المطاعم والملاهى يصفها بدقة ويذكر أسماء بعض النوادل وبعض الموظفين فيها ، وقد يقنعُ أحدهم أنهما تزاملا معا فى الظرف الفلانى أو الموقف الفلانى أو الأزمة الفلانية ، إذ هو يذكر لك تفاصيل ذلك الظرف ومضمون ذاك الموقف ومحتوى تلك الأزمة ، وكيف علق فلان الفلانى بقوله كذا ، ويوم أن وقف البروفيسور فلان الفلانى وانفعل وفعل كذا وكذا . أعرف ناسا عاشوا فى باريس معظم عمرهم كانوا يدافعون عن صدقه فى غيبته، بل كان بعضهم يتخذه مرجعا يستذكره تاريخ حادثة أو عنوان هيئة أو رقم تليفون الأكاديمية الفلانية ..

إكتشفت سره مبكرا ، وعرفت أنه يستقى كل هذه المعلومات والتفاصيل الدقيقة من خلال إدمانه قراءة كبريات الجرائد والمجلات الفرنسية بانتظام ومثابرة يحسد عليهما يتمناها رجل جاد محترم . ضبطته مجموعة من الفلسطينيين كانوا يترددون على مقهى « ريش » ومقهى « لاباس » . كانوا مثقفين يعملون فى إذاعة صوت الثورة الفلسطينية التى تحتل دورا فى مبنى الإذاعة المصرية القديمة فى شارع الشريفين . جميعهم كانوا يجيدون الفرنسية إجادة تامة ، إذ أنهم يعملون فى تحرير الأخبار والنشرات والتعليقات السياسية : «بسام أبو غريبة» و « حسناء الصابر » و « هيفاء بحمدون » و «عمار الحسينى» و « قاسم الشواف » و « عمرانه عمران » ، تلك العجوز المتشبثة بالشباب على جدارة وألمعية وحيوية ، ذات قوام صلب . تبدو بنت بلد مصرية صرفة رغم لكنتها الشامية والأجنبية . تركت « سليم شحيبر » يسرح بها كيف يشاء ، والواقع أنها هى التى تسرح به وإن بقيت صامتة معظم الوقت فى حين ينبرى هو متكلما طول الوقت . فبما أن « حسناء الصابر » و « هيفاء بحمدون » مخطوبتان لـ « بسام » و « عمار » فليس سوى « عمرانه » ينصب حولها شراكه معتمدا على أنها عجوز ولابد أنها تعانى من إعراض الشبان عنها ؛ هكذا تصور ، فدأب على فرض نفسه على المجموعة كلما رآها فى مقهى ريش أو مقهى إيزافيتش ؛ يأمر بطاقم شاى أو حاجة ساقعة على حسابه للإخوة ؛ يتزحزح متنقلا إليهم أو يدعوهم للإقتراب منه . قد يتحول طاقم الشاى إلى بيرة مثلجة أو كئوس المارتين ، حتى يفرفش الجميع ويتاح له الإنفراد بعمرانة ..

هى لم تكن محتاجة لأى خطط ، إنها مستعدة للإستماع ، لطيفة المعشر لبقة ذكية مؤدبة أروبة ، تشجعك على الاسترسال فى الحديث لكى تجيد فهمك على الحقيقة . منتهى نشوتها كلما تعمقت درجة فى فهمك أن تطلق ضحكة

بريئة صافية مليئة بالمرح ، فيسقط فى يدك ، وتأخذ من الضحكة جانبها المثير ويومذاك كنت أنا جالسا فى داخل المقهى وهم يجلسون لصقى مباشرة ولكن خارج المقهى ، حيث يفصل بين منضدتى ومنضدتهم حاجز خشبى لا يكاد يرتفع إلى مستوى ارتفاع المنضدة ، فأنا وبسام الجالس بجوارى خارج المقهى نتبادل رَكْن الذراع على هذا الحاجز ، أريح كوعى عليه فأصطدم بكوعه فأعتدل معتذرا ، أو يفعل هو العكس . كنت أشرب الشاى فى انتظار صديق سيعطينى ثلاثة جنيهات مقدم أتعاب عن مسلسل إذاعى أقوم بكتابته ليذاع باسمه فى البرنامج العام . وكان « سليم شحيبر » مندمجا فى نشوة البيرة المثلجة يحكى لعمرانة عن مغامراته النسائية فى الحى اللاتينى فى باريس حيث حدث كذا وكذا فى اليوم الفلانى . حينئذٍ استوقفته عمرانة قائلة بكل بساطة فيما تبتسم : « عفوا أخ شحيبر ! أنت لم تر هذا الحادث فى باريس ! لسبب بسيط هو أنه لم يحدث أصلا ! إنما أنت قرأته فى مجلة البارى ماتش التى نشرت تفاصيل برنامج الحفل غير أن الحفل نفســـه لم يقم لظروف معينة ! » . أســـقط فى يد « سليم شحيبر » واصفر وجهه ؛ لذكائه لم يكابر ، وعرج على مغامرة أخرى حدثت له فى الشانزلزيه ، فقاطعته عمرانة مرة أخرى ونبهته إلى أنه يصف مكانا آخر غير الشانزلزيه ؛ ثم إنها اعتدلت فى جلستها ضاحكة ، وضعت ساقا رشيقا على ساق رشيق ، فتكورت عجيزتها من تحت جذعها وبان رفع خصرها، وشبكت زرار البلوزة فوق قناة صدرها النافر ، وشربت رشفة بيرة ، وجعلت تسأل سليم شحيبر عن أحياء باريس التى يزعم أنه عاش فيها ، عن معالم لا يمكن تجاهلها أو نسيانها ، عن معنى الأسماء التى سميت بها بعض الأماكن ، بعض المناسبات ، بعض الحوادث ؛ فإذا هو يشعل من السجائر ويكرع من البيرة أضعاف أضعاف ما نطقه من كلمات ؛ وعصر جبهته بين أصابعه عشرات المرات دون جدوى . وبعد أن كان منطلقا فى الحديث كالصنبور السائب صار

يبحث عن الكلمة الواحدة بشق النفْس ، فإذا كل كلمة تثير الضحك ، وإذا كل المجموعة قد انتبهت وتركت أحاديثها الجانبية وراح كل منهم يلقى على « سليم شحيبر » بالأسئلة تلو الأسئلة كالسهام القاتلة ، فكانت المعلومات تسعفه إذا كانت إجابة السؤال نظرية ، إذ تصيبه اللباقة فجأة فيرص أرتالا من المعلومات والأوصاف المتزايدة مما يكون قد قرأه فى الصحف . أما إن كانت الإجابة تقتضى خبرة عملية ورؤية عيان فإنه يضل ضلالا مبينا ، ويشرد إلى موضوعات جانبية ، حتى تحول سيل الأسئلة إلى طوفان من الضحك الصادق العميق ، فصار منظرهم فرجة للجالسين فى مقهى ريش فى الشريحة الخارجية المأخوذة من الشارع الجانبى والمظللة بأقمشة السرادقات . « سليم شحيبر » من فرط الخجل تتفصد الأضواء والظلال على جبينه ومع ذلك راح يشاركهم الضحك بنفس الإستمتاع كأنه هو الآخر – ومن قبلهم – قد اكتشف شخصية هذا الدعى النصاب الذى فيــه . بعدهــا بدقائق معــدودة كانت عمرانة تجفف دموع الضحك الغزيرة والغزير حينما نادت على « ملك » النادل صائحة : « هيـ .. ليـ ..ك » . فجاءها النادل « فلفل » بوجهه الأسمر فجاء مثل كتكوت شارد ، فقالت: « حيـ ..سا . ب من فضلك » فجاء « ملك » يظلع فى مشيته مجرجرا ساقيه مرتديا زى مقهى ريش : الجلباب الأزرق المشغول بالقصب المذهب ، وطاقية من نفس الطراز ونفس القماش ، فيبدو أن هذا الزى غير مستقر على جسده وأنه مجرد رسم بالورق الكريشة على جسده سوف يزيله بعد خروجه من هذا المشهد مباشرة . قال فى لهجة مهذبة كصبيان الحانوتية : «خلى ياست هانم ! طب دلوقت نزل هنا إتناشر بيره وستة سخن ومزه ياسيدى مَلاً هو انت نزلت مزه إيه يا فلفل ؟ » . فمن وقفته المائلة قليلا واضعا ذراعيه خلف ظهره كنخلة مائلة يجىء صوت « فلفل » خافتا من أغوار بعيدة : نزلت خمسه سلطة أوطه واتنين

بطاطس وست سكالوب بانيه وعلبتين سجاير للأستاذ سليم ! » . فقاطعه « سليم » بسرعة شديدة وهو يكتم غضبة لا إرادية تتشبث بابتسامة شاحبة هزيلة : « علبه واحده ! العلبة التانية للمدام ! » فتبسم «فلفل» وتبسمت « عمرانة» قائلة في سماحة : «إي ! إي ! زين ! زين ! » ثم رفعت رأسها نحو « ملك » ، فتدهور شعرها الأشقر الغزير فوق كتفيها وظهرها ، وارتخى البريق في عيني « سليم شحيبر » ، فنكس رأسه وجعل يعصر جبينه بأصابعه : قال « ملك » : « الحساب ياست هانم خمسة وعشرين جنيه ونص وأربعه ساغ ! » . فهزت عمرانة رأسها قائلة : « زين ! زين ! نقسم على سته ! نحنا ستة متسامرين ! » تشبث « سليم شحيبر » بآخر رمق في كبريائه المزعوم فقال بصوت خافت جدا : « لا ! لا يا مدام ! أنا عازمكم ! » وأتبع ذلك بتقليب بطيء في جيوب المعطف حتى اضطر أخيرا إلى فك أزراره والبحث في جيوب البنطلون . وحينما اطمأن إلى أن الجميع قد انتهوا من رص أنصبتهم من النقود على المنضدة ، أخرج المحفظة من جيبه وسحب منها ورقة بخمسة جنيهات قدمها لـ « ملك » بحركة من ســـيوالي التطليع والدفع . تناول « ملك » الورقة بسرعة ولهفه ثم ضمها إلى الجنيهات الأخرى التي رفعها عن المنضدة وصار يعدها . تجاهله « سليم شحيبر » واتضح أنه سيخرج بقية الحساب ، لكن « ملك » سرعان ما غادرهم وقد دس النقود في سيالته ومضى يطلع نحو باب الشارع كأن ثمة من يناديه هناك بإلحاح ، مما جعل « سليم شحيبر » يلتفت إليه بنظرة تتشبث به ، أغلب الظن أنه يوشك أن يصيح قائلا في استنكار غاضب : « فين الباقي ؟! » ، لكنه لم يقلها ، بل انتظر حتى نهضت « عمرانة » واقفة ، فنهض هو الآخر متثاقلا مع بقية الإخوة . سلمت عليه ولكزته في كتفه ضاحكة : « على فكره يا أخ شحيبر ! أنت لم تر باريس في حياتك ! » ثم مالت على صدره ضاحكة بعمق

فيما بقي هو ساهما في شرود أبله قائلا : « هه ؟! » فلكزته مرة أخرى ، وانصرفت تجفف دموعها في منديل ورقي . إنحط هو جالسا في مكانه، واندمج في شرود أسيف لبرهة ، ثم رفع رأسه فالتقى وجهي وسقطت عينه في عيني ، فضم شفتيه الغليظتين وانزوت الإبتسامة في ركن من فمه ، واعتبر أنه بذلك قد حياني بما فيه الكفاية . مد يده على علبة السجائر ثم أمسكها فهزها فوجدها فارغة فأمعن في هزها لعل سيجارة شريرة تكون مختبأة في أصلاب العلبة ، لكنه كورها في قبضته ورمى بها الأرض ، ثم اعتدل في جلسته واضعا ساقا على ساق في تعاظم لا حدود له ؛ ومثلما ينادي سعادة الباشا على أحد الخدم في معيته نادى عليَّ صائحا : « يا فؤاد ! فؤاد ! » . نظرت نحوه عاوجا رأسي قليلا نحو الخارج ، فقال بعظمة يشوبها التأفف والإشمئناط ، ومن قاع القرار العريض : « إحدف سيجاره ! » . ولم يكن معي سواها ، والرجل الذي أنتظره لم يحضر بعد ، ومع ذلك رميت إليه بالعلبة كلها ؛ فتلقفها بدربة هائلة . وكان واثقا من أنني لا أمتلك مليما واحدا أشتري به ولو نفسا واحدا من سيجاره ، في حين أن محفظته تبدو منتفخة بالنقود . مع ذلك أشعل السيجارة دون أن يبالي ، وصار ينفخ الدخان بقوة ليرتد علي . وكنت من الإشمئزاز في حالة مضنية ،فبدأت أنشغل بقدوم الرجل الذي أنتظره منذ الصباح ، بدأت أستغيبه ، أشعر بالقلق المروع ، والأوراق التي كتبت عليها الحلقات الثلاث الأولى تقبع أمامي على المنضدة داخل مظروف أصفر مكتوب عليه بالخط الثلث : الحكومة المصرية ؛ إستعرته من صديق ، وتأبطته كثيراً حتى هرأه العرق وهدله . بدت هذه الأورق بلا قيمة بعد أن كانت من دقائق شيئا نفسيا . بعد برهة طويلة نظرت أمامي فلم أجد « سليم شحيبر » ؛ وكان موعد الرجل المنتظر فات بحوالي ثلاث ساعات ، مما اضطرني إلى الإنصراف هربا من نظرات «فلفل»

ومرواحه ومجيئه الدائم بجوارى يستحثنى على طلب أى شىء يعطينى الحق فى الجلوس كل هذا الوقت الطويل . عند خروجى من باب الشارع لمحت «سليم شحيبر» قد انتحى بـ « ملك » جانبا وراحا يتجادلان بعنف حول قيمة الحساب .

ليس حشاشا ولكنى أراه دائما فى غرز حى معروف ، هو أيضا ، نعم هو وحتى النهاية ، « سليم شحيبر » ، الذى أحاول دائما أن أهرب منه ، أن أنفيه عن عالمى ولكنه يأبى إلا أن يطلع لى فى كل خرم إبرة أحاول النفاذ منه إلى أى خلاء ، هو أمامى أينما اتجهت وحيثما حللت ، وكلما خيل لى أننى قد خلصت منه أرانى فى طريقه أو أراه فى طريقى ، حتى بت أشك بأننى لن أدفن معه فى قبر واحد ذات يوم لعله قريب ، وحتى صرت على يقين من أننى جزء صغير من عالمه الخرافى العريض الغامض المجنون ..

أما غرز حى بولاق وشارع الصحافة - وكلها متاخمة لوسط المدينة - فنادرا ما كنت أراه فيها ، حين تكون الحكومة قد كثفت نشاطها فى حى معروف، فينحسر مد الزبائن متحولا إلى بولاق القريبة ، خطفة رجل ، تعبر شارع الجلاء فشارع رمسيس . غير أننى كلما فوجئت به - سليم طبعا - فى إحدى غرز حى بولاق فى الندرة كنت أفاجأ بأن علاقته بالغرزجية تبدو حميمة جدا ، بل وأعمق مما أتخيل ، ربما أعمق من علاقات بعضهم بى على الرغم من أننى زبون عريق ، لا أحمل سوى همين اثنين فوق هموم المستقبل هما : هم الرغيف وهم المبيت ، وكل الأصدقاء الذين جئت أحشش معهم فى هذه الغرز كان الهدف الأصيل الكامن هو أن أعود آخر الليل مع أحدهم إلى بيته ، أو على الأقل تقطع فرط الليل ، فكل ساعة أقضيها في مكان شبه آمن بين ناس شبه أصدقاء إنما هى مخصومة من تشردى بقية الليل ، وإذا كانت الشوارع تتسع دائما للمسير فإن البدن لا يقوى على المواصلة ..

أعرف حين أرى « سليم شحيبر » هنا أو هاهنا أنه يرتبط بشخص ما ، سائح أو سائحة طلبت شرب الهشيشْ أو أغراها هو بشربه ، منه انسطال وفرفشة ومنه رؤية للقاع المصرى فى مصارين معدة المدينة التاريخية العتيدة . فى معظم الحالات هو الذى يدفع الحساب ، يأخذ الغرزجى على جنب ، يحاسبه من محفظته بالقرش والمليم والسحتوت ، باعتبار أنه هو المضيف ويجب على الغرزجى أن يعامله كإبن بلد فيترفق به . والغرزجى لا يترفق به أبدا ، لا يتنازل عن مليم واحد ، لكنه مع ذلك يقول له « عينى ! أنا خدامك ! خلى عنك خالص ! إنت وضيوفك ضيوفى ! طب على كل حال هات كذا ! » ، ويطلب نفس القدر الذى كان سيطلبه ، بل قد يزيد عليه قليلا ، ويظهر على وجه الغرزجى غمز خفى يكاد يصرح لـ « سليم شحيبر » قائلا : تحاسبنى على جنب لأنك سوف تذبح السياح على حسى ! على جنب أيضا ! .. لكنه يصيح بالعبارة المكملة : « إدفع بقشيش للعيال بالصلا ع النبى ! » ..

« سليم شحيبر » مرفوض من كل من قابلتهم ، لكنهم مع ذلك يحتملونه وقد يبالغون فى الترحيب به ، فلابد أن فيه شيئا ما يمنعك من غلق الباب فى وجهه إلى الأبد ، لأنك فى الواقع لا تملك هذا بل أن تنوى فعله ، إذ أنك معرض فى أية لحظة من اللحظات أن يطب عليك « سليم شحيبر » ، مجرد تذكره حلول له ، ولقد تكون نائما فى فراشك بين أولادك ولكن رأسك عامرة بلاسة حريرية تلتف حول رقبة مستطيلة كأبى قردان ، تحت ياقة المعطف المرفوعة ، ولأن اليدان فى جيبى المعطف يبدو المعطف كأنه معلق فى مشجب على واجهة محل يبيع الروبابيكيا والملبوسات القديمة ، لولا أن سيجارة مشتعلة ومستقرة كأصبع فى ركن خبيث من شفتيه الغليظتين فوق ذقن مدببة كفك الحوت كريشة المروحة وقد علاها الغبار والتراب والصدأ . ما إن يستعمر رأسك حتى يدخل فيحييك فيما هو واقف إلى بعيد فى رصانة وعجرفة وغطرسة مع أنه لم يفعل أكثر من

هز الرأس وتحريك الشفتين بغمغمة غامضة ، ثم يخلع قفازه ويضع الفردتين فوق بعضهما ثم يضعهما على المنضدة أو يحشرهما فى جيب المعطف بشكل يبرزهما للعيان ؛ وبصدغيه السمراوين المستطيلين الممسوحين من أى ملامح أو تعبير يتلفت حواليه لبرهة طويلة فى خيلاء غاضب العينين ؛ فالشىء الوحيد الذى يدل عليه هو هاتين العينين الصغيرتين كعينى جرو صغير منكسرة تتوقع الألم قبل أن تشهده تبعث الصرخة قبل حدوث الركلة بوقت طويل . هذه البرهة الطويلة يقضيها فى انتظار النادل الذى يجب أن يخف إليه ماسحا الكرسى بفوطته مطوقا المنضدة ، مقدما فروض التحية والإستبشار ، لكى يجلس هو واضعا ساقا على ساق ، نازعا الحقيبة الجلدية المعلقة فى كتفه مخفية تحت إبطه ، ناطقا من بين أسنانه الخشنة : « قهوه شاده » ! ذلك أن الحروف تصفر فى أسنانه دائما فتجىء ذات وقع طريف وأحيانا ذات نغم لافت جذاب ، كما أن عدم وضوح الحروف يساعده أحيانا على الإقناع ، حيث ينطقها بحدة توحى بالحسم الباتر ، مما قد يهزك ويلقى الروع فى نفسك . فى الحال يفتح الحقيبة – التى تبدو دائما أنيقة ثمينة قادمة لتوها من سوق المطار والتى تبدو أنظف مافيه – ويستخرج منها جرائد أجنبية ذات ورق ملون ، يروح يتفحصها باهتمام شديد وقد زوى ما بين حاجبيه وزر على عينيه كأنه يشد الكلمات من بئر سحيق ..

يفعل هذا حتى فى الغرزة التى ليس فيها نوادل أو كراسى ، والتى لن يحشش فيها مع ذلك ، ولا فى غبرها . إنما هى عنطزة لا يتمتع بها زبائن سيدفع الواحد منهم عند الإنصراف بضع جنيهات . غير أن هذا أمر إن أثار دهشة الرائين فإنه لا يثير دهشة الغرزجى ، لأنه هكذا عرف هذا الشخص وحفظ خصاله وحركاته عن ظهر قلب ، لذا يتركه يتصرف كيف يشاء بكل راحة،

أما هو فإنه هو الآخر سيتصرف كيف يشاء بكل راحة وهدوء وطول بال ، سيلبى نداءه وقتما يحلو له ، سيقدم له المقعد الذى لديه سواء كان صخرة متحركة أو برميلا مقلوبا أو صندوق مياه غازية أو لوح خشب فوق طوبتين أو ربما قطعة حصير مهترأة على الأرض ؛ كلمة : حاضر تريح الملهوف كما أنها تهد صخور الجبل . وصحيح أن « سليم شحيبر » لن يحشش فى الغرزة ، إلا أنه واسطة خير لا يليق بالغرزجى أن يخسرها ، من يدرى ؟ ربما جاءه فى الحال وفد من السياح ينتفع المطرح من ورائهم شغلا وسمسرة . « سليم شحيبر » فوق ذلك مغرم بالمنظرة ، وهذا ما يعود بالفائدة على الغرزجى . فكثيرا ما يميل عليه أحد الذين لهم عليه الدلال » : ممكن جنيه سلف لحد الصبح ؟ » حينئذٍ يرد عليه فى استهوال : « إنت مفترى ! إحنا فى خمسة واربعين من الشهر ! أنا قبضت مرتين من وكالة تاس وأنفقته كله أول أمس ! وكانت ناقصة هذا الشهر ! لكن مع ذلك أستطيع أن أقرضك ربع جنيه ! أنت عزيز علىّ وعمرك ماقصدتنى ! هاك آخر جنيه معى ! فكه خذ ربعه ورد لى الباقى أدعبل به نفسى بقية الشهر ! » . بعضهم قد يكتفى بربع الجنيه منتويا معاقبته بعدم رده .بعضهم الآخر يأخذ الجنيه ليفكه فيسلمه للغرزجى وينصرف ، تاركا « سليم شحيبر » يسب ويلعن أبو خاش التخين فى القعدة ، وقد يهب مهرولا خلف المنصرف رافعا صوته بفاحش السباب وغريب الأوصاف وقد يكتفى بهذا، وقد يندفع وراءه فنسمع دب الأقدام فى أرض الحارة يزلزل الجدران الهشة يحرك الشبابيك وغطيان الحلل بالنقرزان ؛ لكنه بعد قليل لابد أن يعود فيجلس لاهثا ، مهددا بأنه من غد سيذهب إلى فلان هذا فى مقر عمله يجرسه بين زملائه وسيدخل لمديره شخصيا . يضحك الغرزجى ويضحك الجميع ، ويضحك الذى انصرف ليقينه من أن كلاما كهذا سيقال عليه الآن .

لكن الجميع واثقين أن « سليم شحيبر » لن يفعل شيئا من هذا ، إنما الذى سيفعله هو أن يتوقف عند كل قعدة فى أماكن تجمعات المثقفين ، ليحكى لهم عن بلطجة فلان الذى اختطف منه بالأمس جنيها كاملا وانطلق يجرى وكيف أنه سيبلغ البوليس عنه ؛ أو يحكى لهم عن طرمخة فلان وتلامته حيث اقترض منه جنيها منذ أسابيع ولم يرده ؛ أو يحكى لهم كيف أنه كان ماشيا يوم كذا فى المكان الفلانى ففوجىء بفلان الفلانى مقبوضا عليه من جرسون المطعم يطالبه بفلوس أكل بها .

هو الآخر رغم سريان النقود فى جيبه باستمرار ، ورغم تعدد الشقق التى يشاع أنه يسكنها ، من الزمالك إلى الجمالية إلى بنسيونات وسط المدينة ، كان يبدو لى فى كثير من الليـــالى بأنه يبحث عن مأوى . نعم ، فليس كل من ها هنا ، أو فى قعدة الإمبابى على ناصية الحارة فى شارع شامبليون ، بلا بيت يأويه؛ إنما هو قد يكون الآن ، أو فى هذه الليلة فحسب ، بلا مأوى وخير مأوى مؤقت هو ما أويت إليه بسبب آخر غير الإيواء ، بغرض السهر مثلا ، أو التسامر مع الأصدقاء ، لكن الغرض الأصيل الكامن وراء كل هذه الأقنعة هو انقضاء الليل ، الخروج من اللباس الأسود ، لاستئناف الإنتشار فى ضوء المعاش .

قليلون بين هؤلاء الذين يجلسون على الرصيف أمام دكانة الإمبابى ، سواء القادمين إليها عن قصد مغرمين بهواها ، أو الطالعين من غرز الحشيش فى الحوارى الجانبية فرأوا فيها محطة لالتقاط الأنفاس وبعض أخبار النميمة .. قليلون بين هؤلاء وأولئك هم الذين لهم بيوت قريبة أو فى متناول المواصلات الميسورة ، لكنهم جاءوا يمارسون طقس الحب فى هذه القعدة وفيما يدور فيها من حوارات. أما الباقون فإن القعدة بالنسبة لهم جـــزيرة ترسو عليها قواربهم الضالة فى حلكة الليل بين العسس والمخبرين وشــــرطة التحريات التى لا تنتهى

كل واحد منهم حريص على إعلان سبب مجيئه فور جلوسه ، بشكل أو بآخر ، ممهدا لنفسه بمبرر للبقاء حتى النفس الأخير من الليل ، درءاً لظنون بعض من قد يتصورونه لا سمح الله شريدا أو بلا بيت : فاتنى آخر قطار للمعادى .. آخر عربة أتوبيس إلى الزيتون قابلتنى وأنا فى الطريق إلى المحطة .. أولادى سافروا إلى المصيف أو ذهبوا للولادة فى البلد .. ضقت الليلة بالفراش فخرجت أتهوى وأرى الأصدقاء .. سمعت أن شاعرنا الكبير الأسوانى قد حضر فجئت أآتنس به بعد وحشة .. إشتقت والله لعم الإمبابى .. إلخ إلخ ..

الوحيــد الذى لم يكن يعطى مبررا لوجوده فى القعدة حتى الشروق هو « سليم شحيبر » ، وأنا . كان هو يكتفى بالمبرر الأكبر الذى يعتقد أن الجميع لابد يعـرفه ، وهــو أنه المنشىء الحقيقى لهـذه القعـدة . وهى حكاية يحلو له أن يحكيها كلما جاء القعدة ورآها عامرة بالزوار الجدد : حدث ذات ليلة ليشترى علبة سجائر من دكانة الإمبابى ، بالصدفة كان الأستاذ جمعه هو الواقف فـى المحل بدلا من أبيه الذى ذهب يقضى حاجة ، فامتد حبل الحديث والتعليقات بين « سليم » و « المحامى » ، الذى كان يتعشم فى مقابلة محرر صحفى يستفيد من ورائه بنشر أخبار قضاياه التى يكسبها خاصة أن نسبة كبيرة منها تخص أهـل الفن ؛ فلما علم أن « سليم شحيبر » محـرر صـحفى - وهذه بطاقة تعارف جارية على لسانه باستمرار - أصر أن يشرب القهوة ؛ فاحلوت القعدة فى صخب الشارع وروائحه الشهية ونسائه اللآئى يخطرن رائحات غاديات ؛ وعند انصراف « سليم شحيبر » فى تلك الليلة كان على موعد فى الغد لاستكمال الحديث ؛ غير أن الحديث لم يستكمل أبدا على امتداد الليالى المنسربة وراء بعضها ؛ إذ كانت القعدة تكتسب كل يوم زائرا جديدا يفتح موضــوعا جديدا . وشيئا فشيئا بدأ « سليم » يعطى مواعيـده على هــذا

المكان ، وتجىء الناس تسأل عنه ، فيرد عليهم الإمبابى بكل ثقة : « زمانه جاى حالا ! » ..

معظم أولئك الذين كانوا يجيئون للسؤال عن « سليم شحيير » فى غيبته كنت أثق - دون أن يكون لى بهم معرفة سابقة - أنهم هم الآخرين بلامأوى ، وأن انتظار « سليم » فى هذا المكان فى هذا الوقت ليس إلا كفاحا ضد سواد الليل ..

حتى أنا الآخـر - وإن لم تربطنى بسليم شحيير علاقة حب على الإطلاق ، ولا علاقة من أى نوع - جئت هاهنا أول ما جئت للسؤال عن « سليم شحيير» ؛ وبقيت أنتظره ، ثم بت أشارك فى الحديث الدائر بين الجالسين وصرت معروفا لهم بالإسم وبكثير من المعلومات ، ثم بت من الرواد الدائمين ؛ أحيانا أجد «سليم شحيير» ، وأحيانا لا أجده ، ولكنه لم يعرف أبدا أننى قد جئت فى الأصل إلى هذه القعدة للسؤال عنه بغير سبب إلا كمبرر للسماح لى بالجلوس فى هذا المكان ، ليس حبا فى المكان وإن أحببته ، ولا عشقا لرواده وإن عشقت بعضهم ، ولكن لأنه - فحسب - مكان تمتد فيه القعدة حتى طلوع النهار . ربما جئت ليلة بعد ليلة ، وربما تعمدت الغياب بضع ليال حتى لا أكون ثقيلا . وأحيانا كثيرة جدا كنت أنسى المكان بالفعل ويضيع من ذاكرتى تماما . وكنت كلما خيل لى أن صلتى انقطعت نهائيا بقعدة الإمبابى لا ألبث حتى أرانى ذات ليلة متجها إليها برغمى ، لتوفير بضع قروش ..

ظلت القعدة ترحب بى كلما عدت إليها ، ولكن لم يكن يولمنى شىء قدر انصراف الرواد واحدا بعد الآخر كلما أوغل الليل فى العتمة .. لأرانى فى مطلع الفجر قد بدأت أنكفىء على صدرى كل لحظات لأفيق فزعا ؛ فأجدنى وحدى على الرصيف أصارع النوم الداهم ؛ أحاول إلهاء نفسى بالفرجة على الحياة

وهى تستيقظ فى الشارع ؛ عربات الفول والخضروات والكشرى وهى تقعقع ماضية فى طرحة الفجر الشفافة المبلّلة بالضوء المغبر ، والدراجات تمرق حاملة كتلا من الأجساد محنية ، وبعض الأبواب قد انفتحت ، وبعض الكراسى قد رصت ووقف من يرش المياه ، وعم الإمبابى خلف البنك مرتكزا عليه بكوعيه مندمجا فى تدخين سيجارة ينظر لى بكثير من الإشفاق وقليل من الدهشة مشوبة بالإستغراب . وحين ينكفىء رأسى على صدرى فجأة فأرفع رأسى كانت عينى تتجه تلقائيا إلى عينى الإمبابى لتعرف هل رآنى أم لا ؟ فأرى الإشـفاق فى عينيه ، فأرد بابتسـامة بلهـاء شـاحبة متعبة ؛ فيما التثاؤب والبرد والصـداع والزهق .

- ١٢ -
الهــــديم

كنت فى وضع شديد الغرابة : أتمطرق على مقعد بدا أنه من الطراز المسمى بالأسيوطى ، بحيث كانت مؤخرتى كلها خارج حافة المقعد ، فيما يستند ظهرى على شلتة مسند الظهر التى انسحبت عن مكانها قليلا لتحتوى نصف ظهرى وكامل رقبتى ؛ وقد رفعت ساقى وأسندتهما بزاوية حادة على مسند ظهر المقعد المواجه ، الذى تزحزح قليلا عن الحائط ليحتوى ساقى وقدمى . كنت كالذبيحة المعلقة من عرقوبيها .

أصابنى رعب عظيم : من لى بهذه الحجرة ومنذ متى وأنا على هذا الوضع ؟ ! حاولت الإعتدال مذعورا لكننى لم أستطع . كان العماص يغلق عينى كالصمغ الناشف لن تزيله إلا مياه ساخنة ، مما اضطرنى إلى مد أصابعى والفصل بهما بين جفونى عنوة ، فكان الصمغ ينزع شعر الرموش ويملأ بحر عينى بالرمل . وكانت الأرض من تحتى ترتج فى صرير وتكتكة غامضين ؛ وظلام شاحب يشمل الحجرة . بدأت عينى تغسل نفسها بنفسها قليل بقليل من الدمع ، فرأيت بجوار المقعد الذى أسند على ظهره ساقى مقعدا آخر لكنه من الخيرزان ؛ مسند ظهره يرتدى قميصا كالعامل نوع الكاروهات الخفيف . ونظرت فى جسدى فرأيتنى بالفانلة التى بلا أكمام ؛ وحزام سروالى مفتوح ؛ فتيقنت أن هذا القميص لابد قميصى . تمكنت أخيرا من تحريك رأسى قليلا ،

وساحت نظراتى فى الأرض ؛ فرأيت تحت المقعد حذاءً مفرطح الوجه مفتوح الفم منتفخ الأوداج كالعبيط الذى أعتقه صاحبه مؤقتا فظن أنه العتق الأبدى ؛ ومن فتحتيه تبدو أطراف الجورب المتكور ، الذى بدأت تفوح منه رائحة كرائحة البوتاجاز ..

الحجرة مستطيلة كنزة كأنها التابوت . فى مواجهتى شباك مستطيل باذخ ؛ يحاذيه فى الركن مكتب كبير فخيم جدا ، منبعج الأرجل فوقه لوح من الزجاج السميك فوق بطانة من القطيفة الخضراء ، عليه مصباح على هيئة امرأة ممسكة بشمعدان محاط بناموسية حريرية وردية اللون ؛ وسماط من الجلد ومحبرة ونشافة وكوبة من الخزف ملآنة بحزمة من الأقلام المتنوعة ، ورزمة من الورق الدشت ، ونتيجة بحامل من الخشب ؛ وخلف المكتب مقعد جلدى أشد فخامة وأبهة ؛ فوقه ، على الحائط ، صورة للرئيس جمال عبد الناصر فى برواز كبير مذهب . يوجد مقعد جلدى كبير من النوع المسمى بالفوتى ، وأمام المكتب مقعدان مماثلان متواجهان تفصل بينهما طقطوقة خشبية مشغولة بالأصداف وعليها مفرش وطفاية سجائر بللورية ثمينة ، وتمثال نحاس للكاتب المصرى الجالس القرفصاء . وكان كل ذلك يظهر فى ظل ضوء عليل آت من شراعة زجاجية فى أعلى الباب مقتبس من مصباح من النيون متمدد فى مكان بعيد لعله ردهة خلفية ..

حاولت الإعتدال ؛ فتزحزح المقعد من تحتى فاصطدم بالجدار الخلفى فحدثت ضجة هائلة أرعبتنى . تبينت أن الجدار عبارة عن قاطوع من الخشب ، ثم تبينت أن الحجرة فى الأصل شرفة خارجية أحيطت بالخشب وانفصلت عن الغرفة التى هى متفرعة عنها . ثم تبينت أنها حجرة الأستاذ « مسعود جوده » رئيس قسم الأخبار فى جريدة (القطر) اليومية ، التى لاحق لى فى دخولها

مطلقا ، بل أن أفعل فيها ما أنا فاعل . فى الحال اقتحمتنى تكتكة صوت المطابع كأن أذنى قد انفتحت فجأة على صوت لم يكن قد اختفى من قبل مطلقا. من سخونة صوت المطابع عرفت أن الطبع النهائى على قدم وساق ، وأكدت لى أصوات عربات الدار ولغطها فى الأسفل عند الباب العمومى أن الطبعة الأولى فى طريقها الآن إلى قطار الصحافة نحو الأقاليم . صوت دقات قلبى صار أعلى من صوت تكتكة المطابع : الكارثة لو رآنى أحد فى هذه اللحظة هنا على هذا الوضع ! ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ كيف تسللت إلى هذا العرين ؟! كيف غافلت معاون الدار ومكتبه فى نفس الجناح فى نفس الدور فى أول غرفة على اليسار ! فى حين أن المعاون صعيدى جلف متنكر فى زى الأفندية الأنقاء حملة الشهادات المتوسطة ذو صوت جهورى مخيف وعين حمراء قانية ولسان حاد ولهجة متأمرة على طول الخط كأن الصحافة كلها مسئولة منه! وكيف استغفلت عبد العظيم البرديسى رئيس السعاة بجسمه الممتلىء الربعة وشورابه الصقرية ؛ الذى لايثق فى ذمم أحد باستثناء رئيس مجلس الإدارة الذى هو فى نفس الوقت أحد رؤساء التحرير ؛ باعتبـاره الساعى الخصوصى له ؛ والذى لا يعجبه تنظيف السعاة ولا أمانتهم ، فيقوم بجولة نهائية يتمم فيها على جميع الغرف ومحتوياتها بعد انصراف المحررين ؛ يغلق كل حجرة بمفتاحها ويضعه فى لوحة المفاتيح على الحائط بجوار غرفة المعاون المواجهة لغرفة رئيس مجلس الإدارة ؛ ثم يبقى ساهرا بعد انصراف رئيس التحرير المسئول فى تمـام العاشـرة مساء ، ليراقب مـدير التحـرير النوبتجى ، الذى لا ينصرف قبل منتصف الليل بعد مراجعة أول نسخة من الطبعة الثانية ؛ حينئذٍ يقوم عبد العظيم بمراجعة الغرف من جديد والتأكد من أنها جميعا مغلقة ومنفضة من الأتربة : غرفة قسم الترجمة بمكاتبها ؛ غرفة المراجعة - المطبخ -

بمكاتبها الخمس ومكتب رئيسها فى الصدر ؛ غرفة التحرير بمكاتبها الخمسين أو الستين وقد تراصت متلاصقة فى خطوط أفقية متقابلة ؛ غرفة رئيس مجلس الإدارة وغرف رؤساء التحرير بأثاثها الفاخر ومقاعدها الوثيرة وجهاز الراديو والثلاجة السبعة قدم فى كل غرفة وكذلك السجاجيد الثمينة ؛ غرفة التيكرز المواجهة لغرفة الترجمة بآلاتها البرقية التى لا تكف عن التكتكة والصرير وقذف أكوام الأشرطة الورقية المنقوشة التى تنتظر من يجىء فى الصباح ليقطعها إربا ويترجمها ليعرف ماذا حل بالعالم هنا وهناك ؛ غرفة قسم الأخبار هذه المستطيلة الحافلة بستة مكاتب صغيرة لمندوبى الأخبار فى الوزرات والهيئات يشاركهم فى احتلالها المندوبون العاملون بالقطعة مقابل عشرة قروش لكل خبر بعنوان وصورة وسبعة قروش لكل خبر عادى ؛ تلك هى الغرفة التى تتفرع عنها هذه الحجرة الصغيرة التى أرانى فيها الآن ؛ حيث قام الأستاذ مسعود جودة باقامة هذا القاطوع الخشبى ليعزل نفسه عن بقية محرريه تمييزا لنفسه عن بقية رؤساء الأقسام ؟! كيف يخطر ببال عبد العظيم البرديسى أننى يمكن أن أستغفله عن عمد ؟ بأن أتسلل فى مدخل المساء والحجرات كلها مفتوحة ، لأختفى داخل حجرة مسعود جوده هذه بالذات اعتمادا على أن عبد العظيم أو غيره حينما يفتح الباب فإن الباب يحجبنى تماما ، إذ اكتشفت مرات عديدة أنه يفتح الباب فينظر أمامه فيجد الحجرة خالية تماما فيعيد إغلاق الباب من جديد! كما اكتشفت أنه لا يدقق فى هذه الحجرة بالذات ليقينه أن صاحبها ينظفها بنفسه على الدوام وأنها لفرط هيبة صاحبها وفظاظته تركت طول عمرها بدون مفتاح ..

إنشقت الأرض عن الأستاذ مسعود جوده وقد دخل فجأة كعادته دائما : كان ذلك فى ظهيرة يوم بعيد ، حين دفع باب هذه الحجرة ودخل ففوجىء بكبير

محررية « أمين الهجين » مستغرقا في النوم على هذا الكرسى بالذات ، الذى يبدو أنه جلاب للنوم العميق بمجرد احتوائه لجسد الجالس عليه . إرتد « مسعود جوده » خارجا بكل بساطة ولكن الشرر يتطاير من عينيه ؛ مضى فى الممر كأحد فرسان الكاوبوى بجسده الضخم وقميصه المشجر وشعره الغزير المصفف المنسدل بعضه على بعض جبينه العريض المهيب . قبض بذراع قوية على كتف أحمد الساعى وصار يدفعه أمامه كأنه المجرم العتيد ؛ حتى جاء به الحجرة ، فزغده فى جنبه زغدة قاسية فيما يشير إلى النائم قائلا : « إيه ده ؟ إيه ده ؟ » ، ويده لا تكف عن زغد الساعى ورجه ؛ ثم اندفع فى الصياح الغاضب يسب الفوضى وقلة الذوق ، يلقى محاضرة فى أصول الشغل وهيبة مكانه واحترام الإنسان لنفسه فى عمله وكيف ينبغى عليه أن ينام فى بيته ؛ فى الحال أمر بفتح الشباك وتنفيض المقاعد وكنس الحجرة ورشها بالغاز المعطر . وقد تم ذلك بالفعل وسط حشد كبير من المحررين والسعاة والمصورين الذين راحو جميعا يطيبون خاطر الأستاذ يرجونه العفو عن الساعى والتماس العذر لكبير محرريه ، الذى قام يتخبط ويترنح مغمض العينين سائل اللعاب كالدرويش المعتوه ، مما دفع بأحد السعاة إلى الإمساك بيده والذهاب به إلى دورة المياه لغسل وجهه ، فيما يشيعه صوت الأستاذ مسعود جوده باللوم والتقريع . إنتهى المشهد بقرار حاسم بخصم خمسة أيام من مرتب أحمد الساعى وخمسة أيام من مرتب أمين الهجين ؛ ولم يسترح إلا بعد أن دخل بنفسه فوقعه من رئيس مجلس الإدارة وبعثه إلى مدير شئون العاملين ؛ ونبه على الجميع بعدم الإقتراب من حجرته أثناء غيابه ، وأمر بكتابة نشرة بالخبر وتعليقها فى لوحة الإعلانات ..

جاءنى شعور براحة اليأس من الخلاص ؛ فمنذ دخل مسعود جوده منذ برهة بمشهده الحافل لم يخرج ، ظل ماثلا أمامى جالسا إلى مكتبه يرقبنى فى

دهشة غير مصدق ما يرى . منظره هذا يسمرنى فى مكانى بنظرة كنظرة قط شرس أحاطت بفأر تعيس ؛ فبقيت متيبسا فى رقدتى وقد خيل لى أننى أسمع هدير أنفاسه فى الحجرة ؛ فأصابنى الرعب ، وحولت وجهى عن المكتب الخالى وركزت بصرى فى الشباك المغلق والستارة القطيفة المنسدلة على شريحة منه ؛ لكن عينى رغم أنفى كانت تغافلنى فتختلس نظرة سريعة إلى ركن المكتب لتتأكد من خلوه تماما من البشر ؛ إلا أن هيكل مسعود جوده يتخايل لى جالسا وداخلا وماشيا فى الحجرة الخارجية ؛ أرحت نفسى وأغمضت عينى . ثم مالبثت حتى عدلت نفسى من جديد على الوضع الذى كنت عليه موليا وجهى نحو السقف فاردا ذراعى ، مؤجلا البحث فى كيفية وجودى هاهنا فى هذه اللحظة لأشغل نفسى بالتفكير فى مخرج آمن ، وإلا فأنا متهم بالسطو على مكاتب الدار ، ولابد أن وراء تواجدى هاهنا الآن غرض جنائى مؤكد ؛ ولربما أمثل أمام االنيابة بعد ساعات قليلة . لا أمل هناك فى عفو من أحد ؛ رئيس مجلس الإدارة لن يغفرها لكبير السعاة وقد يخصم منه شهرا كاملا أو يعين بدلا منه ساعيا آخر ؛ إلا أن كبير السعاة سيجد فى النهاية شفيعا خطيرا هو الأستاذ الكبير « جمال الهلباوى » ، الصحفى الضحم المخضرم ، الشاعر الكبير فى نفس الوقت ، الغريب الشخصية كأبى النواس وجحا ؛ حيث لا تخلو الصحف اليومية والأسبوعية والدوريات الثقافية والكتب الرائجة من أخباره ونوادره وطرائفه وفصولاته المضحكة ومقالبه الساخرة بقسوة ، التى يدبرها لصغار المحررين والكتاب الأغبياء ، ويتردد اسمه ليل نهار عبر الأثير مقرونا بقصائد من الشعر الجميل العذب يغنيها كبار المطربين والمطربات أو يلقيها هو نفسه بصوت جهورى خشن غليظ لكنه مسيطر قوى بارع الأداء مشحون بالإنفعالات والأحاسيس الصادقة فكأنه جبل يتحرك فى بطانة من الموسيقى . وهو ضخم

الجثة كفيل ، بعقل شيطان وقلب طفل برىء عابث ، وخيال شديد الخصوبة وثقافة تراثية مدهشة ، وأسلوب جزل رصين ملىء بالحداثة والأفكار المعاصرة . يقولون أنه ابن شيخ يعمل مأذونا فى بلدته ميت غمر ، وأنه هو نفسه تخرج فى المعاهد الدينية لكنه التحق بالجامعة وإن لم يكمل دراسته فيها لأنه كان قد اشتهر كشاعر وكاتب صحفى منذ وقت مبكر حافل بالرجال الكبار الحريصين على احتضان المواهب الجديدة . وقد كانت هذه خصاله هو الآخر ؛ إذ كان « جمال الهلباوى » مغرما باكتشاف المواهب الجديدة فى عالم الشعر والصحافة والغناء والتمثيل ، واحتضانها وتقديم الفرص لها بكافة الأشكال . وكان يقضى الليل كله فى سميراميس يلعب الورق أو يتحدث مع الرفاق فى قعدته الدائمة المتجددة أبدا . هو أحد رؤساء جريدة (القطر) ، يكتب مقالة أسبوعية فى يومياتها ؛ حيث يتعين على عبد العظيم كبير السعاة أن يتولى تذكيره تليفونيا بموعد تسليم المقال ؛ وفى يوم التسليم يظل يواليه بالمكالمات كل حين ابتداء من وقت الأصيل لأن جمال الهلباوى كائن ليلى لا يعـرف النهار أبداً ؛ حتى إذا ما تقدم الليل هرول عبد العظيم إلى الخارج فاستقل واحدة من سيارات الجرنال وانطلق بها إلى سميراميس ، ليجد الأستاذ الهلباوى مندمجا فى الحديث أو التنكيت أو الشرب أو الاستماع لمطرب جديد ، ملحن جديد ، شاعر جديد ؛ فما يكاد يرى عبد العظيم مقبلا حتى يأمر له بالشاى وربما بعشاء سريع هدفه إلهاء عبد العظيم حتى يتمكن هو من كتابة صفحة هلى هامش القعدة ، ليقوم عبد العظيم بحملها إلى الجرنال ليتم جمعها ، ثم يعود إلى سميراميس فيجد أن الأستاذ الهلباوى قد أنجز صفحة أخرى ؛ وهكذا إلى أن ينتهى المقال قبل صدور الطبعة الأولى بأقل من ساعة ..

من المؤكد أنه سيشفع لعبد العظيم فى هذه المصيبة التى ستحل عليه بسببى . أما أنا فالوحيد الذى يمكن أن يتشفع لى هو رئيس القسم وصاحب هذه الحجرة ؛ فهل تراه يفعل ؟ .. ها هو ذا يعود من جديد فيظهر تحت جفونى المسدلة ، بوجهه الغليظ الملامح وقامته المديدة الملآنة باللحم الرشيق ، أنفه المستطيل ، فمه الواسع ، أسنانه اللؤلؤية النظيفة ، ذقنه الحليقة ، عيناه القويتان المقتحمتان ، صوته المسلوخ المتسربل بخشونة . إنه لا يحمل أية شهادات مدرسية ؛ ويشك بعضهم فى أن يكون قد دخل المدارس أصلا ؛ ويتهامس بعض الخبثاء بأنه قد دخل الصحافة من باب التوزيع ؛ حيث كان فى الأصل بياعا متجولا للجرائد على محطات المركبات ، وأنه اشتغل ساعيا فى جريدة الزمان المسائية ، ثم احتك بالمحررين والكتاب ، فاستوعب منهم قواعد اللعبة وأصولها وفنونها ، واكتسب دربة على كتابة الجملة المفيدة ، وقرأ الكتب الموجودة فى مكتبات رؤساء التحرير حيث يحلو لكل منهم وضع مكتبة خلف ظهره يضع فيها ما يتلقاه من هدايا الكتب . ثم بدأ يجرب حظه فى جلب الأخبار الصحفية ببراعة حريف وصعلكة صايع أصيل متسلل أصيل ، وظل يتدحلب إلى أن عين محررا فى إحدى الصحف الحزبية . لبراعته فى استقطاب الأخبار ما لبث حتى انتقل إلى مجلة جديدة من المجلات التى أنشأتها ثورة يوليو ، ثم استقر به المقام فى جريدة (القطر) ، ليصبح رئيسا لقسم الأخبار فيها ، ويحرر أنجح أبوابها، باب : حديث المدينة ؛ الذى تمكن من خلاله أن يكون مشهورا شهرة كبيرة ، وأن يقيم علاقات متينة مع كافة المسئولين والمهمين وذوى المناصب والمواقع الحساسة فى البلاد ، وأن يكون له هيل وهيلمان ، وكلمة مسموعة ؛ بل .. وأن يتزوج نجمة سينمائية كبيرة من أصل سورى ، كانت تعيش فى القاهرة منذ وقت طويل ، إسمها « عبله السروجى » ، تميزت بأفلامها

عن البادية . وقد استطاع هو أن يحكمها ويضفى على شخصيتها الكثير من الهيبة والسلوك الحسن ، ويحقق لها حماية واحتراما كبيرين ؛ صحيح أنه قلل من فرص عملها لكنه احتفظ لها بذكر طيب ومستوى فنى لائق لا تحيد عنه . من أجلها ظل جميلا رشيقا أنيقا على الدوام يلبس من أفخر المحلات العالمية ، فبات شخصية مقنعة بوجه متجهم على طول الخط كأن ملامحه الغليظة تعرف أن وجهه يزداد جمالا واحمرارا طالما هو متجهم مشدود الملامح والسمات ، حيث تطل - من فوق جبهة كبيرة عريضة - عينان كعينى قاطع طريق ، لولا أن مسحة من هيبة الأناقة المفرطة الفواحة بالعطور توهمك أنه قيصر الروم . لم أكن لأجرؤ على اقتحامه أبدا ؛ ولم أكن لأقبل العمل معه ؛ أنا الذى جئت من بلدتى حالما بأن أصبح كاتبا كبيرا من طراز العقاد والمازنى وطه حسن وتوفيق الحكيم ، أحمل بادىء ذى بدء بذرة التعالى على الكتابة الصحفية باعتبارها قاتلة لمواهب الأدباء موصلتهم إلى احتراف الزيف والتلفيق والفبركة ؛ لم أكن لأقبل العمل محررا صحفيا ، بل أن أقبل العمل مخبرا بالقطعة تحت رئاسة عملاق أجوف كهذا لايعرف الفرق بين حرف الزين وحرف الذال ...

رأيتنى جالسا فى غرفة المراجعة منزويا بحذاء مكتب صديقى « فهمى أبو الفتوح » ، الذى يكتب عن القرية قصصا مشابهة لقصص يوسف إدريس ؛ عمله الرئيسى نائب رئيس المطبخ فى هذا الجرنان . كنت أعرفه عن طريق المراسلة وكان معجبا بقصصى ويتوقع لى النجاح ويتمنى أن يخدمنى بأى شكل، لكنه لا يمكلك سوى الرقة والأريحية وبياض القلب الريفى . يستقبلنى كل يوم فيفسح لى مكانا بجواره ، يلقانى بابتسامة كبيرة تضىء وجهه النحيف البالغ الأناقة بشارب صغير كالخنفساء ومنظار على العينين فكأنه صورة فى إعلانات النظارات . أنيق بصورة عامة فى كل شىء ، قوامه المبروم الربعة ؛ خصلات

شعره المتهدلة على جبينه فى غير ابتذال ؛ البذلة الكاملة التى يخلع سترتها ويعلقها على مشجب خلفه ويبقى بالقميص الحريرى الثمين ؛ القلم الأبنوس العتيق ؛ علبة السجائر الجلدية الملآنة ؛ الولاعة الرونسون فوقها ؛ المنظار الشمسى ماركة بيرسول معلق فى جيب الصدر يرتديه مجرد خروجه حيث يخلع منظار القراءة ويعلقه بدلا منه ؛ رزمة الورق الدشت أمامه تختلف عن مثيلاتها أمام زملائه بكونها مضمومة بالصمغ مجلدة على هيئة نوتة ممسوكة بمشبك ؛ من الخشب المزدان ؛ طريقته فى الكتابة إذ يمسك القلم بأطراف أصابعه ويتركه يتراقص فوق الصفحة برشاقة بالغة فتخرج الحروف دقيقة سوداء واضحة جميلة والسطر معدول مستقيم ، والنقط والفواصل بارزة ، وبين السطور مساحات عريضة لتعديل ما قد يراه صالحا للتعديل من كلمات مع أنه نادرا ما يشطب ؛ فنجان القهوة على يساره فوق لوح جرار يبيت داخل المكتب، يمسكه بأطراف يسراه فتلمع دبلة الزواج الذهبية ويجاورها - فى خنصره - خاتم ذهبى رقيق بفص من العقيق الحر ؛ يأخذ الرشفة بشفتين رقيقتين مطبقتين ثم يضع الفنجان ويمسك بالسيجارة من فوق الطفاية فيشد منها نفسا ثم يعيدها إلى مكانها ويستأنف الكتابة فكأن الرشفة وجذبة النفس هما الفرصة الوحيدة للتفكير فى السطور القادمة ؛ ولقد يملأ الصفحة أو الصفحتين أو الثلاثة ثم ينزعها فجأة بكل هدوء ، وبنفس الهدوء يكورها فى قبضته النحيلة النابضة بالدم ثم يلقى بها فى سلة المهملات ويشرع فى الكتابة من جديد بعد أن يلقى نظرة سريعة على وريقات الموضوع الذى يقوم بإعادة صياغته والذى يضعه دائما على يساره تحت ثنية ذراعه فلا ينظر فيه إلا عند التأكد من رقم أو معلومة . ولأنه يستهدف تدريبى على المراجعة بإخلاص فكثيرا ما يسمح لى بقراءة الورق الذى كوره ورماه ؛ فإذا بى أجدها كعقود من سلاسل الذهب بأسلوب غاية فى الأناقة والرصانة والأدب الخالص ؛ فأنقل إليه انطباعى هذا

فيقول : « لهـذا مزقتها ! إن الجرنان يقـرأه من يفك الخط بالكاد ! والموضوع لا يحتمل هذا الأسلوب ! فإن أسلوب الخبر غير أسلوب التحقيق الصحفى غير أسلوب المقال الأدبى غير أسلوب عامود الرأى غير أسلوب القصة بالطبع ! لكل مقام مقال ! هذه أول حقيقة مهنية ينبغى أن تعرفها ! » . كان يريد أن يخدمنى وأن يلحقنى فى أى قسم بالجريدة ، لكن لإدراكه أن ذلك مستحيل لأن ظروف الجرنان الإقتصادية غير مواتية ، فكان يعوضنى عن الصدمة بإعطائى كل مالديه من خبرات . كان شديد الكرم شديد العطف على ، يطلب لى الصانوتشات من البوفيه ، والشاى ، ويترك علبة سجائره مباحة لى ؛ وكل بضعة أيام يعزمنى على سهرة فى مكان خفى فى حى زينهم ، حيث نشرب الحشيش المعتبر ؛ ويغدق هو على صاحب المطرح بقشيشا مغريا قبل انصرافه لكى يتوصى بى ، أن يجعلنى أبقى فى المطرح معززا مكرما حتى الصباح ؛ وأحيانا يعزمنى على الغداء فى منزله حيث يقرأ لى قصة جديدة كتبها بعد طول توقف ، أو يقرأ لى بعض أشاعر كمال عبد الحليم وفؤاد حداد وكلاهما كان خلف قضبان السجن . الجميع فى الجرنان وفى الأوساط الثقافية يعاملونه بكل احترام وتقدير ، لكفاءته البارزة ، ولأن خاله محمود بك أبو رواش كان صاحب هذه الجريدة قبل أن تؤممها الثورة وتغير اسمها ؛ أنشأها للدعاية لشركاته التجارية والصناعية العديدة ثم وضعها تحت تصرف حزب الوفد لتعبر عن وجهة نظره . ولم يكن صديقى يذكر هذه المعلومة أبدا ، ولا يتباهى بأى شىء سوى بقصة يكتبها فتعجب القارىء ، ولا يفخر بأى شىء سوى بالأيام المجيدة التى قضاها ضمن المقاومة الشعبية فى بورسعيد والإسماعيلية مع الفدائيين فى الكيد لجنود الإحتلال الإنجليزى وتكبيده الخسائر الفادحة ، وفى بورسعيد فى حرب السادس والخمسين ؛ أكبر أمانيه أن يتمكن ذات يوم من كتابة ذكريات

تلك الأيام الحميمة المجيدة . لفرط حبه لى وإيمانه بموهبتى الفطرية كما يقول وبأحقيتى فى العمل كان يقدمنى لكل زملائه وأصدقائه ، حيث يضطر دائما أبدا للنهوض واقفا كلما أراد أن يسلم على أحد حتى لو كان من السعاة ؛ ويخلع علىّ الكثير من الأوصاف المبهرة المثيرة كأننى الطفل المعجزة ، خاصة إذا كان يقدمنى لأحد رؤساء الأقسام طمعا فى إغرائه بضمى إلى كوكبة محرريه ؛ حتى صرت مشهورا بين المحررين ، وصار إسمى ينطق فى سهولة وحيوية ؛ فإن قيـل على سـبيل الإستعلام : من هو فلان الفلانى ؟ قيل : صديق فهمى أبو الفتوح . ولكى يعرض كفاءتى على رئيس قسم المراجعة جعلنى أعيد صياغة بعض الموضوعات البسيطة ثم المركبة ثم الكبيرة ، وأختار لها العناوين الفرعية والمانشتات الجذابة البليغة الملفتة ؛ فكان رئيس المراجعة يعجب بها ويهز رأسه قائلا : « يا سلام ! يا سلام ! الله يفتح عليك يا ابنى ! خسارة لو كنت جئتنا قبل ذلك بأشهر قليلة ! على كل حال أنت معنا تحت التمرين إلى أن يحلها الحلال ! ولكن ليس بإمكانى – وفهمى يعلم – تخصيص مكافأة لك ! إنما أستطيع أن أقرضك من جيبى لحين ميسرة ! » . هنا يغتاظ صديقى فهمى ويحمر وجهه وينبرى موجها الشكر للرجل ثم يغمزنى من تحت لتحت هامسا بألا أقبل الإحسان من أحد ؛ وينتهز فرصة خروج رئيس القسم – الذى يلتصق مكتبه بمكتبه– فيهمس لى قائلا إننى لو قبلت قرضه فسوف يستغلنى أبشع استغلال فى كتابة باب الشكاوى الذى يوقعه باسمه ، وهذه بداية النزول ، متى قبلها الإنسان فإنه لا يندهش بعد ذلك إن رأى سلم النزول قد أوصله إلى مستوى الخدم . حينئذٍ يدب الخجل فى أوصالى ، وأحس بحصيرة من العرق الغزير تلف جسدى تبعث فيه الشعور بالتقزز بلزوجة العار ؛ إذ أن صديقى العزيز فهمى أبو الفتوح لا يعرف أننى طوال الشهور الماضية قد أسلمت نفسى

لاستغلال كل من هب ودب ، من كتاب اليوميات إلى الأبواب والأركان والعواميد الخدمية ؛ أعيد كتابتها بصياغات سلسة دافئة مقابل صاندوتش وواحد شاى وعلبة سجائر ، وأحيانا بكلمة : براڤو ، أو متشكر . أشد ما يقلقنى الآن هو خوفى من أن يعلم صديقى فهمى أبو الفتوح أننى قد امتهنت نفسى ورخصتها للذى يساوى وللذى لا يساوى ؛ إذ أن صديقى فهمى لا يحتقر شيئا فى الدنيا قدر احتقاره لمن يرخص مواهبه ؛ إن امتهان الموهبة هو السقطة العظمى فى حياة البشر ؛ قد لا يغفرها لى ؛ لأكونن أكبر الخاسرين ؛ فهذه الروح نفسها هى التى تقربنى منه تلصقنى به تجعله يحتل من نفسى موقعا فريدا كأنه أخى الذى تمنته لى أمى ذات عشية فى الغربة وظلت طول عمرها تدعو الله أن يلقى به فى طريقى من أجل الحبيب النبى ...

النوم أقوى من الرعب دائما ، يبدو لى الآن – النوم – كأنه ملاّء من الرعب . جبال الوخم تسحق صدرى تبطط رأسى تكتم أنفاسى . لست أعرف الآن إن كنت نائما يقظا أم متيقظا فى النوم ؟ أنائم أنا ؟ أم مستسلم للموت للعرى للفضيحة الزاحفة بعد ساعات قليلة ؟ ما الذى سيفعله عبد العظيم البرديسى حين يجىء فى تمام السابعة صباحا ليفتح الغرف ويهويها ويهيئها لاستقبال أهلها ؟ إن وقعت فى عرضه وطوله فأشفق على حالى وتركنى فإنه لابد أن يستصدر أمرا بعدم دخولى الجرنان ثانية ، حتى لو لم يفعل فبإمكانى الإتفاق معه – وديا – على ألا أريهم وجهى بعد اليوم ؛ ولكن أى حرج سأسببه لصديقى الحبيب حينما يعلم بما حدث ؟ ! ..

رأيتنى جالسا على نفس هذا الكرسى فى ظهيرة يوم قريب بعيد ، مندمجا فى صياغة خبر مطول عن ملحن كبير مخضرم ، كان مطربا شهيرا ذات يوم بعيـد ثم لفظـه العصر فانزوى فى بيت متواضع بحى شبرا ، يلحن

بعض مختارات الإذاعة لبعض المطربين ويغنى التواشيح والإبتهالات الدينية فى شهر رمضان قبيل الفجر ؛ ذلك هو الملحن المطرب إبراهيم عبد المتجلى . كان أبى من عشاقه ؛ وكانت أغانيه كلها مسجلة على اسطوانات كثيرة ضمن صناديق عديدة من الإسطوانات فى منزلنا بالقرية ؛ إذ كان لدينا ماكينة للغناء – جرامفون – بنفير كبير ؛ وكان صوت إبراهيم عبد المتجلى يصدح عبر النفير رفيعا كصوت أم كلثوم بالضبط ، من ألحان السنباطى أيضا . كنت أنا مغرما بكتابة الأغنيات ، أنتهز فرصة أية مناسبة قومية فادبج فيها الأغنيات وأرسلها للإذاعة من ثلاث صور ؛ فلما جاء التليفزيون نقلت مراسلاتى إليه ، لدهشتى العظمى وافقت لجنة نصوصه برياسة الشاعر سعد درويش على أغنية من أغنياتى ، عن أم تذاكر لابنها ، تمشيا مع ظاهرة انتشار أغنيات الأم والأخ والعائلة ؛ دهشتى كانت أعظم حين علمت أن أغنيتى وزعت على الأستاذ إبراهيم عبد المتجلى لتلحينها للمطربة الشهيرة سعاد مكاوى ؛ فكان هذا مبررا كافيا لأن أسأل عن بيت الأستاذ وأزوره مقدما نفسى له بأننى الصحفى فلان مؤلف أغنية : «إبنى حفظ درسه إسم النبى حارسه». إستقبلنى الرجل استقبالا حافلا؛ وجدت فيه ضالتى ؛ حيث كان متربعا فوق شلتة على الأرض ومن خلفه مسند ؛ يرتدى جلبابا حريريا أبيض ، يبربش بعينيه العجزتين المحمرتين اللتين ساح أحمرارهما فى ابيضاضهما فى اسودادهما فبدتا كبحيرتين من الملح أو كحبتى أم الخلول . هو لا بالطويل ولا بالقصير ، لا بالنحيف ولا بالسمين ؛ تكسوه مهابة وهدوء وأريحية ، فيبدو دائما كشيخ الطريقة بين مريديه ، يشرد طويلا ملعبا شفتيه كأنه يقرأ الورد أو ختام الصلاة ؛ وإن هى ألا برهة حتى يرفع رأسه ؛ فنرى بحيرتى عينيه قد هاجتا فجأة وصارت الحبة السوداء المبرطشة تروح وتجىء فيهما فى قلق وحذر وحيرة ؛ ثم ما يلبث حتى يزر عينيه

كأنه يشد حبلا ثقيلا من أعماق بعيدة ؛ثم إذا به يلقى قفشة أو نكتة أو قافية ترن فى القعدة كأنها الصاعقة ، فتنفجر القنبلة الكبرى ، إذ ينطرح الجميع على أقفيتهم من فرط الضحك . يده على الدوام ممسكة بقطعة الحشيش بين أصابعه، أجود حشيش ؛ يوقع منها طاقم الحجارة المرصوص أمامه بجوار منقد النار ؛ حيث جلس ابنه عبد المتجلى – أصغر أبنائه – متوليا النار والرص والخدمة . أما الضيوف فتشكيلة عجيبة من البشر : تاجر فراخ من الجيران ويتذوق الموسيقى ؛ مدير عام كبير يعمل فى إدارة عقود الإذاعة ؛ رئيس الكورس؛ عازف كمان عجوز ، مطرب قديم اعتزل الغناء منذ أصيب بخلل فى توازنه النفسى بسبب تغير الأذواق . وجهالات الأجيال .. ذلكم أهم أعضاء القعدة الدائمين ؛ ولابد فى كل ليلة من زائر مفاجىء من أهل الفن المخضرمين : الشيخ زكريا أحمد ورفاقه ؛ مطرب لبنانى فى زيارة للقاهرة ؛ مطرب شاب جاء « يمنجه » مخرجا تليفزيونيا خدمه بتقديم أغنية له فى أحد البرامج .. حينئذ كان الأستاذ يضطر إلى القيام ملبيا ندهة جاءته من الحرملك – يعنى المطبخ كما يسميه – فيعرف ما المطلوب منه ، فيتمم على المفاتيح فى جيبه ، ويعبر الجالسين على الأرض مشمرا ذيل جلبابه ، متوجها مباشرة إلى حجرة نومه ، ليفتح قفل الصندوق العتيق الذى يستخدم سطحه كمقعد عند اللزوم ، ليستخرج منه علبة الشاى وبرطمان السكر ؛ ويذهب إلى المطبخ فيضع التلقيمة فى البراد والسكرفى الأكواب ، ويرجع فيعيد السكر والشاى إلى الصندوق ثم يغلقه بالقفل من جديد ؛ إذ أن هذا هو تموينه الخاص غير تموين البيت وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يضمن بها عدم الحرج أمام ضيوفه فى لحظات تشح فيها النقود . قد يفعل هذه الفعلة أربع مرات أو خمس مرات على امتداد القعدة دون سأم ؛ لا بأس عنده أن يعود للجالسين بقفشة صارخة يسخر بها من نفسه ثم يتخذ

مجلسه وسط الضحكات الصاعقة العميقة ؛ غالبا ما يمسك آلة العود ، فيروح يدوزن الأوتار ، معطيا بيانا سريعا بأنه انتهى من مذهب لأغنية جديدة لمختارات التليفزيون ؛ ثم يغنيه بصوت رائق عذب مشبع بالحزن والشجن والبهجة ؛ ثم يتهال عليه الجميع فى طلب الأغنيات القديمة ويذكرونه بأنغامها فيؤديها بقوة يحسد عليها رغم اقتراب سنه من العام الخامس والستين . منذ دخلت منزله بت مدمنا له ؛ أزوره كثيرا ؛ إذ كثيرا ما كنت ألتقى بالأستاذ فى طرقات مبنى الإذاعة يستحث لجان النصوص والإستماع ، يذكر المخرجين بنفسه ؛ مرتديا بذلة متواضعة ، كموظف بسيط فى الأرياف باعتباره يعمل مفتشا للتربية الموسيقية فى وزارة التربية والتعليم ؛ متأبطا حافظة أوراق منتفخة ، ومن خلفه إبنه عبد المتجلى بآلة العود إن كان عنده تسجيل فى الاستديو ؛ فما أن يقابلنى حتى يستبقنى معه ؛ فنعود معا إلى بيته ؛ لأحظى بغدوة طرية دسمة ، وقعدة على حشية مريحة ، وكنبة قد أسند فوقها رأسى لأختلس نصف ساعة نوم . كان كريما جدا معى ؛ كثيرا ما احجزنى يوما بليلة ، فيأمرنى بخلع ثيابى التى باتت من الوسخ فى حالة يرثى لها ؛ فيلقيها لأولاده لغسلها ؛ يفعل ذلك بإيعاز من زوجه الكريمة التى تعاطفتْ معى كإبنها الغريب ؛ تبعث لى بجلباب من جلابيب ابنها المغترب فى بلاد البترول والرسول . لم يكن يضنينى سوى الخروج من البيت فى آخر السهرة ، تفوح من جسدى وثيابى رائحة صابون الإستحمام والغسيل ؛ لأضرب فى شوارع القاهرة المظلمة الغارقة فى نتن المجارى ، بغير هدى أو دليل . الخجل وحده كان يدفعنى إلى التغيب عن منزل الأستاذ أسابيع طويلة ، إلى أن يلتقينى صدفة ، فيحملنى على مرافقته . جمائله كثرت على ؛ وفى الشهور الأخيرة إخترع هو طريقة موسيقية تساهم فى تعليم الأبجدية العربية للأميين بسهولة فائقة ؛ ونشر خبر عن هذا المشروع « القومى » فى

جريدة يومية سيارة مع صورة للأستاذ ، يعنى أننى سأستأنف زياراتى لمنزله برأس مرفوع بقرينة تثبت أننى صحفى بالفعل وأننى قادرعلى الخدمة . لهذا رحت أبث الخبر الأهمية ما استطعت ، وأسوى له مقدمة وعنوانا مثيرين ، وأخلع على الأستاذ ألقابا ترضى كبرياءه الجريح ، وأبحث عن كلمات أوهم بها مسعود جودة أننى أعطيه هدية كبيرة بالمجان ، خبطة صحفية تستحق أن تكون الخبر الرئيسى فى بابه غدا ..

لدهشتى لم يعارض ، لم يتمحك ؛ إنما أمسك بالورقة ورفعها بذراع بضة غليظة الساعد غاطسة فى فروة من الشعر الكثيف الأسود ؛ أسند راحة يده اليمنى على سمانة ذراعه اليسرى تحت نصف الكم المشجر الشفاف ؛ زوى ما بين حاجبيه ؛ قرأ الخبر بإمعان ؛ ثم ارتفع حاجباه إلى أعلى الصفحة من جديد ، وأعاد قراءة الخبر ببطء شديد ؛ ليتأكد – فيما بدالى – أن ليس بين السطور من شبهة على الإطلاق ؛ لا شىء سوى طرافة الخبر وما فيه من طابع صحفى مجرد . فوجئت به يبتسم فى إعجاب ؛ فإذا هو عند الإبتسام شخص آخر تماما ، طفل شديد الهبل والبراءة لا تملك إلا أن تحبه وتربت على رأسه . صار يمتدح بلاغتى وحلاوة أسلوبى ونبوغى المبكر المبشر فى عالم الصحافة ؛ ثم وضع الخبر فوق كومة الأخبار – المعتمدة منه ؛ ثم رفع الرزمة كلها وقدمها لى قائلا :

– « ألق نظرة على صياغة هذه الأخبار ! مالايعجبك فيها غيّره بأسلوبك الجميل! أنا لست ملما بكل العلاقات التى بين الفنانين وبعضهم ! أو بينهم وبين بعض المحررين ! فإن اشتممت فى خبر رائحة الرشوة أو المجاملة أو الإعلان المقنّع صلّب عليه ! إن وجدت علاقة تعرفها بين محرر الخبر وبين أحد الواردين ضمن الخبر صلّب عليه كذلك ! ياحبذا لو كتبت لى على هامشه ملاحظة بما

رأيت فيه من وجوه اشتباه أنا أعرف أن الأولاد يستغلوننى ! خاصة العاملين بالقطعة ! لا ضمير لهم على الإطلاق ! ولست أستطيع عقابهم بما يشفى الغليل سوى حرمانهم من العمل ! لاحظْ أننى لست عبيطا ! أنا أيضا صايع وابن قحباء أكثر منهم ! لا يغرنك منظر البكويه ! أعرف أن الوسط الفنى داعر ! يستطيع إفساد الأنبياء ! من هنا فأنا أدقق فى قراءة الأخبار ما أمكن ! فليس أنا الذى ينطبخ الطبيخ على رأسه ! هلفوت يكتب خبرا يكسب من ورائه مكسبا تافها وتبقى تهمة الكسب الأكبر لصيقة بى معلقة فى رقبتى ماحييت ! المحرر لا يكون مرتشيا فحسب ! إنما يمكن أن يكون خائبا ينضحك عليه ! وكلاهما : المرتشى والخائب يدمغانى بالوصمة فى جميع المصادر ! أنا الآخر أفهم الخبر من عنوانه ! من صيغته أعرف بالضبط من هو المستفيد الذى أملاه على المحرر! يدى على التليفون باستمرار ! أسأل هنا وهناك عن مدى صحة الخبر ! ربما كان المقصود بنشره الإساءة إلى طرف خفى ! أو ترويج فكرة ! أو مغازلة منتج! إن جهالة المحررين الجدد واتساع ذممهم جعلت بعض الفنانين يردون على بعضهم ويكيدون لبعضهم البعض ويردحون لبعضهم البعض عن طريق الأخبار الفنية فى الصحف والمجلات ! من حسن الحظ أن هذا منتشر بصورة بعيدا عنا فى الصحافة البيروتية الصفراء التى تقوم فى الأصل على الإبتزاز وافتعال الفضائح لقبض ثمن التستر والسكوت ! على مستوى السياسيين وعلى مستوى أهل الفن ! لم أكن متعنتاً طلبت من رئيس التحرير ترحيل الأخبار الفنية الصرفة إلى صفحة الفن بعيدا عن مسئوليتى ! يغور الفن بأهله وأخباره فالعياذ بالله منه ! لست أنشر فى بابى من أخبار الفن إلا ما كان خبرا حقيقيا مهماً يتعلق بمصلحة المجتمع كله ! هاك الآن أصول الأخبار بخط المحررين لكى تعرف صاحب كل خبر من توقيعه عليه فى الهامش ! على فكرة ! أنا الوحيد فى

هذه الدار الذى يمكن أن يعيِّنك ! كله بعون الله طبعا ! ولكن أعلم أن بابى مرصود له أكبر ميزانية فى الجرنان لكثرة محررية وتعدد مصادره ولأنه باب حيوى يهتم بأخبار المدينة كلها من عاليها لسافلها ! ولقد علمت أنك تكتب القصة والشعر وما إلى ذلك من كلام فارغ لا يسمن ولا يغنى من جوع ! وأنا أقول لك : دعك من وجع الدماغ فإن الذين أدركتهم حرفة الأدب فى بلادنا كثيرون وليست المسألة ناقصة ! هم فى النهاية يعيشون عالة علينا ! نحن نتسبب فى توزيع الجرنان بأخبارنا الحيوية وتحقيقاتنا ومتابعاتنا وهم يأخذون الصفحات على الجاهز ليملأوها بلا سيما وبيد أن والجحفل المتجحفل البراق العينين ! هل فهمت شيئا ؟ ولا أنا ! مات الأدب وانتهى عصره ونحن الآن فى عصر الصحافة عصر الخبر والصورة المؤثرة ! فلو عاهدتنى على أن تغسل مخك من هذه الأوهام فإنى أسعى فى تعيينك بعد فترة اختبار قليلة ! أنظر إلى صديقك الحميم فهمى أبو الفتوح ! لقد كان أديبا لامعا وقصاصا مبدعا لكنه لم ينفع فى الصحافة إلا بعد أن طلق الأدب بالثلاثة ! وانظر إلى رائدك يوسف إدريس إنه الآن يكتب تحقيقات عن أزمة الإسكان ! وانظر إلى نعمان عاشور وعبد الرحمن الشرقاوى والخميسى وسعد مكاوى ولويس عوض ومحمد مندور وتوفيق الحكيم وطه حسين وكامل الشناوى من المرموقين ! وحتى العمالقة من أمثال العقاد والمازنى وهيكل! لولا الصحافة لماتوا جوعا وتشردوا فى ظلام النسيان ! فاسمع لكلامى لأننى كواحد من رؤساء الأقسام لن أستطيع تشغيل واحد تحت رئاستى يعمل لى أديب فيها ! إننى أريد محررا بمعنى الكلمة يكتب وقتما يشاء الجرنان أسلوبا بسيطا يفهمه عامة القراء ! هكذا كل رؤساء الأقسام ! وربما كان السبب فى عدم إقبالهم عليك توجسهم من كونك أديبا قد تظن نفسك أفضل منهم ! فإن كنت هكذا فعلا فإننى أنبهك وأنصحك نصيحة أخوية أننا كمهنيين نعتز بالمهنة

ولا نقبل أن يتميز علينا أحد ! إننى أستخسرك فى الأوهام فاسمع نصيحتى وضع يدك فى يدى !! » ..

– « أحاول ! » ..

قلتها وأنا أكتم غيظى من هذه المحاضرة التى لم أكن فى حاجة إليها مطلقا ، والتى لن أعمل بحرف واحد منها . كنت أهم بأن أقول له أنه لولا الأدباء وكبار الكتاب لانقرضت الصحافة فى بلادنا من زمن بعيد ، خاصة بعد ظهور الراديو والتليفزيون اللذين جعلا من الخبر المنشور طعاما حامضا ، وأن الكتاب هم الذين يزينون الجرائد ويثقفون وجدان القوم ويعيدون كتابة ما يدبجه المحررون الأعياء العاطلين من المواهب ، وأن الخدمة الصحفية وحدها لا تكفى لنجاح الجرنان . كنت أود أن أصرح له بهذا وبرأيي الحقيقى فيه وفى أمثاله ممن أفادوا من الصحافة دون أن تستفيد منهم الصحافة ؛ لكننى لم أكن فى وضع يسمح لى بقول شىء من هذا ؛ فاكتفيت بهز رأسى فى ابتسامة غامضة ؛ فيما رحت أعيد صياغة الأخبار بمزاج رائق معتدل كأننى أعيد صياغة الإلياذة، وذلك من فرط حبى لما أفعل ...

ثم رأيتنى ساهرا فى ساحة الجرنان والأضواء منثورة فى تتابع مبهج . وكان من الواضح أننى مسرور ؛ فيما يبدو لأن مدير التحرير إتتنس بى ورحب بخدماتى ؛ وها أنذا أعمل سكرتيرا خاصا له منذ عدة ساعات مضت . كان من الواضح كذلك أننى أنتظر شيئا ما على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لى ؛ وكنت أتعجل صـدور الطبعة الأولى من الجرنان بشغف هـائل . حين دخـل عبد العظيم البرديسى حاملا نسخة طرية رطبة تفوح بحبر المطابع إعتقلت لهفتى ؛ أغلب الظن حتى لا يلحظها مدير التحرير . ثم بدا لى أننى من ورائى شىء لا أحب أن يلحظه مدير التحرير صاحب الوجه الجهيم الغليظ والجدية

الخطيرة ؛ سرعان ما تبين لى أننى لا أحب أن يلاحظ مدير التحرير أن ثمة شىء فى الجرنان يهمنى نشره ؛ وإلا فسيبدأ يشك فى أننى غير مستفيد من ترددى على الجرنان . مدير التحرير رجل أرقم ، إسمه « أكرم فخر الدين » ؛ كان فى الأصل كونوستبلا فى البوليس ؛ إلا أن طموحه الأدبى والثقافى كان أكبر من حدود العمل الشرطوى فحسم الأمر بشجاعة واستقال والتحق ببلاط صاحبة الجلالة محررا لمجلة أسبوعية تصدرها إحدى الهيئات الرسمية ؛ فلقيت نجاحا كبيرا . وكان « أكرم فخر الدين » على علاقة ببعض الضباط الأحرار عند قيام الثورة ؛ وكانت سمعته الصحفية جيدة بين أوساط اليمين واليسار معا؛ إذ أنه فى الواقع يتمتع بموهبة ورغبة صادقة فى عمل شىء كبير يعتد به . وهكذا التحق بجريدة القطر مديرا لتحريرها ؛ فى نفس الوقت كان يصدر مجلة أدبية شهرية اسمها (القمر) ، قدمت جيلا جديدا من الأدباء والشعراء والنقاد وكانت نسخها تنفد فى أيام قليلة ؛ كنت أنشر فيها الكثير من خواطرى الأدبية فى باب : رسائل القراء . أشعر أننى أحببت أكرم فخر الدين لجرأته فى نشر ما يكتبه شبان مجهولون ؛ لمساهمته فى تدعيم حركة الشعر الحديث بنشر قصائد لكافة الشعراء الجدد ؛ لفتحه الباب أمام آراء كتاب الأقاليم ووجهات نظرهم بنشرها باحترام ويكتب أسماءهم بالخط الكبير . أحبه على الأرجح لأنه لا يكشر فى وجهى كغيره من المسئولين ، ولا ينظر لى بتأفف من منظرى المتواضع جداً وشكلى الهزيل غير المصقول ، ويسلم على باسمى كلما بادرته بالتحية : إزيك يا فلان ...

إذا بى أرانى على رصيف محطة مصر فى مدينة لعلها الإسكندرية ؛ معى اثنان يبدو أنهما من أصدقائى ، يبدو كذلك أنهما جاءا من أجل توديعى ، حيث من الواضح أننى على سفر ، بدليل وجود حقيبة ملابسى على الرصيف

تحت أقدامنا . تبينت بين الصديقين صديقى بدر صفوان الطالب بآداب الإسكندرية بقسم الفلسفة والإجتماع ، الذى أشاركه المسكن مع زميلين له فى نفس الكلية ؛ هى شقة حقيرة بحى محرم بك . تبينت فى الآخر زميله عبد المغيث الحوفى طالب قسم اللغة العربية واللغات الشرقية . فجأة ظهر الزميل الثالث عزت اللقانى طالب قسم التاريخ . لابد إذن أننا نقوم بإحدى جولاتنا اليومية فى حدائق الشلالات ومقاعد الكورنيش حيث نمارس ذلك الطقس الرائع : المذاكرة الجماعية . تذكرت أننى لست طالبا معهم فى الكلية بل لست طالبا على الإطلاق؛ تذكرت أننى مجرد بائع سريح فى الصباح ، وفى المساء أقوم بدور الذاكرة الحية بالنسبة لكل منهم على حدة ؛ إذ يتعين على أمسك بكتاب الفلسفة مثلا أو كتاب الأدب أو كتاب التاريخ ، ليستظهر صاحبه ما قد فهمه من الصفحات التى أشبعها تأشيرات بالقلم وتمتمة بالشفاه ، يتكلم وأنا أراجع كلامه على الصفحات ، لأرده إن نسى عنصرا أو خلط فكرة بفكرة أو حادثا بحادث أو التبس عليه عنوان بعنوان أو نسى المصطلح . شعور كهربى يتمشى فى أوصالى؛ لست أعرف إن كان غضبا مريرا أم سعادة فائقة ؛ تذكرت أننى إلى السعادة أقرب ؛ فأمتع لحظة عندى هى هذه اللحظة التى أمسك فيها بالكتاب الذى لن أمتحن فيه ، لكى أراجع عليه لصديق سوف يمتحن فيه ؛ المتعة الحقة أننى كثيرا ما أغلق الكتاب لأستظهر للصديق من ذاكرتى وأراجعه فيما يكون قد نسيه ؛ المُمْضُّ حقا أنه لاحق لى فى الإمتحان لأننى أهملت منذ الصغر فلم أحصل على شهادة التوجيهية ولم يعد عندى صبر على التفكير فى الحصول عليها بنظام الثلاث السنوات . لم يحدث قط أن جئنا نذاكر على رصيف محطة القطار . وإذا بالقطار يصل بالفعل ؛ وإذا بصديقى بدر صفوان هو الذى سيسافر ؛ ها هو ذا يتقدم مسرعا فيمسك بحديد باب القطار ، وعبد المغيث

الحوفى يجرى بجوار الشباك ممسكا بالحقيبة التى اتضح أنها تابعة لبدر فى هذه المرة ؛ إذ أننا جميعا نستخدم هذه الحقيبة نفسها عند السفر لأن واحدا منا فقط هو الذى يسافر نيابة عنا إلى بلدتينا المتجاورتين ، فى أول كل شهر ومنتصفه ، ليجىء لنا بالزوادة والمصروف من أهالينا ، توفيرا لمصاريف السفر . تمكن عبد المغيث من دفع الحقيبة من الشباك ؛ ليلحق بها بدر وقد دخل بالفعل وصار يعدلها فوق الرف ؛ وصار عبد المغيث يزود بدرا برسالة شفهية طويلة حافلة بأولا وثانيا وثالثا وعاشرا ، سرعان ماتبينت أنها رسالة للأستاذ أكرم فخر الدين مدير تحرير جريدة (القطر) وصاحب ورئيس تحرير مجلة (القمر) الأدبية ؛ سرعان ماتبينت أن ثمة علاقة قربى تربط بين أكرم فخر الدين وعبد المغيث الحوفى عن طريق المصاهرة ، وأن أكرم فخر الدين رغم شهرته الكبيرة هذه فإنه طالب منتسب بكلية آداب الإسكندرية فى نفس القسم مع عبدالمغيث سنة بسنة ؛ وعبدالمغيث يرسل إليه المحاضرات أولا بأول مع كل مسافر من زملائه أو أساتذته ؛ يرسل له أيضا بكل صغيرة وكبيرة . تذكرت أننى قمت أكثر من مرة بتوصيل مثل هذه الرسالة لأكرم فخر الدين ومعها بعض محاولاتى القصصية وقصص وأشعار بعض الأصدقاء من أدباء الإسكندرية . ألهذا يتعاطف هو مع موقفى ؟ هو على أية حال شخص ليس من السهل معرفة مكنونه : وجه سلطوى صرف رغم ما فى أعماق صاحبه من رقة حاشية وظرف وخفة ظل خفية ؛ جهم على الدوام ، مطبق الشفتين ؛ كل شىء فى جسده ضخم متين البنيان ؛ قوام فارع عملاق ، رأس كبيرة شقراء اللون بشعر غزير مقصوص لا يزيد طوله عن سنتيمتر واحد ؛ أنيق جدا ، يرتدى البذلة الكاملة صيفا وشتاء ؛ يمشى من باب المصعد إلى مكتبه فى خطوة عسكرية مهيبة ، مستمتعا بمنظر الساعى وهو يجرى أمامه ليفتح الباب ويرتب الأشياء ويسرع

بإحضار فنجان القهوة . بمجرد جلوسه يشرع فى قراءة الصحف بتركيز وأناقة شديدين . لم أعد أعرف بالضبط إن كان يحبنى أم يكرهنى ، أشعر أنه يبش فى وجهى . وإن كان لا يرحب بأن أعمل معهم فى الجرنان ؛ فهو دائم الحديث عن الدخلاء وأنصاف الموهوبين الذين يتسللون إلى المهنة من غير حملة المؤهلات العليا ؛ وكلما غضب من شىء لعن المهنة ووصفها بأنها مهنة من لا مهنة له ؛ وكنت أفهم أنه يقصد أشخاصا معينين فى الجرنان لكن هذه العبارة بالذات كانت تقبض على قلبى بقبضة من حديد .

ها هو ذا يقلب فى نسخة من الجرنان أغلب الظن أنها الطبعة الأولى ، ممسكا بالقلم الأحمر . ضبطت نفسى متلبسا باللهفة الشديدة ، حيث تعلقت نظراتى بالصفحة الأخيرة وقد تلاحقت دقات قلبى وأنا ألهث مسرعا قبل أن تنطوى الصفحة تحت يد أكرم فخر الدين . تبين لى أننى كنت مهموما بالبحث عن خبر الأستاذ إبراهيم عبد المتجلى ، الذى كنت واثقا من نشره بعنوان وصورةللرجل ؛ وقد انبثقت فى مؤخرة رأسى ليلة جميلة عظيمة الشأن حين أتشعبط فى الأتوبيس الآن إلى شبرا ، لأدخل على الأستاذ بالجرنان لتكون مفاجأة السهرة وعدة سهرات أخرى قادمة . لهثت عينى أكثر من مرة فوق جميع أخبار حديث المدينة حتى أخباره السريعة ، لم أجد الخبر ؛ عرفت أن مسعود جودة قد طواه ووضعه فى جيبه وهو خارج بالأخبار إلى مدير التحرير ؛ عرفت خلته ؛ إنه يشك فى أى خبر يتلهف المحرر على نشره ، فيتعمد عدم نشره حتى لو كان خبرا صحيحا مهما . شعرت بالحنق الشديد تجاهه ...

رأيتنى طفلا غريرا يجرى بكل قواه نحو باب دارنا التى فى بلدتنا . كنت قد تجاوزت خالى معاطى وصحبته الذين كانوا أخذونى للسهر معهم فى دار بعيدة غربى البلد ، حيث دخنوا الحشيش ونفخوا دخانه فى وجهى وأنفى

ضاحكين حتى انسطلت وصرت أفعل حركات وأقول كلمات تضحكهم ؛ نحن الآن فى طريق عودتنا ؛ أحسست أنهم يتلكئون فى السير كلما أسرعت ؛ فيما بدالى لكى يتفرجوا على منظرى وأنا أتطوح من الدوخة ؛ كنت أعرف هذا ؛ لكنهم حين انفجروا فى ضحك مكتوم متقطع هيأت لى السطل أنه بكاء حاد عنيف ؛ حتى هذا كان من الواضح أننى أعرفه سلفا ؛ مع ذلك طرأ على بالى أول ما طرأ أن أمى التى تركناها مريضة فى الدار لابد قد ماتت ووصل الخبر إلى خالى ؛ فإذابى أندفع فى الجرى هكذا ؛ وهكذا دخلت دارنا أكاد أنكفىء من السرعة والإضطراب . صعدت السلم الخشبى ذا الدرابزين ، وكنت متكورا على نفسى كما ينكمش راكب الحصان المنطلق ؛ كان لابد أن أحود عند البسطة فى الطابق الثانى حيث توجد الغرفة التى تنام فيها أمى ؛ ولم أكن أرى شيئا فى الظلام ؛ فدفعت رأسى بكل قواى ثقة فى خلو الطريق أمامها ، فإذا هى تنحشر بين حليتين من خشب الردابزين ؛ وإذا بصرختى تضيع فى جعجعة الخشب وصياح خالى ورفاقه الذين اقتفوا أثرى ...

كنت لا أزال أحاول تخليص رقبتى من بين خشب الدرابزين والتقاط النفس، حين وجدتنى قد انتفضت جالساً على الكرسى وسط ضجة هائلة انقبض لها قلبى ، إذ أن الكرسى الذى اتخذته مسندا لساقى قد مال فوق الكرسى المجاور فوقع كلاهما على الأرض فى ضجة . ظللت لدقائق طويلة أضع يدى على قلبى محاولا ضبط دقاته اللاهثة ، متوجسا مما حدث . بالفعل تناهى إلى سمعى وقع خطوات فى الدور السفلى حيث توجد المطابع ، ثم صوت رجال يتبادلون الصيحات المتسائلة ؛ ميزت فيها صوت « حربى » خفير الدار ؛ ثم إن وقع الخطوات صار يتضح صاعدا السلم حتى اقترب تماما ؛ فشعرت بالخطوات تتوقف أمام الجناح الذى فيه هذه الغرفة ؛ وشعرت بيد « حربى »

تهزهز الباب تتأكد من أنه مغلق بقفله ؛ ثم انطلق صوته فى برطمة ميزت فيها بعض كلمات عن القطط الضالة التى تختبىء تحت الكراسى لتوقع بالأشياء وتكسرها ، وعن البوفيه الذى وسخ الدار ببقايا مطبوخاته ومأكولاته ؛ ثم أخذ صوت الخطوات يتباعد هابطا ...

لابد أن مئات النبابيت كانت تنهال على جسدى ، فكل عظامى متكسرة ، رقبتى متصلبة ملتهبة كأنها كانت بالفعل محشورة فى الدرابزين . تأكدت أن إعادة وضعها على مسند الكرسى مرة أخرى قد يفجر عروقها ويفجر رأسى . نظرت حوالى فى الحجرة بحثا عن فكرة ما من أجل رقبتى ؛ ثم راغما وضعتها من جديد على المسند ؛ وراغما رفعت ساقى لأسندهما على مسند الكرسى المقابل مثلما كنت منذ برهة . فى الحال سمعت أصوات قلقلة ورعد مخيفين ؛ أفقت ؛ تبين لى أن الأصوات المرعبة تصدر عن أنفى وفمى ؛ فتحت عينى وعدلت رأسى ؛ كان اللعاب قد سال وأغرق مسند الكرسى مع كتفى . فكرت فى شد ورقة من رزمة الدشت أمسح بها كتفى ومسند الكرسى ، لكننى شعرت كأنى غارق فى حفرة فى الأرض ملتصق بها التصاقا ، وأننى غير قادر على تحريك أى جزء من جسدى . داهمنى فى الحال شعور بالخطر : حتى متى سأظل مستسلما لهذا التعب ؟ حتى يدخل مسعود جوده نفسه فيجدنى على هذا الوضع فتكون الفضيحة عظيمة ؟! إن الجميع بما فيهم أكرم فخر الدين ينتظرون سببا وجيها كهذا يقطعون به رجلى عن الدار ويمنعوننى من دخولها بتاتا . صرت أقلب عينى فى جميع أنحاء الغرفة ، فكرت فى الشباك المطل على الشارع ، وما يحيط به من مواسير ؛ ثم تذكرت أنه ليس يطل على الشارع إنما يطل على باحة فى مدخل الدار . وقعت عينى على آلتى التليفون فوق مكتب مسعود جوده ؛ تذكرت أن إحدى الآلتين متصلة بالسويتش الداخلى للدار ،

والأخرى متصلة بخط خارجى مباشر ، شأن جميع رؤساء الأقسام . طقت الفكرة فى رأسى كحل عبقرى لمشكلة البشرية كلها ؛ نفضت نفسى بحكمة حتى اعتدلت جالسا ؛ ثم تسحبت فى هدوء على أطراف أصابع قدمى حتى وصلت إلى المكتب ؛ رفعت سماعة الخط الخارجى المباشر ووضعتها على أذنى ؛ جاءنى ونين الخط قويا داهما ملحاحا . أبقيت السماعة فى يدى لبرهة تلبستنى فيها الحيرة بين أرقام تليفونات الدار كلها . بإلهام إلهى تذكرت أن رقما مكتوبا على قرص هذه الآلة . تسللت إلى قميصى ، فنزعت من جيبه علبة ثقاب ؛ بيد مرتعشة أشعلت عودا ؛ قربته من الرقم المدون على القرص ؛ صرت أردده ؛ ثم أشعلت عودا آخر وصرت أدير القرص فى طلب بوليس النجدة : (١٢١) ؛ جاءنى الصوت من الطرف الآخر هدوء وروية وود : تحت أمرك ؟ تنحنحت بحثا عن صوتى ، فلما وجدته قلت : « من فضلك والله ! ممكن أطلب خدمة من النجدة ؟ » . قال : « إأمر ! » : قلت بامتنان : « إذا تكرمت تبقى تطلبنى فى الرقم دا الساعة ستة صباحا ! » وأمليته الرقم المدون على القرص ، قال : «مسافر إن شاء الله ؟» ؛ قلت فى فرح « بإذن الله ! وده ميعاد الطياره ! » . قال : «إطمئن ! حتى لو أنا مشيت حاسيب نوته للزميل القادم !» شكرته ووضعت السماعة ؛ وعدت إلى الكرسى من جديد ، حيث اتخذت وضعى السابق وقد شعرت بقليل من الإطمئنان ...

طرقت باب غرفة رئيس التحرير طرقة خفيفة سريعة ثم فتحت بابها واندفعت داخلا والطهمة الفرحة تكاد تعمينى ؛ كان صديقى فهمى أبو الفتوح قد أراد أن يجعل وجهى مألوفا لدى رؤساء التحرير ، فبعثنى بورقة أطلب تأشيرته الدورية عليه . كلانا لم يكن يتوقع أن الهلباوى بك هو الموجود الآن فى هذه الغرفة ؛ وقد سرنى أن الساعى الخاص به لم يكن لحظتها فى موقعه المرابط

أمام الباب ، ولابد أنه ذهب ليضع القهوة للرئيس بنفسه معتمدا على أن اللمبة الحمراء المضاءة على الباب فيها ردع كاف . إلا أننى لم ألحظها بالطبع ؛ فإذا بى أقف مصعوقا أمام منظر الهلباوى بيك بجسده الضخم كالفيل ، يجلس على الكنبة الجلدية الوثيرة كالهرم المتكوم تبرز منه منطقة حية كثعبان ضخم نصفه طليق ونصفه الآخر محتجز فى الشق ؛ سرعان ما تبينت أنها المطربة الكبيرة الشهيرة بـ « بنت النغم » ؛ التى غنت من كلماته كثيرا من الأغنيات ؛ كانت جالسة فوق حِجْرِهِ ؛ وقد طوق خصرها بذراعيه وجعل يحاول تقبيلها فى كل مكان وهى تتلوى فى دلال بجسدها النحيل الطرى المشع ، وهمهماتها المكتومة فى احتجاج كأنه الإغراء. صوتت حين رأتنى داخلا أهرول فى حماسة كالعبيط. فزع البيك وفك أسرها فاعتدلت واقفة تعدل هندامها وتسوى جدائل شعرها النشوان . ركز بصره المخيف فى عينى ؛ فيما وقفت مكانى مسمرا أنتفض من الخوف والحرج . شعرت أنه رغم هذا الغضب الهائل يخفى مزاحا وحرجا هائلين ، بل هو يكتم ضحكة كبيرة مما حدث ؛ ثم شرع يستجوبنى : إنت اسمك ايه ياولد ؟! وبتشتغل فى أنهو قسم ؟ مع مين ؟ » ؛ رأيتنى أندفع فى الإجابة بكل صدق وانطلاق حتى ما لم يسألنى عنه أجبته عليه ؛ فإذا به يشير إلى بأصابعه فى حركة رهيبة قائلا بصوته العريض الضخم الأجش : « تعالى هنا ! » ؛ فذهبت إليه والأوراق تنتفض فى يدى متوقعا أن يلسعنى بالقلم على صدغى . فعلا شرع يفعل هذا ؛ لكنه تمهل برهة ثم أمسكنى من أذنى بقسوة شديدة ، فجال بذهنى خاطر كدت أضحك له ، إذ أيقنت من تربيته الكتاتيبية وأن مسكة الفقيه للأذن هكذا لا تزال تؤرقه. وعاد يسألنى : «معاك شهادة إيه ؟ تربيت فين ؟ » ، لكنه فى النهاية أفلتنى قائلا : « تانى مرة تبقى تتخبط على الباب كويس ! واوعى تورينى وشك هنا تانى ! » قلت : « حاضر يا فندم ! » ، واستدرت خارجا . صاح : « خد » ، فاستدرت عائدا ؛ فأشر على الأوراق

وأعطاهالى قائلا : « جاك عمى فى عينك ! » فأحسست أنه يصالحنى وأن ثمة ود فى نبرات صوته هذه المرة تكاد توصينى بأن أكون رجلا فلا أذيع خبر ما رأيت لأحد . وحين فتحت الباب لأخرج كان عبد العظيم البرديسى جالسا فى موقعه ، فشيعنى بنظرة استنكار فزعة حاقدة حانقة وصار يتقلب فى قعدته كالملسوع بالنار ؛ ومضيت أسبح فى غزير العرق حاملا الأوراق ؛ فما أن وصلت إلى صديقى فهمى أبو الفتوح ، حتى رأيته لاو بوزه لأول مرة فى حياته ، وبدا كأنه لا يعرفنى على الإطلاق ؛ ولما قدمت له الورق الذى كان قد أعطانيه نظر لى فى استنكار وأزاح الورق بيده كأنه يبعد عن نفسه تهمة خطيرة ؛ فوقفت حائرا؛ فدخل أحد السعاة لم أتبين شخصه ، وربت على كتفى ثم سحبنى خارج الحجرة ، وأشار إلى الردهة ؛ فامتثلت لإشارته ومضيت بالأوراق لكننى شعرت بخطر غامض غير مفهوم ، فاستدرت مادا يدى بالأوراق لمن يأخذها ؛ وكانت الردهة خالية تماما ؛ وحين اقتربت من غرفة المراجعة منتويا وضع الأوراق على أول مكتب فيها فوجئت بأنها ظلماء تماما وليس فيها ثمة من أحد فصرت أروح وأغدو فى الردهة كالفأر الحبيس ؛ وأخبط بيدى على باب الردهة صارخا : ياعبد العظيم ! ياأحمد ! ياعم وليم ! يا عم حربى ! » ولا من مجيب ؛ فظللت أهز الباب بغيظ فيما أنخرط فى بكاء حارق يائس ؛ حتى وقعت على الأرض وسط بحيرة من الدم والدموع ...

فتحت عينى فزعا ؛ كانت رأسى قد انزلقت إلى الفراغ وغاصت فى كومة من اللعاب ؛ تذكرت فى الحال أن حادث دخولى على الهلباوى بك لم يسمع به أحد على الإطلاق ، ولا حتى الهلباوى بك رآه أو سمع به ؛ إذ أننى ماكدت أفتح الباب وأخطو بداخله حتى رأيت ذلك المشهد فتسللت خارجا دون أن يشعر بى أحد ؛ وقلت لصديقى فهمى يومها أن اللمبة الحمراء مضاءة على الباب . عجبت كثيرا مما رأيته الآن ؛ وشعرت بقرف شديد ؛ لكننى عدلت

رأسـى على حافة الحشية مريحا صـدغى على الجـانب الذى لم يتلـوث باللعاب ...

أغلب الظن أنها كانت ردهة الجناح المقابل ، حيث يوجد على اليمين للداخل مكتب صغير تجلس فيه فتاة عجوز لعلها الآنسة « سوسن » سكرتيرة الأستاذ « سمير لطفى » أحد رؤساء تحرير جريدة (القطر) ، القبطى الذى تربى فى مدرسة صحفية شهيرة متمثلة فى جريدة سيارة كبرى معروفة بولائها الأمريكى فضلا عن طابعها الأمريكى الخالص ؛ مدرسة صحفية درجت على أن تكون مجرد موظفة فى خدمة أية قوة مسيطرة سواء كانت قوة رأس المال الأمريكى أو قوة النفوذ العسكرى ؛ كل أبنائها حرفاء فى الإثارة وبعث الضجيج والصخب والسرح بعقول العامة والبلهاء كى تزيدهم عامية وبلاهة ، متوسلة بكل أساليب التضليل وظواهر المخترعات الأمريكية الحديثة التى تفرد لها الصفحات لتلقى فى روع العامة أن الأمل كله بات معقودا على شدة ولائنا لهذه الأمة الحديثة ذات القوة والنفوذ مالكة كل منافذ المستقبل بالنسبة للبشرية جمعاء . ولأنها صحافة بلا مضمون حقيقى وبلا هموم شعبية واضحة وبلا روح إنسانية على الإطلاق ، فإنها تجعل من الحبة قبة ومن الفأر جملا ؛ إذا وقع تاجر المخدرات أو السفاح الكبير فى تلبس دامغ فإنها تنشر القضية ممسكة عن ذكر اسمه ، أو تنشر صورته معصوبة العينين ؛ أما إذا تعرض شخص عادى فقير لتهمة باطلة فإن الدقة فى نشر الخبر تكون نبراسها ، وفى الصفحة الأولى ؛ تكتب الخبر ملخصا بالبنط الكبير الأسود فى أول صفحة ، ثم تعيده بالتفصيل الممل فى صفحة داخلية لا تقدم أى جديد على الخبر السابق ؛ وغالبا ما يكون خبرا مكذوبا فى تسعين بالمائة من جوهره . يقود هذه الجريدة – واسمها الأنباء – رجل تربى فى أمريكا ورضع من ثديها لبن الولاء ؛ فبين عشية

وضحاها بات يمتلك هذه الجريدة الكبرى ، إبتنى لها دارا كبيرة فى وسط المدينة استند على اعتمادات ضخمة فى البنوك . بكل هذه المعلومات يتهامس المحررون الكبار فى جريدة القطر ، ويعلنها الكثيرون من الكتاب والصحفيين فى جميع أنحاء البلاد ..

سمير لطفى تخرج فى كلية الحقوق ؛ وهو فى الأصل من أسيوط لكنه قاهرى صرف يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الحياة الخفية للقاهرة ؛ يصادق جميع طبقات الفنانين وتربطه بمعظمهم علاقات شخصية حميمة وزيارات عائلية غير مقطوعة ولا ممنوعة ؛ كثيرا ما يستخدمها فى حل مشاكله وأزماته . يعرف كيف يصوغ كل العلاقات والظواهر فى مقالات وعواميد وتحقيقات وقصص وروايات صحفية ملفقة ؛ وقد أظهر نجاحا كبيرا بحكم مرونته الهائلة ؛ إذ هو سريع البديهة مسالم فى ذكاء شيطانى ناعم . يعرف متى يتمسك بأقوال المسيح الحى ، ومتى يستغيث بشفاعة سيدنا محمد صلوات الله عليه ، ولمن ينبغى أن يدير له خده الأيسر إذا ما لطمه على خده الأيمن . يعرف كيف يرضى الحاكم ويدلك له فى مواطن اللذة والمتعة . يعرف كيف يتقمص رأى السلطة الموجهة حتى لكأنه رأيه الخاص من بنات أفكاره . يعرف كيف يسحق شخصيته فى الوقت المناسب تحت أحذية اللحظات الحرجة المنذرة بالدمار . يعرف كيف ينجو من كل المؤمرات والمكائد كما تخرج الشعرة من العجين . يعرف كيف يكتب فى أية لحظة تحت أى ظروف فى ظل أى مناخ متاح . يعرف كيف يضع أسلاكه فى الأقطاب الكهربية ليصير فى الحال ذى قوة تصعق من يلمسها تطيّره فى الهواء بددا . يعرف كيف يعتقل أحاسيسه ومشاعره الخاصة . يعرف كيف يتآمر وكيف يحسم الأمور كيف يستقطب ولاء المحررين والعمال بمكافآت مجزية . يعرف كيف يرسم الأهمية على وجهه الكروى كحبة البطاطس الكبيرة ، بفروة

ثقيلة من الشعر الصارم الحليق ، وحاجبين كثيفين معقودين على الدوام على هيئة رقم ١١١ ، فوق حافة منظار طبى سميك بنى اللون إطارا وعدسات ، يستقر على أنف دقيق معقوف ذى منخرين واسعين كبوابتى خندق وسط شارب كثيف كالعشب الحائل ، وشفتين رفيعتين مطبقتين بشفرتين سوداوتين على سيجارة مغروزة بعوجة متحذلقة تتصاعد منها خيوط الدخان . يكتب بقلم من الذهب ماركة « باركار » بطاقة خرافية ، يكتب مئات الصفحات كل يوم فى ساعات قليلة دون سأم ، لدرجة أنه فى بعض الأحيان يكتب افتتاحية الجرنان مرتين وربما ثلاثة ؛ كل مرة بوجهة نظر تناقض السابقة وتختلف معها ، لا يجمع بينهما سوى قدرته على الإقناع فى كل مرة بأن هذه هى وجهة نظره الحقيقية فى الموضوع ؛ يقدم منها ما يتوسم أنه مساير للريح فى هذا اليوم ؛ فإن اعترض عليها الرقيب ذو المكتب المنعزل فوق المطابع إستردها وقدم الأخرى؛ وهكذا يضمن أن الجرنان لن يتعطل دقيقة واحدة . من هنا بات مكسبا كبيرا للضباط الأحرار حين أممو الصحافة ؛ أيامها كان رئيسا لتحرير مجلة أسبوعية تعنى بشئون وقضايا الشباب تصدرها الدار التى تربى فيها ؛ وكان فى نفس الوقت نائبا لرئيس تحرير جريدة الأنباء اليومية . فلما جىء به رئيسا لتحرير جريدة القطر أثار زوبعة خطيرة فى الجرنان ؛ قوبل بازورار شديد ، حتى اضطر إلى الإتيان بسكرتيرته سوسن ومدير مكتبه سماح شعبان من الدار التى كان يعمل بها قبلا . فى الدار ثلاثة رؤساء للتحرير تكتب أسماؤهم جميعا على الترويسة فى صدر الصفحة الأولى ؛ صار هو رابعهم ، صار أهمهم جميعا ، صار الرئيس الفعلى الذى يدير ماكينة العمل . كل واحد منهم مسئول عن شىء بعينه ؛ لكنه المسئول عن كل شىء فى النهاية ، عن كل كلمة ينشرها الجرنان ؛ ولذلك حشد قسم المراجعة برجال من لدنه يسهرون على

قراءة كل شىء وشطب كل ما يرون أنه لا يتفق مع وجهة النظر التى يمثلها أو يتبناها ؛ كما حشد قسم التحقيقات بشباب جدد من الخريجين المحدثين أغراهم بوضع أسمائهم بالخط فوق الموضوعات وصار يوجههم بنفسه إلى الموضوعات التى يجب السعى وراءها والزوايا التى يتناولونها من خلالها ؛ كذلك انتخب ساعيا خاصا من سعاة شركة الإعلانات التى تصرف على الجرنان ، إسمه «ميكل زكى» ؛ وجاء من جريدته السابقة برجل ضخم الجثة ذى مؤخرة كبيرة جدا ، يتحرك فى بطء كالمحمل ، ويفتى فى كل شىء بعلمنة ولباقة وبلكنة أجنبية مستغلظة وخبرة حرفية هائلة ؛ جعله مديرا للتحرير مع الأستاذ أكرم فخر الدين وزميله فكان ثالث مدير للتحرير فى الدار . غير أن المدير الفعلى أيضا ، القائم على تنفيذ الطبع فى النهاية بإشراف دقيق وإعادة نظر وصياغة بقلمه السلس المدرب فوق رخام المطبعة حتى أن أصحاب هذه المقالات والموضوعات لا يلحظون أنه اختصر أو أضاف أو أعاد الصياغة . إسمه باهت كشخصيته ، لارنين ولا قابلية للشهرة ، إسمه « محيى أحمد » ؛ يتكلم بسرعة ، بصوت لم يتعود فى الأصل على الإنطلاق لكنه يجبره على الإنطلاق ؛ وهو من أصل بلدى لكنه يتبرأ منه بسلوك مفتعل ، محاولا الإيهام بأنه من أصل أرستقراطى ، فى حين أنه فى الأصل فقير كادح وأبوه – كما يقول أبناء حيه – عربجى حنطور فى حى باكوس بالإسكندرية ، ولهذا فإنه يتصرف دائما مع الناس مثلما كان البكوات يتصرفون مع أبيه . على أنه موهوب ما فى ذلك شك ، ومحرك نشط لمن حوله ؛ مغرم هو باستقراء الأوراق القديمة ، والبحث عما تنطوى عليه من فضائح قد تخدم السلطات القائمة ، أو معلومات قد تفيد فى خلق معين لقرارات سلطوية معينة . يستطيع تسويد آلاف الصفحات فى لحظات دون أن يشطب كلمة ؛ مما يؤكد اتساقة الشديد مع نفسه . لا يدخن ولا يشرب الشاى أو القهوة

أو أى مشروب روحى على الإطلاق خوفا من تفاقم السمنة . مع ذلك فإنه متزوج من ممثلة إغراء مشـهورة بفضـل ماديها من مواهب وقـدرات ؛ إسمها «عزة بركات» ، ذات وجه كالخوخة الناضجة ، وشعر أشقر غزير ، وعينين لامعتين ببريق جنسى مخيف جدا ؛ بريق يبدو على الدوام كأنه صاعد من أسفل قاع الشعور الفائق باللذة ، ملىء بالشبق ملىء بالوعد ملىء فى نفس الوقت بالوعيد ؛ هى نظرة التى تثيرك عن عمد كأنما فى براءة الطبيعة المطلقة ؛ وبنفس النظرة تنذرك بأن تلتزم حدود الأدب ؛ غير أنه إنذار رخو لا يردع بل يرفع درجة الإثارة إلى ذروتها . جسدها جميل إلى أقصى الحدود ، كتمثال رائع من الضوء ، كيمامة صغيرة يمكن أن تطويها تحت إبطك أو تخفيها فى تجويف صدرك . رغم نحافة كتفيها العريضتين وعجيزتها الواقفة النافرة المتحدية وعنقها المرمرى الواقف على صدرٍ كباحة من الرخام ؛ فإنها سريعا ما تصيبك باليأس والحسرة على حرمانك من هذه الكنوزِ النادرة . كان محيى أحمد يسمع غزل الناس فيها ، ويسمع هجوم محررى الدار القدامى عليه وعلى أستاذه ؛ ولكن قفاه أغلظ من إليتيه لا يشعران بأى وخز ، ولا يكترث وجهه الغليظ المكلبظ بأى شىء كما أنه لا يعكس أى انفعال ، كأنه بطيخة بعينين وشعر رأس ومما أثار حنق محررى الدار الأصلاء ؛ ما أُعلن من أن سمير لطفى قد جىء به لينعش الجرنان ويرتفع بأرقام توزيعه الهابطة المتدنية ، بما لديه من حرفية فائقة. وكانت الرءوس الكبيرة فى جريدة القطر – وجلهم من كبار الكتاب المرموقين والأساتذة الأجلاء وأصحاب الأقلام النارية – يعرفون أنه ماجىء به إلا لكونه يمتلك مرونة ليست تتوفر عندهم ؛ ولكن لأنهم لا يحبون الإصطدام برجال الثورة ولا يحبون جدران الزنازين ومعاشرة الجاويشية وتكسير الأحجار فى الجبل فإنهم قد تقبلوا الأمر بكل بساطة وأريحية عجيبة ، خاصة أن سمير لطفى أعطى لكل ذى حق حقه ؛

فخصص لكل واحد مقالة أسبوعية أوعامودا يوميا أو صفحة يوميات يكتبها من منزله دون أن يتجشم مشقة الحضور إلى الجرنان ؛ وبعضهم كلف بالبقاء فى منزله معززا مكرما يقبض مرتبه وحوافزه ومكافآته بشرط ألا يفكر فى الكتابة ؛ فكانوا جميعا يوعزون إلى صغار المحررين ورؤساء الأقسام وعمال المطابع واللجان النقابية بضرورة التمرد وإعلان الثورة على هذا المقتحم . وقد كان ؛ فمنذ احتل سمير لطفى مكتبه هذا فى أول غرفة على يسار الداخل فى الجناح المقابل ، بأثاثها ذاك الفاخر ؛ صارت الردهة المواجهة لمكتبه تزدحم على الدوام بطوائف من المحررين والعمال وموظفى الإدارة يلغطون ويتظاهرون فى طلب مقابلته مستخدمين شتى الأساليب ، من تَرج ومن صلف ومن عنجهية ومن زعيق بصوت عال فى غير تحفظ .. كل ذلك وهو يسمع ولا يبالى ؛ ومدير مكتبه يوزع البسمات والقبلات فى غير تفرقة ، يطلب الشايات والقهاوى بغير حساب فى محاولات للتهدأة والترضية والإحتواء لا تنتهى ؛ فى حين لا تكف سوسن السكرتيرة عن تلقى المذكرات وتسجيلها والدخول بالملفات إلى سيدها ثم العودة بابتسامة واعدة مطمئنة ..

لابد أن الزحام الذى أشهده الآن متصل بشىء من هذا القبيل . رأيتنى أقترب من هذا الجمع متوجسا ، يدفعنى الفضول إلى معرفة حقيقة الأمر ، ويكلبنى الخوف من أن ترصدنى الأعين فيوضع اسمى فى القائمة السوداء لدى الرئيس الفعلى للجرنان ؛ وترن فى أذنى نصيحة صديقى فهمى أبو الفتوح : لا شأن لك أنت بهذه الصراعات فلا تتكلم ولا تعلق ولا تظهر فى التظاهر . وقفت من بعيد أراقب الأمر مع بعض السعاة وعمال البوفيه.. فتبين لى أن الجمع يضم مجموعة هائلة من الأفندية المحترمين لم أكن رأيتهم من قبل أبدا ولا عرفت أى واحد فيهم . وكان من الواضح أنهم على درجات متفاوته من الأناقة والرصانة واللباقة ومسحة الأهمية على وجوههم ؛ وكلهم مشتركون فى سمة واحدة هى

ذلك الصدأ الذى يتراكم على وجوههم ويتركز فوق جباههم ، واللون الرمادى الحائل فى جميع عيونهم ؛ كما أن أيدى بعضهم ناشفة متشققة ، كأنهم جميعا مجموعة من الأنفار الأجرية الكادحين تم نزعهم من ملابسهم الفقيرة وإلباسهم هذه الحلل التنكرية الأنيقة بقمصانها الشفافة . كانوا يتبادلون الحديث فى فوضى وغوغائية وصخب ؛ تارة فى غضب وتارة فى لامبالاة ، وتارة فى تعقل وأريحية ورزانة ، وتارة فى تهديد شبه سوقى صارخ . رأيتنى أقترب من أحد السعاة لأسأله :

– « من هؤلاء وما خطبهم ؟ ! » .

فشوح بذراعه نحوهم وقال لى :

– « ألست تعرفهم يارجل ؟ ! إنهم الكتاب والصحفيون الذين يسمون أنفسهم باليساريين ! شيوعيون ماتعرف ! إخوانيون ماتعرف ! المهم أنهم كانوا فى السجن منذ سنوات طويلة ! وقد أفرج عنهم الرئيس جمال عبد الناصر فجاءوا يبحثون عن مواقعهم ! بعضهم يا ولدى كان معنا هنا صاحب كرسى ومركز كبير ضاع الآن واختفى ! وبعضهم كان فى جرائد أخرى ! وبعضهم كان مدرسا أو موظفا فى شركة ! لكنهم جميعا تم ترحيلهم إلينا ! تم تعيينهم فى الجرنان ! والجرنان أصبح مثل حلة الطورلى عدم المؤخذة ! ملىء بناس من كل ملِّة وكل صنف ! من أين نجىء لكل هؤلاء بالمكاتب ؟ بل أين سنضع المكاتب ؟ وأين هى الصفحات التى يكتبون فيها وهى لا تكفى من هنا من الخلق المتخانق كل يوم عليها ؟ إنهم والله غلطانين فى هذا التجمهر والزعيق ؟ هل نحن فى زمن التجمهر والزعيق ؟! إن الواحد يمشى جنب الحائط ولا يتركه الشياطين فى حاله!! أليسوا سيقبضون مرتباتهم وهم نيام فى بيوتهم كغيرهم ؟ فما الذى يخيفهم ؟ إنه مخ أعوج غريب ! ناس تبحث عن الراحة وهؤلاء يزنون على خراب عشهم !! » .

ثم تركنى ومضى . هو كغيره من الكثيرين فى هذه الدار يظننى موظفا بها ولهذا يخاطبنى فى عشم وبساطة . وإذ علمت منه هذه المعلومة تعاطفت مع هؤلاء المتجمهرين ؛ وشرعت أقترب منهم فى حميمية ، لعلنى أتعرف فيهم على كثيرين من الكتاب الذين حلمت برؤيتهم ذات يوم وحجبهم السجن عنى . فلما اخترقت جمعهم ، رأيت الوجوه التى كنت أعرفها من قبل تختلط الآن بوجوه لم أكن رأيتها ، يتجمهرون فى زئيط مبتهج . فوجئت ببعض السعاة يقتحمون غرفة سمير لطفى ثم يخرجون حاملين تلالا من الكتب والأوراق والأشياء يتوجهون بها إلى المصعد ؛ ثم مالبث سمير لطفى نفسه أن يخرج فى أثرهم منكس الرأس معقود الحاجبين يمضى فى مهابة وسط رهط من رجاله .

قلت :

– « ما الخبر ؟! »

قال أكثر من صوت :

– « قد نجحنا فى الإدارة لأول مرة فى حياتنا ! شكاوينا جاءت بنتيجة لقد ضج سمير لطفى وطهق من الدار فطلب عودته إلى داره الأم ! وهو الآن متوجه إليها بالسلامة !! » .

وانبرى من يعلن هازءا على الملأ أن الدار خسرت كذا وكيت مما لا يمكن تعويضه منذ حل بها هذا الرجل الأريب .كان الجميع يرددون نفس القول بتفاصيل أخرى كثيرة تشبه الخيال والأساطير . الممض لى حقا هو أن الجميع يرددون ذلك باستمتاع عجيب وتشف غامض شرير ، كأن دار اليهود هى التى خربت وليست دارهم التى يتنطعون أمام شباك صرافها نهاية كل شهر وفى كل

آن بدواع مبتكرة من صنوف الإحتيال على نهب الفتات ! .. وكان ثمة جرس يرن فى إلحاح شديد يتتابع صوته من مكان مجهول تحت الأقدام أو خلف هذه الأبواب وليس من يستجيب له أو يسكته . صرت أنظر بحنق شديد إلى هؤلاء السعاة الواقفين فى بلادة وكسل يجرعون الشاى والدخان فى لامبالاة . حيانى. بعض المحررين وكتاب اليوميات ورؤساء الأقسام بهزة رأس فيها الكثير من الإستعلاء والتحفظ والتنبيه على بأن ألزم حدودى وأعرف مركزى . مع ذلك أغرتنى تحياتهم بالزحف شيئا فشيئا والإندماج فى جمعهم مدفوعا بالدهشة من سماع هذه الأساطير والفضائح المتواترة حول ذلك الراحل غير المأسوف عليه ..

إذا بى قد صرت بين جمع أليف من أولئك الذين خرجوا لتوهم من سجن الثورة وجاءوا يتعرفون على مواقعهم فى جريدة القطر التعيسة . كان يبدو على كأننى ملم بكل أخبارهم على أكمل وجه وأننى قد عاشرتهم على هذا الوضع سنوات طويلة ، وأننى واقف معهم منذ أمد بعيد أستمع إليهم ويستمعون لى بألفة حميمة . يدهشنى الآن أنهم يحدثوننى باعتبارى زميلا لهم فى الجرنان لا يعنيهم معرفة وضعى على وجه التحديد . يدهشنى أن بعضهم يحمل رزما من القصص يسألنى عمن يصلح من معارفى لإعدادها للإذاعة أو التليفزيون أو السينما أو المسرح ؛ وبعضهم يقرأ على بعضهم مخطوطات عديدة لدواوين شعرية مكتوبة فى المعتقل . الواضح أننى سكران بنشوة هذه المشاركة الحميمة وكأننى قادر بالفعل على تقديم الخدمات وإسداء النصائح وفك الأزمات المستعصية . كان صدأ السجن لا يزال يصبغ وجوههم ورقابهم وأيديهم وعقولهم أيضا ؛ وواضح أننى مروع من منظرهم ، من هذه الحكايات الرهيبة التى يستكمل بعضهم بعضا حكايتها عن تلك التجربة المريرة الهازلة فى نفس الآن ؛ عن الذى مات من فرط التعذيب ، عن أستاذ الجامعة المرفه الوقور الذى كان يسوقه السجان إلى الشغل الشاق سوق الأغنام فينكفىء وينكسر منظاره

فيتخبط فى ظلام البصر ؛ عن الخوازيق واللهاليب والسياط والكدح المميت .. فياله من ثمن فادح ذلك الذى يدفعه الإنسان من عمره لقاء المشى فى النهاية جنب الحائط إيثار للسلامة . كان من الواضح الجلى لى أننى متعاطف جدا مع الدكتور « مرقص الأسيوطى » ومع كبريائه الذى انكسر فخلَّف فى العينين ندبة وراء المنظار ؛ ومع « سالم السلمى » الذى يقدم كل يوم موضوعين ويتلقى ثلاثة مرفوض نشرها دون إبداء الأسباب فلا يبتئس ولا يفعل أكثر من ابتسامة خجول على شفتيه المتحفظتين فيما يعدل المنظار بطرف أصبعه فى حركة خاطفة؛ ومع « وهيب شنقار » ، الشاب الذواتى الطابع ، الطلق المحيا ، الذى يتلفت حواليه بحذر وتوجس كلما ضحك ضحكة صافية عالية أو تألقت فى عينيه نكتة سياسية يكتفى بالإيحاء بها فحسب ؛ و « فهيم ميخائيل » الناقد الشاب الذى يجيد الكتابة فى الفن من وجهة نظر فلسفية ويكتب فى عالم الجمال الماركسى ، وينتقد سارتر وكير كجارد وألبير كامو فى عامود أسبوعى صغير ما يكاد يبدأه حتى يضطر إلى إنهائه ثم يرمى بالقلم فى غيظ وهو يشد شعره ، منددا بهذه الصفحات التى يدهورها الجرنان فى عبث أعلامى لا طائل من ورائه، فيما يختنق هو كمفكر فى عامود ضيق لا يتسع للتمهيد لرأى بُله أن يتسع للرأى نفسه ؛ كذلك أتعاطف مع « شكرى عبد الودود » ، الفيومى الأصل، القصير القامة فى امتلاء وغلظة ملامح مع الوسامة ، مدكوك اللحم ، مرغدد ، كحلوف خفيف الظل ؛ يتكلم من حلقه بصوت خفيض ، يخلط الضحك بالكلام والكلام بالضحك ظنا منه أنه بذلك يغمز إلى معان خفية ويقرص فى أوجاع مستترة . يرتدى بذلة شديدة الأناقة بصفين من الصوف الهيلد المعتبر ، برباط عنق قرمزى على قميص سماوى اللون تمشيا مع لون البلذلة الكحلى الغامق . قبل دخوله السجن كان فى السنة النهائية بكلية الفنون الجميلة ؛ وكان يرسم

بعض الأغلفة لبعض الكتب ، ويتمرن على الرسم الصحفى فى دار يسارية عريقة ؛ لكنه منذ خروجه من السجن وهو لا يكف عن دعوة الزملاء إلى بيته أو أى بيت من بيوتهم ليقرأ عليهم آخر مسرحية كتبها . ثم فوجئت الأوساط الفنية باسمه يتردد فى أخبار الصحف ككاتب مسرحى من طراز جديد ، يتخصص فى الدراما الفولكلورية العربية ، ويعيد صياغة مواويلها وحواديتها فى قالب مسرحى قريب الشبه بمسرح اللامعقول الذى بدأ ينتشر فى البلاد كآخر موضات الفن المستورد الذى يثبت به مثقفونا دائما ، وبه وحده ، أنهم مثقفون . وقد شهدت جوقة محررى الفن ونقاده بأن مسرحيات شكرى عبد الودود التى كتبها فى السجن هى مسرحيات أصيلة وجديرة بالعرض على الجمهور فى مسارح الدولة والنشر فى كتاب . بالفعل صدرت مجموعة منها فى كتاب فخيم ضمن سلسلة مهمة تصدرها هيئة الكتاب ؛ ثم أتبعها برواية مهمة فى نفس السلسلة حظيت بإعجاب كل من قرأها فاعتبروها فتحا جديدا فى أرض الرواية العربية . ثم إنه بدأب وإصرار ومثابرة وإلحاح تعرف على بعض مخرجى المسرح وصادقهم حتى وقع أحدهم فى غرامه ، فقدم له عرضا مشوقا على خشبة مسرح تجريبى تابع للدولة ، مكونا من مسرحيتين من ذات الفصل الواحد ، إذ أن معظم مسرحياته من فصل واحد ؛ حوارها ذو طابع واحد ، أقرب إلى شعر العامية أو لغة المأثور الشعبى . كان شكرى عبد الودود بخيلا إلا مع من يشعر أن من ورائهم فائدة من نوع ما ؛ حينئذٍ يمكن أن يعزم الشخص على تحشيشة يستعرض فيها عدة أصناف جاءته كهدايا من أصدقائه فى الفيوم والشرقية من تجار المخدرات الذين تعرف عليهم فى السجن . قد تمتد العزومة إلى غدوة ؛ أما إن تحققت الفائدة بالفعل من وراء شخص ما فلا بأس من إكرامية نقدية أو هدية ثمينة حسب حجم الإستفادة . كانت وظيفته فى الجرنان

كتابة المقالات عن معارض الفن التشكيلى أو عن العروض المسرحية والفن الشعبى . مع ذلك فإنه شكاء موهوب محترف ؛ فى دقائق معدودة يكون قد استقطبك فى صفه وَعيَّشك فى مشكلاته العديدة التى لا تنتهى أبدا ، مرة مع الرقابة ومصادرة فنه العبقرى لخطورته على النظام ؛ ومرة مع النظام نفسه فى عدم تعيينه بمرتب لائق مثل زملائه الذين قبلوا كتابة اعتذارات وخرجوا من السجن ؛ ومرة مع الفرقة المسرحية التى تطالبه بتعديلات جوهرية فى نصوصه المقدسة وواقع الأمر أنها تفتعل مبررا لتأجيل عرض المسرحية كمبرر منطقى لرفضها نهائيا ؛ ومرة مع صاحب البيت الذى يدفعه الجشع لرفع الإيجار جنيها كاملا بحجة أنه أجرى على الشقة بعض إصلاحات لم تخرج عن كونها ترميم الشقة بعد تصدع وتشقق ؛ ومرة مع الحشيش الذى تردت أصنافه وردأت وباتت تجلب الصداع والدغششة وسرحان الذهن فى الفراغ الأملس ؛ ومرة مع منتجى السينما الذين يشترون روايته الشهيرة ويبيعونها لبعضهم البعض دون أن يجرؤ أحدهم على تنفيذها لحساسية موضوعها ذى « التيمة » الجنسية الصارخة .. وهكذا لم يوجد فى الأوساط كلها من لم يعرفه جيدا وقد يتبنى أحدهم مشاكله ؛ بل إن الصحف كثيرا ما كانت تكتب فيها من خلال اليوميات والأركان الفنية . وبفضل إلحاحه وتركيزه ومثابرته على الشكوى صنع لنفسه إذاعة إعلامية خاصة متنقلة غير خاضعة للرقيب ؛ فكتب عنه الكبار والصغار بحماسة فائقة ؛ وقيل - بشواهد دامغة - أنه يتاجر فى الآثار خفية ، وأنه يجمع هذه الآثار من محترفى التنقيب عنها فى أراضى الفيوم وقرى الجيزة والصعيد والشرقية ؛ وإنه يهدى بعض القطع النادرة والجعارين لبعض من يتوسم فيهم مصلحة كبيرة أو يتوسل بهم لتحقيق . وكان المتسائلون عنه كظاهرة صاخبة يهزون رءوسهم فى خبث حكيم حين يتذكرون أن «شكرى عبد الودود» يحمل اللافتات اليسارية

الزاعقة فى حين أن الذين فتحوا له المنافذ كلهم من المحسوبين على اليمينية . وقد حكى بعضهم أمام الجميع أنه شاهده فى باريس فى يوم قريب يزور متحف اللوفر بحقيبة ملآنة بالقطع المتنوعة ، عرضها على المسئولين ؛ ففحصوها جيدا وتأكدوا من أصالتها ؛ وأبدوا استعدادهم للشراء إذا هو أتى لهم من السفارة المصرية بشهادة تثبت أنه تاجر آثار معتمد ؛ وكانوا بالطبع يعرفون أنه لن يتمكن من الإتيان بهذه الشهادة ؛ ولكن شكرى عبد الودود حينما يتجول بحقيبته بين المحلات الشهيرة المتخصصة فى العاديات ، لم يكن يدرك أن مندوبا سريا من المتحف يمشى وراءه ، ليدخل المحل بعد خروجه مباشرة ويأخذ القطعة بزيادة قليلة أو كثيرة فى سعرها . العجيب أن مثل هذه الحكايات وغيرها تحكى أمام شكرى نفسه بإضافات عديدة تكاد تشبه الأساطير فلا يعنى بالرد عليها ولا بأى تعليق سوى ابتسامة بلهاء يقصد بها السخرية ..

ها أناذا الآن جالس معه فى غرفة مستطيلة تضم سبعة مكاتب ماركة إيديال ؛ حول كل مكتب يجلس ثلاثة أو أكثر يتحدثون . لم أفهم بالضبط لماذا أنا الآن جالس معه هو بالذات ؛ ربما لأنه قريب منى بعض الشىء بفلاحيته التى تكاد تقرب من الحمورية فى شكلها الإنسانى الجاذب ؛ فإذ تتوقع منه حمورية كاملة إذا بك تكتشف حمورية إنسانية حمولة ؛ وربما لأنه ودود بالفعل يشجعنى ويشجع غيرى على إقامة الود معه ؛ وربما لفضولى الشديد تجاهه ومحاولتى معرفة محتواه على الحقيقة . على أنه كان غاضبا لأول مرة ؛ تتهدل ملامح وجهه الدسم المكتنز المستطيل كالشمامة ، وتتشقق شفتاه الغليظتان تحت السيجارة البلمونت القصيرة التى يشعلها على الدوام من سابقتها . أمامنا فنجانان من القهوة أحدهما فارغ يبدو أننى شربته ، والآخر نصف ملآن يبدو أنه يخصه . كان يخلد إلى الصمت برهة ثم يعود إلى الكلام فى صوت متهدج

أسيان أسيف ، ويخلط الكلام بالضحك كعادته ؛ لكنه هذه المرة ضحك مصفر كالإبتسامة الشاحبة على ثغره . الكلمات غامضه مضخمة غاضبة ؛ لكن كان يبدو وكأننى أفهمها ؛ بل من الواضح أننى أعرف الموضوع الذى يتكلم فيه والذى أغضبه كل هذا الغضب ؛ سرعان ما فهمت أنه يقصد بكلامه وغضبته شخصية « خالد الشباسى » ، الناقد الشاب ، الذى انضم بين صفوف الاسماء الكبيرة فى زمن قصير ؛ لنبوغه المبكر ، وذكاء قلمه وبساطة عبارته وجرأة آرائه واتساع مداركه وإلمامه الطيب بحقيقة القضايا الجوهرية والحيوية التى يعيشها الشعب العربى ، والتى يجيد الكتابة فيها من وجهة نظر يسارية خالصة ؛ مع أنه لم يدخل السجن ؛ لأنه – فيما قيل – لم ينضم إلى أى تنظيم من التنظيمات اليسارية ؛ ولأنه كان ذكيا فى كتابته فلا يلخبط الأوراق ولا ينزلق إلى الغلطات الكبيرة . هو الإبن البكرى لمدرس إلزامى فى قرية من قرى محافظة الدقهلية كان موهوبا فى الشعر وعلى شىء من الثقافة ؛ لكن الأيام رزأته بكثرة العيال ومرض الزوجة فانغمس فى جبال من الهموم المنزلية ، فنذر نفسه لتربية الأولاد، مؤجلا هموم الشعر والأدب إلى حين . غير أن الحين قد طال ، ووجد نفسه ينمو من جديد فى شخص إبنه البكرى خالد ، فوضع كل همه فى تثقيفه حتى أنضجه ؛فبات الإبن بين عشية وضحاها كاتبا مشهورا مسموع الكلمة ؛ وبات الكثيرون من الشبان يعلقون عليه الآمال فى أن يكون لهم نصيرا ولأعمالهم . ولم يكن هو فى الواقع يتردد عن هذا كلما واتت فرصة ؛ بل إنه كان من أوائل من كتبوا عن مسرحيات شكرى عبد الودود قبل ظهورها كتابة جادة محترمة أفاد منها على أكثر من مستوى.. فما باله اليوم غاضب منه إلى هذه الدرجة ؟..

سرعان ما تبين لى كأننى أعرف حقيقة الأمر ، وأننى مؤيد لشكرى فى غضبته .

ثم إذا بشكرى عبد الودود يقدم لى سيجارة جديدة وهو يقول بوضوح كامل منذ أن رأيتنى جالسا معه :

– « تصور أن هذا الحمار النذل كتب مقالة يمتدح فيها ذلك الرجل ويسرف فى النفاق والمحلسة ؟ ! » .

وبدا كأننى أعرف من هو هذا الرجل الذى يقصده ، وأننى أعرف أن خالد الشباسى يمكن أن يفعل هذا ؛ أو ربما قد فعل هذا فعلا ؛ مع ذلك قلت لشكرى فى استنكار شديد :

– « يارجل !! أجاد أنت فيما قلت ؟! » .

هز رأسه ويده التخينة المظلظة ؛ فتناثر رماد السيجارة المحتجزة بين أصبعيه ، وقال مؤكدا :

– « لقد قرأها مدير التحرير وأخبرنى فى السر لأننا أصدقاء قدامى ! بصراحة قرأها لى باستنكار وأسف قائلا : هذا هو ناقدكم الذى تفخرون به أنظر ماذا يفعل فى سبيل البقاء !! من لحظتها وأنا أحس بالعار ! »

– « ولماذا لم ينشرها مدير التحرير ؟ » .

– « لأن صاحبنا لم يطلب نشرها ! إنه يطلب رأى مدير التحرير فيها فحسب !! زاعما أنه منعا للحرج سينشرها فى مجلة أدبية بيروتية يقوم بمراسلتها ! وهو طبعا لن ينشرها مطلقا لأنها ليست تمثل رأيه الحقيقى فى هذا الرجل السفاح ! إنما هو بذكائه الإنتهازى يعرف أن مدير التحرير سيعرضها على الرجل وحينئذٍ ربما اختشى الرجل وأبقى عليه !! »

لم أجد ما أعلق به ؛ فأخلدت إلى الصمت ، ورحت أدخن فى استمتاع ،

وسط زئيط وضجيج خرافى راح يرج المبنى كله . العجيب أنه وسط كل هذا الضجيج عاد رنين ذلك الجرس الملحاح ينبعث من مكان مجهول مرسلا صيحاته المتقطعة المتتالية . فجأة نهض شكرى عبد الودود واضعا يديه كالعادة فى جيبى سرواله ، وجعل يروح ويجىء فى توتر ملحوظ ، منكسا رأسه فى الأرض ؛ ثم تسلل خارجا من الغرفة ؛ ومضى نحو غرفة رئيس مجلس الإدارة الجديد ؛ فتوقف أمامها قليلا مترددا ، ثم اقتحم حجرة مدير المكتب واختفى بداخلها ..

نهضت أنا واقفا . بدأت أنتبه لبعض هذا الضجيج ؛ أصخت السمع جيدا . كان الجميع يتكلمون فى نفس الموضوع بطرق مختلفة ولهجات متعددة ؛ لكن الجميع خائف مذعور ؛ والجميع فى شبه ثورة عنيفة على وشك أن تندفع مدمرة كل مايعترضها ؛ غير أنها مجرد جعجعة على الطريقة المصرية الأصيلة، تسمع فيها السخط والتهديد العنيف مبطنا بالتلطيف ورخى الحبل والابقاء على خط الرجعة . سرعان ماتضح كل شىء أمامى ؛ مع ذلك كان يبدو علىّ كأننى أعرف كل هذا مسبقا : فلقد اختارت الثورة الأستاذ « صابر علام » فعينته رئيسا لمجلس إدارة وتحرير جريدة القطر ؛ وفوضته فى أن يفعل ما يشاء فى سبيل إنقاذها من الخمول والتردى . « صابر علام » فى الواقع من ألمع الصحفيين قبل الثورة ، حين كان رئيسا لتحرير مجلة فنية أسبوعية واسعة الإنتشار لا يزيد عدد محرريها وإدارييها على ثلاثين فردا بما فيهم السعاة ؛ وها هى ذى الأيام قد رفعته أخيرا ليصبح مسئولا عن دار كبرى تصدر ثلاث جرائد يومية إحداها مسائية والأخرى صباحية والثالثة بلغة أجنبية ، وتصدر مجلتين أسبوعيتين إحداهما سياسية فنية إجتماعية أسبوعية والأخرى للأطفال ، ومجلة

أدبية شهرية ، وسلسلة كتب شعبية ؛ أما عدد العاملين فى الدار فيزيد عن الألفى عامل وموظف ومحرر وكاتب . تساءل السذج : كيف تأتى له أن يوضع فى مثل هذا المنصب الخطير ؟ أجاب الآخرون إجابات كثيرة بدا لى أننى أعرفها من قبل ؛ سرعان ما تذكرت أنه قبل الثورة كان رئيسا لتحرير مجلة سياسية أسبوعية كبرى ؛ كان يديرها بحرفية كبيرة ؛ وكان طيب القلب محدود الأفق مغامرا ، لايدرى العواقب البعيدة الخفية ؛ ففى سبيل الخبطة الصحفية المرجوة لرفع مستوى التوزيع لا مانع لديه من القيام بأى مغامرة ولو نصف محسوبة هذه الخصيصة وحدها هى التى خدمته من حيث لا يدرى ولا يقصد ؛ ذلك أن الضباط الأحرار قبل إعلان الثورة بشهور قليلة كانوا على علاقات متنوعة متباينة بين العمق والسطحية مع كبار الصحفيين فى ذلك الوقت لنشر بياناتهم ووجهات نظرهم فى بعض القضايا ؛ وقد عرضوا بعض كتاباتهم على الأستاذ صابر علام فنشرها على الفور من زواية أنها - فحسب - خبطة صحفية ؛ فظن الضباط الأحرار أنه مؤيد لهم ومؤازر ومشارك ؛ إذ لم يدر بخلدهم مطلقا أنه لم يدرك خطورة أبعاد مانشر ؛ ولو أدركها لامتنع عن النشر بدون أدنى تردد ؛ أما وقد نشرها فلاشك أنه قد وضع بنفسه رأسه على حبل المشنقة فى سبيلهم . وهكذا حفظوها له جميلا لاينسى . وكان من حسن حظه أن الثورة قامت بعد ذلك بوقت قليل لتنقذه مما كان سيتعرض له حتما لو لم تقم؛ وظلوا على علاقة طيبة به كما ظل هو مواليا لهم بكل جوارحه ؛ إلى أن واتتهم الفرصة فعينوه فى هذا المنصب الحيوى الخطير . ولقد وضع شرطه أمامهم ففوضوه ؛ فلكى ينجح فى إنقاذ هذا الجرنان التعيس فلابد له من اختصار عدد العاملين فيه إلى أقل القليل ، للتخلص من عبء ثقيل جدا هو مرتبات كل هؤلاء ، وكلهم من ذوى الرتبات الكبيرة . ولهذا فقد جاء إلى الجرنان

بمذبحة هائلة لم يسبق لها نظير فى التاريخ ؛ إذْ قام بالإستغناء عن قائمة مهولة من الكتاب والصحفيين الكبار اللامعين ذوى الأمجاد الكبيرة المشهورة ؛ تم نقلهم إلى جهات أخرى لا علاقة لها بعملهم الصحفى من قريب أو بعيد ؛ إلى شركة باتا للأحذية ، وهيئة البريد ، وهيئة المخابز والمطاحن ، ومضارب الأرز ، ووزارة التموين ، ووزارة الأوقاف ..

هاهم جميعا يلغطون ويصخبون ويسخرون فى مرارة من هذا المصير المؤلم التعس . جميع الغرف فى الجرنان تحتدم بالثورة لكنها مجرد كلام فى كلام .. ثم مالبث الجميع أن خفت كثافتهم ؛ وبدأت جموعهم تتفرق شيئا فشيئا بإيحاء خفى من أجهزة الأمن المنبثة فى جموعهم بل والكامنة تحت جلودهم وفى صلب عظامهم فلما فرغت المكاتب تماما بدأ وفود بعض المحررين الجدد الذين جاء بهم السفاح معه لكى يعملوا فى روقان بعض الظهر ، فى إعداد صفحات جديدة بمقالات وموضوعات وأخبار وصور جديدة كانت جاهزة معهم منذ أيام مضت . وفيما كان الطاقم الفنى القديم لا يزال منكبا على العمل فى توضيب الصفحات اليومية المعتادة ؛ كان الطاقم الجديد قد نحاه سرا وقدم إلى المطبعة صفحاته الخاصة التى سترى النور غدا .. وكان رنين الجرس المجهول المصدر قد عاد يرتفع من جديد فى إلحاح شديد ؛ ثم إنه جعل يقترب شيئا فشيئا ويعلو شيئا فشيئا إلى أن صار يثقب أذنى مباشرة ؛ فانتفضت قاعداً .

كان التليفون يواصل الرنين منذ وقت طويل ؛ وكانت الساعة فى يدى قد تجاوزت السادسة والنص بكثير ؛ فوليت مسرعا وقفزت إلى آلة التليفون . رفعت السماعة ؛ جاءنى صوت عرفت أنه صوت ضابط النجدة ، الذى قال فى استهوال رقيق : « أشهد أن لا إله إلا الله ! أكل هذا نوم ؟ إننا نتصل بك منذ نصف ساعة بمعدل مرتين كل خمس دقائق ! » شكرته واعتذرت له ، ثم وضعت

السماعة ، وتمطعت متثائبا أنفض الكسل والخمول والتعب عن كتفى . فتحت باب الحجرة ، وعبرت الغرفة الكبيرة إلى الردهة على أطراف أصابع قدمى ؛ فإذا هى بخلوها مخيفة . ذهبت إلى دورة المياه فغسلت وجهى وتركت الصنبور يندفق على رأسى ؛ ثم جففته بورق الدشت ، وغسلت قدمى ؛ فى تكتم وبدون ضجة . ثم عدت فارتديت قميصى وحذائى وعدلت هندامى على قدر المستطاع ؛ ثم جلست خلف باب الحجرة واجف القلب متوتر الأعصاب ..

فى تمام السابعة سمعت لغطا على البوابة ثم سمعت صوت أقدام تصعد السلم ؛ فعرفت أن الريس عبد العظيم البرديسى قد أتى ؛ فتسارعت دقات قلبى، وفتحت باب الحجرة برفق وخرجت إلى الغرفة الكبيرة ، فانزويت فى الركن ، ثم اتتنى فكرة نفذتها فى الحال ، بأن جلست على مقعد المكتب المجاور للباب ثم أسندت رأسى على سطح المكتب وتصنعت الإستغراق فى النوم ؛ على أساس أن البرديسى إذا دفعه إبليس للبدء بدخول هذه الحجرة فإنه يرانى على هذا الوضع فيفهم أننى قد نسيت نفسى فى سهرة الأمس حتى أغلقت الأبواب دونى . إستحسنت الفكرة وخطر لى أن أستمر فيها إلى النهاية بل وأن أزعق لعبد العظيم وألقى عليه تبعة ما حدث لأنه لم يلحظنى قبل رواحه ؛ لكننى تذكرت أن عبد العظيم البرديسى إبن حارة الدرب الأحمر لا تدخل عليه هذه الحيل المكشوفة خاصة وأننى قد غسلت وجهى وطردت النوم . سمعت صوت المفتاح يدخل فى قفل باب الجناح ؛ ثم صوت الباب وهو يفتح ثم صوت أقدام عبد العظيم تقرع الأرض الخشبية . بربشت بعينى من خصاص الباب فرأيت شبحه يمر من أمام باب الغرفة متجها إلى الداخل ؛ فعرفت أنه متوجه إلى غرفة عضو مجلس الإدارة المنتدب ، التى تقع فى عمق بعيد جدا فى حنية عند انتهاء الردهة. عندئذٍ فتحت باب الغرفة فى رفق شديد وأطللت برأسى على الردهة متابعا ظهر

عبد العظيم وهو يبتعد ؛ حتى اختفى فى الحنية البعيدة ، فوسعت فرجة الباب قليلا ، وانتظرت حتى سمعت صوت المفتاح فى قفل غرفة عضو مجلس الإدارة المنتدب ، وصوت أقدام عبد العظيم وهى تدخلها ؛ فمرقت متسللا من فرجة الباب وقد قوى قلبى بعض الشىء وتسرب إليه قليل من الإطمئنان ؛ فعلى الأقل أستطيع الآن أن أزعم لمن يرانى أننى قادم لتوى لإنجاز أعمال بائته كلفنى بها صديقى فهمى ؛ لكننى بقفزتين على أطراف أصابعى صرت على بسطة السلم ، وبقفزات أخرى هبطت الأدوار الثلاثة ، فصرت فى ردهة الدور الأرضى حيث رحبة المصعد وأمامها منصة رجال الإستعلامات وساعة التوقيع بالحضور والإنصراف . صرت فى الممر الخارجى المؤدى إلى باب الشارع وقد وقر فى ذهنى أننى إن نجوت من الفضيحة هذه المرة فلن أكرر هذه الفعلة الحمقاء مرة أخرى .

رأيت الخفير ممدا فوق الدكة على رصيف الشارع وقد اطمأن إلى الصباح فجذب البطانية فوق رأسه واستسلم لغفوة إضافية . مرقت من جواره كالريشة فى مهب ريح عاصفة ، فى تلصص ؛ سرعان ما استعدت وقارى واتزان مشيتى فلما صرت فى منتصف الشارع العمومى يلفحنى هواء الصباح الرطب فاض صدرى بسعادة خرافية ، ونزلت من عينى دموع مريحة للأعصاب دافئة كان ثمة صوت جرىء كالح الوجه يرن فى أعماقى قائلا : وهكذا يمكن أن نكرر هذه النومة فى ليلة عصيبة أخرى قادمة . ثم وجدتنى أرد على هذا الصوت قائلا : ما كل مرة تسلم الجرة ولكن لم لا ؟ .. ثم تذكرت فجأة أننى فعلت هذا عشرات المرات من قبل ، وربما كانت هذه هى المرة العشرين أو الثلاثين التى يرن فيها هذا الصوت بأعماقى فى نفس هذه البقعة من هذا الشارع وأرد عليه بنفس الجواب .

- ١٣ -
خبــز البغـــايا

آخر ما كنت أفكر فيه أن أبيت - ولو لساعة واحدة - عند صديقى الحميم شاعر العامية الفلاح «عبد الفتاح البتانونى» ، ليس لنذالة فيه ، لم أكن عرفتها ، بل ليقينى أنه هو نفسه من قبيلة المشائين من أمثالى يبحث عن مبيت ، وفى الليالى العصيبة السوداء فكرت فى زيارة كافة الأصدقاء ، بل فكرت فى زيارة غير الأصدقاء ، بل إننى زرت بالفعل من لم أكن أعرفهم من قبل إلا فى لقاء عابر ، فسلخت فى بيوتهم بضعة أمتار من جلد الليل وأكملت الباقى كالعادة سيرا على الأقدام فى الطريق حتى يتكشف لحم الليل عن غلالة من البياض ، وما أندر الذين خرجت من بيوتهم فى تلك اللحظة الحميمة التى تسكرنى وتطربنى : لحظة أن أرى جثة الليل معلقة فى خطاطيف شمس الشروق المصطبغة بلون الدم القانى حيث تسعدنى رؤيتها ترقده على الوضم لتشرحه بالبلط وسكاكين الضحى .. حينئذ أستطيع أن أمضي آمنا إلى حيث لاهدف لا غرض لا عمل لا موعد لا أى شئ سوى الحلم بلقاء معجزة تتجسد لى فى الطريق أصـــبح على أثرها - بموجبهـا - ذا هدف وغرض وموعد ورباطات لاتنتهى ..

غير أن الطريق لم تكن تلقى فى طريقى بغير نفس الأشخاص الذين أراهم دائما والذين مللت رؤيتهم قبل أن يملوا رؤيتى . لقد صرت أمقت كل شئ

يقربهم منى أو يقربنى منهم . كلهم يكتبون ويقرأون ويحلمون بالوصول وبالنجومية والتربع - انفراديا - على قمة ما ولو زائفة . كلهم ينظرون إلى بعضهم البعض باحتقار خفى لكنه سرعان ما يظهر لدى أى بادرة احتكاك . يترصدون بعضهم البعض يتسقطون مخازيهم وأخبارهم الفاضحة !! أجلس معهم على المقهى لدقائق معدودة فأعرف كمية من فاضح الأخبار ومنحط السلوك ودنئ النفوس تكفى لتلويط وتلويث كل الأقوام على ظهر الأرض . والواحد منهم يطب عليهم فجأة وهو لا يعلم - وربما يعلم - أن لحمه قد استبيح على هذه الأرض فنهشته الكلاب والقطط والحشرات وشربت من دمه حتى صارت مشتاقة لشرب المزيد من الدماء ، فإذا هو بمجرد جلوسه لا يلبث حتى يشارك فى نهش لحم شخص غائب ، بنفس السكاكين الحامية القاسية .

كنت أوقن من أننى لابد ملاق هذا المصير نفسه بمجرد انصرافى ، غير أننى كقروى «قُح» حديث عهد بالمدينة كنت موقنا من أنه ليس فى حياتى ما يمكن أن تلوكه الألسن المتوحشة ، كما كنت واثقا من أن نهاشى لحوم البشر بين أدعياء الثقافة فى هذه المدينة شأنهم شأن الكلاب والحيوانات الشرسة لا تنفتح شهيتها للنهش إلا إذا اشتمت رائحة اللحم النتن ، ولطالما شعرت بأنوفهم تتحسسنى فى شغف ولهفة كلما جلست بين مجموعة ممن ينتحلون كتابة القصة والرواية والقصيدة والمقالة النقدية والخبر الفنى ، أو يزعمون الإنتاج والإعداد والإخراج ، فكان بدنى يقشعر من لفح أنفاسهم ولعابهم السائل فوق ألسنتهم اللاهثة فى محاولة معرفة كل شئ يتعلق بى منذ أن ولدتنى أمى حتى انفردت بحمل همى..

تعودت أن أهرب من تجمعات هذه المقاهى التى يعف عليها أدعياء الثقافة والأدب والفن . غير أننى لم أكن أملك مهربا من الشارع حين يرزأنى الشارع بواحد منهم أو بمجموعة تتسكع . إنها المحنة بعينها ، إلا أننى اعتدت غلظة القفا وكلاحة الوجه ، أصبحت أستمرئ تجاهلهم ، أعرف كيف أصدهم وأزوغ من أسئلتهم الصفيقة الجريئة المفاجئة ، التى تعتبر جارحة فى حد ذاتها،

أو لها مثلا : «جاى منين يا فلان ؟ رايح فين يا فلان ؟ لماذا لا نراك ؟ هل أجد معك عشرة قروش أردها لك بعد باكر ؟ ما هى أخبار صديقك فلان ؟» . أسئلة سخيفة لا أحب سماعها ، وناس أسخف لا أحب رؤيتهم على الإطلاق . الأسخف منهم ذلك الذى يحاول امتطاءك بذريعة الأخوة أو الأبوة أو الرفقة الحميمة ، ليندس فى قلبك مرة واحدة قائلا : «وعامل أيه دلوقت يا فلان ؟ إنت هدومك وسخة كده ليه ؟ إنت ما لكش بيت ولا إيه ؟ قل لى إيه هى أحوالك بالضبط يمكن أقدر أتصرف لصالحك !» . علمتنى التجربة المريرة أنه غير قادر على التصرف ، إنما هو قادر فحسب على تنويمك بوهم الحب وخدر العاطفة حتى يعرف ماذا وراءك لتجد نفسك بعد ساعات قليلة صرت صفحة معلقة فى لوحة الإعلانات على مدخل كل باب ..

أمثال هؤلاء تعلمت أن أراهم على بعد فانتقل إلى الرصيف الآخر ، أو أنعطف على حارة جانبية ، أو أعطيه الجانب التخين من وجهى فكأننى لست أعرفه وليس يعرفنى ..

على أن محاسن الصدف كثيرا ما كانت تلقى فى طريقى بشاعر العامية «عبد الفتاح البتانونى» ، القروى القح مثلى ، الذى أحبه بحق وحقيق ، نتلاقى دائما عند كل كلمة يكتبها أو قول يلفظ به أو سلوك يأتيه . هو مثلى محكوم بالذى يصح والذى لا يصح ، والعيب ، وتقاليد الأخوة والجيرة والشهامة وتقديس الصداقة ، وما إلى ذلك من غذاء رضعناه صغارا من بز أمنا القرية مع أنه من محافظة المنوفية وأنا من محافظة الغربية . حتى شعره العامى كان يصدر عن فولكلور القرية ، أغنياتها التى هى تعازيم ورقى للعمل وأدواته ، للإنسان من المهد إلى اللحد ، للأرض من سواد التربة إلى اخضرار البرسيم فى عيون البقر ، للشمس من المغيب إلى الشروق ، للكون من عهد آدم إلى عهد محمد ، وسيرها الشعبية التى هى تمجيد للعروبة ، للقوم ، لأمة محمد التى هى

دائما أبدا بخير ، من عنترية إلى هلالية إلى يزنية إلى حمزتية بهلوانية إلى ذات همة ، إلى الظاهر بيبرس وخضرة الشريفة وسعد اليتيم والسيد البدوى ، وألف ليلة وليلة ، والمداحين ، والمواوية ، تلك هى ثقافتى ثقافته ولذا لم يكن غريبا علىّ، حتى مفرداته لم تكن تخرج عن قاموس القرية قاموسى : الناف والمحراث والشرشرة والفأس والطنبور والمذراة والمنجل والكريك والنورج والساقية والشادوف ، وحطب القطن وقش الأرز ، والترع والمصارف والقنوات والزراريق ، وخوار البهائم وثغاء الماعز ونهيق الحمير ونعيب الغربان وشقشقة العصافير وهديل الحمام ووقوقة الأوز وصياح الديكة ونباح الكلاب وشدو الكروان ونقيق الضفادع ليلا مختلطا بعواء الذئاب ..

كان قد سبقه إلى الوجود شاعر كبير ضخم . كان فرعا من شجرة مورقة مزهرة خرج منها أقطاب كعبد الله النديم وبيرم التونسى وبديع خيرى وصلاح جاهين . لُقح بالثقافة الفرنسية ، وتعمق فى تراث بلاده بشقيه المدون والشفاهى ، وتراث العالم والأمم المحاربة ، حتى أدرك أبعد غور فى الوجدان الشعبى العربى ، ومن ذلك الغور العميق الموغل فى العمق حفر أنفاقا عبرتها المشاعر فبات الإنسان فى شعره هو إنسان العالم فى طبعته المصرية العربية .

غير أن هذا الشاعر الضخم كان آنذاك قد آب إلى خبر كالسر الدفين خلف أسوار سجن الواحات . ولم يكن خارج السجن منه سوى ديوان معروف بالاسم فحسب لكنه غير موجود على الإطلاق ، وكان من الممكن أن ينمحى هذا الشاعر من الوجود برمته لولا أن قصائد ديوانه كانت قد نشرت متفرقة فى بعض المجلات اليسارية التى احتجبت ، فحفظها بعض الغاوين ، ولجمالها وروعتها ونفاذها نقلها عنهم آخرون ، ونقلها الآخرون للآخرين ، ولفرط شيوعها وسماحتها واتساعها كان البعض يدعيها لنفسه والبعض الآخر ينسبها إلى الفولكلور ليبرر لنفسه أن يؤلف عليها مسخا جديدا .

إلا أن هذه القصائد كانت قد خلقت ابنا نابها شاطرا ، كان فى الأصل والجوهر رساما ؛ وفى الروح شعر حى ، إلتقى بالشاعر الكبير فى الحركة اليسارية وعلى صفحات مجلاتها فوقع فى غرام شعره وانبرى يحاكيه ويمضى حيثما افتتح الشاعر الكبير من الأراضى والميادين والإتجاهات . رضع لبن الشعر من استاذه رائده ، سرق النار منه ، ولأن ملامح أبيه كانت ناطقة على كل قسماته لذلك لم يسعه إلا الاعتراف ببنوته لهذا الأب العظيم ، ولأن الأب كان عظيما وطاغيا لذلك لم يسعه إلا التفاخر مزهوا بهذا النسب النسيب والحسب الحسيب .

ثمة حقيقة كانت غائبة خلف أسوار سجن الواحات ، لذلك ظللنا وقتا طويلا نوقن أن صديقنا الرسام الكبير هو إمام شعر العامية المصرية . وكان هو - ربما دون أن يشعر - قد ركز هذه المقولة فى الأذهان ، وافتتح فى مجلته (نور الصباح) صفحة يقدم فيها أبناءه من شعراء العامية . فلما انتقل إلى جريدة سيارة كبرى نقل معه شعر العامية ينشره فى أحيان كثيرة فى مربعه بدلا من الرسم حين تتوعك الفرشاة ، فكان فضله على شعر العامية لا ينكر . ثم راح ينشر عطر العامية فى الأغنيات يكتبها لأشهر المطربين والمطربات ، ويواكب ثورة يوليو بأغنيات لأكبر مطرب فى عصرنا ..

وكانت رسائل الشاعر الضخم تأتى من خلف الأسوار مبللة بالبهجة ودموع الفرح ، إذ كانت أنباء ناره المنتشرة تبلغه عبر الصحف والمذياع . وكان الشاعر الرسام يقرأها على خلصائه منا فى مكتبه بالجريدة عند الأصيل .

من بين الأصوات التى قدمها الشاعر الرسام كان صديقى البتانونى . وكنت أتمنى أن أكون من بينهم لولا أن البتانونى قد هز هذه الأمنية فى صدرى من أول قصيدة أسمعنيها . وبعد مجموعة لقاءات حميمة بيننا ومجموعة قصائد اقتنعت بأننا فلاحان يسرحان ببضاعة واحدة غير أننى جد غشيم فى عرضها بينما البتانونى ماهر فنان ، وما أحزق أنا فى التعبير عنه شهرا كاملا يمليه هو فى جلسة واحدة بدون أدنى عناء وبلا تعثر أو مراجعة ، فكأنما القصائد مكتوبة جاهزة فى رفوف برأسه يستطيع استدعاءها فى أية لحظة يشاء .. ثم إن شعره من السهولة والسيولة والصدق والتلقائية حتى ليبدو حين يلقيه كأنه يؤلفه تأليفا فوريا ، كأنه يتكلم من وحى اللحّظة الآنية كلاما مسبوكا جدا ومموسقا رغم شدة استرساله ، حلوا جميلا خلابا ، على صغر سن قائله يبدو محملا بالحكمة مكثفا بالصور الغنية النابضة . وكان لابد لى من البحث عن هواية أخرى قبل محاولة الدخول فى منافسة مع البتانونى ، إذ أن تفاصيل كل تجربتى الفلاحية موجودة فى قصائد البتانونى ومن زوايا رؤية لم تكن تخطر لى على بال .

وهكذا حاول هو أن يستدرجنى لألقى عليه بعض قصائدى فلم أستجب له مطلقا ، بل نفيت كل صلة لى بالشعر الا كمستمع ذواقة أو كدارس معنى بقضاياه . ثم إننى حمدت الله على أنى لم أكن قد عرفت بعد كشاعر عامية .

العجيب أن البتانونى هذا لم يحبطنى ، لم يزعجنى أدنى إزعاج بل على العكس حفزنى لمتابعة نموه بحرارة وجدية وإثارة ، بل إننى صرت أحفظ شعره عن ظهر قلب بمجرد قراءته مرة واحدة ، فينتابنى حماس شديد لإلقائه على مجموع بإنفعال حار كأننى مؤلفه الأصلى . وحين كان بعض الذين تسرب إليهم خبر أننى شاعر عامية يطلبون منى إتحافهم بشىء من قصيدى كنت أنبرى فى الحال فأسمعهم قصائد البتانونى ، فإذا هى تدهشهم دهشة بالغة ، فأحس

بمتعة فائقة وأروح أحدثهم عنه بكثير من الشغف والحب ، عن مستقبله ، وكيف أنه صديقى ، وكيف ألف هذه القصيدة أو تلك . ثم إننى أصبحت أجد لذة كبيرة فى إلقاء شعره على جماهير عديدة متنوعة ، وأستمتع بمنظر الآذان وهى مشنفة ، مستغرقة فى الإستماع بشغف هائل ، شغف من ردت إليه بضاعته كاملة غير منقوصة بل مصونة فى أغلفة أنيقة ..

فى ليال كثيرة كان شعر البتانونى هو المبرر الوحيد لبقائى جالسا فى قعدة مستريحة رغدة تسهر حتى الصباح فى بيت من البيوت العامرة بالدفء والمحبة والشبع . قبل منتصف الليل بقليل أبدأ فى إلقاء الشعر ، حتى إذا ما إنخرط الجميع فى الإستماع وطلبوا المزيد أعطيتهم فى بطء شديد ، مستمتعا بمرور الليل وكأنه وباء جسيم . وفى عز الانخراط فى متعة الشعر لابد أن أتوقف برهة كأننى أخط شرطة اعتراض – لزوم ما يلزم – لأشير ولو بشكل عارض إلى أن المواصلات قد فاتتنى وانتهى الأمر ، أو هى بالكاد تفوتنى .. حينئذ أحصل على شرعية رسمية بالبقاء : «ياعم آديك قاعد معانا للصبح حتروح فين ؟» . تطربنى حتى ولو قالها أحد الجالسين بغض النظر عن صاحب المكان ، وفى الحال تنزاح عن صدرى جبال من السحب الكدرة ، وينطلق من داخلى شيطان مرح خفيف الظل يدهش له الجالسون قائلين : « وكاتم كل ده فى نفسك ؟ ! » ..

المشكلة أننى لم أعد أرى البتانونى إلا لماما وفى الشارع صدفةً ، أو فى إحدى دور الصحف التى أتردد عليها ، فألاحظ استمتاعه الشديد – والخفى – بكون المحررين والكتاب يهتمون به ويحتفون ويجلسونه على الكرسى ويطلبون له القهوة ويعزمون عليه بعلب السجائر فيما أنا واقف لا يهتم بى أحد ، يظهر استمتاعه الخفى بذلك حين يتطوع بعزومتى كأنه من أصحاب المكان فيقول : «ما تقعد يافلان تشرب قهوة !» ، مع أنه واثق أنه ليس من كرسى أجلس عليه ، إنما

هو يريد - فحسب - أن يذكرنى بوضعه مقارنا بوضعى ، لأنه يعزم هذه العزومة ثم ينصرف مباشرة إلى الحديث مع الآخرين كأن شيئا لم يكن ، فأحس داخلى بجرح ينزف بعمق ، وكنت أدهش كيف أننى مع ذلك أقبل عليه بحرارة فى كل مرة ، ولكن يبدو أننى كنت أحبه أكثر من نفسى ، ربما لأنه كان زهرة ما يمور فى نفسى من زمن الشعر وحلمى السرمدى الساخن أبدا ..

المؤكد أيضا - رغم ذلك - أنه يحبنى من أعماقه بصرف النظر عن سلوكياته الشخصية الصغيرة ، التى يفسرها لى دائما بأنها نوع من الحماية لنفسه حتى لايتجرأ عليه أحد أو يستهزىء به أحد من أبناء المدينة . ولقد صدقته بالطبع ، لأن بأعماقنا جميعا عقدة الخوف من أبناء المدينة ، الذين يحلو لهم دائما أن يعاكسونا كلما ذهبنا إلى البندر ، ويخيفونا بدراجاتهم السريعة فى هجمات مفتعلة ماهرة قائلين : «إوعى الجاز ! إوعى الجاز!» ، فنرتعد ونصرخ ونصير مسخة يضحك عليها السائرون . دليل حبه لى أنه ما من مرة رأيته فيها إلا وأعطانى نسخا مكتوبة من آخر قصائد وأغنيات كتبها ، ويصدرها بإهداءات بخط يده من قبيل : «إلى الوحيد الذى يملك إمكانية كتابة هذا الشعر» ، أو : «إلى الذى أحس أنه يحفظ شعرى قبل أن ألقيه عليه » . وهكذا ، فأحفظها بمجرد قراءتها ، وأحتفظ بها فى أوراق داخل حقائب أتركها أمانة عند بعض الناس ثم أنساها .

ثم إنه اختفى تماما ولم أعد أراه مطلقا ، وبدأت أسمع أخباره وأقرأها وسط أخبار النجوم والكواكب ، وبدأ شعره الذى أحفظه يصبح قديما مملا ، سمعه الناس منى عشرات المرات ، فى حين أننى مطالب فى معظم القعدات بالإسترسال فى قول الشعر لوقت طويل يسمح بفوات المواصلات المزعومة . غير أننى لم أعدم وسيلة ، إذ كان لا مفر من أن أدس شعرى أنا على شعر

البتانونى، لكى أختبر وقعه عليهم ،‚لأعرف إن كنت شاعرا أم دعيا . فلما لم يلحظ أحد أن جسما غريبا قد دخل فى لحم القصيد صرت أستكمل المقاطع الناقصة من وحى خيالى ، وأنشىء القصائد الكاملة على نسق الفولكلور وعلى أنساق فؤاد حداد وصلاح جاهين وبيرم التونسى . وقد درج الناس على أن يقولوا لى كلما جالستهم : «أسمعنا شيئا للبتانونى !» ، ودرجت على أن أقول لهم من شعره مقطعا واحداً أو ربما مدخلا والباقى كله من تأليفى ، بلذة مضاعفة لا أدرى لها سببا أو تفسيرا ..

الطريف حقا أن البتانونى حين إنفتح أمامه ميكروفون الإذاعة وبدأ يلقى شعره فيه إستمع إليه الناس بإشتياق عظيم ونزل من قلوبهم منزلا طيبا للغاية ، فكان بعضهم يقول لى :

- « سمعتك تلقى الشعر فى الإذاعة ! أقصد صاحبك البتانونى ! »

من الجميل أن تلقى به الصدف فى طريقى وأنا هائم على وجهى بغير طعام بغير شراب بغير مأوى بغير كسب على الإطلاق . فإذا به يستجيب لأحضانى ، ويصير بين صدرى عودا أسمرا كعود السنط ، بقامته الطويلة وجسده النحيف ووجهه الرمادى ورأسه الصغير وفمه الواسع الشهوانى ولسانه الطلق الفصيح . تعود أن يلقانى باسما مبتهجا ، ودوداً ، طيب القلب ، أخا ، يسألنى عن أحوالى ، فأندفع فى الحال محدثا إياه عن كل شىء ، ملخصا كل صغيرة وكبيرة ، يختفى شارع المدينة ويحل محله طريق زراعى فى القرية فكأننا فى قريتنا نتحدث بحميمية وصفاء وصدق عن آلامنا ومشاكلنا . عن أحواله ، فيجيب بكلمة أو كلمتين ، أفهم منهما أنه يحاول شق طريقه بشرف ، وأن يبقى على نفسه كشاعر فلا يلجأ للإرتزاق على أى مستوى حتى ولو كان بكتابة الأغنيات لأم كلثوم نفسها . كان دائما أبدا يسألنى :

– «ألم تشبك لك فى أى بلوى من البلاوى الحكومية الثابتة ؟!» .

يقصد أن أكون قد عثرت لنفسى على وظيفة أقتات منها ، هو سؤال تعودته من كل من أشعر أنهم يهتمون بأمرى أو يشفقون علىَّ ، فكنت أجيبهم فى العادة بأننى على وشك التعيين فى الجريدة الفلانية، أو أننى ستكلل مساعىَّ بالنجاح قريبا فى العمل بالمجلس الأعلى للفنون والآداب . أما البتانونى فحين يسألنى هذا السؤال فإننى أحدثه عن الأمر بكل صراحة وأمانة ، عن فلان بك الذى هرب من مقابلتى يوم زرته فى مقر عمله ، عن المقلب الذى شربته فى المجلة الفلانية حيث مكثت فى التمرين ستة أشهر بدون أجر وفى النهاية اعتذروا لى ، عن الموضوعات الثقافية التى أرسلها لبعض المجلات فتختصرها وتحولها إلى أخبار بدون أجر . لا أترك شاردة ولا واردة إلا حدثته فيها بإفاضة. وكان ذلك فى الواقع ممتعا ، لأنه يقودنا إلى مقهى البرابرة فى ميدان التحرير ، حيث يعزمنى الشاعر على واحد شاى ميزا بالحليب ، ويضع علبة سجائره البلمونت أمامى فأدخن أربع أو خمس سجائر وراء بعضها وقد أحتفظ بواحدة أو اثنتين ، ولربما ترك لى بقية العلبة وانصرف ..

ذلك شيء جميل فى الواقع ، يضعنى فى حالة امتنان شديد . فهو فى نظرى كادح مثلى غير أنه ينشر بعض القصائد ويتقاضى عنها أجرا ، ويقال أنه يساعد البعض فى كتابة بعض الحوارات الغنائية لبعض البرامج الإذاعية والتليفزيونية وبعض التمثيليات القصيرة لعرائس التليفزيون . فمنتهى الكرم منه أن يعزم علىَّ بالشاى والسجائر وأحيانا بعض سندويتشات الفول .

كنت فى الحق معجبا بجرأته فى اقتحام القاهرة . فلقد حصل على شهادة الثانوية العامة ، ولأنه ابن فلاح أجير فقير لايقوى على مده بمصاريف التعليم الجامعى فى المدينة ، فقد سعى لدى قريب له ، سعى بدوره لدى عضو مجلس الأمة عن دائرة بلدتهم ، فعينه كاتبا للنيابة فى محكمة شبين الكوم

الجزئية . وكان مولعا بكتابة الأغنيات منذ طفولته ، فظل يكتبها ويرسلها للإذاعة من قريته ، يزامله بعض رفاق قريته فى هواية الشعر . وحدث أن سافر منوفى من مجلة أسبوعية سيارة ، وعاد فكتب تحقيقا صحفيا عن شعراء المنوفية الشبان ومن بينهم عبد الفتاح البتانونى . فما صدق البتانونى أن رأى صورته وكلامه منشورا فى المجلة حتى ترك القرية وجاء من فوره إلى القاهرة معتزما مراجعة الإذاعة فى موقفها من أغانيه بعد أن صار معترفا به تكتب عنه الصحف . ولم يكن يعرف أحدا فى القاهرة سوى المجلة والمحرر ، الذى قدمه لصلاح جاهين فاستمع إليه ، وأفهمه أن إمكانياته أكبر من الأغنية المحدودة ، وأن من الأوفق له أن يكون شاعرا لا مؤلف أغان ..

إنبهر الفتى بصلاح وبنفسه ، واستمع إلى شعر صلاح فسرق النار منه، وعرف سر كتابة الشعر، لماذا يكتب الشاعر قصيدة ؟ ما الهدف منها ؟ ما الزاوية التى يريد الشاعر أن يريها للناس ؟ وماذا فيها يريدهم أن ينتبهوا إليه : الفن من أجل الحياة ، الشاعر نبى ، الشعر مهمته نقل شعور إلى شعور ، إنفعال إلى إنفعال ، تأثير إلى تأثير ، الشعر صور محسوسة مؤثرة ، لابد أن تنقل السر الإنسانى ، تجسده ، تشعر الناس به ، الشعر طلب للعدالة ، مناصرة للضعيف ، انتصاف للمظلوم ، تمجيد للبراءة للعمل للإنسان . تفتحت عينه على صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى ونجيب سرور ومجاهد عبد المنعم مجاهد وفوزى العنتيل فبهرته القصيدة الحديثة بتركيبها السهل الميسور .. فتفجرت فى أعماقه الينابيع . بعد هذا بأسابيع قليلة كان البتانونى يدور على الندوات والصالونات يلقى أشعاره التى كانت بواكير النار تشعلها ، من ندوة حسين القبانى فى منزله ، إلى ندوة صبحى الجيار فى منزله ، إلى ندوة نجيب

محفوظ فى كازينو أوبرا ، إلى ندوة رابطة الأدب الحديث . فى كل من هذه الندوات إلتف حوله المعجبون بكثرة ، بات له رهط من صداقات حميمة مؤمنة به وبموهبته مستعدة لأن تقدم إليه كل عون ومساعدة ممكنة .

* * *

غير أن البتانونى لم يألف سوى «جمعة الجيزاوى» ، المثقف الشاب ، الذى يساويه فى العمر ، لكنه بحكم قرب قريته من العاصمة كان يتردد على مقاهى وندوات الجيزة : قهوة عبدالله وقهوة سان سوسى وقهوة أنديانا ، وندوات القاهرة : نجيب واللقانى والجيار .. فلقن الكثير من المقولات الكبيرة والآراء العميقة والنظريات الناقصة فى الفن والسياسة والمجتمع ، وعرف أسماء الكتب الثمينة والمصادر النادرة وقرأ بعضها ، ويعرف جميع المجلات الأدبية والثقافية التى تصدر فى العالم العربى فلا يفوته عدد منها . دائما أبدا يمشى محملا بتلال الكتب على صدره ، مع حقيبة منتفخة بالأوراق . غالبا ما تجد بين هذه الكتب أحدث ما صدر فى بيروت والقاهرة ودمشق وبغداد ، بينها كتب ثمينة اقتنصها من على سور الأزبكية . تدهشك دائرة معارفه الكتبية أيما دهشة ، إذ يكفى أن يكون ملما بأسماء هذه الكتب فحسب لتضعه فى عداد المثقفين بالنسبة لأمثالنا القادمين من البرارى والقرى النائية ، فما بالك وهو يعرف الكثير عن أهمية هذه الكتب وعن محتوياتها ، وربما حدثك عن الكتاب ساعة أو ساعتين ، كما أنه يربط بين هذه الكتب وما ينشر فى هذه المجلات وبين الكثير من قضايانا السياسية والأدبية والاجتماعية . إلى ذلك فهو يعرف معظم الكتاب العرب فى جميع الأقطار الشقيقة .. ويعرف ماذا كتبوا وماذا نشروا وكيف اصطدم فلان بالسلطة وكيف اعتدت السلطات بالسجن على فلان وبمصادرة كتب فلان ، والحجر على فلان ، ومنع فلان من السفر . كذلك يعرف

أسماء الأحزاب الشيوعية فى كافة أنحاء الوطن العربى ، وبعض رجالاتها وكوادرها السرية بأسمائهم الحركية ، وبعض مواد من برامجهم وأفكارهم ونظرياتهم . يتكلم بفصاحة ولباقة ودماثة مثل كبار المفكرين ، ويعتبر نفسه من الرعيل الناشىء فى حقل النقد الأدبى الذى افتتحه كل من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم ، ولديه آراء جاهزة وجريئة وصارمة عن كل من يكتبون ويشعرون من كافة الأجيال ، مستعد دائما لإرسالها على الفور لدى أى إحتكاك حتى ولو لم تطلب منه صراحة .

يماثل البتانونى فى الطول واللون ، أسمر قمحى ، وجهه كآنية صغيرة من الفخار ، برأس مقلوظة يشوبها من المنتصف والجبهة بوادر صلع خفيف الظل . غليظ الشفتين مبتسم على الدوام . دقيق الأنف بارز العينين ، فى عينيه نظرة فلاح فضولى خبيث ، يوهمك دائما بأنه يفهم فى كل شىء ويعرف كل شىء وهو لم يعرف بعد ما المسألة ، لكنه قد يقنع بعض السذج بأنه ملم بكل المسائل فيصارحونه بحقيقة أمورهم دون مجهود . يضع نفسه طرفا فى معظم المناقشات ومعظم المواقف ومعظم المعارك دون أن يكون له ناقة فى الموضوع ولاجمل سوى أن يظهر ثقافته ونظراته العميقة وآراءه الدقيقة ذات النظرة الشمولية التى لم تشتمل فى الواقع على أى شىء . هو فلاح ، كريم جدا ، يطلب لمن حوله شايات وقهاوى ، ويألف القرويين أمثاله . فإذا شعر بمواهبهم التصق بهم وأنفق عليهم كل ما فى جيبه عن طيب خاطر وإستمتاع . قد عرفنا أنه يملك بضعة قراريط فى القرية ورثها عن أبيه المزارع ، ويشاركه فى الإرث بعض الفتيات المتزوجات لكنهن رمين طوبة الميراث ، فبات يكترى من يزرع القراريط ، مرة بالطماطم وأخرى بالخس والجرجير والفجل والفول والملوخية . يسافر كل بضعة أيام ليفعل شيئا ، ودائما أبدا ينجح فى العودة ومعه نقود يصرفها على القرويين الموهوبين ، يشترى بها تلال الكتب ليترك بعضها أو

معظمها فى بيوت الأصدقاء كى يقرأوها ويتخفف هو من حملها . يستأجر شقة متواضعة فى الجيزة يملأها بتلال الكتب . هذه الشقة قد تتحول فى بعض الشهور إلى حجرة فى بنسيون فى وسط المدينة ، أو عوامة على نيل الزمالك ، حسب تقلب الأحوال المادية ونجاح المحاصيل والموارد الأخرى التى نجهلها فى قريته تلك التى لم نعرف اسمها أبدا .

كم هو حميم «جمعه الجيزاوى» هذا . هو الوحيد الذى يمكن احتماله من بين عشرات الشلل والمجاميع غير المتآلفة غير المتجانسة لا يعيبه سوى شغف عجيب بالنم وتقطيع اللحم والأعراض بلذة خرافية ، حتى بات كل منهم يوقن من أنه صار مزقا فلا بأس عنده إن ثار لنفسه بتمزيق الآخرين ليصبح لا فرق بين خيار وفقوس . إن الإشتراكية لم تتحقق فى بلادنا إلا فى هذه الظاهرة المفزعة فحسب .

«جمعه الجيزواى» لا يتخير فى هذه الناحية عن أحد ، لكنه على شيء من اللياقة والظرف ، بإستخدام الحيل المكشوفة فى التشنيع على الآخرين ، أو فى محاولة إبتزازهم أو استخراج شيء من صدورهم . مدخله دائما قول مأثور ، مشعور غالبا ، يستعيره ليغمز به معنى جديدا يقصده . مباشر فى منطقه رغم المناورات التى يحاول القيام بها . مما يؤكد قلة حيلته فى الأساس ، فإذا هو بعد دقائق يحدثك عما يريد بغير لف أو دوران ، حديثا مرتبا محشوا بمصطلحات النقد الشائعة ، مزركشا ببعض قفشات من تمثيليات أو أغنيات شائعة ، قد يزج بأسماء سارتر وبرتراند راسل وكارل ماركس وعلى بن أبى طالب وسيدنا محمد فى هامش معجون بالمتن ، حتى لتحار أيهما الرئيس :

الهامش أم المتن ! غير أنك فى النهاية لابد أن تفهم قصده الحقيقى على نحو كاف ، ولابد أن تحبه ، تحب حماسته الدائمة الإشتعال فى كل صغيرة ، حتى ولو كانت حماسة خاوية من المعنى .

فى أدب شديد مغلف بالحماسة يحدثك عن بيان يجب أن يوقعه كافة المثقفين الشرفاء استنكارا لما قالته إسرائيل فى المؤتمر الفلانى ، عن مبالغ من النقود يجب جمعها من المثقفين الشرفاء لمساعدة بعض الإخوة المعتقلين السياسيين ، عن مقابلة يجب إجراؤها مع المسئول الفلانى لطرح المشكلة الفلانية على نطاق واسع ، عن اعتصام يجب إقامته فى مقر الإتحاد الإشتراكى إحتجاجا على مهاجمة قوات الشرطة لندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا ، عن مقالة مغرضة أو قصيدة تهاجم شرف مصر والمصريين كتبها نزار قبانى فى صحيفة بيروتية ولابد من ردعه وإعطائه درسا ولابد من مقابلة واحد من مفكرينا أو صحفيينا الكبار لحثه على الرد . وأنت قد تظنه مقداما شجاعا يستطيع مقابلة هؤلاء متى شاء ببساطة . فإذا ما مشيت معه رأيته ينطلق فى الطريق بمشية رجولية منضبطة كمشية عياق القرية من تجار الفواكه والمحاصيل ، لا ينقصه سوى اللآسة يلفها حول رقبته ، مما يؤكد أنه يعيش شخصية المثقف الجاد بكل جدية . أدبه فى الحديث يتسق على مظهره إتساقا طبيعيا لائقا ، لكنه بعد دقائق معدودة ينهار ليظهر تاجر الفراخ وكاتب الأنفار .

نفسه طويل ، يلعب الصوت حتى النهاية بغض النظر عن شأو يبلغه أو خفوت ينهيه . سيذهب معك بالفعل إلى روز اليوسف مثلا ، فإذا به بالكاد يستطيع الحصول على مقابلة صبرى موسى أو عبدالله الطوخى من المحررين الشبان . أو يذهب معك إلى جريدة الجمهورية فيقابل فاروق منيب بصفته فلاحا

مثله . ثم يتضح لك أن جهوده هذه يمكن أن تكلل فى النهاية بقدر من النجاح ، يمكن أن تؤوب الحملة المقصودة إلى مقالة صغيرة يكتبها هو ، ليعلق عليها المحرر فى مقاله الأسبوعى .

كم يتوق جمعه الجيزاوى إلى أن يكون أحد هؤلاء المحررين الشبان اللامعين ، مثل صالح مرسى وعبدالله الطوخى وصبرى موسى وعلاء الديب والرسام حجازى فى روز اليوسف ، أو مثل فاروق منيب فى جريدة الجمهورية . ياحبذا لو كان العمل فى ملحق الأهرام مع لويس عوض . ياحبذا لو كانت له زوجة محررة فى الصحيفة معه ، يتأبطها للفرجة على المسارح ، يحدثها بالهاتف تسهر هى على راحته حتى يتمكن من أداء مهمته النقدية الموكولة له من قبل العناية الإلهية ، فلتكن مذيعة فى التليفزيون مشهورة مثل سميرة الكيلانى زوجة رائده ومثله الأعلى الناقد الكبير محمود أمين العالم . ذلك من حلمه وإن لم يحدثك فيه صراحة ، إذ هو أكبر من ذلك وأرفع ، بل هو أول الساخرين ممن يتزوجون من عاملات خاصة إن كن شهيرات ، أما إن كن شهيرات جدا فإن زوجها فى نظره وإن كبرت شخصيته يصبح زوج الست ، بما وراء ذلك من غمز وتلميح وتلقيح على بعض الشخصيات العامة مما قد يجد أصداء ضاحكة فى مقهى ريش أو مقهى زهرة البستان أو مقهى البرابرة أو الأتيليه . عموما فهو مغرم بالنهش فى جميع الشخصيات الكبيرة المشهورة ، يتهمهم جميعا بالعجز الجنسى ويؤلف باسمهم جمعية إسمها جمعية عدم الإمكان ، ويعين فيها الأعضاء تبعا لهواه ، فإن حنق على شخص أو قرش ملحته عينه عضوا فى جمعية عدم الإمكان . الأكثر إثارة للدهشة والغيظ أن أى حديث أو شائعات عن العجز الجنسى تجد قبولا حسنا لدى هذه الجمهرة من مدعيى الثقافة والأدب ، فانتشر لهذا خبر جمعية عدم الإمكان وبات كأنه حقيقة فعلية واقعة .

دع فتاة من اللامعات فى الحقل الإعلامى أو الفنى تكلمه وتماحكه بناء على خطة يدبرها أصدقاؤه الأشقياء ، وشف كم يكون الأمر مضحكا وطريفا ، فسرعان ما يندلق جمعة الجيزاوى على نفسه ويصير من حرارة العاطفة وسذاجة السلوك فى حالة تجلب الرثاء ولكن بعد أن تشبعك ضحكا صافيا عميقا ، إذ لابد أن تجد فى سلوكه الساذج هذا كثيرا جدا مما كان من الممكن أن تقع أنت الآخر فيه لولا أن خطوط دفاعك متمكنة فى بعض النواحى ، أو لأنك غير واثق من أمر نفسك فيما لو وضعت مكانه هل تبقى كيانا متماسك الشخصية تتصرف برزانة ورصانة أم ستنهار كل خطوط دفاعك دفعة واحدة كما يحدث لجمعة الجيزاوى فى مثل هذه اللحظات الدقيقة الحرجة ؟! .. تخيل نفسك وقعت فى شرك امرأة فاتنة ذات هيف وقوام بارع ممشوق لم تكن أنت تحلم بأن تستجيب هى لغزلك بله أن تدعوك للوصال . مسموح لك – طبعا – بالتهور قليلا مهما كنت متزنا . فى تسعين فى المائة من الأحوال ستذهب معها إلى حيث دعتك لشرب كأس ، مدفوعا بحب المغامرة وحمية الجنس التى لابد أن تفقدك صوابك . ها أنت ذا قد ذهبت فى تيار الهوى ، كلمتها وكلمتك ، لاطفتك وأرضت غرورك بل صاحت فى فرح عندما سمعت اسمك : آه جمعة الجيزاوى ! الناقد المشهور أنا قرأت لك مقالة كذا ؟ هذه فرصة هائلة ! قد عزمتك على الغداء فى منزلنا ! وأهلى غير موجودين اليوم به ! شرفنى واقبل دعوتى ! ..

منزلك ؟ ! طب وماله ..

فى البيت الذى تقودك إليه تسلمك إلى داخل الشقة ثم تختفى فى الحال . تجلس أنت على أول كرسى صادفك ، مبهور الأنفاس ، لابد تتوجس تتوقع تترقب إيقاع دقات قلبك النشط . ساعة أو أكثر وأنت مصلوب فى لحظتك

البئيسة . بعدها تظهر هى مرة أخرى مرتدية قميص النوم الخليع الفاتن ، تقبل نحوك بكأس أنيقة يعلم الله ماذا فيها من شراب ، توصيك أن تشربها بسرعة حتى تلحقك بالأخرى كى تسخن نفسك ، تميل عامدة لتضع الكأس فينطرح شعرها كالشلال ملامسا وجهك وأنفك بنعومته ورائحة عطره المذهلة ، ويلطشك ثديها النافر فى كتفك لطشة سريعة تترك أثرا حارقا يشمل جسدك برمته . لاتعطه عقلك ليتصرف به بل دع جمعة الجيزاوى يفعل فى محنته ما يمليه عليه حمقه العظيم ، إذ هو لن يجد أمامه سوى أن يمرر كفه على ظهرها مستقرا به على عجيزتها . فترفع له الحسناء عينا حارقة لاهبة ثم تشير له إلى حجرة النوم ..

فى حجرة النوم يدخل عليك غلام خليع خنشور ، يرتمى فوقك نازلا فيك ملاطفة وغزلا وتحريكا وتدليكا ومرقعة . أنت بالطبع ستتصرف على أى نحو تمليه عليك الفطنة . وهكذا فعل جمعة الجيزاوى حين وضع فى هذا الموقف بكل حذافيره . غير أن فطنته لم تكن تفطن إلى أن لفيفا من أصدقائه من بعض ذوى الدخول الكبيرة من المتاجرين بالصحافة والأدب والكسيبة بوجه عام يجلسون فى حجرة مجاورة يكتمون ضحكهم كى يتمتعوا بالفرجة حتى آخر رمق فى جمعة الجيزاوى ، حتى وهو يلف انحاء الشقة عاريا كما ولدته أمه يبحث عن ثيابه التى اختفت فى حجرة ذات باب خفى ، وأشباح المتآمرين تلف خلفه فى ممر الشرفة الخارجية التى تطوق الشقة من جميع النواحى .

فصول كثيرة هازلة كهذه كثيرا ما حاكها البعض لجمعة الجيزاوى ث تفننوا فى إعادة حكيها بتفاصيل التفاصيل . وفى سبيل المصداقية يدعى كل مر يحكى أنه رأى رؤية العين . وسواء حدثت هذه الفصول أم كانت مجرد شائعات

ثقيلة عابثة فإن هذا ما كانت تثيره شخصية جمعة الجيزاوى فى أوساط المثقفين بوجه عام . ولذلك فقد كان مشهورا جدا دون أن يكون له رصيد من الإنتاج يمكن الاحتكام إليه عند وضع شخصيته فى الميزان ، فكان يبدو فى كثير من الأحيان كشخصية وهمية مجسدة . لا يوجد مثقف واحد لا يعرف جمعة الجيزاوى ولا يحكى عنه بشكل حميم ينطوى على كثير من الطرافة . وأنت ترى جمعة الجيزاوى فى نقابة الصحفيين كثيرا فكأنه أهم من نقيبها مع أنه ليس عضوا بالنقابة من الأساس . وتراه فى نقابة المحامين المجاورة فى مطعم الغداء يتأمر على النوادل يدقق فى نظافة المفارش والأطباق وبرودة الماء وجودة اللحوم . ولسوف ترى الكثيرين يبادلونه التحية فى ود وأريحية واستئناس ، حتى قيل إن جمعة الجيزاوى لو رشح نفسه فى أى نقابة من النقابات العامة فى منصب النقيب لفاز على الأرجح بالتزكية . وأنت تراه كذلك فى أتيليه القاهرة ليس فى مواعيد ندوة الثلاثاء فحسب بل فى سهرات كل ليلة ، وشرب كأسين كمشاهير المثقفين والسياسيين . يضع ساقا على ساق ، ينطلق فى حديث حماسى بالفصحى المتقعرة تارة الحلمتنيشية تارة أخرى ، له مع نوادل الأتيليه - مثلما له مع كل النوادل - معاملات خاصة وحسابات شكك يتجادل معهم بشأنها كثيرا كثيرا . فى أواخر الأماسى تراه فى شقة فى الحوتية يسكنها مجموعة طلبة فى كلية الفنون الجميلة وبعضهم يهوى كتابة القصة . أو تراه فى شقة فى العجوزة يسكنها مجموعة أخرى من نفس الطلبة يتعشقون العمل فى حقل الصحافة . أو تراه فى شقة فى نفس الحى على مبعدة خطوات قليلة يسكنها قاص شاب وافد من الإسكندرية يعمل موظفا بسيطا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب يحسده جمعة عليها ويتمناها لنفسه ، وهو فى كل سهرة من هذه

السهرات يتحدث فى قضايا النقد الكبيرة كما عالجها حسين مروة وعبدالعظيم أنيس ومحمود العالم ومحمد مندور ، وفى الأخطاء القاتلة التى يقع فيها الأدباء الشبان الوافدون من القرى إذ يفرغون ذكريات القرية فى عملين أو ثلاثة ويلوصون بعد ذلك فى الخواء ، وفى تطرف يحيى حقى فى مجاملة القصاصين غير الموهوبين بكتابة المقدمات لمجاميعهم القصصية وتصلبه فى عدم الترحيب بنشر شعر العامية المصرية فى مجلة المجلة ، وفى المجلة الثقافية الأدبية التى يزمع إنشاءها عما قريب لتستوعب الأدباء الشبان وتحل مشكلتهم الأزلية ، وفى الكتاب الذى ينوى أن يصدره مقدما فيه ملامح جيل جديد ، يجمع من كل شاب قصتين ، ويكتب هو المقدمة التحليلية النّقدية التبشيرية ، على أن يساهم كل واحد من الكتاب بسهم فى تكاليف الطباعة .. هو يعرف ولدا صاحب مطبعة ودار نشر وليدة مقرها فى حى إمبـــابة وهو ولد متفتح فى الأدب ويتحمس للأدباء الشبان ..

ولقد يصدر الكتاب بالفعل ، ولقد تصدر المجلة حقا ، لكنك تلتقى بجمعة الجيزاوى بعد وقت يقصر أو يطول فإذا المشاريع لاتزال تستغرقه وتستنفد حماسته ، وإذا هو يندهش من أنك لم تسمع بعد عن الكتاب الذى أصدره ليؤرخ به لملامح جيل جديد ، أو من أنك لاتزال تسأله عن فكرة إصدار المجلة مع أنها قد صدرت بالفعل لمدة عددين اثنين كانا من أرقى ما طبعته المطابع العربية إلا أنها مع الأسف هى المحنة الأزلية التى تواجه كل المجلات : التمويل . .

أشهد أن قد نالنى من حماسة جمعه الجيزاوى ومن كرمه ومن علاقاته الشىء الكثير . فعن طريقه عرفت مجموعة كبيرة من أصدقاء أعتز بصداقتهم ، وعرفت كتبا ثمينة ما كنت سمعت عنها من قبل ، وفهمت بعض تراكيب العلاقات

السياسية ، وبعض أسرار الحركة اليسارية التى لم أكن أعرف أى شئ عنها ، وبعض أخبار الأحزاب الشيوعية . تلك فوائد ثمينة بلا شك ، لكننى لم أكن أشعر بقيمتها أثناء صيرورتها ، ربما لاستهانتى غير الموضوعية وغير المحقة بشخصية جمعة الجيزاوى كشخصية غير محبوكة غير متسقة غير متأصلة فى شئ بعينه من فروع الفن والثقافة والمعرفة ، وربما لأن هذه الفوائد كانت تتضاءل أمام احتياج أكثر أهمية فى حينه من أية استفادة أخرى ، ذلك هو الإلتحاق بسرير النوم الذى أحلم به ليل نهار من شدة التعب ، وكان يمضنى طبعا أن تقصر موهبتى عن قناعة جمعة الجيزاوى فلا يغدق علىَّ كما يفعل مع من يقتنع بهم من الموهوبين الفلاحين ، خاصة وأنه كان يبدو علىَّ أننى قد بت مطرودا من جنة النوم بأمر إلهى تتضافر جميع القوى الكونية لتنفيذه ونفى النوم من عالمى نهائيا . فكان أن صرت أستسلم للنوم فور أن تصافح مقعدتى أى مكان ، فجأة لا أرانى ، فجأة يندب فى رأسى خطاف حاد ينتشلنى من قاع بحر النوم ، إن كان فى مقهى فإن النادل يقف لى بالمرصاد ، أو فى مركبة فإن أيدى الشياطين من أولاد الحلال سرعان ما تهزنى تنبهنى إلى مرور المحطات . صرت أتمنى زنزانة منعزلة لا يعرفنى فيها بشر ولا أتصل فيها ببشر ، لكى أنخرط فى نوم عميق يشبع شـــهيتى وشـــهوانيتى للنوم ، بشرط أن يكون فى مخى جزء صاح أشفى به غليلى وأمارس اللذة بأننى نائم بالفعل على أرض مستوية ، بملء الكلمة نائم ، ممدد الساقين والذراعين ، لا آكل ولا أشرب ولا أفعل أى شئ سوى أن أفتح عينى كل دهر لأتأكد من أن جسدى النحيل الضـــعيف الهفتان قد وجد أخيرا رقعة فسيحة على قده يتمدد فيها مصعدا الأنفاس فى هدوء وراحة بال ..

على أن «جمعة الجيزاوى» كان يستتدل معى كثيرا ، فلا يدعونى إلى مكان من الأماكن التى يذهب إليها ليلا أو يستأجرها ويترك فيها بعض أصفيائه ، الأرجح أنه ربما كان يستتفهنى ، أو لعله لا يأمن جانبى . الأكثر رجحاناً أنه - فيما بدا لى - كان يعمل على تجنيد هؤلاء الأصفياء لضمهم إلى حزب من الأحزاب الجديدة التى كانت تقوم تحت مسميات اجتماعية وأغراض مهنية تعاونية ، ولقد كنت مستعدا لأن أكون جنديا من جنوده الخلص ، مثل عبد الفتاح البتانونى وقرينه شاعر العامية سمير دياب الذى يقولون أنه هو الذى جند جمعة الجيزاوى نفسه ، ومثل طنطاوى فهيم طالب الفنون التشكيلية القاص ، ومثل عطية الأمير طالب الفنون التشكيلية الذى يعد مسخة مسلية ، وغيرهم وغيرهم ، لولا أننى كنت أشعر أن جمعة الجيزاوى ليس يألفنى دون أن أعرف لذلك سببا يقينيا . لكننى بعد لأى قدرت أن السبب الوحيد لنفوره منى هو أننى لم أعترف له مطلقا بالنبوغ والعبقرية ، ظللت أنظر إليه باعتباره واحدا ممن يحاولون الوصول إلى شئ يعتد به ، ومثلما جئنا كلنا لنفعل . ولم أكن أعرف - لفلوحيتى ربما - أن هناك مجموعة من إخواننا الشبان ينافقونه بإمعان غريب ، وينصبونه على رأس الشبان ناقدا يمثل جيلنا ويحق له أن يكون متحدثا رسميا باسمنا . وقد عرفت أنهم - ومن بينهم صديقى البتانونى - لامانع لديهم من الدفاع عنه بحماسة هوجاء هتافية خاوية ، وفى نفس الوقت لامانع لديهم من محاكاة الآخرين فى استنكارهم لشخصه والاستهانة به فى حين هم ينافقونه فى [illegible] فى وجوده من أجل سهرة فى دروة مأهولة بالطعام والشراب والسجائر والكتب الثمينة التى لا يجرؤ أحدهم على شرائها ..

ما كان يدهشنى حقا من صديقى البتانونى أنه كلما أحرز شهرة جديدة تجرأ بالرأى المتطرف على الكثيرين من رفاق طريقه بل من السابقين ، وأصابه

الإستعلاء والترفع الأجوف المتمثل فى مقولات فكرية كبيرة يلوكها يحاول تنويبها فى بعض القصائد وبعض الأغنيات .. حينئذ أعرف أن جمعة الجيزاوى قد نجح فى حشو رأسه بمعظم المقولات الثقافية الفكرية الفنية التى تمتلئ بها كتب اليسار الأوروبى والشرقى فى تآليف نقاده ودارسيه ومبدعيه وفلاسفته . وهو بدوره لم يعرفها من مصادرها الأصلية إنما التقطها من المقالات والدراسات التى اشتغلت عليها من قبل مجموعة من رواد الدراسات النقدية وباحثى علم الجمال العرب ، والتى كانت تنشرها مجلة الآداب البيروتية ومجلة شعر ومجلة دراسات أدبية ومجلة المجلة ، لمحمد مندور ولويس عوض وحسين مروة ومحمود العالم وعبد العظيم أنيس وعلى الراعى والشاعر أدونيس وغيرهم ..

مهما يكن من أمر فإن لجمعة الجيزاوى فضلا كبيرا جداً فى تثقيف البتانونى وفتح وعيه على المصادر الثقافية وعلى ذلك الرباط السحرى السرى الذى يربط الفن بالحياة بالنشاط الثقافى بوجه عام ، وفى دراسة ضافية كتبها الجيزاوى عن أشعاره وضع يد شاعره على نقاط الأهمية فى شعره وعلى النقاط التى سيجيئه التطور منها ، يكفى أنه كتب عنه باعتباره شاعرا كبيرا مرموقا . وحتى بعد هذه الدراسة لم يكن لدى صديقى الشاعر مانع من أن يستعلى على جمعة الجيـــزاوى فى لقاءات فى مكاتب بعض المحـــررين كانت أنباؤها سرعان ما تشاع .

فى تلك الأثناء كان صديقى البتانونى قد نشر الكثير من القصائد المهمة فى الجريدة الكبرى ، تناقلتها الأوساط الثقافية بإعجاب واضح ، وأذيعت له الأغنيات فى الراديو لمطربين ذائعى الصيت . ومضى وقت طويل جدا لم أره خلاله . وكنت تقريبا قد كففت عن هواية إلقاء شعره على الآخرين بعد أن بات

هو نفسه متوافرا فى الأسواق ، وإن ظللت أتحمس دائما للحديث عنه وعن مواهبه فى حميمية كبيرة . غير أننى انغمست فى همومى تماما ، المنحصرة دائما فى كيفية الإنفراد بالليل فى مكان ما لأخنقه حتى تصعد روح الصبح من جوفه . إلى أن قابلت «زكريا المندوه عمران» ، أغرب قاص قابلته بين الشبان .

* * *

كان ذلك فى قعدة الإمبابى . وكانت أول ليلة لزكريا فى القاهرة . لست أعرف كيف بلغته أنباء هذه القعدة فى بلدته فعرف أنها ملتقى المشائين ، المهم أننى فوجئت بفتى غريب ، نحيل القوّام نحيف البدن صلب الملامح والأطراف ، قمحى اللون ، طويل الأنف غائر العينين أسودهما . رأسه صغير بيضاوى ، حليق الشعر ، ضيق الفم ناشف الشفتين ، إذا ضحك انكمشت شفتاه وبدا كأن صوت الضحك يرتد إلى داخله فيحاول إخراجه مرة أخرى فيسمعك الضحكة الواحدة ضحكتين ، الضحكة وصداها الداخلى . فى عينيه كدح شديد وفى نظراته مرارة ، وفى لهجته عصبية وانفعال زائد عن الحد ، وشكله بوجه عام يذكرنى بالأولاد الحمارين المنتشرين على محطات البلاد القريبة من القرى ، إذ يؤجرك الواحد منهم حماره لكى تركبه إلى مشوارك فيما يجرى هو خلفك مهرولا يهوش الحمار بخيزرانة قصيرة كلما تلكأ الحمار أو استمكر ..

ما رأيت على جسد «زكريا المندوه عمران» سوى الجلباب الكالح الذى يرتديه أبناء فقراء الفلاحين الأجراء رغم أنه كان فى الواقع يلبس قميصا أفرنجيا وسروالا كأبناء المدينة ..

لحظة وصولى إلى قعدة الإمبابى بعد منتصف الليل بكثير كانت القعدة حابكة فى صفين أحدهما يظاهر الحائط والآخر يظاهر الشارع ، وقد صنع

الحائط ظلا صناعيا حجز رصيف القعدة عن ضوء الشارع فكأنه فرش للقمر عباءة سوداء يعرض أضواءه عليها . وكان القمر ساطعا من السماء مجاورا لمصابيح الشارع الكهربية محاطا بها لكنه رغم ذلك يبدو منحازا لقعدة الرصيف كحارس غفير . وكان من الواضح أن وجها جديدا قد طرأ على القعدة ، فهذه الهدأة المستكنة تحت وقع صوت المتحدث لا تحدث عادة إلا عند الإستماع لزائر جديد ليس من اللائق مقاطعته بل الأفضل تركه يسترسل فى الحديث كما يشاء حتى يسفر عن نفسه جيدا فيتعرفونه على نحو صحيح .

المتحدث كان «زكريا المندوه عمران» ، الذى أسند ظهره للجدار بجوار الثلاثة مباشرة ، ووضع ساقا على ساق ، بإحساس المسحوق الذى ينكمش حتى وهو يزعم الإنجعاص ، إذ الإنكماش فى داخله من الأساس . وقد انخرط فى الحديث بثقة لا حدود لها ، وبشئ من جلافة النجوم اللامعين فى حركاتهم الحاسمة وغمزاتهم الذكية المتعالية التى قد لا تخلو من حماقة أو ربما صفاقة فى التعبير ، محركا ذراعيه الطويلين بأصابعه السرحة فى حركات سريعة متتالية صعودا وهبوطا وتمليسا على الهواء كأنه ينسج بيديه شبكة الحديث ، ذلك الملئ بالتحدى ، وبشئ كأنه الوعيد ، ونبرة كأنها التهديد ، وانفعال كأنه طرق للحديد بالحديد ، تعقبه هيافة مفاجئة غير متوقعة من هذه الجدية الجادة ، كأن الانفعال الحماسى الساخن قد ضرب فى سقف دماغه المحدود الإرتفاع فلم يجد متنفسا فارتد منبطشا ، كأن الاسترسال المتوهج فى كلام كبير إصطدم فى رأسه بفقر ما ، فإذا بالمتحدث قد داس فجأة على أرض رخوة ، فينقلب الحديث إلى سخرية جوفاء مضغومة فى ضحكة حمقاء ..

لست أذكر بالضبط موضوع الحديث ، أغلب الظن أنه كان يدور حول خـواء الكتـاب الكبار وتخلف مفهومهم لفن القصة وكيف أن الأمل كله فى

الشبان ، وأمجاد القصة الحقيقية قادمة ، لأن القصة الحقيقية ، فى الواقع ، لم تكتب بعد ، مع احترامه ليوسف إدريس وليحيى حقى من قبله وأما نجيب بن محفوظ – هكذا نطقه – فهو روائى فحسب ..

كنت قد ألقيت السلام فتلقيت ردودا مضغومة ، وانسربت جالسا بجوار الثلاجة من ناحية الشارع ، فصارت الثلاجة تفصل بينى وبين ذلك المتحدث الذى لم أكن عرفت بعد من هو . بعد دقائق معدودة من جلوسى اكتشفت أن المتحدث لا يتحدث فى موضوع بعينه وإن بدا كالمحاضر النحرير ، إنما هو يتحدث فحسب ، يتنقل من موضوع إلى خاطرة إلى تعليق إلى حاشية إلى حكاية جانبية غريبة إلى رواية موقف طريف ، ومن العبث أن تحاول إيجاد رابط بين كل هذه المتفرقات غير رابط الصوت الواحد . غير أن أحدا ممن يستمعون إليه لم يفكر فى إيجاد هذا الربط الضرورى المطلوب لأى حديث ، ذلك أن زكريا المندوه عمران ، ربما لأول مرة ، يقدم المعنى الحقيقى الأصيل لكلمة حديث ، وهو التجدد المستمر فى كل دقيقة . فإلى أن تفكر أنت فى الحكمة من هذه النقلة المفاجئة تلو النقلة المفاجئة تكون طلاوة الحديث قد استغرقتك بكل مدهش ومثير من الأفكار الجنونية والمعانى غير التقليدية والعبارات الشاعرية البليغة المكثفة ، المشوبة بهيافات كثيرة ، المتذبذبة بين الأدب الجم فى المخاطبة وبين البذاءة الشديدة ، التى تكمن أحيانا فى بعض العبارات المتسمة شكليا بالأدب الجم . إلا أن هذه البذاءة وإن لمست البعض وأسالت جراح البعض فإن الجميع تقبلوها باسمين ضاحكين لما تنطوى عليه من خفة ظل وغرابة وذكاء ، الأمر الذى قطع لى بأننى أمام فنان مطبوع بالسليقة ، ينقصه القليل من التنظيم والترتيب والتشذيب . على أننى أحببته فى الحال ، وبدا كأننى أعرفه منذ الطفولة ، بل

تيقنت من أننى ملم سلفا بكل ما يدور فى ذهنه من أفكار وما يصطرع فى صدره من مشاعر ..

كان يخاطب كل الناس بأسمائهم مجردة من أية ألقاب ، بلهجة فيها من الود أكثر مما فيها من الزراية ، باستثناء البعض القليل كالاستاذ أسعد المحامى أو فايق الرسام ، هذان يقول للواحد منهما : ياحبيبى يا أخى . ثمة نبرة فى لسانه توحى بأنه غير جاد فى الإعتراف لأحد بالاستاذية أو العمومة . كذلك كان من الواضح أنه يعرف كل هؤلاء الناس معرفة جيدة ، فلابد أنه قرأ لهم أو جمع أخبارهم من أى مصدر . الأرجح أنه يتابع كل شئ حتى بريد الصحف ، إذ أن أخبارا ترد على لسانه كانت فى الأصل ردودا على بعض الناس فى بريد إحدى المجلات الثقافية ..

عرف اسمى من الترحيب بى فى القعدة ، فميل رأسه عند سماع اسمى بحركة ثقيلة كأنه يشد خطا تحت الاسم علامة على أن حبالا خفيفة تربط بيننا ، ثم تركنى قليلا حتى يفرغ من حديثه وحتى تتيح له الحماسة أن يدخن الكثير من سجائر أسعد وفايق . ثم إن حديثه قد بدأ يميل إلى الهزل الخالص ، ويتحول إلى نكات بعضها قديم ممجوج ، ويكثر من الضحك لدى كل كلمة ينطقها قبل أن ينطقها وبعد أن ينطقها . وكان بعض أهل المنازل البعيدة قد بكروا فى الانصراف ، والمرتبطون بملاحق للسهرة فى بيوت حافلة قد تغامزوا وتهامسوا وتسللوا وراء بعضهم خلسة ليتجمعوا على ناصية حارة جانبية كى يستأنفوا السير معا . هكذا كشفتهم عين زكريا المندوه عمران الثاقبة ، وعلق على انسحابهم بكثير من الاستحسان الضاحك . ثم مال علىَّ قائلا كأنه أخيرا قد فرغ لى :

- «إزيك يا شكرى ! بدر صفوان صديقك يسلم عليك كثيرا !»

هتفت فى فرح حقيقى :

- «تعرف بدر صفوان ؟!»

قال :

- «عين مدرسا فى بلدتنا ! وهو الآن على وشك أن يرتدى لباس الجندية ! أنت تعرف أن تجنيده كان مؤجلا بسبب دراسته فى الكلية !»

- «وكيف حاله يا أبا الزيك ؟»

قال بجدية وانفعال :

- «حزن حزنا كبيرا حينما علم أنك بقيت فى القاهرة ! هو ليس يريد لك البهدلة ! وكان بوده أن ترجع إلى بلدتك أو إلى الإسكندرية لكى تستطيع الكتابة الجيدة ! هو أيضا يعلم أن فى أعماقك قاصا موهوبا رغم تعلقك بالشعر ! أما هنا فإنك لن تجد عملا وهذا سيعطلك عن الكتابة ! كنت أظنك تحمل ليسانس الآداب مثله !» .

قلت وقد لزم التنويه :

- «أنا لم أدخل الجامعة أصلا !»

قال ببساطة مشوحا :

- «ليس يهمك طبعا ! أنا أيضا لم أدخلها ! ولسوف نثبت وجودنا فى هذه المدينة الفاجرة !»

قلت :

- «هل أنت شاعر ؟!»

قال كأنه يلومنى على جهلى :

- «شاعر ماذا يا حبيبى يا خوى ؟ أنا قصاص ! ولا أعرف فى الدنيا شيئاً سوى القصة ! وليس لى فى هذه المدينة أقارب سواها ! هى التى تستضيفنى ! ولأنها فقيرة مثلنا فإننى أعتمد على نفسى فى نفقات الضيافة !!»

قلت بإعجاب وحماسة :

- «أحب أن أقرأ لك !»

قال ببساطة :

- «اسمعك قصة كتبتها حديثا !»

ولم يكن معه أية أوراق على الإطلاق . فاقتربت منه ، رأيت وجهه بوضوح ، فإذا بشئ من الشحوب يظهر خلف ملامحه كأنه مستنفد الطاقة على الدوام . اتعدل ، ولوح بأصابعه ، انبرى يقرأ - من الذاكرة - قصة قصيرة كاملة . بهرتنى أولا مسألة أن يحفظ الكاتب قصصه عن ظهر قلب كأنها القصائد المنظومة يسهل حفظها وبقاؤها فى الذاكرة . ثم بهرتنى القصة نفسها ، كانت تنطوى على شئ جديد ، فالعبارة الواحدة ليست مجرد عبارة ، بل هى عدة عبارات معجونة فى بعضها كالفطيرة المشلتتة ، فيها مذاق شاعر الرباب وطعم كتاب الغرب المحدثين أمثال ألبير كامى وهيمنجواى وفوكنر ، السرد فيها ممزوج بالمونولوج الداخلى بوصف اللحظة بتداعى المعلومات التاريخية السابقة والحاضرة . من فقرة إلى فقرة ترتسم فى الذهن صورة درامية جدارية معا كالنقوش الفرعونية . ثم اتبع القصة بقصة ثانية فثالثة ، من الذاكرة ، حتى اعتبرته ظاهرة خارقة من ظواهر أيامنا المقبلة .

أحببت قصصه مثلما أحببت شخصه ، فانزويت معه فى ركن الثلاجة نتسامر ، وقد سرنى أنه يعرف حالتى المادية سلفا ، فكان يستقطب السجائر له

ولى ، ويواصل الحديث أو يواصل الاستماع . ومن حين إلى حين يعود فيذكرنى بصديقى بدر صفوان ، الذى وجد فيه ولدا من أنقى من عرفهم فى حياته ، لولا أن بدر صفوان - فى نظره - لا علاقة له بفن القصة من قريب أو من بعيد ، مع احترامه لجائزة نادى القصة التى حصل عليها أكثر من ثلاث مرات ، إذ أن فوزه بهذه الجائزة - فى حد ذاته - دليل على أنه يكتب قصصا رديئة . وكنت أريد أن أختلف معه حول رأيه فى صديقى بدر صفوان ، وأقول له أن صديقى دارس الفلسفة وعلم النفس والاجتماع يكتب القصة من باب الهواية ولا ينوى الاحتراف ، بل إنه يرفض النشر إلا فى أماكن يتأكد أنها تناصر مبادئ الإنسانية وحقوق الأغلبية المسحوقة ، وإنه قد رفض التعيين فى بعض الجرائد حتى لا يضطر لاحتراف الكتابة . إلا أننى لم أقل شيئا من هذا لزكريا المندوه عمران ، واعتبرت أن رأيه محض حماسة زائدة ، صحيح أنها تعكس حماسه لنفسه ولكنها تعكس أيضا عشقا صوفيا كبيرا للفن ، ولفن القصة القصيرة بوجه خاص .

وكانت الساعة فى مشارف الثالثة صباحا حين صفصفت القعدة علينا هو وأنا والإمبابى المستتيم على البنك . قال فجأة : «أنا جعت» ، وتثاءب متمطعا، فشممت رائحة البيرة تغمر أنفى . وكنت قد نسيت أمر التعب والنوم مؤقتا ، فلما تثاءب حطت فوق كاهلى جبال التعب والنوم . وكنت قد نسيت أمر الطعام منذ بضعة أيام ، فلما شممت رائحة البيرة وسمعت اسم الجوع شعرت بجوع خرافى . قال :

- «طبعا أنت طرزان ما معك نقود ؟!»

قلت :

- « طبعا طبعا !»

قال :

- «نفسك فى لقمة طرية ؟!»

قلت :

- «نفسى !»

قال :

- «نفسك تمدد لك ثلاث أربع ساعات ؟!»

قلت :

- «نفسى !»

قال :

- «قم بنا !»

ونهض واقفا يتمطى ، وشرع يمشى كمشية راعى الغنم يتطوح يمنة ويسرة كالذى يهش على قطيع كبير من الغنم . مضيت بجواره أتأمل ذلك الكائن الطريف الجميل ، الذى جاء يخرج لسانه للمدينة ، غير آبه بأى شئ فيها ، غير مرتهب من رجالها أو مكاتبها أو مؤسساتها أو شوارعها المسفلتة اللامعة . هذا ما أفتقر إليه أنا وكثيرون من أمثالى القرويين .. فأيقنت أنه سينجح حتما فى تحديه للمدينة وسيحقق شيئا يعتد به ..

حودنا من شارع شامبليون إلى شارع عبد الخالق ثروت فى اتجاه كورنيش النيل . بعد خطوات قليلة انزوى زكريا واقفا بجوار الحائط يقضى حاجته على الملأ ، والمياه المتدفقة منه تشر على الحائط وتحفر لنفسها أخدودا فى الرصيف وتجرى إلى الأسفلت كبول البغال . إنها البيرة التى كرع الكثير

منها كما هو واضح . استدار عائدا يزرر فتحة السروال ، ومضى بجوارى وراح يسألنى عن أخبار بعض الناس الذين يهمه معرفة أخبارهم ، وعلى أية حال – يقول – فقد قرر أن يعيش فى القاهرة إلى الأبد حتى لو لم يرتبط فيها بأى عمل ، حيث خدمته الظروف بأن أوقعته فى مصيبة تتهدد حياته إن هو ظهر فى القرية ثانية ، فلقد أحبته فتاة سنيورة وأعطته نفسها فخاف من وقوعها فى قرابيزه وهو عاطل ، وليس عنده مانع من الزواج منها ولكن ليس هذا وقته ، إنه سيرى مستقبل القصة أولا ، وبعد ذلك يعود إلى القرية ويأتى بهذه البنت ليصلح غلطته مع أنه واثق من أنها لن ترشد عنه كفاعل حتى لو مزقوها إربا ، ومن يدرى ؟ فلربما باتت هى زوجة أكبر كاتب "قصة قصيرة فى البلاد العربية . ثم قال فجأة إنه يحب النقود ويحتقرها فى آن معا ، يحبها طالما هى بعيدة عنه ، ويحتقرها بمجرد وقوعها فى يده ، الليلة مثلا ، كان قادما من بلدته ومعه ثلاثة جنيهات فوق أجرة السكة الحديد ، اقتحم بار اللواء – الأنجلو – ليستعيد ذكريات عزيزة قرأها عن هذا البار الذى كان يجلس فيه نخبة من مثقفى ذلك الوقت ، فظل يكرع البيرة لكى تتعمق الذكريات حتى دفع الجنيهات الثلاثة كلها وخرج من البار جائعا يترنح ، ليكمل سهرته مجانا فى قعدة الإمبابى، أما الآن فإنه ذاهب بى إلى ابن خالته ليقضى عنده الساعات القليلة المتبقية من الليل ، ولربما وجدنا عنده ما يؤكل أو ما يشرب ..

سألته عن ابن خالته هذا : هل هو موظف ؟ فتوقف عن السير منزعجا ، متراجعا بذقنه فى دهشة :

– «ألا تعرفه ؟!»

قلت :

– «ومن أدرانى به ؟ هذه أول ليلة أعرفك فيها !»

قال فى غير اقتناع بجهلى بابن خالته :

– «إنه الشاعر عبد الفتاح البتانونى ! طبعا تعرفه ! أعرف أنه صديقك الحميم !»

توقفت بدورى وأنا فى غاية الدهشة :

– «عبد الفتاح البتانونى ابن خالتك ؟!»

قال باسما :

– «كيف لم تعرف إلى الآن ؟!»

قلت ضاحكا :

– «إغفر لى جهلى !»

قال :

– «تربينا معا منذ الطفولة يوما بيوم ! فقد ولدنا معا فى عام واحد ! عام ألف وتسعماية وأربعين ! فى زمن الحرب العالمية المجنونة ! ذهبنا إلى المدرسة معا وعشقنا الفن معا ! هو عشق الأغانى وأنا عشقت القصة من يوم ما قرأت يوسف إدريس ونجيب محفوظ ! كان البتانونى فى البلد يمشى فى حجاى ويتمسح بى لأنى أكبر منه فى المقام ! فأنا الكاتب الأديب وهو مؤلف الأغانى ! وكان لنا مدرس للغة الإنجليزية يكتب النقد فى المجلات والصحف وله شهرة واسعة هو الذى شجعنى وأنا شجعت البتانونى ! ويبدو أن هذه الأيام الوسخة يا حبيبى يا خوى ستقلب المعايير وتجعل منه نجما من وراء ظهرى ؟»

ثم واصل السير بطريقة من يتراجع بصدره إلى الوراء قليلا ليخلع رجله

من الأرض كى يمدها . استغرقت أنا فى خواطر مبهجة : أخيرا سأزور صديقى الحميم «عبد الفتاح البتانونى» فى منزله لأول مرة فى حياتى . لا شك أنها ستكون من أكبر المفاجآت بالنسبة له ، بالقطع سيفرح فرحتين ، فرحة لأننى أخيرا قد زرته بشكل طبيعى خالص ، وأخرى لاكتشافه أننى أعرف ابن خالته زكريا المندوه عمران ويعرفنى ، أى أن الصلة بينى وبينه ستزداد عمقا ..

تذكرت أن صديقى الحميم عبد الفتاح البتانونى لم يدعنى لبيته أبداً رغم أنه قابلنى فى لحظات عصيبة كثيرة . حينئذ تقبض قلبى لبرهة سريعة شعرت خلالها بقرصة لاهبة ، لكننى سرعان ما عزوت الأمر إلى ظروف خاصة لابد أنها تحيط به ، فأنا لم أكن مستوضحا لكل ظروفه السكنية الخاصة ، وهو لم يحدثنى أبدا فى مثل هذه الأمور من قريب أو بعيد . وهكذا مضيت بجوار زكريا المندوه عمران وقد استقر فى قرارى أن أوصله وأقفل عائدا . غير أن صحوة مفاجئة دبت فى ذاكرتى ، فاستيقظ مشهد عجبت كيف تأتى لى نسيانه ..

* * *

... لى صديق من زعماء المشائين يدعى «عبد الوهاب منير» ، لا بيت له ، لا عمل ، لا كيان لا مركز لا زوجة لا أولاد لا شهادة ميلاد أو بطاقة شخصية . مع ذلك تراه على الدوام أنيقا غاية الأناقة : بدلة نظيفة إلى حد ما ، قميص أفرنجى غامق اللون حتى لا يظهر فيه الوسخ ، رباط عنق غامق أيضا لكن زيت العرق يلمع فوق عقدته ، الأزرار المذهبة فى أساور الأكمام البارزة من كم السترة ، الخاتم الفضى بفص العقيق فى بنصره الطويل . وجهه رصين الملامح ، ممتلئ القسمات ، كل شئ فى وجهه بارز مجسد : الخدان والأنف

والصدغان المستطيلان فى امتلاء مقبول ، الحاجبان الكثيفان ، العينان الصقريتان القويتان فى جسارة وثقة إلى حد المخاطرة والحمق ، والرأس المبروم فى اتساق بشعر غزير مهذب وسوالف طويلة منسقة ، وجناح المنظار «البيرسول» البنى يطل مشبوكا فى جيب سترته على الصدر ، بجواره قلم حبر أبنوس عتيق . فى الشتاء يرتدى معطفا شديد الفخامة . لا يخلع رباط العنق صيفا أو شتاءً . حين يدخل أى مكان - ولو للقاء عابر - يخلع السترة شأن البكوات القدامى ويعلقها فى مسند الكرسى ، أو يبقيها على ذراعه . لا فرق عنده بين وزير وخفير ، وباب المقهى يستوى عنده مع باب مجلس الأمة أو مجلس الوزراء أو أى مجلس . يتكلم من حلقه فى هدوء ورصانة واتزان ومهابة ، فى لهجة تعودت أن تأمر وتنهى ، وأن تجاب كل مطالبها فى الحال . سريع التماس العذر للآخرين ، لديه مبرر لكل فعل يفعله الآخرون تجاهه على وجه خاص . فإن تجهم فى وجهه مدير مكتب أحد الشخصيات الكبيرة التى يفرض نفسه عليها ، فمعنى ذلك أن مزاج الواد فلان - يعنى مدير المكتب - ليس على ما يرام اليوم ، إنه يعرفه حق المعرفة ، ومربيه ، وهذا الولد بالذات يحبه جدا وهو واثق من حبه له ، وهو يعرف حقيقة الخبر وراء توعك مزاجه اليوم لكنه لن يقوله صونا لقدسية الأسرار ..

يقدم لك نفسه على أنه وكيل وزارة الإعلام ، فتصدقه على الفور ، إذ أن مستوى حديثه ملائم جدا لهذا المنصب ، وهو قد يستطرد معك فى الحديث عن مشاكل الوزارة وأوضاعها السيئة التى لا ترضيه ، وكيف أنه تبلغه فاحشات الولد فلان - الذى يتضح لك أنه المذيع الشهير أو المخرج المعروف - وأنه يملك أن يوقفه عند حده لولا أنه يخاف الله ولا يرضى بقطع العيش ، ثم إن بلادنا

غريبة الشأن كما تعلم سيادتك ، إذا انقلب الحاكم على إنسان انقلبت عليه الدنيا ، إذا أنت فصلت من المذياع أو الصحيفة نفيت فى منزلك ومت حيا ، تمتنع جميع الجهات عن التعامل معك ، بل قد يساهم البعض فى تشويهك والتمثيل بجثتك لله فى لله ، يركب الجميع وهم بأن الثورة قد باتت غاضبة على هذا الشخص التعيس ، ولا يخفاك أننا فينا العبر ، فينا الذى قتل الحاوى ، فينا الكثيرون ممن يحبون مجاملة الثورة ورجالها وأجهزتها كأنه يقول : دعكم من هذا الخائن وانتبهوا لى أنا فقد تجدون عندى مشتهاكم ، إن العجل إذا وقع تكثر سكاكينه ، تمعن سيادتك هذا المثل العجيب فإنه يعكس وضعنا المصرى فى هذه الأيام على وجه الخصوص .. أليس ينبغى عليه والحالة هذه أن يتقى الله فى دينه وضميره وشرفه فلا يحكم على إنسان بالإعدام بناء على شائعات حتى ولو كانت قوية ؟ يا عم ! هل فلان الفلانى هذا هو الفاسد الوحيد فى البلد ؟! من كان منكم بلا خطيئة فليرمه بحجر ! إن الوضع كله من أساسه .. يا عم لا داعى للكلام الكثير الله لا يسيئك ! دعها على جناب الله وقل يا باسط ! ربنا يولى من يصلح ...

وأنت ترى عبد الوهاب منير فى كل مكان ، أحيانا تتركه فى مكتب أحد رؤساء تحرير جريدة الجمهورية يشرب القهوة ويثرثر ويهزر مع الرؤوس الكبيرة بلا تحفظ ، وقد يقول للواحد منهم : يا ولد يا فلان ، لكنك تفاجأ به بعد دقائق معدودة فى مكتب أحد المذيعين اللامعين أو أحد كبار المخرجين فى التليفزيون ، يتحدث عن الأوضاع التى لا تسر ، والفوضى التى عمت ، وقلة الضمير والذمة فى العمل . فتمكث أنت طويلا بغية معرفة حقيقة أصل الموضوع الذى يتكلم فيه على وجه التحديد بهذه الحماسة الجادة والعبارات الرصينة الرنانة التى تتسق

مع مظهره الجاد المهيب ، لكنك عبثا تحاول ، فإنه يتكلم كلاما عاما ، ربما عن بلدة مجاورة ، ربما عن فيلم شاهده منذ عشر سنوات أو رواية قرأها بالأمس ، أو رحلة إلى باريس قام بها فى خياله ، وحتى إن حضرت حديثه من أوله فلربما رأيته يدخل المكتب متكلما كأنما يواصل مع صاحب المكتب حديثا معروفا لهما معا . وسيدهشك بالطبع أن صاحب المكتب يبادله الإنصات والتعليقات السريعة كأنه معه على الخط . والأمر لن يخلو من عبارات يسربها عبد الوهاب خلال حديثه ينتقد فيها إحدى المسلسلات باستعلاء مطالبا بإيقافها فى الحال كأنه المسئول الأوحد فى البلاد ، وقد يحكى خبرا مثيرا لا أساس له من الصحة رغم أنه استمعه منذ برهة فى إذاعة الـ : بى بى سى ..

سيدهشك أيضا كيف أنك تركته منذ برهة فى جريدة الجمهورية لتجده ينتظرك فى مكتب فى التليفزيون ، أو على مقهى ريش ، أو يقلب فى فرش الكتب عند مدبولى بميدان طلعت حرب . لابد أنه إذن من أهل الخطوة مثلما هو من أهل الحظوة ، أو أنه قادر على التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد . غير أن الدهشة تبلغ ذروتها حين تراه يقابل فى كل مكان بالترحاب والبشاشة . القليل من الشبان يحتقرونه يستعلون عليه ، لكنهم سرعان ما يحبونه لدى أول احتكاك ، ويكتشفون فيه مسليا عظيما ، وربما كان هذا هو السر فى أن الكثيرين من ذوى الشخصيات الكبيرة والمراكز المرموقة يحلو لهم أن يصطحبوه فى الأماكن العامة على مسئوليتهم ، أو يستضيفونه للسهر فى قعداتهم الخاصة بل الشديدة الخصوصية أحيانا ، يتصرفون أمامه كأنه شئ مهمل غير موجود ، وفى سكرهم أو سطلهم أو انبساطهم تتكشف كل عوراتهم أمامه ببساطة ويسر شديدين . من هنا فهو قادر على أن يحدثك عن تاريخ شخصية مشهورة جدا

كأنه يتحدث عن ولد يلعب فى الحارة حتى وقتنا هذا ، لا يعترف بالألقاب وإن حدث الجميع – عند الروقان – باللهجة اللائقة اللبقة البليغة . يحكى ما يشبه الأساطير عن ناس يبدون كالملائكة ، فإذا هم شياطين جهنمية ، فى نفس الوقت يحكى ما يشبه المعجزات عن ناس اشتهروا بالشيطنة . يضع ساقا على ساق كأعظم العظماء فى عصره ، ويتحدث عن كبار القوم وعن كبار حكام العالم أجمع باعتبارهم عيالا أغرارا تنقصهم الحنكة والخبرة والتربية أحيانا ..

ولسوف يروعك أن تراه ذات ليلة فى خلوة مع واحد من علية القوم وحاشيته ، ثم إذا بك تفاجأ به فى ليلة تالية فى كازينو فى شارع الهرم مع ثلة من الشيوخ العرب وكوكبة من الساقطات الشهيرات . ذلك أنه يعرف عددا كبيرا من هؤلاء ، بل سيتضح لك – وسيقنعك لابد – أنه صديق للأمير فلان ، الروح بالروح ، وخليل للأمير علان ، وأن الملك فلان كثيرا ما يرسل له من يحمله عنوة إليه ليأتنس به بعد طول اشتياق . ولقد تفاجأ به متربعا فى منزل إحدى الساقطات فى حى بولاق الترجمان خلف المحكمة مباشرة ، من البغايا اللاتى يفتحن بيوتهن كغرز لتدخين الحشيش وبيعه واصطياد العشاق والمغامرين لاستخدامهم والاستفادة من ورائهم . حينئذ لن يشعر هو بأى حرج ، بل يستقبلك فى ود عميق كأنه صاحب البيت ، يعطيك حاشية سريعة تفهم منها أنه يعرف صاحبة البيت من خلال معرفته بأمها رحمها الله أو بأبيها ربنا يمسيه بالخير ، يأمر بإكرامك والتواصى بك ، يداعبك طوال القعدة من بعيد لبعيد فيما هو جالس مع المعلمة يتحدثان فى ألفة وسرية كأنهما امرأتان انفردتا للنم فى امرأة أخرى .

هو الوحيد من بين المشائين الذى لم يظهر أبدا فى قعدة الإمبابى ، ربما لأن لديه أخراما كثيرة يتستر فيها ، ولابد أن له مكانا ما يغير فيه ثيابه ويريح جسده .. إلا أنك لن تعرف عنوانه مهما حاولت ..

وإنه ليختفى أحيانا شهورا طويلة حتى تكاد تنساه تماما ، وفى لحظة معينة تفاجأ به بشكل عجيب ، فى سهرة خاصة عزمك عليها أحد فإذا به من أصدقاء صاحب المكان ، أو ربما تلتقيه فى الشارع أو فى حفلة سينمائية صباحية . الطريف أنه مستعد لتعريفك بنفسه فى كل مرة يلتقيك فيها دون ملل أو سأم ، حتى وإن بدا أنك تعرفه حق المعرفة ، حتى وهو يقابلك بحميمية سائلا إياك عن أبيك وأمك وربما عن زوجتك فلانه – التى هى أرجل منك – ولا مؤاخذة ! مع كل ذلك يصر على أن يعرفك بنفسه ولو بشكل شبه عارض . غير أنه فى هذه المرة – ودائما هذه المرة – يقع فى النسيان الأكبر ، مفترضا أنك بلا ذاكرة على الإطلاق ، وأنك نساى ، هكذا يقول لك بصريح العبارة ، ولابد أن الحشيش الذى يعرف أنك تدمنه قد برد مخك بمبرد النسيان فأفقدك الذاكرة ، أو أن السبرتو الردئ الذى تشربه حرق خلايا دماغك بدليل أنك نسيت حقيقة منصبه ، أتزعم أنه وكيل وزارة الإعلام فى حين أنه – كما كان يظن أنك تعرف – وكيل وزارة التموين ، وكيلها الأول ، أتريد أن تسقط حقه فى الوزارة ومنصب الوزير على مرمى حجر ؟ حرام عليك يا راجل يا طيب ! .. وإنه ليسحبك من يدك إلى محل من المحلات الكبيرة جدا فى وسط المدينة ، فيدخل بك فى ثبات ومهابة وغطرسة ، شاخطا فى عمال البيع ، متسائلا عن لوحات التسعيرة أين هى ولماذا هى صغيرة غير واضحة ولماذا لا توضع فى مكان بارز ؟! أيضطرونه على الإيذاء ؟! عجايب والله . ثم ينصرف فى الحال كمن

ألقى خطبة دينية فى ملهى راقص ، مشيعا بالتحايا المبالغ فيها والإعتذارات بشكل مهذب فيه توقير يقف بحساسية دقيقة على الخط الفاصل بين الجد والهزل ..

كنت أحتقره أحيانا ، ثم أرانى مضطرا لاحترامه فى معظم الأحيان ، فكثيرا ما كنت ألتقيه فى أماكن دفينة أحاول التستر فيها ، فى مقاهى قاع المدينة أو لوكانداتها الرخيصة ، فكان يصنع لى شيئا من المهرجان يغنينى عن مهمة التعريف بنفسى واكتساب العطف بشرح ظروفى . ثم إنه كثيرا ما كان يدعونى إلى أماكن لا أستطيع الذهاب إليها بمفردى ..

ذات ليلة التقانى ماشيا فى شارع التوفيقية أتسكع فى جبهة الليل ، فدعانى لمرافقته فى سهرة هو ذاهب إليها قد تمتد حتى الصباح . أضاف أننى ابن حلال مصفى ، لأنه كان على وشك أن يسأل عنى ، إذ أن الست التى سنذهب إليها الآن من عشاق شعر البتانونى ، ولسوف تكافئه لأنه جاء بى كى أســمعها شعر البتــانونى . أثار خيالى وفضــولى ، رحت أحدس من تكون هى يا ترى ؟ لكنه بعد برهة صرح :

– «هى إنسانة سمعتها مش ولابد ! لكنها غلبانه وفنانه حقيقية ! لا شأن لنا بسيرتها ! إن الله حليم ستار ! المهم أنها تغوى الشعر الجيد ! تتمنى أن تغنيه ! تتمنى أن تكون إنسانة نظيفة لكن المجتمع لا يساعدها !»

وجدتنى أهتف على الفور :

– «سنذهب إذن إلى المطربة بدر البدور !»

قال مشوحا بطريقة من يقول : آدى الله وآدى حكمته :

– «نعم !»

قلت :

– «ولكن ! الفضيحة ! إنها متهمة بالاشتراك فى شبكة لتجارة الرقيق الأبيض ! والقضية لم تنته بعد !»

غمزنى قائلا فى لهوجة واستسهال :

– «يا رجل دع الملك للمالك ! أيعرف أحد أين هى الحقيقة ؟! الله أعلم بالمستور ! مالنا نحن ؟ نحن ناس فنانين ! من يعرف عنا شيئا يقوله ! نحن أنظف من النظافة ! نفعل ما نــشاء ! هيا هيــا لا تكن مثــل هــاملت ! كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى !» .

وسحبنى فمضيت معه دون مقاومة ولكن على مضض ، فإذا به يمعن فى إغرائى قائلا :

– «ربما وجدت لنفسك عندها نومة طيبة ! لماذا تقطع رزقك ؟!»

انبرى خيالى يحلم فعلا بهذه النومة الطيبة ، فرضيت تماما بالذهاب لكننى استنكرت مسألة قراءة الشعر فى مجلسها . فبدر البدور هذه – وهذا أسم فنى مستعار بالطبع – مطربة سورية لبنانية ، وفدت إلى القاهرة منذ أوائل الخمسينات واستوطنت ، وصارت تقدم برنامجا غنائيا فى إذاعة صوت العرب، تتبادل تقديمه مع المطرب المغربى شريف علوان الذى لا يتميز عنها فى الصوت بأى شئ ، فكلاهما صاحب صوت ضيق المساحة جدا ، نصف حلو ، وكلاهما كان متزوجا من قبل ، ويقال أنهما تعرفا على بعضهما وتزوجا فى القاهرة . تقول المجلات اللبنانية كالشبكة والصياد والموعد والليالى أن بدر البدور هاربة

من زوجها رجل الأعمال المالطى بفضيحة أخلاقية ، وترد هى فى مجلة الكواكب المصرية أن هذه المجلات متخصصة فى اختلاق الفضائح لاستلاب النجوم وابتزاز أموالهم ، وأن قضية الرقيق الملفقة لها تمت بإيعاز من هذه المجلات التى تعيش على الابتزاز . وقد صدقها البعض ودافع عنها بحرارة لأن هذه المجلات كانت تشق طريقها بسهولة إلى القارىء المصرى فتفتنه بالصور العارية وأخبار الفضائح المثيرة ..

غير أن السهرات الهامسة فى ليالى القاهرة أكدت أن قضيتها تم حفظها لأنها قامت فى الأصل بمعرفة المخابرات المصرية ، إذ كانت أجهزتها قد سخرتها هى وبعض الفنانات المصريات للسرح ببعض الشخصيات السياسية العربية والإفريقية للحصول على معلومات مفيدة ، وأن هذه الأجهزة أبرزت القضية ثم طوتها بغرض إرهاب بعض هذه الشخصيات وإحراق هاتيك العميلات حتى لا يصلحن للعمل ضد الأجهزة المصرية . وقيل بل إن القضية لاتزال مستمرة ، وقيل إن بدر البدور بقيت فى القاهرة لأن الأجهزة لا تزال فى حاجة إليها . غير أن الصحف المصرية بعد ذلك بوقت قليل نشرت خبرا مؤداه أن زوجها شريف علوان ضبط فى مطار القاهرة بشحنة من المخدرات كان يزمع إدخالها مصر مع مجموعة من المشتغلين بالفن . وفى نفس يوم نشر الخبر كان شريف علوان مشتركا فى حفل أضواء المدينة ، وقد غنى أمام الجمهور بالفعل . ثم قيل إن البوليس أتى به مخفورا لينهى وصلته الغنائية المتعاقد عليها سلفا ، ليقتاده مرة ثانية إلى سراى النيابة لاستكمال التحقيق .

الشىء المؤكد لى أن الكثيرين من صعاليك الحياة الفنية يحدثون بعضهم بعضا عن أخبار الليالى الحمراء التى يقضونها فى شقة بدر البدور مع نساء من معارفها أو معارفهم أو معها وحدها . أما هى شخصيا فقيل أنها على علاقة

حميمة بممثل يعمل فى نفس الوقت مقدما للبرامج فى التليفزيون ويشتهر بالشذوذ الجنسى اسمه «سعيد فخرى» . وهى علاقة لا تخلو من منفعة ، إذ تقدمه لعشاقها من ذوى الأموال والميول النفطية ، ويقدمها لعشاقة من منتجى الأفلام السينمائية ..

حضرنى كل ذلك فيما نتلكأ سائرين نحو كوبرى قصر النيل فى صمت مريب . وقد قررت أن أذهب ، لا للتخلص من سواد الليل فحسب ، بل للتعرف على هذا العالم المثير للتقزز . نفيت من دماغى فكرة إلقاء الشعر هناك احتراما للشعر من ناحية ، ولصديقى الحميم من ناحية أخرى ، ولنفسى من ناحية ثالثة ، لسوف أتهرب بأى سبب حتى لو أدى ذلك إلى مغادرة المكان ..

الشقة كانت فى مدينة المهندسين التى لم تكتمل بعد . ولم أكن رأيتها من قبل ، إذ هى عبارة عن بضعة عمائر وفلل متناثرة فى فضاء عريض . على أول كوبرى توقف عبدالوهاب منير قائلا فى بساطة :

– « نستوقف تاكسيا ؟ »

قلت بسرعة :

– « معك نقود ؟ »

قال :

– « وماذا أفعل بها ؟ هل أحمل شيئا لا أحبه ولا أحتاجه ؟ ! »

قلت :

– « وأنا ليس معى ! فكيف ستركب ؟

قال :

- « ليست مشكلة على الأطلاق ! سنركب حتى باب المنزل أربعة وعشرين قيراطا ! »

وتقدم نحو نهر الشارع بكل ثقة ، فوقف رافعا إبهامه برشاقة وأناقة معترضا طريق السيارات الملاكى . توقفت بالفعل سيارة فارهة . مال هو على السائق كأنه يعرفه من قبل معرفة جيدة بل كأنهما أصدقاء قدامى . قال :

- « مساء الخير ياإكسلانس ! عامل إيه فى هذه الدنيا الغرورة ؟ ! »

قال السائق مبتسما فى ود :

- « أهلا وسهلا سعادة البيه ! بخير والحمد لله ! » .

قال عبدالوهاب بيك وهو يمد يده على أكرة الباب المجاور للسائق :

- « إذا تكرمت علينا من فضلك وإحسانك تحدفنا فى سكتك وأنت ماشى ناحية المهندسين ! إلٰهى يعمر بيتك ويستر طريقك بحق جاه النبى والإمام على ! »

قال السائق فى شىء من التردد :

- « أنا مش رايح المهندسين ! لكن ممكن أنزلكم فى أقرب مكان لها ! ماشى ؟ »

قال عبدالوهاب وهو يفتح الباب ويركب :

- « فضل وعدل ! إركب ياجدع ! »

فركبت فى الكرسى الخلفى . إستأنف السائق السير . قال عبد الوهاب بيك وهو يتحسس جيوبه :

- «الله ! نسيت السجائر فى مكتبى فى الوزارة ! خرطوشة روثمان كاملة !» .

أزاح السائق علبته نحوه :

- «سجاير يا سعادة البيه !»

- «تشكر يا أمير يا ابن الأمرا !»

قالها وتناول العلبة فعزم على السائق وعلىّ ثم اشعل لنا ثم انبرى يتحدث عن أخبار وزارته ، مشاكل الجمارك ، التهرب الجمركى ، التهرب الضريبى . لاحظت أن السائق ينصت باهتمام شديد وفضول أشد ، ثم ما لبث أن قال :

- «حضرتك فى أى وزارة ؟» .

فى بساطة وأريحية قال عبد الوهاب بيك !

- «محسوبك وخدامك عبد الوهاب منير ! وكيل أول وزارة المالية !»

قال السائق كأنه يراجع نفسه :

- «أهلا وسهلا ! فرصة سعيدة !»

عاجله عبد الوهاب :

- «الواد السواق ابن الهرمة قلت له روح أنت وهو ما صدق ! ياريتنى سبته ! أنا لا أحب القيادة فى هذه البلد المزدحم !»

بدأ السائق يعرفنا بنفسه . قال أنه تاجر موبيليا من دمياط وله مكتب تصدير فى القاهرة ، وعنده مشكلة فى الوزارة . أعطاه عبد الوهاب اسمه وعنوانه وتليفوناته وأوصاه بالاتصال به فى أى وقت وهو تحت أمره وإذنه . وبناء عليه أصر السائق أن يوصلنا حتى باب البيت ..

كان واضحا أن عبد الوهاب بيك يعرف العمارة حق المعرفة ، وأنه جاء إلى هذه الشقة عديدا من المرات . الشقة فى الدور الثالث . والعمارة عبارة عن مجموعة من الفيلات فوق بعضها ، بمصعد أنيق يتسع لخمسة ركاب ..

طرق الباب ، ففتحت لنا خادمة ريفية لعوب ضاحكة السن بغمازات ، وضح أنها - لابد - من فلاحات جزيرة ميت عقبة وأرض اللواء . قالت : «اتفضل ياعبد الوهاب بيك» ، ومضت تتأود أمامنا عبر ردهة عريضة مربعة ، مزدانة بورق الحائط المشجر ، وأطقم المقاعد المشغولة بالصدف والمنجدة بالقطيفة الزرقاء الغامقة ، وأعداد من المرايا البلجيكية ، والأرض مفروشة فوق الموكيت بالأبسطة الثمينة . مضينا وسط مهرجان من صورنا المنعكسة فى المرايا على ضوء النجف الهادئ المتدلى من السقف كالعراجين كعناقيد العنب . أفضت بنا الردهة إلى ممر ، طالعتنا فيه سحب الدخان ورائحة الويسكى مختلطة برائحة الشواء فاستيقظ جوعى الأبدى المخيف لكنه سرعان ما همد فجأة مصحوبا بشعور من التقزز والخوف والتوجس . اقتربنا من حجرة يتصاعد منها اللغط . لم أصدق أذنى ، كان ثمة من يلقى شعر العامية ..

دخلنا حجرة مطلة على الحقول بشرفة كبيرة فى حجم باحة مستباحة ، مفروشة برسم قاعة شرقية مهيبة ، مليئة بالشلت والحمير الخشبية المنجدة والكنب الاستديو القريب من الأرض ، وجمع كبير من رجال ونساء وشبان وصبايا يجلسون كيفما اتفق ، تتساند الأفخاذ فوق الأفخاذ والرؤوس فوق الأكتاف ، يتحلقون صينية نحاسية عريضة القطر فوق حامل خشبى فى علو طبلية ، عليها ما لذ وطاب من أنواع الكباب والكفتة والأجبان والبسطرمة والزيتون والفواكه المتنوعة ، وزجاجات الويسكى والكرفوازيه والنبيذ والبيرة .

الكئوس موزعة فى كل بقعة ، وثمة من يُفرك الحشيش بتبغ السجائر ، وأكثر من آلة عود موجودة فى الأركان ، وآلة رق ، وكمان ..

توقفنا على الباب مبهورين بسحب الدخان والوجوه السابحة فى غيبوبة من نشوة كاذبة ، فران على الجميع صمت غريب . كانوا منكسى الرؤوس كأنهم جميعا متهمون فى قضية مخجلة ويقفون أمام القاضى فى انتظار عفو يصدر عن رقة قلبه ورحمته . ميزت فى وسطهم .. صديقى عبد الفتاح البتانونى شاعر العامية ، بلحمه وشحمه وشعره . ولحظة دخولنا كانت ألسنتهم تردد : الله الله يا استاذ عبد الفتاح ! إيه الحلاوة دى . وكانت أنغام كلماته الفلاحية لا تزال تتردد فى الأفق البعيد .

قال عبد الوهاب :

- «السلام عليكم !»

قالوا جميعا فى هتاف :

- «عليكم السلام»

وقالت بدر البدور :

- «أهلا يا عبد الوهاب !»

قال وهو يخلع حذاءه ليتربع بجوار الباب على شلتة :

- «أهلا يا مدام ! أقدم لك صديقى فلان الفلانى ! الكاتب الصحفى الفنان !»

قالوا جميعا : «تشرفنا !»

وقال البتانونى : «إيه الفرص الجميلة دى يا فلان ؟»

قلت : «فعلا يا عبد الفتاح ! دانا جاى هنا على اسمك!»

وسع لى أحدهم فانحشرت بجوار عبد الفتاح ، وتطوع آخر فقدم لكل منا كأسا وزيتونة . كان وجه بدر البدور أسطع وجه فى الغرفة كلها ، بتقاطيعها الشامية الدرزية إذ هى على وجه الدقة من جبل السويداء ، وشعرها الكستنائى المنطرح على كتفيها ، وعيونها السوداء الواسعة . لو أن صوتها فى حلاوة وجهها لهزمت جميع مطربات البلاد ، لكن لملاحة وجهها وسيولة قوامها تأثير كبير يفتح أمامها كافة الأبواب المغلقة . قالت هى بعد برهة :

– «يلا يا استاذ سكت ليه ؟ عاوزين نسمع !»

ضحك البتانونى عن فم واسع جدا ، قال بصوته الرخيم :

– «شـــعر إيه بقى فى الحـــر ده يا مـــدام ! إحنـــا لا مؤاخـــذة بنســـكر وبنحشـــش !» .

بفجوميته المعتادة قال عبد الوهاب بيك :

– «أنت كنت تقول منذ برهة !»

فألقى البتانونى محاضرة بليغة عن قدسية الشعر وتناقضها مع هذه الجلســـة . كان الجميع ينظرون إليه بدهشـــة مشـــوبة باللا مبـــالاة . اغتـــاظ عبد الوهاب فقال مشوحا :

– «خلاص يا عم ! فهمنا ! لا شعر ولا غيره ! نسمع مزيكه ولا نكتة أحسن !»

فمال أحد الشبان وسحب آلة العوْد . كان مطربا سوريا وفد إلى القاهرة حديثا ورأيت صوره فى عواميد الأخبار الفنية ، اسمه رفيق حلمى ، صوته مرن قوى جبلى حاد ، يغنى ألوانا من الفولكلور اللبنانى . جعل يصدح والجميع ينصت . ومال عبد الوهاب على أذنى وهمس بصوت عال ضاع فى اللغط ، قائلا وهو يشير إلى إحدى السيدات المتبرجات تجلس بجوار البتانونى ، وقال :

– «طبعا تعرف هذه المرأة ! إنها رحمية الدميرى ! زوجة الملحن المعروف سليمان أبو العرب أعمى العين المنجوس ! ذهب إليه صاحبك بأغنيات يلحنها لمختارات الإذاعة ! فترك هذه الزوجة اللعوب تعشقه وتسرح وراءه هكذا كما ترى ! إنها مفتونة به وهو ينصحها دائما بالإخلاص لزوجها لكنه مع ذلك يسلس قياده لها ! داعرة وداعر ! اللهم استر على ولايانا !!»

قلت له :

– «إن صديقى رجل شريف ! ليس فى دماغه سوى الشعر وحده ! ولست أظن أنه مغرم بالنساء فهذا آخر شئ يفكر فيه !»

قال ساخرا :

– «ومع ذلك يرتمين عليه ! ألم تسمع حكاية البنت عاملة الآلة الكاتبة فى الفرقة القومية للفنون الشعبية ؟!»

قلت :

– «مالها هى الأخرى ؟!»

قال فى احتداد بلهجة أبوية ارتفع لها حاجباه الكثيفان :

– «أنت يا جدع نايم فى العسل ؟ إنها الغيبوبة ! صاحبك هذا قد تزوج البنت المذكورة لأكثر من سنتين ! لا لشئ إلا ليبيت فى شقتها ويعيش على مرتبها !»

قلت :

– «سمعت أنها بنت دميمة ! ومزواجة !»

– «ومطلاقة أيضا ! العصمة دائما فى يدها ! إن اتضح لها أن الزبون طامع فى شقتها الخطيرة الموروثة طلقته فى الحال غير آسفة عليه ! كما فعلت مع صاحبك ! طردته شر طردة ! والسبب رحميه الدميرى هذه ! وهى الآن تكفر عن ذنبها وتبحث له عن مأوى مريح مهما كلفها ذلك من عرق أعمى العين ! الذى يعتبر خسارة فى عضمها !!»

فجأة دفق البتانونى جرعة الويسكى كلها فى جوفه ، وأشعل سيجارة ، ثم نهض واقفا :

– «طب اسمحوا لى أنا ! عندى ميعاد مع عبد الحليم حافظ ! لا مزاج عندى للمشوار لكن مجاملة لصديق عزيز سأذهب ! إنهم يدبرون لى خطة محكمة لكى أكتب لعبد الحليم أغانى عاطفية ! وأنا مشترط أن أكتب على طريقتى ! بحيث أن من يسمع عبد الحليم يقول : البتانونى يغنى ! إنما أكتب له مثل محمد حمزه وسيد مرسى وعبد الوهاب محمد وهؤلاء ! يفتح الله ! ثم إنى لا أسمح لأحد بالتدخل فى شعرى !!»

قالت بدر البدور :

– «ربنا معك ! موفق !»

ونهضت رحمية الدميرى قائلة :

– «خدنى فى سكتك ! أوصلك بالسيارة وأروح !»

قال بنبرة واهية :

– «إبقى أنت إن كنت تبغين السهر !»

قالت :

– «يكفى هذا الليلة ! تصبحوا على خير !»

وبدأ كل منهما يرتدى ثيابه . وهمس عبد الوهاب بيك فى أذنى :

– «هذا الكلام صحيح ! حدث أمامى وقال لهم نفس هذا الكلام ! وقالوا له لا مانع !!»

إنصرف البتانونى وفى صحبته رحميه الدميرى ، كما انصرفت معهما فتاة جميلة كان من الواضح أنها مرتبطة برحمية وتقول لها : يا طنط . وبانصرافهم اعتدل عبد الوهاب فانتقل إلى مكان فسيح وجذبنى معه قائلا :

– «نسهر الآن ! أسكرنا يا بتاع الويسكى ! وأسكرنا يا بتاع الأغانى ! خش على القدود الحلبية !»

وقد كان ، سكرنا مما جميعه ، وانصرفنا فى غبشة الفجر ، فاقتادنى عبد الوهاب سيرا على الأقدام إلى مقهى فى الدرب الأحمر ممتد فى جوف حوش واسع غير مسقوف ، فيه دكك خشبية مستطيلة . طلبنا الشاى بالحليب ، خيل لى أن شخصا آخر غيرى يشربه ، إذ أنى كنت بعيدا عن حافة الوعى

بأميال طويلة . ثم نسيت ما حدث بعد إمساكى بكوب الشاى ، لكنى تيقظت بعد دهر طويل فرأيتنى مسندا رأسى على مسند الكنبة وظهرى مبروم يتألم ، وشمس العصارى تملأ الحوش ، وبجوارى بضعة شبان يلعبون الكتشينة فى ركن بعيد ، وليس لعبد الوهاب منير ثمة من أثر . بقيت دقائق طويلة حتى تمكنت من فتح عينى وعدل ظهرى ، ثم نهضت واقفا بصعوبة ، ومضيت متسللا من الحوش إلى ساحة المقهى إلى الشارع كالمذهول لا أعرف ماذا ينبغى علىَّ أن أفعل ...

* * *

... غمزنى زكريا المندوه عمران لكى أحود معه على شاطئ نيل الزمالك .

داخلنى الكثير من الشك فى جدية زكريا المندوه عمران ، فليس من المعقول أن يكون صديقى البتانونى قد أصبح فجأة من سكان الزمالك شأن عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ، لكننى فوجئت به يتوقف على الشاطئ أمام عوامة كبيرة شديدة الفخامة ، يفصل بينها وبين الشارع حديقة جميلة محندقة ، مليئة بالأشجار الوارفة التى تكاد فروعها تغطى واجهة العوامة . لها باب صغير على الشارع يفتح على ممشى مستطيل كالشريط العريض مفروش بالحصباء ينبت العشب من خلاله ..

عوى كلب على ظلنا ، فأطل من خلف باب الحديقة رأس الخفير صائحا فى إرهاب مسرحى : «مين ده ؟» . قال زكريا :

«إفتح يا عم دهب !» . فتح الخفير قائلا : «إزيك يا استاذ» شدنى زكريا قائلا : «عبد الفتاح موجود ؟» . قال الخفير :

– «من ساعة ما حضـرتك اتكلمت فى التـليفون من البـــلد وهو قاعد منتظرك بقى له يومين تلاتة ! مسكين نازل كتابة للصبح كل ليلة !»

صرنا على باب العوامة ، فاستدار زكريا صائحا :

– «لكن أنت عرفتنى ازاى ؟»

– «الأستاذ وصفك لى ! ونبه على ألا أترك أحدا غيرك يدخل !»

طرق زكريا الباب برفق ثم دفعه فانفتح . مضينا فى ممر فى منتصف العوامة ، وخطواتنا تئز فوق خشب الأرض . كانت هناك غرفة مفتوحة ينبعث منها الضوء . مالبث أن احتجب بظل البتانونى خارجا يصيح فى مرح :

– «أهلا يابو الزيك !»

ثم انفصم عرق البهجة فى صوته مرة واحدة ، كأن سهم الذهول قد طعنه فى مقتل . شعرت أنه يبذل جهدا نفسيا كبيرا لكى يبدو طبيعيا وهو يسلم علىَّ بفتور سائلا إياى عن أحوالى وأخبارى التى يبدو غير مستعد لسماع شىء منها على الإطلاق . تقدمنا داخلا الغرفة ، فدخلنا وراءه وقد شعرت أننى يجب أن أرد قدمى إلى القفول ، لولا أننى سرعان ما تذكرت أن البتانونى كثيرا ما يلقانى فى الشارع بهذا الوجه المتجهم الكئيب ومع ذلك يعزمنى على الشاى والسجائر .

فى الغرفة ترابيزة فى المواجهة . على الحائط صورة فى برواز معلق لكنها مقلوبة على وجهها . فوق المنضدة تلال من الكتب الثمينة ، كلها من الأمهات التى كانت شائعة فى جيلنا والتى كان مجرد وجود بعضها عند أحد يكفى للدلالة على أنه مثقف جاد ، والتى كان يشتريها جمعة الجيزاوى بنقود

الطماطم والجرجير كى يستفيد منها ابن الطماطم والجرجير . يوجد كرسيان من الخيزران ، وسرير سفرى ضيق بجوار الحائط . ظللنا واقفين ، البتانونى يتحدث مع زكريا فى موضوعات لا شأن لى بها ، تعلقت عينى بالبرواز المقلوب ، بتلقائية مددت يدى وعدلت الصورة على وجهها ، فإذا هى صورة ملاك نورانى فى صورة إنسان يشع بالذكاء والحرارة والشفافية والنبل ، يرتدى بدلة ويغطى رأسه بطاقية صوفية شغل المحلة الكبرى ، هى صورة مرسومة بالريشة ، خطوطها تشبه إلى حد التطابق خطوط الفنان جمال كامل ، وتحتها إسم صاحب الصورة وكلمة سجن الواحات . تمعنت فى الإسم فكدت أقع من فرط الدوار ؛ هذه إذن صورة الشاعر العظيم الضخم المحتجز خلف القضبان مع رفاقه الأحرار ..

جلس البتانونى على أحد الكرسيين ؛ وجلس زكريا على الآخر وشدنى قائلا : إقعد ؛ فجلست على السرير دون أن أفتح فمى بكلمة وأشعل البتانونى سيجارة ونهض فمد ذراعه وقلب الصورة على وجهها من جديد ، فأصابنى شعوريا بالغيظ ، فافتعلت ابتسامة وقلت : لماذا تعلقها إذن ؟ فشوح قائلا بضيق : يا أخى أنا لم أعلق شيئا ، فلم أرد ، إنما أخذت أجمع بصرى وأسترده شيئا فشيئا والرمل يحشو عينى ، على نفس المنضدة لمحت ورقة لف من ورق محلات الكباب الشهيرة ، فوقها كرتونة عريضة ترتص فوقها قطع الكباب والكفتة فوق طبقة من البقدونس ، بجوارها علب كثيرة مليئة بأنواع السلاطات ، وبضعة أرغفة طازجة ، ووابور سبرتو ، وبراد ، وكنكة ، وعدد من الأكواب . نهض زكريا مشمرا ذراعيه وتأهب للأكل ؛ لكن شيئا من التردد القوى سرعان ماقمع حركة يده فاكتفى بالنظر فى الطعام بلا مبالاة ، ثم مالبث

حتى جلس معطيا للطعام ظهره . أما أنا فما كدت أسترخى فى جلستى على السرير حتى سحبنى تيار التعب فتلاشيت ، وكنت أشعر بذراتى تدور فى الهواء ، وسرعان ما هويت بظهرى فأرحته فوق السرير بالعرض ، وقدماى فوق الأرض كما كنت جالسا . إستشعرت الراحة لبرهة وجيزة غبت بعدها عن الوجود تماما

* * *

بعد دهر طويل فوجئت بنفسى أسير فى شارع ستة وعشرين يوليو بجوار زكريا المندوه عمران يساندنى ضاحكا . أفقت فجأة : كنا قد غادرنا العوامة وتجاوزناها بكثير . نظرت فى ساعة يدى وحسبت الدقائق منذ مجيئنا حتى اللحظة فعرفت أننى قد غرقت فى النوم لخمس دقائق فقط بالتمام والكمال. لم أصدق الساعة ، بل إننى استغرقت برهة طويلة حتى تنبهت إلى أن الذى يمشى بجوارى ضاحكا من قلب صاف ، كائن جميل إسمه زكريا المندوه عمران عرفته الليلة لأول مرة . كالعبيط قلت له : «فيه إيه ؟» ، فضحك بعمق :

- «أنا متأسف ! أيقظتك من النوم رغما عنى ! وعلى قلبى كالسكين !»

قلت : «فيه إيه ؟!»

قال مشيرا بأصابعه السرحة إلى الوراء :

- «هذا الحيوان الأحمق يقول عنك إنك مخبر تتعاون مع المباحث !!»

غاص النصل فى قلبى . قلت من ريق جاف : «أنا مخبر ؟! أتعاون مع المباحث ؟! البتانونى يقول عنى هكذا ؟!» .

قال مشوحا فى عجب :

- «تصور ؟! أنا الآخر لم أفوتها له ! لم أسكت ! قلت له أنت غلطان وضيق الأفق ! لأنه لو كان مخبرا يتعاون مع المباحث ما كان هذا حاله !»

ثم أخلدنا معا إلى الصمت العميق لانسمع سوى وقع أقدامنا على الأسفلت كفلول جيش منهزم . بعد برهة قطع زكريا الصمت قائلا :

- «لقد أفسدته المدينة المجرمة ! هذه العوامة ليست عوامته ! إنها عوامة الجيزاوى ! إستأجرها لنفسه لكنه تركها له ! إذ هو يدرك أن البتانونى سوف يكبر لامحالة وسيكون ظهرا له ! وعلى فكرة أنا لست أشك فيك رغم أننى لم أرك إلا الليلة ! بل بالعكس ! إننى أشك فيه هو ! إننى أعرفه جيدا ! إنه يحب نفسه إلى أقصى حد تتخيله ! نفسه هى الهدف والغاية والوسيلة ! فى سبيل حماية نفسه يدوس فوق رقاب الموتى يلغط فى فرج أمه بشرط ألا يراه أحد ! لقد كنت ميتا من الجوع ولكن نفسى جزعت حين هممت بمد يدى على طعامه ! والآن دعك منه وقل لى ماذا تكتب الآن أو ماذا تقرأ ؟!»

قلت له : «ليس عندى مكان أكتب فيه أو أقرأ !»

قال ببساطة :

- «الحمدلله أننى لست محتاجا لهذا ! بل لست محتاجا حتى للورق والقلم ! إننى محتاج فقط لرأسى ! وحينئذ أكتب فيها وأنا ماض فى أى مكان فى أية لحظة ! وكل ورق قد يضيع أو يتهرأ أو يستلب ! أما ما كتب فى الرأس فهو باق إلى الأبد لايضيع ولا يفنى !!»

رحت أحدثه عن بعض قراءاتى . كانت الدموع تخنق صوتى تكاد تحجبه، وأنا أجاهد لكى أنسى وابدو وكأن ما سمعته الآن لم يؤثر فىَّ . وقد

طلع علينا الصباح إذ نمشى فى شارع ستة وعشرين يوليو عند قهوة بور فؤاد الشهيرة بقهوة النشاط . حيث سمعنا برطمة يتخللها سب وشتم غامضان بصوت نسائى نصف مخمور . إلتفتنا ، فإذا هى امرأة خارجة من ممر نصيبيان ، كانت فى حوالى الخمسين من عمرها ، طويلة رفيعة ، وجهها ملىء بالمساحيق التى لم تفلح فى إخفاء بعض التجاعيد فى وجهها المستطيل المبطط الأبيض المشوب بحمرة ، زرقاء العينين ، ترتدى معطفا بياقة من الفرو الرخيص الساذج . تمسك بيمناها كعكة كبيرة من السميز ، وقطعة جبن رومى وبيضتين .

كانت الشتائم لاتزال تنهمر من فيها ، ومن الواضح أنها نازلة من إحدى الشقق فى واحدة من عمائر الممر ، كذلك من الواضح كما تقول شتائمها بصريح الإشارة أن بعض الرجال القساة البلطجية اصطادوها فى أول الليل ، فظلوا طول الليل يمرمطونها ، وفى النهاية طردوها بدون مليم واحد مما تستحقه ، أكلوا عرقها ربنا لايكسبهم ، كل ما حصلت عليه هو هذه السميزة وقطعة الجبن والبيضتين من بقايا مزة السهرة . قال لى زكريا المندوه عمران :

- «ياجيبى ياخوى أكلوا عرق فرجها وهذه جريمة أشد نكرا من جريمة أكل عرق الصنايعى !

هكذا الحياة فى هذه المدينة ! الكل يأكل من هامش العهر !»

ثم استوقفها :

- «تعالى ياست ! لايهمك ! نحن نعوضك عن سفالة أولاد الزوانى هؤلاء !»

وهمس لى :

– «ألا تعرف شقة خالية ؟!»

غلت الدماء فى عروقى :

– «أعرف صديقا يعمل فى إذاعة الشعب على الآلة الكاتبة ! من بلدة جنب بلدتنا ! يسكن فى شقة فوق سطح عمارة قديمة فى حى السيدة زينب فى شارع زينهم !»

فإذا بزكريا بكل جرأة يستوقف عربة أجرة ، ويشد المرأة من ذراعها برفق قائلا :

– «إركبى ياست !»

فركبت بالفعل دون أدنى تردد ، فركب هو بجوارها ، وركبت أنا بجوار السائق متوجساً . قال هو للسائق : «السيدة زينب ياأسطى !» . فانطلقت السيارة وأنا من فرط حماستى لا أكاد أفكر فى مشكلة أجرة السيارة من أين سندفعها إذا فرض أننا سنضحك على هذه السيدة الغلبانة مرة ثانية .

وصلنا إلى البيت لحظة شروق الشمس . قال زكريا :

– «سأنتظرك هنا حتى تصعد وتمهد الجو ثم تنادى علينا من سور السطح !»

هللت لهذا القول ، واندفعت أصعد السلم حتى الدور الخامس ، حيث تقبع شقة صاحبى فى ركن من السطح العريض المبلط النظيف . كنت أقدر أن صاحبى على وشك الخروج إلى عمله ، فلما رأيت باب الشقة مغلقا أخذت أطرقه برفق ، ثم بشدة ، ثم بقوة أشد ، لكن أحدا لم يرد ، فظللت واقفا فى مكانى مدة طويلة أطرق الباب حينا وحينا أستريح ، رغم أنه قد تبين لى أن اليوم جمعة وأن

صديقى فى بلدته من الأمس . ثم فوجئت بخطوات تصعد السلم ، وسرعان ما ظهر زكريا المندوه عمران وحده ، ممسكا بالسميزة وقطعة الجبن والبيضتين ، وفمه يلوك اللقيمات فى سأم وشهية معا . قلت له :

– «أين المرأة ؟!»

ضحك فى نزق :

– «هربت ! تركتنى وتسللت هاربة ! وقد رأيتها لكننى تصنعت الغفلة !»

– «لماذا هربت ؟!»

– «خافت ! عرفت أنها من ساقط للاقط لقابض الأرواح !»

– «وكيف تصرفت مع السيارة ؟!»

– «فتشت حقيبة يد المرأة بصنعة لطافة ! فوجدت فيها سبعة قروش فكة ! أعطيتها للسائق وقلت للمرأة : سأردها لكِ عندما نصعد !»

ثم تربع على بلاط السطح :

– «أين صاحبك ؟!»

– «يبدو أنه سافر إلى البلد !»

– «بالسلامة ! تأكل لك لقمة ؟!»

شعرت بقليل من الغثيان :

– «لا ! ماليش نفس !»

فاندفع يأكل بشهية ضاحكة ، ويجدد العزومة فى كل لقمة فانفتحت شهيتى رغما عنى ، وتناولت بيضة ولقمة أخذت ألوكها متقرفصا بجوار زكريا .

وكانت الشمس قد سطعت فى ضحاها حينما انتهينا من الأكل ، فأخذنا نتجول فوق السطح وننظر للشارع من فوق السور . وفجأة رأيت زكريا يترك السور متجها إلى جدار الشقة ، ثم يتمدد على ظهره فوق البلاط ، فإذا الفكرة قد أشرقت فى رأسى ، مع ذلك حثثته على النهوض قبل أن يرانا أحد فيظننا لصوصا ، إلا أن شخيره ما لبث حتى ارتفع فى إيقاع هادئ واثق مطمئن رصين . فلم أملك سوى التمدد بجواره ، والالتحاق بشخيره الفاتن .

- ١٤ -

فـل وياســمين

نشوتى كانت فوق الحلم بدرجات كثيرة جدا ، النشوة كانت مضمرة فى الكون كله ولابد أن هزة كونية عنيفة قد فجرت ركام الركود فانبعثت النشوة تعبق فى كل الأرجاء فى كل الأنحاء .. رائحتها مسكرة ، هى نفس تلك الرائحة التى ظلت تسكننى منذ سنوات طويلة ، فلا تطرأ على خياشيمى إلا فى لحظات غريبة وعابرة لا تستغرق أكثر من برهة وجيزة أظل بعدها من السكر والانتعاش فى غاية . هى شبيهة برائحة ذلك العطر الذى بلا اسم محدد ، مبطنة برائحة الورد البلدى ، والفل والياسمين بل يخيل لى أنها بؤرة جميع أنواع الروائح العطرية العبقرية التى تفرزها بطن الأرض . لقد عجزت عن تحديد أصلها ، لكننى ما ان تصافح أنفى حتى أرانى شخصا آخر تماما ، إذ تتيقظ داخلى حيوية هائلة كالمحقون بمصل القوة ، يصحو كل شئ فىَّ ، يتأهب ، يتحفز ، تمتلئ الحياة كلها بالبهجة العظيمة التى سرعان ما يتضح أنها نسيج أصلى فى تركيبة الكون وفى بواعث الحياة . بفروسية مدهشة يجتاحنى إحساس عارم بأننى مقدم على تحقيق نصر مبهر مدهش وفريد ..

سرعان ما تذكرت أن رائحة النشوة هذه هى رائحة «نازك» التى لا أعرف إن كانت هى تتعطر بها من قنينة لا شك ثمينة وغالية أم أنها هى رائحتها الطبيعية التى خلقها الله بها ، والتى تعودت أن أشمها على بعد ، حتى ولو بينى وبينها حاجز من أبواب وجدران ومنازل وشوارع وبلدان ..

ثمة خاطر صلب ينتصب فى مؤخرة رأسى كشرطى المرور ينظم الخواطر عند التقاطعات الكثيرة التى صارت تلتقى كلها الآن فى ساحة النشوة العارمة الدافقة المجتاحة . راح هذا الخاطر يبث فى رأسى كل العزم ، يجذبنى من بحر النشوة محتفظا برأسى فوق صفحة الموج حتى لا أغرق تماما فتضيع منى هذه اللحظة هذه الفرصة العبقرية التى لم يسبق لها مثيل والتى قد لا تتكرر مطلقا . كنت حانقا عليه أشد الحنق أحاول أن أفلفص رأسى لأغطس فى بحر النشوة حتى الغرق التام ، لكننى كنت أرانى أستجيب لجذبه وأترك رأسى عائما فوق صفحة الموج برهات خاطفة أجدد فيها اليقين والهواء وأفتح عينى على الواقع البديع الذى صرت فيه فجأة دون مقدمات وعلى غير انتظار ، ولأتأكد فى صحوة عابرة على هامش الفعل أننى فى قلب الفعل قد صرت . لقد كان حتما علىَّ أن أصحو لبرهة بين كل برهة لأستأنف الفعل فى البرهة التالية بكل عمق وانتشاء ووعى . من بين التقاطعات تمرق خواطر مخالفة لتعبر ساحة النشوة خلسة تهيب بى أن أغرق فيما أنا فيه أفضل لى ، إذ العمق الحقيقى هو الاستغراق التام . هى خواطر سوداء تكاد تقنعنى بأننى ساع إلى إفساد اللحظة لا محالة بتمزيقها إلى فتات تبددها ، فصار قلبى يرتجف بشدة خوف أن يحدث هذا ، فأرانى على الفور مصعدا رأسى فوق صفحة الموج لأتأكد أن هذا لم يحدث بالفعل..

كل الدلائل تشير ، بل تؤكد ، أن هذه التى تلتحم بحضنى – عاشق ومعشوق – هى نازك بلحمها ودمها ورائحتها وبحة صوتها القادمة من القاع البعيد جدا ، من داخل أطراف قدميها العاريتين ، وكعبيها الغائصين فى لحم سلسلة ظهرى فى المنطقة التى لا تطولها اللوفة عند الإستحمام . بحة قصدت بها أن تحجب صوتها حتى لا يتفجر فيزلزل الكون يوقظ النيام ، فيما هى تتلوى وتنتفض كعضلة القلب ، تعزف معزوفة الألم النشوان ، تستغيث بمن لا يرحمها

كى لا يرحمها من ذلك الطعن الكثيف المدرار ، تهتف أنفاسها فى أذنى برنين ذهبى مجلجل : «فهمى ! فهمى ! فهمى ! فهمى !» ، فلا أرد مطلقا ، وإن كنت أسمع بحة فى حلقى تخرج متحشرجة من حين لحين : «هيه ! هيه !» ، وقلبى لاهث ، وذراعاها تحت إبطى كمجدافى زورق تتلاعب به الأنواء . كنت فى كامل فروسيتى ، فى أعنف قوتى ، عودا من الحديد الصلب المشتعل تلفظه فوهة الفرن لتنفرج فتمتصه من جديد كأنها استهدفت تحويله إلى لهب واستهدف تحويلها إلى رماد ، ودون هذا وذاك أشواط وأشواط لا نهاية لها ، والعرق لا يكف عن التدفق ليتبخر فى الحال تاركا فى الجسدين لفحة حارقة سرعان ما يرطبها لثم الخدود للخدود أو باقات من الشعر الناعم تتطاير جدائله فوق رأسى لتعود فتنزلق متبعثرة على الوسادة ثم كأن ريحا ترتفع بخيمته فيتكور صاعدا لتختفى شواشيه فى الركن المظلم فلا أرى سوى منابته فوق جبين وضاء لوجه بيضاوى كالشهد المصفى ، وأرى ظلالا منه فى حاجبين كثيفين ورموش مستطيلة مشرعة حول عينين ضارعتين مشرقتين ، فى ضراعتهما تحد وإغراء واستنفار واحتواء ، قد استغرقتهما ذروة النشوة فآبت معزوفة الأصوات إلى إيقاع مركز يختصر كل النغمات فى نغم سحرى واحد يحيط بى من كل ناحية كأنما الوجود كله ينادينى فى ضراعة حقيقية مبطنة بتحنان عميق : «فهمى ! فهمى ! فهمى !» . من نشوتها تقوم نشوتى ، لنشوتها نشوتى ، بنشوتها أنتشى وأتنشى وكل الأركان تردد أصداء : «فهمى ! فهمى !» التى تنداح فى الأفق البعيد لترتد بقوة داهمة ، حتى لقد شعرت بدبيب من الخجل المفاجئ ، داخلنى قليل من الحياء مبعثه شعورى المفاجئ بأن ثمة من قد يصحو فيستنكر . سرعان ما نغصنى شعور قابض بأننى ربما يكون لى أولاد ينامون

فى حجرة مجاورة أو فى الحجرة نفسها . آلمتنى القرصة لسبب بدا غامضا مجهولا ..

حاولت نسيان هذه القرصة المؤلمة ، وكنت لحظتها ممتطيا صهوة الريح تحيط ساقاى بساط الريح ممسكا بيدى لجاما من حزم من الشعر الأسود الناعم اللامع المعبق بعطر دافئ رطيب معا . على أن ألم القرصة كان قابضا بقسوة مثل كماشة تسحق قلبى بين فكيها الخشنين . شعرت أننى على وشك السقوط حطاما . صرت أتشبث بلجام الشعر فى قوة ، أضغط بعضلات ساقى على جانبى البساط فلا يتثنى بل ينضغط الجانبان قليلا بمقدار بيت لعضلات ساقى . صرت أستشعر برودة البساط الذى بدا لى أشبه بفستان مشجر هو على الأرجح من فساتين زوجتى . وكان الجسم المتنفض قد آب تحتى إلى شئ رخو بليد . سرعان ما تبين لى أن التقاطعات المحيطة بساحة النشوة قد انفتحت على بعضها منذ دقائق طويلة مضت فساحت الخواطر على بعضها وعمت الفوضى والغلوشة وامتلأ الأفق بالضباب الأسود الكثيف . ولم أكن أرى من خلل الضباب شيئا ، ولم أسمع من هدير تلاطمه سوى همس ساخر من شفاه شيطانية تخرج لى لسانها لتنبهنى إلى أننى لست صاحب اسم فهمى ، وأن فهمى هذا هو شخص آخر غيرى وإن كنت أعرفه ويعرفنى ..

شعرت فى الحال كأن لوحا من الثلج يحتوى قلبى ، الذى راح مع ذلك يرسل دقات لاهثة متلاحقة . لحظتها رأيتنى – لبرهة سريعة – مبعثر الجسد تماما : فخذى اليسرى مرمية فوق عجيزة امرأة تنام بجوارى ، وبدا كأننى أعرف أنها ربما تكون زوجتى . كانت كجثة هامدة لفظت أنفاسها منذ سنين طويلة ، أما فخذى اليمنى فكانت غائبة تحتى ، ذراعاى كل منهما فى واد ، الوسادة مبللة بلعاب كثيف لابد أنه متدفق من شفتى . كنت تعبا إلى حد مخيف ، أشعر بضرورة أن ألم جسدى على وضع يريحنى ، لكننى لم أتحمس

لذلك ، إنما أغلقت عينى ثانية فى استسلام ، حين رأيت شبح الضيق تحت جفونى أغلقتهما فوق إغلاق . سرعان ما رأيتنى أحلق فى الفضاء ثانية ، ممتطيا صهوة الريح من جديد ولكن بلا بساط ولا لجام ولا أى شئ . لم أكن خائفا ، لكننى كنت فى أشد الحزن ، واللامبالاة . كان يبدو علىَّ كأننى أعرف أنها تحليقة كاذبة وأننى أخوض فى الهواء معركة هلامية سأكون الخاسر فيها على كل الأنحاء . راح الفضاء يضيق شيئا فشيئا ، تبزغ فى جوانب الأفق مساحات دكناء ، سرعان ما اتضح أنها هامات أبنية ، عمائر ومآذن ومداخن وقباب وأسلاك برق وهوائيات بث إذاعى على هيئة أعواد حديدية متقاطعة . ما كان يبدو أنه نقط ضوء بعيدة جدا سرعان ما ظهر أنه نجوم سماوية ، ثم سرعان ما ظهر أنه مصابيح كهربائية شاحبة تلمع فى الأركان والحنايا والمنعطفات . فإذا بى أجلس فوق سطح بناية كبيرة ، ذراعى اليسرى تستند على سور السطح ، فيما أنا منجعص على كرسى هزاز مصنوع من الجريد ، أمدد ساقى على كرسى آخر ، بجوارى طقطوقة نحاسية لامعة من طقاطيق المقاهى ، عليها صينية صغيرة تحمل فنجانا من القهوة وكوب ماء طويل القامة . تذكرت الفنجان ، بشغف هائل انقضت يدى عليه بحرص واتزان حتى لا يتشقق وجه القهوة ، بطرفى أصبعى قربت الفنجان من شفتى ورشفت ، فإذا بالفنجان فارغ إلا من تفل البن اللزج ، بدا أننى ربما أكون قد شربت الفنجان منذ دقائق طويلة ثم نسيته ، بدا أننى أجلس ها هنا منذ وقت ليس بالبعيد وليس بالقريب ، مر رجل نحيل بدا من المريلة البيضاء على بطنه وساقيه أنه النادل ، عرفت فى الحال أننى أجلس فى بوفيه نقابة الصحفيين المسمى بـ «الروف» على السطح العالى . سرعان ما تبينت أننى أجلس ها هنا بحكم علاقة حميمة وثيقة لعلها الانتماء للمهنة وإن لم أكن ملتحقا بها أو بالنقابة ، تذكرت أننى فى انتظار شخص ذى أهمية بالنسبة لى فى هذه اللحظة فحسب ، يترتب على عدم مجيئه

انهيارات كثيرة ، إنه لابد أن يأتى على الأقل ليدفع ثمن هذه القهوة التى طلبتها واضعا ساقا على ساق وشربتها منجعصا فى ملكوت لا حدود لآفاقه . وخزنى خاطر يقول بأن القهوة أمرها ساهل ، يمكن أن أطلب إلى النادل بابتسامة رقيقة واثقة أن يحاسب عليها الاستاذ فلان الذى مكثت فى انتظاره بوعد منه ، أو يمهلنى إلى الغد فأحاسبه عليها . أما المشكلة الكبرى إذا لم يجئ فلان فهى اللجوء إلى الشارع أتجول فيه حتى الصباح كالعادة . إننى يجب أن أبيت هذه الليلة عند فلان هذا بأى وضع كان ، فكل المحلات التى تسهر حتى الصباح لها فى ذمتى مشروب أو مشروبين ميئوس من دفع ثمنهما ، كما أننى مهدود الحيل تماما ولا أظن أن ساقى سيساعداننى على المشى خطوة واحدة بعد أسابيع طويلة من التجول الشريد الضال ، بل إن الهم الأكبر الذى يثقل رأسى الآن هو هم الوقوف على محطة الأتوبيس الذى سنركبه إلى بيت صديقى فى حلمية الزيتون ، والخوف من أن يطول الانتظار فأضطر للتربع فوق الأرض . صحيح أن صديقى يتعشم الليلة أن أساهره حتى مطلع الفجر وأسليه وأسامره مقابل المبيت عنده ، مما يتطلب صحوة جسد ودماغ وأعصاب ، ولكن من يدرى، فلعلنى حين أطمئن على وجود المأوى تتيقظ مشاعرى ويزّوّرّ عنى التعب كما قد حدث لى فى ليال كثيرة ..

مثلت فى مخيلتى كنبة «فوتى» من النوع الذى إن أزيح عن الحائط مقدار عرض لمسند أمكن فرد المسند وتحويل الكنبة إلى سرير لا بأس به يتسع لجسدين سأستقل به وحدى ، لكننى أعرف أن شعورا بالخجل سيمنعنى من قلقلة الأشياء فى ردهة منزل صديقى ، سأقتنع بعرض الكنبة ، يكفى أن صديقى سيحضر لى وسادة أثنيها تحت رأسى . دب فى أوصالى خدر دافئ راح يتمشى فى عروق ساقى صاعدا إلى قمة رأسى وأذنى ، فاحت رائحة البهجة فى الحال ، عبرت الأفق رائحة عطرة مسكرة ، ارتفعت أذناى فى الحال

ككلب يستشعر دبيبا ، ساحت أذناى فى الآفاق المحيطة محاولة استقطاب صوت الرائحة النشوانة . سرعان ما راح دبيب الصوت ينبجس من بطن الصمت الكذوب ، فوق ترددات أصدائه وعبر طيات من الستائر المخملية يبزغ شبح «نازك» عارية تتلوى كبلطية فى قاع مياه عكرة . راحت قوة فى مخيلتى تجتهد فى ترويق المياه شيئا فشيئا لاستيضاح ذلك الجسد الذى بدا الآن مشهدا كاملا يتلعبط فى شبكة هائلة ، تكاد الشبكة تقترب من منطقة الوضوح التام لترتد غامضة كابية مظللة برقائق غروبية دخانية . سرعان ما استبان لى أن الصديق الذى أنا الآن فى انتظاره هو الشاعر «فهمى عزيز» ، رفيق الصبا وصدر الشباب ، الذى قدر له – بفضل أبيه الشيخ ناظر إحدى المدارس الابتدائية فى بندر دسوق – أن يتخرج مبكرا فى معهد الخدمة الاجتماعية فيلتحق بوظيفة أخصائى اجتماعى فى الوادى الجديد ، ليراسل مجلات وصحف القاهرة والبلاد العربية فتنشر له بعض قصائده الطموحة ، ثم التحق بمعهد المعلمين الخاص لمدة سنتين عمل بعدها مدرسا فى المدارس الثانوية ، ثم استطاع – بفضل أحد رؤساء تحرير جريدة يومية كبيرة ، كان شخصية مرموقة وكان ممن درسوا على يد أبيه الشيخ فى المدرسة الثانوية وعشق من خلاله لغة الأدب – أن ينتقل محررا فى الجريدة فى قسم المراجعة ، فقدر له أن ينشر شعره وبعض مقالاته وتحقيقاته الأدبية، ثم استغنت عنه الجريدة فى أزمة من أزماتها المادية العديدة ، فتشعبط فى دار النشر القومية كفاحص للكتب المقدمة للنشر ومحرر لإعلاناتها . أيامها كانت حكومة الثورة بصدد إنشاء مجلة مصورة تنقل بها أصداء النهضة الصناعية فى البلاد ، اسمتها (نهضة وادى النيل) ، فظل هو يسعى بدأب وصبر حتى اختير سكرتيرا لتحريرها ، وهكذا لحق بقطار الصحافة بعد فوات محقق . كان – أصله وحيد أبويه – قد تزوج

مبكرا من حبيبة قلبه «نازك» ، فدوخها معه فى البلدان البعيدة ردحا من الزمن قبل أن يستقر أخيرا فى القاهرة فى شقة أنيقة فى الدور الخامس من عمارة كبيرة جديدة تطل على الشارع العمومى الكبير فى حلمية الزيتون ، حيث تتناثر حواليه بعض القصور والفيلات العتيقة والحدائق الرصينة ..

الملل بدأ يجتاحنى . نظرت فى ساعة يدى ذات الجلدة السوداء الجرباء ، ميناؤها يكاد يختفى تحت زجاجة مشعثة يحيطها ظرف معدنى ساقط الطلاء . أشعلت عود ثقاب وقربته فتبينت أن موعد صديقى فهمى عزيز قد مضى بنحو ساعة ونصف ، فداخلنى ما يشبه اليقين بأنه لن يأتى . اقتحمنى صوته الخبيث الأصفراوى عبر أسلاك الهاتف قائلا فى ترحيب مبالغ فيه :

– «يا مرحبا بيك فى كل وقت ! إنه بيتك يا مغفل ! أنت واحشنى فعلا ! تعال لنتعشى معا ! نقضى سهرة ممتعة نقلب فيها شرائح الحديث على فرن الذكريات الحارة ! لكن ما الذى يمنعك من المجئ الآن ؟ من أين تتكلم ؟ إذن فاركب الأتوبيس من محطة شارع فؤاد وتعال ! تريد أن توحى إلىَّ بأنك مفلس حتى من أجرة الأتوبيس ؟! معقول هذا ؟! دع بخل الفلاحين هذا ! قيمة الفلوس فى المدينة أن تصرفها أما قيمتها فى القرية فأن تدخرها !! ألم تقرأ هذا فى قصة يوسف إدريس الأخيرة ؟ لقد فضح ألاعيب الفلاحين أمثالنا ! لكنها قصة عظيمة من ابن الهرمة هذا ! اسمع ! تستطيع لو كنت صادقا فى مسألة الفلس هذه أن تقترض قرشا من ذلك الشخص الذى تتكلم من عنده ! اتصرف! إتلحلح يا بجم ! المهم أن تكون عندى فى أقل من ساعة حتى ندرك الليل من أوله ! أما العودة فلا تحمل همها لأنك ستنزل معى فى الصباح ! أنا بصراحة لابد أن أمر على الترزى ! على كل حال سأمر عليك لآخذك ! انتظرنى فى بوفيه النقابة واشرب قهوة على حسابى ولا تقلق من تأخيرى ! إسمع ! لعلك تكون مدخرا لنا مفاجأة طيبة ! أنت طبعا تحتفظ معك ولو بقطعة صغيرة نبخر بها رأسينا لتحلو

السهرة ! لا يمكن أن أصدقك ! جيب السبع لا يخلو ! لسوف نتعشى معا ونشرب الشاى والقهوة وكل هذا على نفقتى فحاول أن تعثر على قطعة نلفها سيجارتين ! لا تستندل معى فإن من يلتفون بك فى السهرات يبلغوننى أخبارا طيبة !! على كل حال سأحاول المجئ لك ! قل يارب !» ..

أيقنت أنه لن يجئ . مع ذلك لم أجد بديلا عن انتظاره ، لشد ما أتمنى لو أنهم سمحوا لى بمواصلة الانتظار فوق هذا الكرسى فى هذا السطح إلى ما لا نهاية . رأيت أن أنقل قعدتى إلى كرسى آخر فى ركن قصىٍّ محتجب بين أضــلاع المنحنى كشرفة مســتقلة معزولة ، بوسعى أن أختبىء فيها فلا يرانى أحد . وقفت ، تمطعت ، طقطقت عظامى ، تثاءبت ، ترنحت فكدت أتهاوى ، مشيت قليلا نحو المطبخ ، لم يكن ثمة من أحد ، إلا أن فرن البوتاجاز مشتعل والمذياع مفتوح والمذيعة تحدث نفسها بصوت طفيلى ثعبانى متسلق للأعصاب . اتجهت إلى الركن المنعزل ، انزويت فيه نفس الجلسة السابقة ، ضمنت أن النادل سوف ينسانى مؤقتا ... .

.. كانت «نازك» تمشى بجواره فى شارع البلدية فى بندر دسوق ، تكاد تقاربه فى الطول ، تضع ذراعها تحت إبطه ، غزال معلق فى جذع نخلة ، إذ هى ممشوقة القد هيفاء ، عريضة الكتفين ، ناهدة الصدر ، نحيلة الخصر ، بارزة الردفين طويلة الجذع ضامرة البطن ، مهما اتسعت فساتينها وانسكبت على الساقين الرخاميين فلابد أن ترى عينك بطيختين متلاحمتين فى أسفل قناة الظهر ينتفضان تعلنان بكل شياكة واحترام عن كنوز ثمينة نزقة تحت هذا المظهر الرصين المحترم . طويلة الرقبة دائرية العنق ، كمثرية الوجه مع استطالة فى الفكين وفم واسع مكتنز الشفتين ، أنف طويل مستقيم شامخ ، عينان سوداوان واسعتان كعيون البقر يلمع فيهما بريق ذكاء مسجون مهيض الجناح منذ الصغر ، وجرأة معتقلة ، ووجل دائم من رقيب صارم مجهول . هو يحجل

فى مشيته كمشية الغربان ، أو العربان الذين تعودوا على أن تكتفى أقدامهم بلمس أرض الصحراء فحسب لترتفع فى الحال بخطوة أخرى ، حتى ليرتفع الجسد كله ويهبط لدى كل خطوة وخطوة ، مما جعل «نازك» تحاول الانضباط مع إيقاع خطوه المليئ بالنزق والإختيال . من يراهما لابد أن يلفته منظر وجهيهما المتجاورين كأنهما الكرة الأرضية المستخدمة كوسيلة إيضاح فى المدارس ، بجانبين أحدهما مظلم والآخر مشرق . على ضوء الجانب المشرق تتأمل عين الرائى فى الجانب المظلم فتجد وجها مبططا أصفراوى الملامح كوجه قطاع الطرق ، متورم القسمات بفعل كبرياء مصطنع ، وثقة بالنفس سميكة صلبة لم تفلح فى إخفاء ما فى أعماق نفسيته من انسحاق دفين وشعور بالوضاعة لعله رافد من جهة أمه ، إذ يؤكد أهل بندر دسوق أن أباه رجل طيب القلب نقى العنصر حقا ، فى حين أن أمه حرباء دميمة الوجه سيئة المعشر ، وكلنا نعرف أن لطشة الأدب والشعر هى ميراث أبيه كقبس من روح نيرة انحصر فى مرحاض .

نحن الآن جلوس على المقهى التى نلتقى فيها كل ليلة نتطارح الآراء والأشعار والأزجال نتكلم فى كل شئ . نرى نازك وفهمى مقبلين من بعيد ، نعرف أنه قد جاء فى إجازته الأسبوعية ، وأنه نزل فى ضيافة أهل خطيبته بمنزلهم فى البندر ، إذ أن منزل أبيه فى كفر بعيد . نعرف أنه خارج بها ليفسحها ، سيدخلان سينما البلدية ، سيمشيان طوال العصرية على شاطئ ترعة البدالة وسط الحقول ، سيجلسان فى محل متاخم لنادى الموظفين فى شارع الكورنيش ، سيأكلان بعض قطع الحلوى ، يشربان عصير الليمون أو المانجو ، سيدخن هو بشراهة كى يثبت فى ذهنها صورة الشاعر الشارد على الدوام فى أسمى القضايا والمشاعر والمعانى الإنسانية العميقة ، سيظل طوال القعدة يداعب شعيرات فى صدغه أو شاربه . نعرف أنه قد تعمد المرور بنازك

من أمام مقهانا ، رغم اللفة الطويلة والبعد الهائل بين الشارع الأفرنجي والحى البلدى القح الذى يقع على رصيفه مقهانا ، لكى يرينا نفسه وقد صار شخصية مهمة من علية القوم يلبس لبس البكوات ويتأبط أجمل فتيات المدينة ، البيك يفسح الهانم ، لاغرو فأبوها أشهر طبيب فى المدينة ، عيادته حافلة على الدوام ، أولاده كلهم جامعيون . كأى بيك مهم مشى من أمام المقهى رافعا رأسه المدورة المدببة من أعلى كرأس الهدهد ، مداريا عينيه تحت منظار أسود كطه حسين . وحيث يتأهب بعضنا لرد التحية وإبداء الحفاوة إكراما للهانم ، إذا به يمر على الرصيف فيتجاوزنا ، يهملنا تماما ، يتجاهل الجميع كأنه لا يعرف هذا المقهى . تحمر وجوهنا غيظا وكسوفا ، نتابعه بنظرات اشمئناط ، نعاقبه بأن نعلق أبصارنا بالبطيختين المتنفضتين تحت الفستان أسفل قناة الظهر ، وبالساقين المبطرختين المبرومتين فى دقة وإحكام .. نظل نتابعهما حتى يختفيان. يصدق توقعنا بمجيئه فى آخر الليل ليشرب فنجان قهوة ويمتع نفسه بما قد يظهر فى أعيننا من حسد له وغبطة ، لكننا نكون قد اندمجنا فى لعب الطاولة أو فى أحاديث جانبية خاصة ، فلا نعيره التفاتا ، إلا أنه يفتعل مدخلا للحديث فينتقل بكرسيه وقهوته إلينا ، ليظل يتحدث وحده فى متفرقات ثقافية تحتشد بأخبار الكبار واللامعين ، للإيحاء بأنه قد صار معاشرا للقمة ، ومن العليمين ببواطن الأمور ، وأن المسافة بين طموحاتنا وبين واقعه هو الماثل مسافة طويلة ، وأننا قد نلهث حتى السقوط من الإعياء دون اللحاق بنجوميته المرتقبة . حينئذ ينضم إليه «عبد الصمد عبيد» ، الوحيد بيننا الذى له شرعية التيه علينا فى المقهى ، حيث أنه يرسل خواطره الأدبية وقصائده التى يكتبها فى كل مناسبة قومية أو سياسية أو حتى بمناسبة حادثة من الحوادث المدوية ، إلى كل المجلات والصحف بدأب يحسد عليه . يصرف على طوابع البريد ما يمكن أن يكون مصروفا كاملا للواحد منا فى شهر ، إذ أن معظمنا من قرى ريفية تبعد عن

البندر بأميال طويلة ، أما عبد الصمد عبيد فمن قرية تبعد عن البندر مسافة يتريضها المسافر فى الصباح ، أهلها لا يعتبرون أنفسهم على سفر حين يجيئون إلى البندر ، من المألوف أن ترى حمير أهلها وركائبهم وقففهم تنتشر فى شوارع البندر باستمرار ، يبيعون اللبن والخضراوات والفواكه والحبوب ويشترون بأثمانها أشياء من البندر كالأدوية والملابس والأسماك والحلوى ، ناهيك عن تجهيزات العرائس . القرية اسمها «خروب» ، يضاف اسمها أحيانا إلى اسم عبد الصمد عبيد : الخروبى . لاغرو أن يجئ كل يوم من قريته نظيفا لامعا ، يفرط فى التأنق وإحكام الملبس والحرص على ارتداء البذلة الكاملة ورباط العنق تحت الياقة المنشاه ، ودبوس مذهب يثبت رباط العنق فى القميص ، وزرائر من فصيلته تلمع فى أسورتى الكمين البارزتين من كمى البذلة ، وحذاء من الجلد اللميع ، وجورب حريرى شفاف . يحرص عبد الصمد دائما على أن يضع ساقا على ساق بطريقة التقاطع حتى يظهر تناسبه وتناسب كل الألوان مع بعضها . فإذا تجاوزت عن قامته القصيرة وجسده المدكوك فى بعضه إجتذبك وجه أبيض يخفى تحت تلويحة الشمس شقرة تكاد تكون أجنبية ، مع سوالف طويلة إلى الفكين ، وغزارة شعر مصفوف بعناية إلى الخلف مع قبة صغيرة على الجبين تلمع كأنه يسقى شعره كل يوم بالزبد واللبن . يخيل لرائيه أنه بذرة فرنسية قديمة استفحلت من الداخل واكتسبت صلابة الفلاح المصرى؛ حتى يده النظيفة بأصابعها الطويلة حين يسلم عليك بها يحرص على إشعارك بقوته ، فتبدو ككماشة من الحديد لا تتأتى إلا لفلاح عروقه موصولة بحديد الفأس . وجهه جميل بالفعل ، أنفه مستطيل سرح ، فمه مسمسم قليلا ، بأسنان مغسولة بالفرشاة لتوها ؛ عيناه واسعتان قويتان برموش طويلة . رغم أنه عضو فى شلة المتأدبين والشعراء ؛ ورغم حصيلته المميزة من المفردات اللغوية العتيقة الرنانة ، وقدرته على محاكاة النظم على نسق القصائد الشهيرة ؛ فإنه فى

الحقيقة يضمر فى نفسه أمنية دفينة بأن يصبح ممثلا مرموقا وأن تجيء أفلامه لتعرض فى سينما البلدية ويتفرج عليها أهل البندر وخاصة البنت « إخلاص » إبنة مأمور البندر التى يحبها فى السر ويجد فى نفسه الجرأة على مغازلتها وكتابة الرسائل إليها يدفنها فى كتب أدبية يعيرها لها ، ويكتب لها موضوعات الإنشاء ، وهى منبهرة به إلى حد ما ، إذ هو جميل ومتمسك بمظاهر الرجولة والشهامة والكبرياء ، ودائم الترديد للعبارات والأقوال المأثورة الرنانة التى تحض على الأخلاق الحميدة وتشير إلى المعانى السامية ، ويغير ملابسه دائما ويكويها بما يوهم بأنه ابن أحد أثرياء الريف . ولاأحد يعرف ماذا سيكون مصير علاقته بالبنت «إخلاص» لأن الجميع يعرف أنه مخطوب لابنة خالته منذ الصغر ، ويستعد للدخلة عليها فور حصوله على عمل . ثم إن إلحاحه على الصحف والمجلات كثيرا ما ينجح فى نشر اسمه بالمطبعة تحت نصف عمود من الكلام المنمق المسبوك أو بضعة أبيات من الشعر الطنان . حرصه على شكله وأناقته لا يقل عن حرصه على حياته نفسها . أما حرصه على استعمال الأشياء الحديثة اللافتة فلا مثيل له ، دائما أبدا يحب أن يكون أول من استخدم كذا ، الشىء اللافت إذا ظهر مع أحد قبله لاينام حتى يقوم بتعويضه فى شىء آخر : القلم الأبنوس الباركار ، النظارة البيرسول ، الولاعة البوتاجاز الرونسون ، الراديو الصغير الحجم ، الساعة الميدالية ، فم السجائر الذى ينفك إلى قطع ليمكن تنظيفه من الداخل ، ناهيك عن أشهر ماركات الصوف وأربطة العنق . أبوه موظف فى مصلحة الرى ، لعله ملاحظ أو مفتش أو ما أشبه ، ولديه إلى جانب الوظيفة فدان من الأرض الزراعية يزرعه بنفسه ، وليس له من الأولاد سوى عبدالصمد وأخيه يسرى الذى يصغره بسبع سنين ، وبنت متزوجة حديثا من شيخ خفراء قرية مجاورة . هو رجل يجيد القراءة والكتابة ولديه إلمام بالسياسة بحكم عشرته لمهندسى الرى وأضرابهم . وطموحه كله قد بات مركزا فى ولديه ،

أن يعلمهما فى المدارس كأبناء الذوات حتى يصير من حقهما الإنضمام إلى طبقة الأفندية عن جدارة واستحقاق . وصحيح أن عبدالصمد قد بات يكلفه الكثير ، وقد فشل فى الدراسة بعد أن مكث فى السنة الرابعة الثانوية أربع سنوات دون أن يحصل على شهادة الثقافة فانقطعت صلته نهائيا بالمدرسة على أمل كاذب بأن يحصل على الشهادة من منازلهم ، إلا أن عبيد أفندى يشعر بكثير من الفخر كلما رأى أبنه عبدالصمد أفنديا محترما وآخر شياكة وأكثر أناقة وجمالا من أبناء رؤسائه الكبار ، ويكاد ينبهر إعجابا كلما سمع إبنه يتكلم بالعربية الفصحى أو يلقى قصائده فى حفلات المدرسة وسرادقات المرشحين فى الإنتخابات ومناسبات الأفراح ، حينئذ يشعر أنه قد أنجب بالفعل ، كما يشعر أن «الولد» سوف ينجح فى حياته بصرف النظر عن الشهادة ، ولهذا فإنه لا يبخل عليه بأى مصروف ، ويضاعفه له كلما أراه اسمه مطبوعا على ورق الصحف .

عبد الصمد عبيد هو الصديق الصدوق لفهمى عزيز ، رغم أن كلا منهما يضمر للآخر حقدا دفينا لايظهر إلا فى لقطات عابرة نكتشفها نحن ونتغامز . إلا أنهما لا يتخيران عن بعضهما فى القدرة على التودد وإضفاء الحرارة على اللقاءات بينهما وفى الرسائل التى يتبادلانها عندما يسافر فهمى ، والصور التى يتصورانها معا فى لقطات لافتة كصور الصحف . عبدالصمد هو أول من يقود الهجوم على فهمى عزيز لأتفه الأسباب ولكن بطريقة تحتية خبيثة ، إذ يؤلب عليه الجميع حتى نادل المقهى ، يوحى لهم بأنه متعنطز على الفاضى وطالع فيها ، ويشيع أنه يسطو على أشعار صالح شرنوبى وفوزى المعلوف وعبدالحميد الديب، لايعنيه إن كان مستمعه يعرف شيئا عن هؤلاء الشعراء أو لا يعرف ، إنما يعنيه دائما أن ينبهر المستمعون بمعلوماته وبعدد الأسماء والأعلام التى يرددها فى الحديث الجارى مع أنه ربما يكون قد استمع اليوم اسم علم من هذه الأعلام

لأول مرة فى حياته دون أن يعرف عنه أية معلومات سابقة . مع ذلك هو أول من يهرع لملاقاة فهمى عزيز بمجرد أن يهل على المقهى ، حيث ينتفض واقفا بشهامة ريفية زائفة لكنها متقنة ، حيث يطق يده بالسلام فى قوة ، يتلقفه بالأحضان ، ينادى على النادل فى حفاوة كبيرة ، تأخذه الحماسة فينكشف لنا زيف ما أخبرنا به من قبل ، إذ يتضح أنه رد على كل رسائل فهمى التى زعم أنه لم يعرها التفاتا ، يتضح أن فهمى هو الذى يتباطأ فى الرد بما يتضح أن عبدالصمد يغبطه على وظيفته وعلى خطيبته وما سوف ترثه من ثروة ، يتضح أنه ألح على فهمى كثيرا فى أن يبحث له عن مسكن بجواره إذ أنه انتوى السفر إلى القاهرة والإقامة فيها بصفة نهائية لاحتراف الأدب كالعقاد والمازنى . آخر ما كنا نتصوره أن يكون صادقا فى آخر خبر نقله إلينا عن نفسه ولم نصدقه ، حيث فاجأنا منذ أيام قليلة بأنه تلقى خطابا شخصيا من رئيس تحرير مجلة التحرير التى أنشأتها حكومة الثورة فى دار التحرير للطبع والنشر ، يطلب منه فيه الحضور إلي مقر المجلة لاستلام عمل تحريرى فيها إذ أن الموضوعات التى بادر بإرسالها إليهم بمجرد علمه بخبر إنشاء المجلة قد لقيت ترحيبا وأقنعتهم بموهبته الأدبية . ها هو ذا يعرض الخطاب على فهمى عزيز ، مكتوب على المظروف بالمطبعة : مجلة التحرير . ها هو ذا فهمى عزيز يخلع منظاره الأسود فتنكشف عيناه الخبيثتان المليئتان باللؤم والخسة ، وتنعوج شفتاه الرفيعتان بابتسامة صفراوية ، يعلو الشحوب صفحة وجهه وهو يقرب صفحة الخطاب من عينيه ، فيما راحت أطراف أصابعة تنتف شعيرات فى صدغه بعصبية شديدة . هاهو ذا ينحى صفحة الخطاب عن عينيه فى لامبالاة عجز عن إخفاء ما تحويه من إحن ومواجد ، ثم يرده لصديقه دون أن يعلق بحرف ، ولابد أنه - كما أوحى لنا عبدالصمد فى نفس الجلسة - كان يتمنى هذه الفرصة لنفسه وأن الغيظ يأكله لأنه يقيم فى القاهرة ومع ذلك تفوته فرصة كهذه .

الغيظ يأكلهما معا من «أحمد أبو عماشة» ، ذلك الشاب الغلبان الذى لا كيان له على الإطلاق ، إذ هو نجار طبالى ، كل ما يملكه من حطام الدنيا حقيبة العدة ، قوامها منشار صغير وفارة للمسح وشاكوش وقادوم وزردية وكماشة وسنبك للخرم ومتر خشبى من النوع الذى يطوى على بعضه فى شرائح متحركة ، وعلبة مسامير ، وكوز ملىء بالغراء . المفروض أن يتجول بهذه الحقيبة فى الشوارع والحوارى ، لكنه اليوم بات يستكبر على هذا التجوال ، أصبح يكتفى بالجلوس على المقهى متنكرا فى زى أفندى ، بكتفين مقفعين نحيفين كورقة تهم بأن تنطوى على نفسها ، وقامة طويلة نحيفة جدا تكاد تتهاوى من شدة الهزال والعوز وندرة الشبع . السروال والسترة والقميص والحذاء من معروضات سوق العصر أو ما يسمى فى القاهرة بسوق الكانتو ، ملبوسات اجربت على أكتاف أصحابها وتدهورت قبل أن تصل إلى جسد أبى عماشة ، الذى قلبها بواسطة الترزى على وجهها الآخر. وجه أحمد أبو عماشة هو الآخر فى حاجة لمن يقلبه ، إذ يبدو كأنه قد تهرأ وتدهور وتلوى وتلعبكت ملامحه من فرط العناء والإنفعالات والعصبية الناتجة عن مركبات نقص لا حصر لها ، هو الذى علم فهمى عزيز هذه الحركة العصبية إذ لا يكف عن العبث بأطراف أصابعه فى شعيرات وهمية فى صدغه الحليق ، حتى لقد خلقت أصابعه ندبة تكاد تلتهب فى صدغه . مصدر غضبه الدفين أن جمهور البلدة لايريد الإعتراف بالشخصية التى طرأت عليه كأحد المبدعين المرموقين فى المدينة لدرجة أن الكثيرين من مختلف البلدان يحضرون إلى المدينة خصيصا للسؤال عنه فى المقهى والحظوة برؤيته . إن أهل البندر مازلوا يجيئون له فيطرقون سمعه فى بساطة :

– «قم ياسطى أحمد ! عندنا باب خن الفراخ نريد إصلاحه ! عندنا طبلية مكسورة ! عندنا مسمارين فى ترباس الباب ! عندنا ترابيزة ملخلخة !» .

بعضهم يقول له فى عشم :« يلا ياد يابو حميد ما تبقاش لكع !» . قد يحدث ذلك فى حضور من جاءوا لرؤيته مبهورين به ، أو فى حضور طاقم الأفندية من المتأدبين والشعراء وفيهم من هو على مقربة من وكيل وزارة أو مدير عام ، حينئذ تنهار أعصاب أحمد أبو عماشه ويكون يوما سيئا فى حياته المليئة بالأيام السيئة . أما إن تم ذلك وهو جالس فلا بأس من أن يقوم معه ، بل قد يهزر معه ببعض الألفاظ الخارجة قبل أن يقوم تعبيرا عن بهجته بكونه سيعود بعد قليل وقد عمر جيبه بنصف فرنك أو شلن أو ربما بريزة كاملة ، فيشترى خمسة بلمونت وشطيرتى فول وطعمية وربما دخل السينما .

«أحمد أبو عماشة» كان مغرما ببيرم التونسى وبالأزجال التى تنشرها جريدة البعكوكة ، فانبرى يقلدها ، فإذا هو موهوب موهبة كبيرة جدا ، وإذا هو قادر على أن يثقف نفسه بقراءة أى شىء يقع فى طريقه ، وكتب يسمع عنها من رواد المقهى أثناء الندوات فيسعى لاستعارتها أو استئجارها من المكتبات. كانت محاولاته الزجلية تطرب من يستمع إليها بما فيها من إحكام فى الصنعة وسهولة فى الموسيقى والقوافى وحكمة شعبية عميقة ناضجة بغلب الحياة ومرارة التجربة . وقد كان يبعث بأزجاله إلى الصحف والمجلات فتنشرها أو تنشر مختارات منها ، وإلى البرامج الإذاعية فتذيع الكثير منها ، ويراسل كبار الأدباء والمفكرين بالزجل فيردون عليه بإحترام كبير ، ويكتب الأغنيات الشعبية الحراقة ويبيعها بتراب الفلوس لمؤلفين محترفين ولهواة الغناء . حدث أن أقام المجلس الأعلى للفنون والآداب مسابقة فى الشعر الشعبى حول موضوع حرب السادس والخمسين كملحمة يكتبها من يشاء على طريقة الملاحم الشعبية . وكان أحمد أبو عماشة بسبيله إلى فعل شىء كهذا قبل أن يسمع عن هذه المسابقة ، وحين قرأ خبرها كان قد أوشك على الإنتهاء منها ، فبادر بتقديمها بين حشد هائل من المشتركين فيهم كثير من المحترفين . لدهشة الجميع فوجىء البندر كله بفوز

أحمد أبو عماشة بالمركز الأول فحصل على جائزة كبيرة وميدالية تذكارية ثمينة ، وتحول إلى أفندى حقيقى بشكل رسمى ، ونشرت الصحف والمجلات السيارة موضوعات عنه محلاة بالصور ، ووفدت الوفود من القاهرة تطلب رؤيته وتكليفه بكتابة برامج وأغنيات ، والتقطه المذيع الكبير طاهر أبو زيد فسجل معه حلقة لبرنامجه (جرب حظك) إستمع إليه الجميع بانبهار شديد ، وواظبت بعض المجلات الفنية على نشر أزجاله بإنتظام . وكانت الضربة القاضية لكل من فهمى وعبد الصمد أنه دعى للمشاركة فى مهرجان الشعر فى دمشق مع لفيف من كبار شعراء مصر .

بات يتجنب الظهور بين زبائنه القدامى ، فلا يحضر إلى المقهى إلا فى أواسط الليل ، ليجلس وحده بعيدا ، منزويا ، ينتف شعر صدغه بعصبية ، يتوقع العدوان من جميع الناس على ظهر الأرض ، ويتجنبهم ما أمكن ، ويؤول أحاديثهم وحركاتهم ويتوهم أنها مقصود بها السخرية منه فيبنى على ذلك مواقف عدائية من الجميع ، فيغلظ لهم فى القول مقدما ، ويبادئهم بالهجوم وسلاطة اللسان ، وقبل أن يتفاقم الأمر يهب منسحبا فى عصبية غاضبة كأنه لن يعود ثانية ، لكنه قد يعود بعدها بقليل ليطلب واحد شاى يشربه على مدى السهرة كلها . هنا يدور الغمز عليه فعلا ، ولكن بقدر من الحب لايستأهله ، إذ يعرفون أنه اختفى مسافة مادخن سيجارتين من الحشيش فى العشة التى يسكنها فى حارة العوانية .

ها هو ذا يحتفى هو الآخر بضيوف المقهى القادمين مع فهمى عزيز ، فيجلس واضعا ساقا على ساقا بروح معنوية مرتفعة ، ويتحدث عن موعد سفره الذى تقرر تنفيذه بعد أيام للإلتحاق بعمل فى وزارة الثقافة عينه فيه يوسف السباعى الذى كان يحظى بلقب لا يخلو من سخرية هو : أركان حرب الأدب والثقافة ، وتكون النكتة واضحة إذا عرفنا أن شغلته فى الأصل عسكرية إذ كان

لواءً بسلاح الفرسان . أخيرا سيصبح أبو عماشة موظفا حكوميا قد الدنيا وهاهوذا يأخذ عنوان فهمى عزيز لكى يزوره ، وها هوذا فهمى يكتبه بقلم حبر ماركة تروبن على كارت مكتوب فى وسطه بالمطبعة : فهمى عزيز ، وتحتها : شاعر وصحفى ، على وزن تاجر وترزى . ولم ينس أن ينبه أحمد همسا أن رقم الهاتف هذا هو هاتف الجيران لأن هاتفه الخاص على وشك أن يتم تركيبه ..

كان من الواضح أننى غير معجب بأى شئ من هذا الذى أراه ، كما كان من الواضح أننى معنى بشئ واحد فقط هو صاحب المقهى «عبد الكريم الحريرى» ، ذلك العجوز الحكيم ، النحيف البدن ، ذو الرأس الصغير ، وملامح الوجه التى تكاد تتلاشى . إنه كالطيف كالنسيم العليل ، لولا مخاطبتك إياه لم تره ، عشق الأدب وورث هذا المقهى فى زمن ترتفع فيه نفقات التعليم العالى ، وليس ثمة من يدير المقهى سواه ، فاستغنى عن التعليم واختار إدارة المقهى . ولم يمنعه ذلك من ممارسة هوايته وطبع مجموعة كتب على نفقته تضم قصصه وخواطره ونقداته وتحليلاته للقضايا الثقافية والاجتماعية التى يكتبها برصانة العقاد وجزالة المازنى ولكن بنصف ثقافة . على أنه أصدق الجميع وأكثرهم تواضعا وواقعية وعدم إدعاء ، يكفى أنه جعل للمقهى شنة ورنة ، وبسببها اشتهر بندر دسوق شهرة ثقافية توازى شهرتها بسيدى إبراهيم الدسوقى .. هاهوذا يجلس الآن خلف منصة الماركات كالعادة ، وفوق رأسه دولاب مثبت فى الحائط ذو باب زجاجى ، ترتص فيه كتب تراثية وحديثة ، بعضها لمؤلفين عمالقة زاروا المقهى وأهدوه نسخا منها ممهورة بتوقيعاتهم . ها هو ذا يتابع الجميع والصخب بنظرات تكاد تفلق عدسة المنظار الطبى السميك لتندفع الفرحة منها بهذه الحركة التى كان هو السبب فى إحداثها ..

رأيتنى أنهض واقفا تجاهه ، سلمت عليه . قام فأخذنى بالحضن فى حفاوة كبيرة جدا . كان واضحا أنه لم يرنى منذ بضع سنوات اختفيت فيها عن

المقهى . أفسح لى مكانا بجواره . جلست ، لاحظت أنه وحده ، فرحت لذلك ، خيل لى أن المقهى فقد رواده وصخبه القديم . طلب لى براد الشاى ، قدم لى سيجارة ، سألته عن الحال ، قال «عال العال ! كلكم سافرتم إلى القاهرة واحترفتم وتركتمونا فى ذيل القائمة !» . وكان سعيدا فى أعماقه وهو يقول هذا ، ثم أضاف مبتسما :

– «المقهى تجدد شبابها باستمرار ! لقد حل محلكم شبان جدد أكثر منكم حيوية وصخبا وطموحا ! لكن أقل منكم تحصيلا ! وأميل إلى الاستسهال ! ولا شأن لهم بالسياسة ! بل إن بعضهم لا شأن له بالوطن أصلا !! والغريب أن بعض الصحف تنشر لهم ! إن المصيبة هى كثرة الصحف وقلة الكتابة الجيدة !!» ..

كان من الواضح أننى جئت إلى البندر فى زيارة خاطفة حيث كنت فى قريتى لأمر ما ، وأننى استصعبت الرحيل دون المرور على المقهى ورؤية الاستاذ . وكان من الواضح أننى على غير ما يرام ، وأننى مهموم ومثقل بأشياء كثيرة كثيرة ، وأننى قد صدمت فى ناس كثيرين وخاب أملى فى أمنيات كثيرة . منظر البراد الأبيض الزنك فوق الصينية اللامعة كان حميما جدا ، رحت أضع قوالب السكر فى البراد وأقلبه بالمعلقة ثم أصب فى الكوب مستلذا . وكان الاستاذ مشوقا متلهفا لمعرفة كل أخبار القاهرة ، سألنى عن فهمى عزيز ، وعن عبد الصمد عبيد ، وأحمد أبو عماشه ، وعن مشاهير الكتاب والنقاد والرسامين والشعراء . يخيل إلى أنه لاحظ أننى ممرور من الجميع وأننى غير مستعد للإجابة عن أى شئ ، مع ذلك رحت أردد خلف كل سؤال : «بخير ! طيبون ! الحمد لله ! ربنا معاهم !» . هو نفسه لم يكن ينتظر الإجابة ، فقد راح يلاحقنى بالأسئلة حول أشياء كتبها هؤلاء وأولئك من الأصحاب والمعارف والهواة . حقا ! حقا ! إنهم ها هنا يتابعون بكل دقة وحماسة ، ويقدسون الكلمة المطبوعة ،

ويحترمون كل ما فقد احترامه فى أنظارنا فى القاهرة . ثم إنه بدأ يهدأ ويطلب تقارير ضافية عن كل شىء سألنى عنه . شعرت أنه شغوف بالفعل ، شعرت أننى قد بدأت أضيق ، لم أكن أعرف إن كان الضيق بسببه أم بسبب استيقاظ حالات الملل القديم من المقهى أم بسبب أشياء حدثت لى فى بلدتى ، لكننى كنت أتمنى الإنصراف فى الحال . رأيتنى أقف متأهبا للانصراف ، واضعا يدى فى جيب السروال منتظرا أن ينتهى من عد الماركات التى رماها النادل أمامه . فى وقفتى تذكرت أن الاستاذ طلب عنوانى فى القاهرة لكى يراسلنى عليه ، رحت أفكر فى الخلاص من هذه الورطة بلباقة . لم أجد مفرا من كتابة نفس العنوان الذى أعطيه لكل من يطلب مراسلتى . انحنيت على المنصة لأكتب العنوان فى مفكرة قدمها لى الاستاذ ..

فى الحال رأيتنى فى حجرة مكتب ممدوح الجمال مدير تحرير مجلة «نهضة الوادى» ، الذى بدا لى أنه أصدق أصدقائى فى القاهرة رغم أن معرفتى به تبدو قريبة العهد . كنت جالسا على كرسى جلدى ملاصق لمكتب ممدوح ، أمامى مباشرة مكتب فهمى عزيز الذى يعمل سكرتير التحرير ويشرف على ملحق أدبى وفنى يصدر داخل المجلة الصناعية مكونا من أربع صفحات يكتبها ناس ما أنزل الله بهم من سلطان ، كلهم ذوى مناصب فى مجلات أخرى يملكون فرص نشر القصائد والتعليقات فى مجلاتهم وصحفهم . تذكرت أننى جئت هاهنا فى الأصل لزيارة فهمى عزيز. كان ذلك منذ شهور طويلة تزيد عن العام ، أذكر أنه يومها أهملنى تماما ، وأن الذى اهتم بى وحياتى بأحسن تحية كان هو ممدوح الجمال ، الذى كان يكتب القصة القصيرة قبل أن يتحول إلى صحفى بارع ماهر . هو شخص رقيق جدا ، على خلق ، طويل القامة ، أبيض البشرة منبسط الملامح على وجه كفطيرة السميذ ، كبير الرأس كبير القلب مرح ، يموت فى المزاح البرئ والضحك الصافى بقدر ما يموت فى العمل بجدية

وإخلاص وتفان ، واسع العينين وواسع الصدر أيضا ، طبيعى فى أناقته الشديدة قريب الشبه جدا بالممثل القديم أحمد سالم ، كريم إلى حد كبير جدا قد يخلع ملابسه عن جسده ليستر بها عرى الآخرين . إحتوانى من أول لقاء ، شعر بمحنتى ، تعود أن يسرب يده من تحت المكتب لتغمزنى بخمسين قرشا أو جنيه كامل أو أكثر ، تعود أن يعزمنى على الغداء كلما زرته ، أصبحت أزوره هو، أصبحت أكتب عنوانى : مجلة نهضة الوادى ، ممدوح الجمال ومنه إلى فلان. كالجرذ الخبيث كان فهمى عزيز يدرك - لا أدرى كيف - أن ممدوح الجمال نفحنى شيئا ، حينئذ أراه يوجه لى غمزات ذات معنى ، أفهم منها أن السهرة الليلة ستكون عنده لأبيت حتى الصباح ، فأعرف أنه يستهدف النفحة التى أتعشم الاستناد عليها لعدة أيام ، لسوف ينجح فى إغرائى بالتضحية بنصفها على الأقل فى شراء قطعة من الحشيش ندخنها فى منزله على الشيشة ، وهو أمر كثيرا ما أضعف دونه وأستسلم له .

بزغ وجه الأستاذ فجأة ممسكا بالمفكرة يقرأ عنوانى ثم يصيح فى جذل طفولى :

- «الله ! أنت إذن تعمل مع فهمى فى نفس المجلة !!»

قلت بسرعة :

- لا ! ولكن هذا مجرد عنوان مؤقت !»

ثم سلمت عليه بسرعة ، وانصرفت ساخن الأذنين ..

الشارع كان طويلا جدا ، محتشدا على الجانبين بالعمائر العتيقة والجديدة ، المرتفعة الطوابق ، أما العتيقة فبنفس الارتفاع ولكن بطوابق أقل عددا . كان واضحا أننى أسير منذ وقت طويل مضى ، ولم يكن يساورنى أى قلق ، بل يداخلنى شئ من الإطمئنان . الشارع كان خاليا تماما من المارة ، كل

حين تمرق سيارة تعزف على الأسفلت اللامع زفيفا حادا ، ليعم الهدوء من جديد . ضوء فوانيس الشارع يناجى ضوء قمر شريد بين شواشى العمائر وحواريها الجانبية ، يختفى فى حودة ليظهر على ناصية مقبلة ، فيصاحبنى لخطوات ، لتحجبه عمارة شاهقة أو أهبط أنا فى نفق من الأنفاق العديدة التى مررت بها فى هذا الشارع الطويل الذى يبدو بلا نهاية ، وإذ انسلخ عن النفق أرى القمر مقعيا على صخرة من السحب الجرانيتية . كان ثمة ما يدغدغ أعماقى بفرح مرتقب ، لعل مصدره أننى الآن - لأول مرة فيما يبدو - أبدو كأننى أمشى لهدف معروف محدد . فجأة تذكرت أننى لست أسير بمفردى ، إذ أن ظل من يبدو أنه كان يسير معى زحف بجوارى أو لعلنى تلكأت نحوه ، اقترب منى صاحب الظل ، بدا كأننى كنت أعرف أنه فهمى عزيز ، وأننا ابتدأنا السير معا من وسط المدينة فالعتبة الخضراء فشارع أحمد سعيد . كنت أعرف الآن أنه يقتادنى إلى شقته فى حلمية الزيتون لكى أبيت عنده الليلة فى حجرة الأنتريه . كنا قد اشترينا قطعة الحشيش بمائة وعشرين قرشا من مرسى فرغل بحى بولاق ، لكى نشربها قبل النوم ، ونوقظ فى دخانها المنعش حميم الذكريات ، ويسمعنى آخر قصائده ، وأشحذ عقلى لأنقدها ، وربما قرأت عليه - من الذاكرة - بعض أفكار قصصى التى أنوى كتابتها حين يتاح لى مكان أبيت فيه وأكتب . تذكرت بكثير من الأسى أننى دفعت جنيها كاملا من ثمن قطعة الحشيش هذه ، ودفع فهمى عزيز عشرين قرشا ، زاعما أنها كل ما معه ، ولكى يثبت لى صدق زعمه وضعنى أمام هذه الورطة المهيبة التى لا أدرى كيف رضيت بها ، وهى أن نمضى إلى حلمية الزيتون سيرا على الأقدام لأننا لا نملك أجرة الأتوبيس وهى لا تزيد على خمسة قروش كان بإمكاننا اختصارها من قطعة الحشيش لو أنه صرح لى بذلك قبل شرائها ، لكنه جشعه فى التدخين . يقول أن هذا الأمر فات عليه وأننى فى تصوره أحتفظ فوق الجنيه ولو بخمسة قروش من النفحةالتى

تفضل عليَّ بها ممدوح الجمال . أخذت أسبه فى سرى وألعن ديك الذين خلفوه ، وديك معرفته ، فهذا الجنيه الذى تكبدته الليلة كنت أستطيع النوم به عشر ليال بحالها فى لوكاندة من لوكاندات شارع كلوت بك التى أبيت فيها عادة . يبدو أننى صرحت بشئ من هذا ، لأنه انبرى يقول إن فرصة لقائنا تساوى أكثر من أى نقود ، وأننى سأتعشى معه عشوة منزلية لا تقدمها المطاعم بأقل من خمسة جنيهات ، وسأنام على كنبة وثيرة فى مكان نظيف مريح ، فضلا عن أننا سنتحدث معا حديثا ذا شجون ، ولى أن أظل نائما حتى الضحى كما أشاء فهو لن ينزل غدا إلا متأخرا جدا . وكنت أشك فى أننى سأصلح لأى شئ بعد أن ينتهى هذا العذاب الطويل ونصل إلى الشقة فى حلمية الزيتون . وكان من الواضح أن هذه هى أول مرة يلين فيها قلب فهمى عزيز فيعزمنى على المبيت فى شقته ..

ها أنذا أصعد إليها سلما ضيقا . مشوار آخر تفسخت منه مفاصلى . حين توقفت لاهثا على البسطة الأخيرة كان كل ما يشغلنى شيئان اثنان : أن أسترد روحى التى صرت ألفظها مع كل نفس أتنفسه، وأن أضن بقطعة الحشيش فلا أرص منها سوى ربعها . إنحططت جالسا على الكنبة التى عرفت أننى سأنام عليها ، وهى مجاورة لحائط عرفت أنه حاجز بين الردهة وحجرة النوم، التى رأيت سريرها الوثير المخملى ملاصقا لنفس الحائط أثناء دخولنا من باب الشقة. «الأنتريه» منجد على قوائم معدنية لعلها من الألومنيوم السميك ، من ذلك النوع الذى أراه معروضا فى المحلات بكثرة. توجد مجموعة من الرفوف عليها مجموعة من الكتب المجلدة العتيقة فهمت أنها خاصة بأبيه الشيخ ، وكلها من كتب التراث الشهيرة ، ومعها بعض كتب حديثة ، وبعض المجلات الأدبية مثل مجلة الآداب البيروتية ومجلة الرسالة الجديدة. تركنى فهمى عزيز وغاب فى الشقة ، سمعت رنين صوت عذب مسكر عرفت أنه صوت نازك التى أصبحت زوجته وأنجبت له طفلة لم أرها وإن سمعت فيها أزجالا كتبها أحمد أبو عماشة

فى حفلة سبوعها منذ ما يقرب من عامين . هذه أول مرة أتذكر فيها نازك بعد أن كنت نسيتها فى سنين التشرد الفائتة . أصغيت لحديثها ، سمعته يعارضها بهمهمة مضغمة لم أتبين منها شيئا ، ثم سمعت خطوات زحف الشبشب على الأرض ، ثم انبثق ضوء تسرب إلىَّ فى الردهة قادما من حجرة مواجهة على اليسار عرفت أنها المطبخ ، وخيل لى أننى رأيت طيف نازك ملفوفا فى روب منزلى عليه ورود كبيرة وتفوح منه رائحة عطرية فريدة ، ثم رأيت شبح فهمى عزيز يمرق هو الآخر مرتديا المنامة وفوقها الروب دى شامبر الذى كنت أرى الباشوات فى أفلام السينما يرتدونه فى منازلهم . بعد قليل جاء حاملا الشيشة ومنقد النار فوقه ثلاثة حجارة وماشة ساذجة لا تسعف بل لا تصلح . وضع ذلك أمامى على طقطوقة ، ثم مضى وجاء بقطعة من المشمع فرشها تحتى وتحت الشيشة ، ثم مضى ، فأخذ المنقد وذهب إلى المطبخ وعاد واضعا فوقه قطعة كبيرة من الفحم شبطت فيها النار . وضع المنقد أمامى ومضى ، اختفى فى المطبخ ، بينما جعلت أمروح على الفحم المشتعل بورقة سميكة . بحثت عن الدخان المعسل فوجدته فى قعر الطقطوقة ، فصرت أفركه وأفرفره ، ثم أضعه على الحجارة . انتهزت فرصة غياب فهمى فنزعت قطعة الحشيش من جيبى واقتطعت منها ربعها أبقيته فى يدى ثم أخفيت الباقى ثم جعلت أوقع على الحجارة بتعميرات مفرودة خادعة حتى أوهمه بأننى أفرطت فى التوقيعات حينما أزعم أن الحشيشة قد نفدت . صهللت النار ، وصهلل ضرب الشيشة بعد التجربة والضبط ، وبقيت فى انتظار فهمى عزيز ، الذى طالت غيبته فى المطبخ بشكل مريب . أصخت السمع ، سمعت صوت احتكاك الشوك والملاعق بالأطباق فتذكرت وعده بالعشاء فالتمست له عذرا فى التأخير ، إذ لابد أنه الآن أوشك على تجهيزه ، لكن صوت احتكاك الملعقة بالطبق ظل مستمرا لوقت طويل ، يصاحبه صوت مضغ وصوت ارتشاف المياه ، ثم صوت فهمى وهو يتجشأ . ثم

استمر ذلك لوقت طويل حتى كادت النار تذوب وتنتهى ، ثم ما لبثت حتى سمعت صوت خرير المياه فى كوب . فى اللحظة التى هممت بمناداته رأيت شبحه مقبلا من المطبخ يحمل صينية صغيرة جدا عليها كوبان من الشاى الخفيف ، وضعها على كرسى بجوارى قائلا :

- «يا أخى لم يعد للسباكين ضمائر ! فى مطبخنا الماسورة مثقوبة جئنا بالسباك لإصلاحها ! أخذ خمسين قرشا بحالها ! حار ونار فى جتته ! ثم تركها مثقوبة من ناحية أخرى ! اكتشفت الآن أننى كنت أستطيع إصلاحها أحسن منه ! وقد كان ! منذ تركتك وأنا أعكرش فيها حتى أصلحتها بالفعل ! فلا تؤاخذنى إن كنت تأخرت عليك !!» ..

فلم أرد ، وسحبت قطعة نار ووضعتها كيفما اتفق على الحجر وقلت له : «ولع !» . لم يفهم أننى منحرف المزاج ، وأننى رصصت النارَ على طريقة المعسل الحاف ، مع أننى أول من يستنكر هذه الطريقة وأرى أن حجر الحشيش لا يحيا ولا يصح إلا بنار مطحونة فى مصفاة تنسكب على الحجر كقطرات من الجمر . أخذ يشد الأنفاس بقوة جهنمية وحس متبلد . وصرنا نشرب على هذا الوضع غير المريح حتى هدنى التعب تماما ولم أعد قادرا على تحريك أى عضو من أعضائى . غامت المرئيات فى ناظرى ، صارت الأرض تدور تكاد تتشقلب ، شعرت بغثيان مرير ، لم يغب عن فطنتى أن للجوع الشديد دخلا كبيرا فيما أصابنى . تراجعت بظهرى فأسندته وركنت رأسى على الحائط حتى لا يتدحرج ساقطا على الأرض ، أغمضت عينى طارحا ذراعىَّ بجوارى وكل أمنيتى أن يكف صوته عن الكلام ، إذ أنه منذ جلسنا لم يكن فى الوجود كله سوى صوته الرتيب المتلاحق الملحاح يضرب فى رأسى دون أن ينفتح له ولو ثقب صغير ينفذ منه إلى داخل رأسى، لكننى أذكر أنه ألقى عددا من القصائد الغنائية السمجة ، وقصائد المناسبات السقيمة ، وسوناتات - شوف قلة الأدب - مثل سوناتات

شكسبير كتبها عن الوادى الجديد وأسماها سوناتات الوادى الجديد . يا سلام ! هذه هى الكلمة الوحيدة التى نطقت بها طوال الجلسة دون أن يعتريها أى انفعال أو معنى ، كما أنه حكى عن فروسيته فى مواجهة ممدوح الجمال ، ذلك الزميل الأفاق الناعم كالثعبان الذى يحاربه خفية ليقصيه عن منصبه ليعين بدلا منه أحد أصدقائه التافهين ، لكنه - فهمى - سيريه مركزه ، سيدمره ، سيوقف نموه ، سيجعله يرجع إلى بلدته ليعمل بقالا أو كاتب أنفار . وكنت أقول : يا سلام ، بطريقة محايدة ، وفى قلبى نيران مشتعلة أود لو أصليه فيها .

ها أنذا كففت عن ترديد كلمة يا سلام ، وأعلنت غيابى التام عن القعدة ، إلا أنه ظل منخرطا فى الكلام وتقليب بعض الملفات لاختيار مقطوعة جديدة أو ربما وثيقة استقطبها من مكان ما لكى يكيد بها لممدوح الجمال حين تجئ ساعة الحساب التى هى لا ريب آتية . ألهمتنى السماء طريقة لإسكاته نفذتها فى الحال : صرت أصعد من شخيرى ، الذى ساعدنى عليه امتلاء صدرى بالدخان واللهاث وتعب الأنفاس ، حينئذ شعرت به ينهض حاملا الصينية ، فتذكرت أننى لم أشرب الشاى ، ثم صار يروح ويغدو بين المطبخ والردهة ، ثم عاد ونادانى بشئ من الرفق هو الخشونة بعينها :

- «وله ! واد يا فلان ! اتعدل !»

رمى فوقى بشئ ، انتبهت فإذا هى وسادة طويتها فوق الكنبة ، ورمى بطانية من بطاطين الجيش . خلعت حذائى وتمددت فوق الكنبة فاردا البطانية على ساقى ، وغطست فى بحيرة النوم المظلمة بكثافة ، صرت أسمع هدير شخيرى يتدفق متلاطما كأحجار صماء تضرب فى بعضها ، ثم ما لبثت حتى شعرت بأصابع مدببة تلكزنى فى ذقنى ، فانتبهت فزعا ، فتحت عينى بصعوبة ، رأيت شبح فهمى عزيز يقف ناظرا فى وجهى مرتديا روب الحمام على اللحم ..

قلت : «فيه إيه ؟!»

قال : «بطل خنفرة ! صوتك بيحدف قنابل !»

قلت : «آسف ! أتعبنى المشوار وقلة النوم !»

ثم اعتدلت على جنبى ، وبقيت نصف نائم نصف يقظان حتى لا أصدر هذه الأصوات القبيحة التى قد تستنكرها نازك . سمعت صوت باب حجرة النوم ينغلق من الداخل بالترباس ، .. استعصى علىَّ النوم تماما ، حاولت استدعاء التعب ولكن دون جدوى ، فأشعلت سيجارة رحت أدخنها وأنا مضطجع . كانت الشقة غارقة فى الظلام والصمت ، لكنه كان صمتا مريبا جدا ، إذ راح يسرب إلى أذنى صوت هزهزة السرير بشكل متصاعد كان كفيلا بإيقاظى من أعمق نوم . انتعشت كل أطرافى ، شعرت بشئ من الخجل . على أن صوت الهزهزة سرعان ما اندمج فى معزوفة الوحوحة المطوطة والشخر والغنج ، صوت نازك هو مصدرها جميعا ، ها هى ذى تتأوه تأوهات عميقة غنية بالنشوة طافحة باللذة تنشد المزيد والمزيد . صوت التأوهات يخرج من الحلق ومن الأنف ومن سقف الحنك ومن كل مكان ، مصحوبا بصوت بقبقة . الأرض كلها قد انتفضت، أخذت زخرفها وازينت صارت تروح وتجئ ، صرت أنا الآخر أروح وأجىء دافنا نفسى فى حشية الكنبة أكاد أخرقها وأظافر أصابعى تنهش فى لحم الوسادة ووبره ، وإيقاع صوت نازك يشيلنى ويحطنى ، وصفائح الدم تغلى وتفور فى رأسى وعروقى . ما لبثت معزوفة الأصوات حتى آبت إلى إيقاع واحد متلاحق يتصاعد إلى قمة الضراعة ، هى ضراعة تطلب النهاية لكنها تضمر الرغبة فى المواصلة ، وإيقاع صوت البقبقة ينثر رذاذا لاهبا يشى بأن النار فى طوقها مراحل عديدة من الوهج ، وصوت نازك يضرع : فهمى ! فهمى ! فهمى ! فهمى ! على جناح صوتها رأيتنى أشارف شطآن الذروة المتأججة العالية . أصابنى العنفوان حتى فقدت الإحساس بالمكان وبالخجل ولم أملك سوى أن أكون شريكا

ثالثا فى هذه الموقعة الجليلة التى ربما كانت رحاها تدور بين أطراف عديدة ، لكننى خشيت صوت هزهزة الكنبة وكانت أكثر جعجعة من السرير ، كذلك خشيت أن أترك عليها بصمة البلل . تسللت هابطا عن الكنبة متمددا فوق الأرض ، وكانت الذروة العالية قد بللتنى بموجات القذف العالية فصرت أغوص فى لزوجتها وصولا إلى ذروة أخرى ، حتى آب صوت الإيقاع النشوان إلى فحيح كفحيح القطار يرسو على رصيف المحطة ، فأفرغ قطارى كل ركابه وانثنى عائدا بى إلى الكنبة فاعتليتها ساحبا البطانية فوقى . بعد برهة طويلة سمعت صوت الباب ينفتح ، ووقع خطوات ، وتكة زر الكهرباء ، ولمحت من خلال جفونى المطبقة بصيص ضوء قادما من الحمام ، فصرت أرتعد كالدجاجة تحت المطر ، شاعرا بأن جسمى قد تخفف من أحمال كثيرة ثقيلة كانت ترهقنى . وكانت رخات المطر تقبل نحوى من باب الحمام فأترك خيالى ينقل جسدى ليضعه تحت هذا الدش الجميل ، وكنت بالفعل أشعر بلسعة المياه الرطيبة تسرى فى عروقى تضاعف من نشوتى ..

صرت أحث الخطى نحو خيمة النوم التى كانت على مقربة . كنت واعيا بنفسى وأنا أدخلها وأغيب تماما فى حضنها . غير أننى ما كدت أدخلها حتى رأيتنى أخرج منها على الفور من الفتحة المقابلة ، حيث كان ثمة يد تشدنى تدفعنى تلكزنى تهزهزنى بعدوانية مضمرة . فتحت عينى ، وجدت فهمى عزيز يقف مرتديا كامل ثيابه . انتفضت جالسا تطقطق عظامى . كانت نوافذ الشقة كلها مفتوحة وأنفى مليئة برائحة الشياط ، وشمس الصباح الباكر تنزل فى ضيافة المطبخ وجزء من الردهة ، ورائحة الصابون المعطر تختلط برائحة نازك برائحة الشاى بالحليب ، الذى رأيته على الطقطوقة وبجواره شريحة خبز سمراء تنطوى على مسحة من الجبن الأبيض . وكان فهمى ممسكا بكوبه يجرع منه فى شراهة ويمصمص لدى كل شفطة بشفتين غليظتين شهوانيتين . اعتدلت ، لبست

حذائى على عجل . قال : «تغسل وجهك ؟!» . قلت : «مش مهم !» ، ومسحت عينى بيدى ، وشعرت بنفسى ملتصقا ببقعة متصلبة من السروال ، فتململت فى جلستى حتى تخلصت منها ، وسويت شعر رأسى بأصابعى . قال : «اشرب الشاى !» . وكان فى نيتى أن أرشف رشفة واحدة ، لكننى حين وضعت الكوب على فمى وجدتنى منجذبا إليه أكاد أدفن رأسى كله فيه ، فصرت أرشف بكل لذة ، رشفات متتالية ، وخياشيمى تعبق بنكهة شهية عرفت أنها نكهة نازك ، حتى أتيت على الكوب فى لحظات قليلة . تركنى فهمى وغاب فى الداخل قليلا ثم عاد ممسكا بحافظة أوراق جلدية كملفات طلبة الجامعة ، وبين أصبعيه سيجارة يستغيث وهجها من ضمة شفتيه المحروقتين فى المنتصف ولسانه لاينى يخرج طرفه ليبللهما استعدادا لجذبة النفس القادم . وكانت السيجارة تطشطش برائحة الحشيش ، فاستريت ، فصرت أتحسس جيوبى بحثا عن القطعة التى أدخرتها ، لم أجدها ، صرت أنظر فى الأرض وتحت الكنبة ، وهو يتابعنى بنظرات تطفح بالخبث المتخفى تحت بطانة زائفة من الدفء والحنان . قال بلهجة ذات معنى :

– «فيه حاجة وقعت منك ولا إيه ؟!»

ترددت قليلا ثم اندفعت قائلا :

– «حتة حشيش كانت فاضلة معاية ! فى جيبى الصغير ده !»

سلط علىَّ نظرة احتجاج تتأهب للردح ، قال ساخرا :

– «باقولك أيه ! ما ترميش بلاك علينا ! انت بعضمة لسانك قلت دا آخر حجر معايا ! لما سألتك عن سيجاره أنام بيها !!»

لم أكن واثقا إذا كنت قد قلت له ذلك بالفعل أم أنه لم يسألنى من الأصل عن شئ ، لكننى كنت واثقا من أنه انتهز فرصة نومى العميق قبل إيقاظى

بلحظات وسرق القطعة من جيبى . كان غضبى الدفين يدفعنى إلى البصق فى وجهه أو صفعه ، إلا أننى طوحت رأسى فى أسف إكراما لمظهرى فى نظر نازك ، ونهضت واقفا ، فتقدمنى نحو الباب ، وخرجنا ..

جلسنا على مقعدين متجاورين فى الأتوبيس ، وكان يصدر عنه لفح كلفح الإشعاع الذرى ، ذو نكهة كنكهة المازوت المحترق . شراهته فى التدخين تصيبنى بالتقزز والغثيان ، إذ يسرب أطراف أصابعه فى جيب القميص لتخرج ممكسة بطرف السيجارة لتشعلها من عقب السيجارة المنتهية ، بعد أن يبلل شفتيه المحروقتين المشقوقتين . إذا به يقول دون مناسبة :

– «أرى أن ممدوح الجمال يتودد إليك ! على فكرة ! لا تغرنك نعومته ! ما تراه فيه أو بمعنى أصح ما يفعله معك ليس كرما أصيلا فيه ! إنه مثلا حين يطلب منك أن تعاونه فى إعادة كتابة بعض موضوعات المحررين الضعفاء فإنه يريد أن يضربنى بك ! لأن هذا الذى يكلفك به إنما هو صميم عملى أنا ! وإنه ليتجاوز حدوده بعمل كهذا !!» ..

الغثيان فى حلقى ، حولت وجهى فى اتجاه بعيد عن عينيه ، شردت وقد شعرت بقلبى ينقبض وثمة قبضة تعصره بقوة .. لحظتها رأيت ممدوح الجمال يسير بجوارى فى شارع قصر النيل ذات ليلة مضت منذ ما يزيد على بضعة أشهر . كان الشارع فى غاية الهدوء والجمال ، والوقت قرب العاشرة مساءً ، وكنا فى طريقنا إلى بار الجمال – مجرد تشابه فى الأسماء – على ناصية شارع جواد حسنى أمام مبنى البنك المركزى القديم . كنت مغتبطا جدا ، فممدوح الجمال رغم أنه يشرب الخمر فإنه ليس من رواد البارات ، إلا أن مناسبة ما كانت فى الأمر ، أغلب اليقين أنها كانت عودة صديقه الشاعر نجيب سرور من الخارج بعد تشرد طويل فى أوروبا الشرقية واضطهاد من الحكومات حتى المصرية ، ورأى ممدوح الجمال أن هذه مناسبة تصلح لأن يخرج عن

مألوف عاداته ويذهب إلى البار للاحتفال بعودة نجيب سرور مع مجموعة من أصدقائه القدامى . أخذ يحدثنى فى الطريق عن عبقرية نجيب سرور النقدية ، وعبقرية عبد المعطى حجازى الشعرية ، وإنسانية كامل عبد الغفار المثقف الذى يصرف على الموهوبين من جيبه حتى لا يأكلهم اليأس وتسحقهم قسوة قلب المدينة . فجأة قال :

– «باين عليك ممعكش فلوس ! على كل حال حنتعشى فى البار كباب ! وحنشرب وندخن ! ونضيع لك تلات تربع الليل ! وأدى خمسين قرش خليها معاك تتصرمح بيها من الفجر لغاية ما أشوفك تانى يوم الظهر !» .

ثم قال وهو يقدم لى سيجارة ماركة الجمل بدون فلتر :

– «على فكرة ! أنت يجب أن تلم نفسك ! فى الشهر القادم سأزيد لك المكافأة خمس جنيهات !»

دهمتنى الكلمة ، توقفت قائلا :

– «أى مكافأة تقصد ؟!» ..

جذب نفسا من السيجارة ونظر فى عينى باستراية ودهشة :

– «ألم تقبض مكافآت من المجلة ؟!»

– «أية مجلة ؟!»

– «مجلتنا ! نهضة وادى النيل ! إننى أضع لك كل شهر مكافأة على الموضوعات التى تعيد كتابتها ! ذلك منذ ستة شهور تقريبا ! اعترض رئيس التحرير فى أول شهر فقط ! ثم أقنعته باستحقاقك لها ! أعطيته موضوعاتك ليراجعها فراقت له عباراتك الجميلة ! وأصبح يضع المكافأة بخط يده تلقائيا بدون أن يسأل إن كنت أنتجت هذا الشهر أم لم تنتج !!» ..

دش من المياه الباردة يغمرنى ، شعور بالفرح والبهجة والترقب والحذر ومشاعر كثيرة مختلطة . قلت :

– «هذه أول مرة أسمع فيها هذا الخبر ! أقسم على ذلك ! ولم أقبض مليما واحدا من صراف مجلتكم ! ولم يبلغنى أحد بذلك !»

صار ممدوح الجمال يصفق كفا على كف فى حيرة وذهول ، يبدو عليه أنه يريد قول شئ لكنه يمسك عن قوله ، لكنه قال فى النهاية وهو يحاول السيطرة على أعصابه :

– «غدا تجئ ونطلب الصراف لترى بنفسك !»

– «وهو كذلك !»

ظللت طوال السهرة فى بار الجمال أفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث فى أمر هذه المكافآت طوال الشهور الستة الفائتة ، ولولا نكات نجيب سرور الحراقة ، ولماعية ذهن كامل عبد الغفار ، وما يحكيه نجيب عن تجربته المريرة وما فيها من إثارة شديدة لخيالى ، لولا كل ذلك لما استطعت أنا وممدوح نسيان أمر المكافآت التى لم أصرفها رغم تواجدى الدائم فى مقر المجلة وتحت بصر الصراف . فى صباح اليوم التالى طلب ممدوح الجمال صراف المجلة ، وجئ بكشوفات الصرف فروجعت فاتضح أن فهمى عزيز يصرفها كل شهر نيابة عنى ويوقع أمامها توقيعا مضغما لا هو توقيعى ولا توقيعه إنما هو مجرد حركة دائرية بخط يشقها فى المنتصف . صراف المجلة بالطبع لابد أن يثق فيه لأنه من المفروض أنه شخصية كبيرة فى المجلة ، ثم إن فهمى عزيز أفهمه أننى بلدياته وأننى من طرفه وأعمل تحت رئاسته . من الصراف صحبنى ممدوح إلى رئيس التحرير . كان رجلا فى غاية الرقة والدماثة يدعى «سليم فاخر» ، من الضباط الأحرار ، وأهله من الموسرين القدامى فى حى الجمالية ، مغرم بالأبهة

كسلوك أصيل فيه ، إذ هو بالفعل جميل كغصن الزيتون ، ربعة القامة ، أبيض اللون مع شقرة خفيفة لعلها مسحة خجل مولودة معه ، أنف دقيق مسمسم ، ووجه مستطيل نبيل الملامح يأسف مقدما لكل ما يتوقع أن تفضى به إليه ، ولدى كل كلمة تقولها يقطب حاجبيه يستبشع بها ما تحكيه ، قد يتأتى بشفتيه ، ثم يأمر فى الحال بأى شئ ، ربما وضع يده فى جيبه وعرض عليك نقودا ، ربما أمسك بسماعة التليفون ليوبخ من أغضبك ، ربما يشيعك حتى الباب غارقا فى أسفه وخجله إذا لم يستطع أن يفعل لك شيئا مهما ، ولمسة الإخضرار فى عينيه تعكس جمال الكرة الأرضية ، ثم يخطر فوق البساط عائدا إلى مكتبه ، السروال المعتبر الواسع الساقين بحمالات أنيقة عالقة بكتفيه فوق القميص الحرير الطبيعى ، ورباط العنق مفشوخ حول رقبته القصيرة الممتلئة ، والدبوس الذهبى مائل فى إهمال . أول شئ يفعله حين وصوله للمكتب أن يتناول الغليون من فوق صينية من الفضة المكفتة ترتص فوقها مجموعة من الغلايين مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع ، ثم يشعله بالولاعة الذهبية ، يجذب عدة أنفاس متلاحقة يتزايد عمقها ويتكاثف دخانها فى النفس الأخير ، ثم يضع الغليون ، وينكفئ على الأوراق أو الجرائد . حتى مكتبه غاية فى الأناقة ، مشغول بالأرابيسك ناهيك عن طاقم الجلوس الأرستقراطى ، والستائر الثمينة ، والراديو ماركة فيلبيس بجواره ، وجهاز التليفزيون فوقه ، ومشجب كالشجرة علقت عليه سترة صوفية زاعقة الفخامة . من عادة «سليم فاخر» أنه بمجرد وصوله إلى مكتبه يخلع حذاءه ويلبس بدلا منه خفا من نوع غريب جدا من الجلد لا ثقل له على الإطلاق كأنه من حرير القز ، مع ذلك متين كالزمن ، له نعل كقالب من الزبد ، ووجه بويرة ، يبدو أنه من جلد الثعلب . وذلك لكى يتمكن «سليم فاخر» من الوضوء والصلاة فى مكتبه عندما يحين الفرض . كان هذا الخف مثار إعجاب المجلة كلها ، وبعينى رأسى هاتين شاهدت «فهمى عزيز» ذات يوم وهو يضعه

بين طيات الجرائد ويخرج به ظنا منه أن أحدا لم يره . كان «سليم فاخر» يومها مسافرا إلى الخارج فى مشوار رسمى . ياللثورة العارمة التى أقامها يوم بحث عن الخف فلم يجده ، شاهدت العقوبة القاسية التى وقعت على جميع السعاة ، تألمت ألما كاد يقتلنى لعم رجب ساعيه الخصوصى الذى نفاه إلى مكان قصى فحرمه من مميزات كانت تسنده ، ولم أجرؤ مع ذلك على الإفصاح بما رأيت خوفا من الدمار الذى توقعت أن أتسبب فى إحداثه بحمق لو أننى فتحت فمى بكلمة ..

حين دخلنا أنا وممدوح الجمال لاحظت أن «سليم فاخر» أتى بخف جديد من نفس النوع ولكن بلون أبيض ، فبدا كأنه يلبس أرنبا فى قدميه ، فكتمت رغبتى فى الإبتسام . وكنت فى الواقع أعانى كثيرا جدا من الشعور بالخجل وربما الوضاعة ، حيث قد بدا لى للحظة خاطفة أننى الآن أستخدم كمخلب قط ضد الشخص الذى جئت ها هنا عن طريقه ، لكننى حين جلست على المقعد الوثير ونظرت فى عينى «سليم فاخر» أحسست أننى جالس مع شخص كل وظيفته فى الحياة أن يسمعنى باهتمام وأخوة ، ففى ملامح وجهه إغواء لك بالإفضاء والبوح ، وشحذ لقدراتك الذهنية على تذكر التفاصيل وتفاصيل التفاصيل ، مع ذلك آثرت الصمت . تولى ممدوح الجمال مهمة توضيح الموقف برمته . فغرق وجه الرجل فى عرق الخجل وراح يمسح وجهه بالمنديل ويتلفت لجهاز التبريد يستحثه على مزيد من الطراوة ، وكان الإشمئزاز واضحا عليه ، وإذا به يقول لممدوح فى أسف :

- «المفروض على الآن أن أوقع قرار فصلك أنت !! لأنك أنت الذى رشحت لى فهمى عزيز هذا للعمل معنا !! قلت إنه خير من يساعدك ! ليتك رشحت لنا لصا صريحا متخرجا فى سجون مصر ! إذن لعرفنا كيف نتعامل

معه على النحو اللائق به ! هذا أحقر شئ سمعته طوال عملى فى هذه المهنة الشريفة المقدسة !!»

شحب وجه ممدوح ، قال :

- «إقبل أسـفى ! لقد عـرفته عن طريق أعز الناس فى حياتى ! كامل عبد الغفار حضرتك تعرفه طبعا ! ساقه على ! ظل كامل يرجونى أن أساعده على الإنتداب إلى المجلة ليصبح أمر نقله سهلا كما حدث ! لست بالذى يؤخر طلبا لكامل عبد الغفار وهو الذى طالما وضع يده فى فمى بالطعام والشراب فى أزماتى كلها ! ووالله لم أكن أعلم عن هذا الشخص شيئا ! ولا كامل نفسه كان يعلم ! حتى بعد أن كشفت معدنه الخسيس من أول احتكاك مباشر أخبرت كامل فقال لى إنه يتعشم أن موهبة الشعر تأكل الخسة فى صاحبها بشرط أن نصبر عليها ! وأوصانى بأن أرد على إساءاته بالحسنة حتى أرسم له المثل الطيب الذى لابد أن يقلده فى يوم من الأيام ! وقد فعلت ! لكن خسة هذا البنى آدم نسيج أصيل فى بذرته أو فى ماعونه !!»

استمع «سليم فاخر» إلى هذا الكلام جيدا ، ثم قال :

- «حتى شعره خسيس ! هكذا فهمت من بعض الأبيات التى ينشرها لنفسه فى الملحق الأدبى ! خسيس الموهبة ! خسيس الثقافة ! لا يصدر عن نفس غنية ! هذا شعورى على قدر فهمى ولست بأديب على أى حال ! أياً كان الأمر فإن هذا الشخص مر المذاق ! مزز ! وأنا أتجرعه إكراما لخاطرك ! والآن ! أستطيع أن أوقع قرار فصله فى الحال ! أن أسلمه للنيابة ! لكننى صرت أخشى من فضيحة تسئ إلى مشاعر كامل عبد الغفار ! وتسئ إلى مشاعرنا أيضا ! لكننى سأكتفى بتوقيع عقوبات مؤلمة ! سأسحب منه الملحق الأدبى وأنتدب جعفر شاش للإشراف عليه ! أما صاحبنا هذا فسألزمه برد المبلغ خصما من مرتبه !

سأحرمه من كل الامتيازات إلى أن نبحث له عن أى مزبلة ننفيه إليها ! والآن ! قد وجب أن نستدعيه لنكرمه !!» ..

ثم ضغط على الجرس ، فدخل ساعيه الخاص ، فقال له بلهجة خالية من أى انفعال :

- «ابعث لى بالأستاذ فهمى عزيز !»

وحينما دخل فهمى بقامته المديدة لم يأذن له بالجلوس بل راح ينظر فيه نظرات توبيخ واحتقار لكنها مسربلة بمسحة من الإحترام المبالغ فيه ، ثم وجه لنا نظرة ذات معنى ، فغمز لى ممدوح الجمال فقمنا وخرجنا . ورأيت فهمى بعد نصف ساعة يخرج من عنده وهو يحجل وينقل البصر حواليه فى تلصص وغموض ، ويدخن ، ثم دخل الحجرة وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء شاحبة ، ثم انجعص وضغط على زر الجرس ، فدخل الساعى ، فطلب منه - بكل عجرفة وغطرسة - فنجان قهوة ، ضرورى فنجان ، إياك أن يكون وجه القهوة ضائعا ، لابد أن يجئ خلال دقيقتين من الآن ، الويل لك لو نسيت كوب الماء كعادتك ، المياه لابد أن تكون باردة . بعد هذه المحاضرة أدار رأسه ناحيتنا قائلا بكل وقاحة وبجاحة :

- «يا أخ ممدوح أنا لم أرتكب جرما ! هذه المكافأة من حقى أنا ! وهذا العمل عملى أنا ! لم أقصر فيه حتى تأتى بمن يساعدنى ويقاسمنى رزقى ! وعلى كل حال فأنا لم أعترف بغير صياغتى ! وكل موضوع صاغه غيرى أعدت صياغته !!»

حينئذ قال له ممدوح بكل هدوء وحدة :

- «كداب فى أصل وشـك ! أنا بأراجع كل الموضوعات على بنورة المطبعة ! والأعداد موجودة ! وأسلوبك معروف ! كما أن أصول الموضوعات

موجودة بخط أصحابها ! وخير لك أن تنسى هذا الموضوع وتكفى على الخبر ماجورا ! »

فلم ينطق بحرف ، بل انبرى يدخن ويكتب . ورغم التقائنا كثيرا بعد ذلك فإننى لم أفاتحه فى هذا الموضوع بتاتا ، بل كنت أتعمد نسيانه لكى تهدأ أعصـابى ، فما باله الآن يعود فينكأ الجراح النائمة ؟ الواضح أن الدمل فيه هو ، وأن أم القيح تأكله فلابد أن يهرش باستمرار .. ها هو ذا يلكزنى بكوعه فيما يشبه الود قائلا :

– «لماذا لم تعلق على كلامى ؟ ! هل انخرست ؟!»

لم أرد . وكان المفروض أن ننزل فى محطة التحرير ، لكننى ما كدت أرى شارع الجمهورية حتى انسلخت عن الكرسى بسرعة قائلا :

– «أشوفك بكره إن شاء الله ! سلام !»

وهبطت متنفسا الصعداء ..

مضيت فى شارع الجمهورية خطوات . ياللظرف الغريب ، من ذلك الذى يواجهنى على مبعدة خطوات ويقبل نحوى فاردا ذراعيه بشوشا ؟ غير معقول أن الزمن القديم فى أحيان كثيرة لا يحضر وحده إن حضر ، بل تحضر معه بعض شخصياته حضورا حقيقيا لا محض تذكر أو ذكريات أو كذا ، إنما تراه رؤية العين ، بل ها هو ذا الآن فى حضنى يربت بيديه على ظهرى وصوته يجهش بالاشتياق والحب . إنه «مختار حامد قريطم» ، جزء لا يتجزأ من زمن المقهى الدسوقى بكل ذكرياته الحميمة ، بقامته المديدة الفارعة ، وجسده النحيف الصلب ووجهه المستطيل كشريحة الشهد المصفى ، بشرة بيضاء كاللبن ، تترقرق على الدوام بانفعالات شتى تصعد لها الدماء فى أنحاء قسماته كالأوانى المستطرقة ، فيرتعش أنفه الطويل المستقيم ، ويظهر النبل العظيم فى عينيه

الواسعتين السوداويين المليئتين على الدوام بمشاعر الشفقة والتأسى وبوادر حزن ، وتنطبق شفتاه الرفيعتان الموحيتان بقدرة هائلة على الصبر والصمود والاحتمال والكتمان ، حتى ليبدو وجهه من الجنب كوجه طائر البشاروش ، ومن الأمام أشبه بورقة شجرة موز صغيرة . صوته دائما أغن ، أخنف قليلا ، فياض بالمشاعر الصادقة الدافئة ، فلكل حكاية نبرة ، ولكل تعليق نغمة ، وهكذا فأنت تحب الإنصات لكلامه المنثال كخرير الجدول ، يؤنسك ويذكرك بكثير من العادات والقيم التى كدت تنساها فى زحمة المدينة الصاخبة . لعله أصدق أبناء المقهى على الإطلاق ، أشدهم ارتباطا عاطفيا بها ، أحنهم عليها وعلى صاحبها ، كما أنه أقدم شبانها فى هواية الأدب ، يتميز دون الجميع بأسلوب عتيق ناضج كأسلوب كبار الكتاب القدامى ، إنشائى وغير مفهوم أحيانا لكنه ذو جرس جميل جذاب ، يكتب الخواطر والتأملات وبعض القصص الرومانسية . إلا أنه لم يتعلم فى مدرسة ، بل اعتمد على مبادئ أولية فى كتاب القرية عندما كان يحفظ القرآن ، ثم علم نفسه بنفسه وقرأ كتب الأدب والثقافة وواظب على جميع المجلات والدوريات بإخلاص ودأب . منذ وقت مبكر جدا وشكله يأخذ سمت الرجال المحترمين ، الأنقاء ، الذين لا ينقصهم مظهر البكوية . ثم لما كبر فى السن قليلا أخذ سمت الكتاب والمثقفين الكبار ، خاصة وأنه يتخاطب دائما بأسلوب قريب من الفصحى الكاملة ، فيه جميع المصطلحات والمفردات العصرية السائدة والتى يتوقع بحسه اليقظ أنها ستسود قريبا . طول عمره شقيان ، عمل بالتجارة ، من كاتب حســابات فى مصنع للدخان المعسل يملكه خاله ، إلى موزع لبضائع نفس الشركة صاحبة المصنع ، بسيارة ذات سائق يجوب بها البلـدان والقرى . فكان يكسب كثيرا ، وينفق على مظهره وقراءاته وأولاده الكثير ، لكنه أحس أن إمكانياته الذاتية أكبر من عمل محدود كهذا ، إنه بلباقته ومظهره المحترم وشخصيته المقنعة المحبوكة وانتمائه للأدب يستطيع أن يكسب

الذهب .. وهكذا جاء إلى القاهرة قبل الجميع ، لا لكى يشتغل بالأدب ، فإنه أكثر واقعية من أن يترك نفسه نهبا لوهم كهذا يرى الكثيرين من أصدقائه يروحون ضحيته كل يوم ، ثم إنه لا يطيق أن يطلق عليه أنه ممن أدركتهم حرفة الأدب فجاع وتعرى وتشردت أسرته ، لا ، إنما جاء ليعمل فى مجال جلب الإعلانات للصحف والمجلات ، ربح كبير مضمون التزايد والارتفاع ، وانتماء فى نفس الوقت لعالم الصحافة والأدب ، يستطيع نشر ما يكتبه إذا أراد ذات يوم . لكنه يمتلك فضيلة كبرى ، هى شعوره الدائم بحقيقة إمكانياته الإبداعية بحكم حرصه على المتابعة ، إذ يرى أن الكتابة فى تقدم مبهر مستمر على أيدى من يتفرغون لها ، وهو قد بات من الواضح أنه لن يتفرغ ، فلقد تعود على الأبهة وكثرة المصاريف ، وهو يحب أولاده أكثر من حبه للشهرة الأدبية ، ويرى أن التركيز على تربيتهم ورفع مستواهم أصدق وأفضل من تربية المجتمع كله ..

أولاده أربع سنيورات جميلات كأنه ألفهن خصيصا للنشر على أغلفة المجلات الملونة ، بعيون زرقاء كعينيه ، وشعور كستنائية منسابة كالشلالات . كبراهن ساحرة تتهيأ لدخول المدرسة الثانوية ، أقيم لها أربعة عشر عيد ميلاد ، قيلت فيه القصائد والأزجال من عدة أجيال من كبار المشهورين فى عصرنا . بمزاج رائق ودأب مذهل يعد أبوها أرشيفا منظما لهذه الأعياد عيدا عيدا ، مع ملاحظات مدونة عن أطرف ماحدث ليلتها وأجمل ما قيل وأحلى ما قدم للأكل والشرب ، سرعان ما تدعم هذا الأرشيف بشرائط تسجيل اسطوانية تحتفظ بأصوات لها العجب من هواة فى بورسعيد والبحيرة والسويس والمنوفية والغربية والدقهلية ودمياط . كل هؤلاء وأولئك كانوا يسافرون من بلدانهم لحضور الليلة بموجب بطاقات دعوة وجهت إليهم بالبريد . وكان «مختار حامد قريطم» سعيدا لأنه ينادى بين أصدقائه بأبى مجيدة . قد بلغ من حبه لمجيدة أنه كان يجرب كتاباته الأدبية فى مطلع حياته فينشرها باسمها قبل أن تولد بل حتى قبل أن

يتزوج أمها ، فى بعض الأبواب التى يحررها قراء الصحف أو بعض الأركان وأحيانا فى أماكن مرموقة ، ولقد كان يكتب عنوان مجيدة بالتفصيل تحت كل توقيع لها ، فكان أن تلقت مجيدة عشرات الرسائل من الهواة والمحبين وخاطبى الود . لم يكن «مختار حامد قريطم» يتورع عن الرد على كل هذه الرسائل ، بل إنه أفرغ فيها وحدها كل طاقته الأدبية المدخرة ، وكان يتلذذ بعمق وهو يرد على رسائل الغرام ردودا حارة ناضجة مليئة بفيض الحكم والمأثورات التراثية اللامعة ، وبظلال من شخصية الأديبة «مى زيادة» التى سحرت أدباء عصرها وأشعلت خيالهم جميعا وعلقتهم بها من كبيرهم لصغيرهم ..

لقد أطلعنى «مختار حامد قريطم» ذات يوم على أرشيف غاية فى العجب ، عبارة عن مجموعة ملفات ، على كل ملف منها اسم شاعر كبير ، أو أديب شهير ، أو ممثل مرموق ، أو مذيع ذائع الصيت ، أو سفير فى الخارجية المصرية . ما أن فتحت أى ملف حتى وجدت مجموعة ضخمة من الرسائل الخاصة كتبها صاحب الملف بخط يده إلى الآنسة مجيدة أعزها الله وحفظها جوهرة مصونة وعفة مكنونة ، ومع كل رسالة صورة بالكربون من الرد الذى قام «مختار» بكتابته وإرساله إلى ذلك الشخص المحب . لله ما أروعك يا مختار وما أخصب خيالك وما أنبلك ، ها هى ذى مجيدة ابنتك التى كانت مجرد فكرة تعابث بها خيال المتأدبين قد صارت عروسا تمشى معك فى الشارع فارعة مثلك فتبدو كأنك فتاها المفضل وهى حبيبة عمرك الغالية . على أن مختار قد بات يصعب عليه أن يترك كل هؤلاء المحبين مستغرقين فى أوهامهم خاصة وأن كل واحد منهم لا يعرف بالطبع شيئا عن الآخر ولا يعرف أن شخصا غيره فى حياة مجيدة ، والأخص أنهم جميعا باتوا من المشهورين المرموقين ، وإذا كان هذا جائزا فى أيام الصبا والمراهقة فإنه الآن أصبح ضربا من العبث المحض لابد من إيقافه . وهذا هو الهم الحقيقى الذى شغل مختار طويلا فى البحث عن

طريقة فنية لإيقافه حتى لا يوقع بابنته فى مصادفات محتملة لامعنى لها ولا لزوم. والمشكلة هى كيف الخلاص من هذه الشبكة المحكمة من العلاقات التى نسجها بنفسه وبات عاجزا عن فكها ؟ .

اقترح عليه «عبد الصمد عبيد» أن يرسل لكل واحد منهم رسالة مقتضبة ينهى فيها العلاقة ببساطة لأى سبب من الأسباب ، غير أن الأمر بالنسبة لمختار حامد قريطم – كما قال – لا يحتمل التبجح بكل هذه البساطة ، إنما المشكلة أنه هو نفسه كان صادقا فى كتابته لكل هذه الرسائل حين بعثها لأصحابها باسم مجيدة ، لقد عنى كل حرف فيها ، وعاش كل معنى صوره ، وعانى وكابد كل إحساس نقله لأحدهم ، وإنه لكى يتناسى كل هذا ببساطة فإنما يلزمه قوة الصخر وإحساس الخرتيت ..

واقترح عليه «فهمى عزيز» أن يتجاهل الأمر برمته ، فمقود العجلة فى يديه هو ، يستطيع إهمال أى رسالة ترد إليه فلا يرد عليها ، وبالتالى فإنهم سيكفون بعد ذلك عن إرسال شئ . ورد عليه مختار بأنه يصعب عليه ذلك ، إذ أن هوايته الأساسية فى الحياة هى قراءة كل هذه الرسائل المتنوعة والإطلاع على أفئدة أصحابها وصدق عواطفهم ، ولايمكن أن تكون رسائل أمامه ولايقرأها ، كذلك لايمكن أن يقرأ رسالة دون أن تستفزه للرد عليها ..

وهنا اقترح عليه الزجال «أحمد أبو عماشة» وهو ينتف فى صدغه بعصبية ومن تحت شيلة عينيه الواطية تحت المنظار الأسود المنكسر دائما انكسار وجهه على صدره ، أن يقوم بنشر خبر فى الصحف كلها بأن الأنسة مجيدة مختار حامد قريطم قد تمت خطبتها بعون الله ليلة كذا وسط احتفال محدود من أقارب العروسين . هذا هو الإقتراح الوحيد الذى كان من الممكن أن يقبله مختار لولا أن مجيدة لم تصل بعد إلى سن الزواج وهو لن يصادر عليها الخطاب بنشر خبر أحمق كهذا .

عشرات الليالى قضيناها فى منازل مختار المتعددة فى حياته المليئة بالتنقلات من بيت لبيت حسب أهواء الزوابع التى تعصف به فى العمل ، أو فى بيت أبو عماشة الزجال ، أو بيت عبدالصمد عبيد فى السيدة زينب .. نلف سجائر الحشيش ونتكلم فى هذا الأمر. تمر الشهور الطويلة لايرى أحدنا الآخر، وفجأة تكثر اللقاءات ، معظمها ينتج عن أن مختار تكلم بالهاتف لفهمى فردت عليه نازك وعزمته على الشاى فتولى مختار تجميعنا بقلبه الدافىء وعزيمته القوية وصدق ارتباطه وإرادته الحديدية وقدرته على الإتيان بالواحد منا من أى مكان بعيد . وسواء كان التجمع فى منزله أو فى منزل غيره فإن جميع النفقات تكون على حسابه ، لأنه دائما أبدا يبدو غنيا فى غير حاجة إلى الإقتراض من أحد ، لأنه دائما أبدا فى حالة نشاط لا يهدأ ..

الإعلانات فى الصحف السيارة لا تدفع أكثر من عشرة فى المائة مع مرتب صغير . وهذا لا يكفيه ؛ حسن ؛ هذه ليست بمشكلة على الإطلاق بالنسبة له ؛ لسوف يستقل بمكسبه فلا يتمتع به أحد سواه . أما الجرنان الذى سينشر فيه الإعلانات فأمره غاية فى السهولة عنده ؛ فلديه قائمة بأسماء كافة التراخيص الممنوحة لصحف ومجلات فى كافة أنحاء البلاد ؛ ويعرف أن أى جريدة أو صحيفة تتوقف عن الصدور عاما أو نحو عام فإن ترخيصها يصبح لاغيا من تلقاء نفسه ولا يحق للجرنان الصدور إلا باستصدار ترخيص جديد ، وهو أمر بالغ الصعوبة . لهذا فإن أصحاب التراخيص يقومون دائما أبدا بتلفيق عدد كل بضعة أشهر كمبرر لاستمرار الترخيص ساريا . ولاشك أن صاحب الترخيص سيكون سعيدا إذا جاءه من يؤجر منه الترخيص لإصدار المجلة بانتظام . ولهذا فمختار قد بات يعرف كل أصحاب التراخيص وورثتهم ويفهم شخصياتهم وأوضاعهم الإجتماعية . وكل حين من الزمن يستأجر ترخيصا ليصدر مجلته بضعة أعداد على نفقته الخاصة من حصيلة الإعلانات الغزيرة

طريقة فنية لإيقافه حتى لا يوقع بابنته فى مصادفات محتملة لامعنى لها ولا لزوم. والمشكلة هى كيف الخلاص من هذه الشبكة المحكمة من العلاقات التى نسجها بنفسه وبات عاجزا عن فكها ؟ .

اقترح عليه «عبد الصمد عبيد» أن يرسل لكل واحد منهم رسالة مقتضبة ينهى فيها العلاقة ببساطة لأى سبب من الأسباب ، غير أن الأمر بالنسبة لمختار حامد قريطم - كما قال - لا يحتمل التبجح بكل هذه البساطة ، إنما المشكلة أنه هو نفسه كان صادقا فى كتابته لكل هذه الرسائل حين بعثها لأصحابها باسم مجيدة ، لقد عنى كل حرف فيها ، وعاش كل معنى صوره ، وعانى وكابد كل إحساس نقله لأحدهم ، وإنه لكى يتناسى كل هذا ببساطة فإنما يلزمه قوة الصخر وإحساس الخرتيت ..

واقترح عليه «فهمى عزيز» أن يتجاهل الأمر برمته ، فمفقود العجلة فى يديه هو ، يستطيع إهمال أى رسالة ترد إليه فلا يرد عليها ، وبالتالى فإنهم سيكفون بعد ذلك عن إرسال شئ . ورد عليه مختار بأنه يصعب عليه ذلك ، إذ أن هوايته الأساسية فى الحياة هى قراءة كل هذه الرسائل المتنوعة والإطلاع على أفئدة أصحابها وصدق عواطفهم ، ولايمكن أن تكون رسائل أمامه ولايقرأها ، كذلك لايمكن أن يقرأ رسالة دون أن تستفزه للرد عليها ..

وهنا اقترح عليه الزجال «أحمد أبو عماشة» وهو ينتف فى صدغه بعصبية ومن تحت شيلة عينيه الواطية تحت المنظار الأسود المنكسر دائما انكسار وجهه على صدره ، أن يقوم بنشر خبر فى الصحف كلها بأن الآنسة مجيدة مختار حامد قريطم قد تمت خطبتها بعون الله ليلة كذا وسط احتفال محدود من أقارب العروسين . هذا هو الإقتراح الوحيد الذى كان من الممكن أن يقبله مختار لولا أن مجيدة لم تصل بعد إلى سن الزواج وهو لن يصادر عليها الخطاب بنشر خبر أحمق كهذا .

عشرات الليالى قضيناها فى منازل مختار المتعددة فى حياته المليئة بالتنقلات من بيت لبيت حسب أهواء الزوابع التى تعصف به فى العمل ، أو فى بيت أبو عماشة الزجال ، أو بيت عبدالصمد عبيد فى السيدة زينب .. نلف سجائر الحشيش ونتكلم فى هذا الأمر. تمر الشهور الطويلة لايرى أحدنا الآخر، وفجأة تكثر اللقاءات ، معظمها ينتج عن أن مختار تكلم بالهاتف لفهمى فردت عليه نازك وعزمته على الشاى فتولى مختار تجميعنا بقلبه الدافىء وعزيمته القوية وصدق ارتباطه وإرادته الحديدية وقدرته على الإتيان بالواحد منا من أى مكان بعيد . وسواء كان التجمع فى منزله أو فى منزل غيره فإن جميع النفقات تكون على حسابه ، لأنه دائما أبدا يبدو غنيا فى غير حاجة إلى الإقتراض من أحد ، لأنه دائما أبدا فى حالة نشاط لا يهدأ ..

الإعلانات فى الصحف السيارة لا تدفع أكثر من عشرة فى المائة مع مرتب صغير . وهذا لا يكفيه ؛ حسن ؛ هذه ليست بمشكلة على الإطلاق بالنسبة له ؛ لسوف يستقل بمكسبه فلا يتمتع به أحد سواه . أما الجرنان الذى سينشر فيه الإعلانات فأمره غاية فى السهولة عنده ؛ فلديه قائمة بأسماء كافة التراخيص الممنوحة لصحف ومجلات فى كافة أنحاء البلاد ؛ ويعرف أن أى جريدة أو صحيفة تتوقف عن الصدور عاما أو نحو عام فإن ترخيصها يصبح لاغيا من تلقاء نفسه ولا يحق للجرنان الصدور إلا باستصدار ترخيص جديد ، وهو أمر بالغ الصعوبة . لهذا فإن أصحاب التراخيص يقومون دائما أبدا بتلفيق عدد كل بضعة أشهر كمبرر لاستمرار الترخيص ساريا . ولاشك أن صاحب الترخيص سيكون سعيدا إذا جاءه من يؤجر منه الترخيص لإصدار المجلة بانتظام . ولهذا فمختار قد بات يعرف كل أصحاب التراخيص وورثتهم ويفهم شخصياتهم وأوضاعهم الإجتماعية . وكل حين من الزمن يستأجر ترخيصا ليصدر مجلته بضعة أعداد على نفقته الخاصة من حصيلة الإعلانات الغزيرة

التى ينجح فى جلبها بسحر ساحر لايبارى ، خاصة فى المناسبات القومية والأعياد الوطنية ، إذ يتعين - بفضل جهوده المتواصلة وقدراته ولباقته - على كل تاجر أو شخص من أعيان البلاد أن ينشر بطاقة تهنئة باسمه للسيد الرئيس ورجال الثورة من الضباط الأحرار ، ناهيك عن الشركات والمصانع بجميع أنواعها فى القطاعين العام والخاص ، وبشكل تعجز عن تحقيقه أقوى الأجهزة الإدارية فى أوسع الصحف انتشارا . وهو ضامن أن المهرجان الكبير الذى سيظهر على صفحات مجلته يوم صدور العدد سيحيطه بحماية من نوع ما إذا حاول أحدهم محاربته أو الوقوف فى طريقه .. إنه بإمكانياته الفردية يظهر لرجال الثورة كل هذا الحب والتأييد الجماهيرى العريض .. فى وسط كل هذا الزحام كان موضوع شبكة الرسائل يلح عليه ويجد لنفسه وقتا يروق فيه البال للدخول فى إهاب آنسة فاضلة على درجة مثالية وعظيمة من الأخلاق الحميدة وحرارة العاطفة ترد على مدنفين يطارحونها الرغبة فى الوصال ويبذلون تحت قدميها أغلى التضحيات .

إلا أن «نازك» وحدها هى التى قدمت الحل الأمثل ، بفكرة طيبة نادرة وإن كانت ذات طابع سينمائى بحت ، يعكس ميول نازك القديمة ورغبتها الدفينة فى أن تكون ممثلة مسرحية كبيرة كأمينة رزق ، أو محامية كبيرة كمفيدة عبد الرحمن ، أو زعيمة نسائية كهدى هانم شعراوى ..

كان بالفعل مشهدا بديعا ..

مختار فى الأصل كان يستعد للإحتفال بعيد ميلاد مجيدة الثالث عشر . وعملا باقتراح «نازك» وجه الدعوة الخصوصية عبر الرسائل الخاصة .. لكل أصحاب الملفات . كانت هذه أول مرة توجه إليهم مثل هذه الدعوة .. فحضروا جميعا بنجو ميتهم المتألقة . كانت الدهشة عظيمة حين اكتشفوا بعضهم بعضا - ربما لأول مرة - فى هذا الحفل المتآلف العجيب . وحين ظهرت «نازك» فى

الحفل فقدوا جميعا توازنهم وانعوجت رقابهم وفغرت أفواههم وتحولوا إلى صبية صغار فى حال من الارتباك والتلعثم والشبق يرثى لها ، وبان الحسد والحقد والتوتر فى عيونهم . لقد ظنوها «مجيدة» التى لم يروها من قبل أبدا .. فكاد يقتلهم الحذر والترقب والخوف الكامن فى كل منهم بأن تؤول ملكيتها إلى أحد سواه ..

غير أنها بكل هدوء وثبات ، وبفيض عذب من التثنى والدلال والحيوية الدافقة ، وصلت إلى المنضدة وسط سطح العمارة الكبير المجهز لهذا الحفل تجهيزات أخذها مقاولة - فأبدعها - محل جروبى . ألقت «نازك» كلمة هى الشعر الحقيقى ، إذ شكرت الظروف السعيدة التى جمعت كل هؤلاء الأفاضل الصفوة على حب نفس بشرية بعينها ، مما يؤكد ارتقاء النوع الإنسانى واحتشاده بالطاقات العاطفية والإنسانية العظيمة ، وقدرة الخيال البشرى على ابتكار أشياء ومعان ورموز ثم يصدقها فيعشقها فقد يضحى بعمره كله فى سبيل نصرتها ، وحفل الليلة أكبر دليل على ذلك ..

- «.. إن الحكاية يا أصدقائى الأفاضل لهى فى غاية الطرافة والفكاهة ! فى نفس الوقت هى شئ جميل ! إن كان من نتائجه تجمع كل هؤلاء الليلة فى هذا المكان فى هذه اللحظة وتعارفهم وإدخال السعادة على بعضهم البعض لكان فى ذلك الكفاية ! حسن جدا أيها الأفاضل الكرام ! أنتم جميعا أحببتم الآنسة مجيدة مختار حامد قريطم ! فتحتم لها قلوبكم منذ سنوات طويلة ! نفستم عن مخزونات كانت تضايقكم وفضفضتم فى لحظات كنتم فيها أحوج ما تكونون إلى وجود من يسمعكم بصدر واسع ! خاصة إذا كانت آنسة تحبونها وتستشعرون فى رسائلها دفء المشاعر وصدق العاطفة ورجاحة العقل ! والآن قد آن الأوان لكى أقدم لكم هذه الآنسة التى خلبت ألبابكم وحركت مكامن عواطفكم !!» .

وأشارت بيدها فى البقعة الكابية الضوء ، فاقتربت فتاة صغيرة على درجة كبيرة من البراءة والسذاجة والخفر ، تتعثر فى خطوها الوئيد وتغرق فى بحر من دماء الخجل . إلتوت الرقاب وفغرت الأفواه ، واندفعت موجات من الضحك الهستيرى ، هاصت الدنيا فجأة كان القيامة قامت . ثم إن الفتاة وقفت بجوار «نازك» ، التى وضعت يدها على كتفها النحيل وقالت :

– «هذه هى الآنسة مجيدة مختار حامد قريطم ! وهى طفلة كما ترون ! لعل معظمكم لديه بنت فى مثل سنها أو أقل قليلا ! أما كيف حدث ذلك ! فإن الفاعل الأصلى والمؤلف الحقيقى لهذه الأسطورة الطريفة ! هو الذى يستطيع أن يروى لكم كل شئ عنها ! ذلك هو الصديق الاستاذ مختار حامد قريطم نفسه ! والد الآنسة مجيدة !!» .

ثم مدت ذراعها نحوه ، حيث كان جالسا فى الصفوف القريبة منكس الرأس غارقا فى الحياء والخجل ، فقام يتعثر حتى وصل إلى جوار نازك أمام المنضدة الموضوع فوقها هرم كبير من التورتة ، فجعل يرحب بالجميع ، ويفرط فى الحديث عن سعادته ، ويحكى مبررات ما فعل ، رغبة قديمة فى البوح مكبوتة ، فى التأليف فى التحرر من سجن التقاليد والقيود ، فى إيجاد الصديق الخصوصى الحميم ، فى ، فى ، فى ، وكل الأعين مركزة عليه فى دهشة كأنه عجيبة من عجائب الدهر ، إلى أن استأذنهم فى أن تبقى الرسائل ملكه ، لأنه السبب فى كتابتها ، فى مقابل رسائله التى فى حوزتهم ، إنها ستكون زادا يسليه فى شيخوخته ، مع التعهد بأن تبقى سرا لا يطلع عليه أحد غيره . ثم سلم ومضى ، وراح الجميع يغنون غنوة عيد الميلاد بقيادة نازك ، ثم أطفأوا الشموع وصفقوا بمرح هائل ، وعادوا إلى أماكنهم حاملين أطباق التورتة . ثم مدت الموائد وزحفت القوارير والكئوس ، وزاحمتها أجهزة التسجيل فى الاقتراب

من متناول النجوم ، وأذاع المذيع وألقى الشاعر شعرا وارتجل الأديب خطبة ومثل الممثل قطعة فنكتة ، وكانت ليلة لا تنسى .

قلت لمختار وقد فوجئت بأننا نجلس على مقهى فى شارع الجمهورية :

– «أين أراضيك الآن ؟! تصور أننى لتوى كنت مع مقصوف الرقبة فهمى عزيز ؟ نمت فى شقته مساء أمس ليلة ليلاء !» ..

قال :

– «منذ شهور لم أره ! ولم أتلفنه !» ..

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

– «وليس لى رغبة فى الاتصال ! أنت تعرف أننى أموت فى حب الصداقة والأصدقاء ! وإنى لأتفانى فى خدمتهم وخدمة مزاجهم ! فمزاجى دائما أن أراهم سعداء ! تلك هى سعادتى الكبرى !»

قلت :

– «طبعا ! طبعا ! خيرك علينا جميعا ! لم يحدث أن تكلف أحدنا مليما واحدا فى وجودك ! عزائمك على الطعام والشراب تشهد بها عتبة منزلك وأطراف أقدامنا ! من ينكر هذا خسيس أو ممسوح الذاكرة !» .

ظهر عليه خجل شديد ، وتفصد جبينه بعرق الحياء ، صار يردد :

– «العفو ! العفو ! أنا مجرد خادم لكم !»

قلت بسرعة :

– «ولكن ما مناسبة هذا الكلام ؟!»

قال وهو يقرب وجهه منى ليشعل سيجارة ، سرعان ما صافحتنى نكهة الحشيش فى بطنها :

- «صدرى معبأ من هذا الشخص ! ولم أكن أحب الكلام فى هذا ! لكن! لكن ! على كل حال اعفنى من الكلام ! معلهش ! افتح لنا موضوعا آخر أكثر إشراقا ! ما أخبار قصصك ومقالاتك ؟! ألم تلتحق بعد بأى جريدة أو مجلة ؟ إن الواحد يلتقى على الصفحات وفى صالات التحرير ناساً لا يصلحون إلا لصالات البارات أو حلبات السيرك ! مثلك يجب أن يكون له مكان فى هذه المعمعة !» .

شعرت أن الأمر أهم وأخطر من أن أفرط فى معرفته ، قلت :

- «أنا مصر على أن تفضفض لى حتى تريح صدرك من هذا الجرذ القبيح ! لطالما راجعتنى فى رأيى فيه ودافعت عن نظافته ! الآن يكتشف كل من عاشره أنه يقرض لنفسه جحراً فى كل مكان فى جسد المرء وعقله وقلبه ! إنه لابد أن يتلف المرء ويقضى عليه إن لم ينتبه ويتصيده بأية طريقة مبتكرة ! فإذا كانت الفئران لا تاريخ لها ولهذا تقع دائما فى نفس المصيدة بالخدعة نفسها فإن هذا الجرذ الصحراوى مدرب على الزوغان من المصايد ! كما أن سم الفئران لا يميته فمن كثرة ما حقن به بات محصنا ضده ! إنه مثال للزيف واحتراق الضمير وظلمة النفس وخواء الروح !!» ..

قال كأننى حقنته بالغضب والشجاعة ، رافعا حاجبيه فى دهشة واستنكار :

- «تصور أن هذا الحيوان فى ليلة عيد ميلاد مجيدة ابنتى ! ما كاد يرجع إلى بيته حتى انهال على نازك ضربا مبرحا كأنه يضرب حمارا ميتا بالبونية والشلوت والأكف الساخنة ! حتى كاد يشوه لها وجهها ! كسر لها بالفعل ضلعا ! ذهبت ابنتى مجيدة لزيارتها كالعادة ! ففضفضت لها نازك ! قالت لها إنه فعل بها ما فعل لعدم ثقته فى نفسه ! لشعوره الشديد بالغيرة

عليها ! وأنا أقول لك إنه شعور دفين فى نفسه بأنه لا يستاهلها ! وهو متأكد أن أول احتكاك لها بالرجال الحقيقيين فى أى مكان سوف يكشف عواره وخسته ! وقد تطفش منه فى أول بادرة ! تصور ! لقد عاقبها لأنها هى التى ابتدعت فكرة الحفل من أساسها ! وقسا فى العقاب لأنها قدمت الحفل وأدارته ! هذا الحيوان نسى أن نازك فى يوم من الأيام كانت تحلم بأن تكون مذيعة فى التليفزيون ! وأنها كانت عضوة فى معظم جمعيات النشاط المدرسى طول عمرها وأنه منعها من كل ذلك بغلظة ! لست أعرف كيف أن نازك على ذكائها ونقاء نفسها لم تكشف حقيقة معدنه ! على كل حال أنا واثق من أنها كاشفة له منذ وقت طويل لكنها عاقلة تعرف أن الفأس وقعت فى الرأس وهى تحاول تكييف نفسها مع قدرها الذى وقعت فيه أيام كانت صبية ريفية غريرة ! إننى أفهم نازك جيدا لأنها كانت جارتى فى مسكن الصبا والشباب ! وابنتى مجيدة تعشقها وترغمنى دائما على استئناف الإتصال ! ومجيدة تحكى لى دائما مشاكل طنط نازك ! ولكن ! هل تتصور السبب الحقيقى الذى من أجله ضرب نازك ضرب غدار أسود القلب غليظ القفا ؟!» ..

- «لا بالطبع !»

هكذا قلت . فمد مختار يده ففتح حافظة أوراقه التى لا تفارقه حتى فى البيت . ظننت أنه سيوافينى بوثيقة مكتوبة ، فإذا به يستخرج أنبوبة الحبوب التى نعرفها جميعا ونتطلع إليها كلما قابلناه ، ففيها دائما حبوب لتهدئة الأعصاب وكبسولات لتقوية الباه وأقراص لتنشيط البدن عموما وأخرى لشحذ الذاكرة وغيرها لتحديد البصر . دلقها فى راحة يده ، فانتقى منها حبة صغيرة مع كبسولة وقرصين . احتجز الحبة وقدم لى البقية قائلا :

- «دع هذه فى جيبك لحين العوز فى ليلة تصعد فيها إلى الجبل الأعلى !»

ثم قدم لى الحبة منفردة فيما يواصل :

- «أما هذه فابلعها الآن فورا لكى تهدئ من أعصابك فتحتمل وقع السبب الذى سأقوله لك الآن !!»

ثم صفق طالبا شايا ومياها باردة ، وجز على أنيابه فاشخا شدقيه كعادته كلما أراد أن يضحك بعمق ، إذ يكتفى بهذه الغمزة مفرغا فيها الذروة الصاعقة من الضحكة لتنساب الضحكة بعدها صافية خفيضة الصوت حيث تتكرمش صفحة وجهه كسطح شاى يغلى ويفور . حين اطمأن أننى بلعت الحبة فعلا نزع بأطراف أصابعه المعوجة سيجارتين من علبة فضية فى جنبها قداحة غير ظاهرة ، أشعل لى ولنفسه ، نفث الدخان بلذة وبدا كأنه نسى الموضوع برمته ، حيث غامت عيناه فى الفضاء وسبحتا فى بحيرة من الحزن العميق ، ثم اعتدل نحوى يشد ابتسامة شاحبة من بحر الأسف العميق :

- «الأمر ومافيه ! أرجو أن تضبط أعصابك أو فامسك دماغك حتى لا ينفجر ! نازك ضبطته يسرح بعقل ابنتى مجيدة بكل وقاحة وجبن ! كان سكرانا تقريبا ! وفى يوم جمعة ! وزجاجة النبيذ تحت قدميه يعب منها ! مجيدة كانت جالسة معه فى حجرة المكتب مبهورة به كالعادة تدلله لكى يلقى عليها آخر أشعاره أو أى شعر ! كانت طنط نازك مشغولة فى المطبخ بتجهيز الغداء ! بالصدفة وقفت على باب المطبخ المواجه لباب حجرة المكتب ! سمعته يلقى أشعارا إباحية وردت فى كتاب الأغانى عن مواقعات جنسية صريحة فاضحة تذكر الأعضاء التناسلية بأسمائها ! أبيات تجرح حياء أى امرأة فما بالك بفتاة بريئة كمجيدة ؟! ظنت نازك لفرط ذهولها أن زوجها لابد أن يكون قد جن حتى يردد مثل هذه الألفاظ فى بيتها بصوت عال وإلقاء مجسد ! سربت رأسها إلى الداخل فرأت ابنتى قد تكورت على نفسها فوق المقعد القريب كقطة مذعورة كشر لها الكلب عن أنيابه ! ثم إنه طوى كتاب الأغانى وشرع يغازل البنت غزلا

صريحا ! ما كادت البنت ترى وجه نازك مطلا من الباب حتى انتفضت واقفة تصيح طالبة الإنقاذ : طنط ! ثم هرولت نحوها مرتعدة لترتمى على صدرها ! تلقتها نازك وصوبت إليه سهام نظراتها النارية المغتاظة ! لم تستطع منع نفسها من توبيخه : مش عيب عليك ؟ أظن ده عيب ! والله عيب ! ثم سحبت البنت إلى حجرة النوم وانخرطت فى بكاء حاد مرير ! فى الجمعة التالية ذهبت البنت لطنط نازك لتطمئن ! أخبرتها نازك أنه دخل عليها وراح يطعن فى مسلكها يوم الحفل ! ثم انهال عليها ضربا وتلطيشا !!»

وجذب نفسا عميقا من السيجارة بغيظ شديد كأنه يشرب من دم فهمى عزيز ، صديق صباه الذى قدم له أعمق الود وأصفاه فحاول تلويث عرضه . يبدو أنه قد بدأ يستريح فعلا بعد أن تبخر كل هذا العبء عن صدره ، إنه ما صدق أن وجد صديقا مشتركا يفضى إليه بسره . ها هو ذا يشعل سيجارة أخرى :

- «أتتذكر آخر مرة كنا فيها عند أحمد أبو عماشة فى عيد ميلاد ابنه تامر ؟ منذ حوالى عام أو أقل قليلا لأننا لم نحضر بعد عيد آخر عند أبى عماشة !» .. رأيتنا نجلس فى حجرة مكتب أبو عماشة فى شقته ، قريطم وفهمى وعبد الصمد وأبو عماشة وطاهر الرسام وأنا ، حيث كانت نازك زوجة فهمى ، ونازك زوجة عبد الصمد - إسمها نازك هى الآخرى - ولوزة زوجة أبى عماشة ومجيدة وإخوتها البنات يجلسن فى الحجرة التالية الملاصقة ، حيث تتصل الحجرتان بممر يفضى بالحجرتين معا إلى شرفة واحدة مستطيلة بطول الحجرتين ، فالواقف فى هذه الشرفة يستطيع أن يدخل أى حجرة من الحجرتين من باب واحد ليحود يمينا أو يسارا . دائما يختار فهمى عزيز الجلوس على المقعد المواجه لهذه الشرفة بحيث يتمكن من رؤية كل من يدخلها أو يمشى أو يجلس فيها . كان من الواضح أن عبد الصمد عبيد يحب أن يجلس هو الآخر على نفس الكرسى ، وها هو ذا يخطو بقامته القصيرة القميئة ، ملوحا بكف

يمناه حيث استقر فم السجائر الطويل بين أصبعيه ، مشيرا إلى أنه يحب هذا الكرسى نظرا لقربه من الهواء . فألقى عليه فهمى محاضرة عميقة تبين أهمية أن يجلس ها هنا بحكم عشرته الطويلة لهذا الكرسى . كلاهما كان يكذب على الآخر كما نعرف . فجميعنا يعرف - دون أن نصرح لبعضنا البعض - أن عبد الصمد عبيد رغم كونه صديق عائلة بالنسبة لكل هؤلاء فإنه الوحيد الذى يضن بزوجه أن يراها الآخرون حتى ولو كانوا أصدقاء طفولة ، مع أنه يستبيح لنفسه رؤية زوجات الآخرين . كذلك نعرف من طرف خفى أن فهمى مهموم طول عمره برؤية نازك الثانية زوجة صديق صباه عبد الصمد ، بل يتمنى لو ينفرد بها . وإذا كان قد تسنى له رؤيتها فإن ذلك تم بشكل مجزأ على مدى سنوات ، انتزعها فهمى انتزاعا ، فمرة يختلس نظرة إلى وجهها ككل ، وأخرى إلى عينيها ، وثالثة إلى ساقيها ، وربما توقفت نظرة رابعة فى مفرق الإليتين البارزتين عند استدارتها ، أو مفرق الثديين عند مواجهتها ، ولا مانع عنده أن ينسى نفسه فتلتصق نظرته النهمة التصاقا بالمكان الذى وقعت عليه ، بل إنه ربما تعمد أن يذهب للسؤال عن صديقه وهو يعلم أنه غير موجود بالمنزل ، زاعما أنه كان فى مشـــوار قريب من هنا وصعب عليه ألا يمر ليطمئن عليهم ، لا لشئ إلا لكى تفتح له الباب بنفسها فيتملى من وجهها على مهل ، وأن يتطاوس فى الحديث معها كعادته كلما تحدث إلى النساء ، ولسان حاله يقول : دعكن من أزواجكن وأوقعن أنفسكن فى حبائلى أنا النجم اللامع والفارس المغوار الذى يمكن له أن يمتعكن . مثل هذه الأخبار نبلغها لبعضنا البعض بحرص شديد ، حتى أن أبو عماشة ذات يوم قفش قفشة ظريفة عابرة فى إحدى سهراتنا بمنزله إذ قال : لو كنت من عبد الصمد عبيد لأفرجت عن زوجتى حتى لا أثير فضول الفرسان . وعبد الصمد عبيد يثق أن فهمى عزيز قد اختار هذا الكرسى خصيصا ليتمكن من رؤية زوجه وهى تتحدث فى الشرفة مع

النساء ، ولهذا يريد أن يفوت عليه الفرصة . وفهمى عزيز يثق أن عبد الصمد عبيد يتوق إلى هذا الكرسى ليمتع نفسه برؤية لوزة زوجة أبى عماشة ، إذ هى تروق له جدا ، ورغم أن زوجه نازك؛ الثانية جميلة عرسية الجسم خمرية اللون مسمسمة الملامح شهية فإنه يفقد اتزانه حين يرى لوزه زوج أبى عماشة وهى تخطر كالبطة ، بقامتها الربعة وجسمها الممتلئ قليلا وعجيزتها العالية كالقبة وردفيها المسحوبين فى امتلاء ونعومة وبطنها الضامرة وخصرها النحيل ووجهها المتورد المستدير كطبق الفاكهة وعينيها الواسعتين السوداويين وذلك الشبق الخرافى الذى يتدفق منهما على الدوام ، ذلك الذى يفسره فهمى عزيز حينما يعطينا أبو عماشة ظهره خارجا للإتيان بالشاى ، بأنه جوع : «المرأة جائعة يا جدعان ! وأخونا أبو عماشة مخلخل الركب لا يرجى منه !» ، فإذا ما دخل أبو عماشة فجأة لعق هذا شفتيه المحروقتين المشقوقتين ونظر نحوه بعين صفراوية تصطنع المزاح الأسود ، وإذ يستدير أبو عماشة كعود طوحت به الرياح ليجلس مستأنفًا لف السجائر عاجله فهمى عزيز دون مناسبة :

- «أخبار الوحايد إيه يا بوحميد ؟! بتعمل وحايد اليومين دول ولا خلصت البرميل ؟!»

فيرسل له أبو عماشة نظرة تعودت على الانكسار والخسة والضعف وتشبعت لذلك بالعدوانية الثابتة المستقرة ، وقال :

- «خلصت إيه يا ابنى ؟ أنا لسه عملت حاجه ؟!»

فيعاجله فهمى عزيز بالنكتة التى حكمت :

- «ماهو باين إنك لسه ما عملتش فعلا !»

ثم ينفجر ضاحكا مادا يده ليستدر مصافحة أبى عماشة ، الذى يمد قبضته فى غير اكتراث ليلمس بها كف صديقه وهو يقول :

– «تيجى نعمل مشهد جماعى قدام بعض ونشوف مين الأفرس ؟!»

فيرد عبد الصمد عبيد :

– «ويا حبذا لو نتبادل النسوان بالمرة !»

ويضحكون ضحكا أجوف ، فى حين ينظر إليهم مختار حامد قريطم لاويا شفتيه فى اشمئزاز واستياء وقرف .

ها هو ذا أمامى على المقهى مضموم الشفتين على نفس الشعور . قال :

– «تذكر آخر مرة كنا فيها عند أبى عماشة ؟!»

– «طبعاً !»

– «ليلتها راقبته جيدا فرأيته يراقب لوزة ! حتى رآها تتجه إلى المطبخ ! فوقف معلنا حاجته لدورة المياه ! فقام أبو عماشة وأشار له نحو باب المرحاض ثم عاد ! فيما خرج فهمى ! وعند باب المطبخ تلكأ حتى تمكن من التقاطها ! فوقف يتهامس معها لمدة لا تقل عن عشر دقائق ! فلعب الفأر فى عبى ! البنت تعتبرنى أبا لها لأنى كنت وسيطا بين أبى عماشة وأبيها عند الكلام على الخطوبة ! لولاى ما وافق أبوها ! أعرف أن البنت مطيورة ! خفيفة ! تربت فى حارة سيئة فى البندر ! هى صحيح بلدى من النوع الذى يقول المثل أنه يؤكل ! لكنها نشأت فى منبت سوء ! وانى لواثق أن أبا عماشة فحل لا يقصر فى واجباته الزوجية بل إنه يعجنها عجنا كل ليلة ! وهى قد تكشر له عن أنيابها فى النهار وترفع صوتها لكنه فى الليل ما أن يتحسس مؤخرتها حتى تنفرج له تماما ! هى ليست عاهرة لكنها قليلة العقل قليلة التجربة ساذجة طويلة اللسان أيضا ! وهى لابد أن تجئ إلى بيتنا كل يوم جمعة أو تجئ إليها أم مجيدة لكى توعيها بنفسها وتعلمها احترام نفسها ! ولولا ذلك لطارت من صديقنا !!»

قلت : «وماذا فعل فهمى معها أمام المطبخ ؟!»

قال :

– «البنت لا تخفى عنى أى شئ ! سألتها يوم الجمعة التالية فقالت إنه طلب منها موعدا للقاء فى مكان بعيد ! أتظن ما الذى يسعى إليه هذا الشخص الغريب ؟ إضبط أعصابك مرة أخرى ! أصل الحكاية أنه ذات مرة ضبطها تشور بيديها ورأسها فيما هى واقفة فى الشرفة ! فتابعها ! فإذا هى تستجيب لمشاغبة شاب رآه يقف قبالتها فى شرفة مقابلة فى الشارع الخلفى ! فسارع إلى الاتصال بها خلسة ! وأفهمها أنه قد كشف سرها ! وأوهمها أنه يتابع سلوكها هذا من زمن مضى وأنه يعرف كل شئ عنها ! بل إنه – شف الخسة – كان يدخر فى ذهنه بعض شائعات دارت حولها وهى صبية مراهقة فى البندر فذكرها بها كدليل على سوء سلوكها ! تصور ! اعترفت البنت أنها قابلت فهمى عزيز بالفعل مرتين من وراء زوجها ! مرة سرح بها فى كازينو قصر النيل ! والمرة الثانية عرض عليها أن يذهبا معا لزيارة صديق فى شقته بمنيل الروضة ! لكنها خافت منه وتخلصت بأعجوبة ! وفى المرة الأخيرة يوم كنا معا كرر نفس الطلب فهددته أنه إن لم يلم نفسه فستبلغ زوجته ! وهى الآن بين حجر الرحى ! تخشى أن تبلغ زوجها فتحدث الكارثة ! لكننى قد وعدتها بأنى سأعالج الأمر بشكل فنى !!» ..

قال هذه العبارة الأخيرة وهو يقف مصفقا للنادل فيما يستدرك متنهدا من أعماق صدره :

– «هل وجدت مسكنا أم لا ؟!»

قلت كاذبا :

– «أبيت مؤقتا فى لوكاندة العلم المصرى فى شارع كلوت بيك !»

قال كأن الفرصة قد واتته لإقناعى باقتراحه الأثير :

– «دعك من شيطان الأدب وأنت تفلح ! الأدب فى بلادنا لا يسد الرمق ! إسمع كلامى وتعال ساعدنى فى شغل الإعلانات وتحرير المجلة أضمن لك شقة وزوجة وسيارة فى غضون سنوات !!»

– «ربما أفكر فى هذا وأرد عليك !»

– «على كل حال ! اللقاء يوم الجمعة القادمة فى منزلى بمصر العتيقة ! أبو عماشة سيحضر مع زوجه ! وطاهر ! وزميلى أدهم حبيب ! نتغدى ونشرب سيجارتين ! لابد أن تجئ !»

– «بإذن الله سأجيء !»

– «ويمكن أن نبيت مع صهرى !»

– «سأجئ !»

سلم علىَّ وقبلنى فقبلته ، مضى كل منا فى اتجاه معاكس ، ثم إذا به يتوقف مستديرا :

– «اسمع ! ماذا وراءك الآن ؟!»

– «لا شئ بشكل محدد !»

قال باسما :

– «ماذا يمنعك أن تمضى معى الآن فى مشوار أو اثنين لعل الله يكرمنا فتكون لك عمولة مجزية على الطائر ؟! لن تفعل شيئا أكثر من أن تكون معى ! وإذا قدرك الله على المساعدة بكلمة لبقة يكون ذلك أفضل ! إن المعلن يضعف

أمام اثنين ويخر أمام ثلاثة ! تعال معى نقضى يوما جميلا منه شغل ومنه فسحة !»

– «لا بأس على أية حال !»

ومضيت معه دون أى اعتراض .

ثم إن المناظر أخذت تترى علينا فى الشارع . وكنت أحس أن الملل يختبئ وراء كل مشهد وتحت كل خطوة ، وأنه يتأهب للإنقضاض علىَّ لولا كثافة الزحام وانشغال بالى بما سوف يحدث بعد دقائق معدودة حينما ندهم أحد التجار أو أحد مديرى الشركات أو المصانع الصغيرة أو حتى الدكاكين والمخازن ، لنجلس مع أحدهم فنضع ساقا على ساق وندخن فى أبهة ، وتجئ لنا قهوة ثم ندخل مع الشخص فى حوار ألعبانى فهلوى . فمدخلنا دائما هو البحث عن متاعب المهنة التى ينتمى إليها هذا الشخص الذى نجالسه ، إذ أن الكلام فى متاعب المهنة هو أحسن طريق نحو الألفة ، مع أننا فى الواقع قد لا نعرف شيئا عن هذه المهنة أو تلك ، إلا أننا بشئ من الذكاء نستجويه نستدر منه المعلومات والأسرار الخاصة بالمهنة ومتاعب أهلها : نقص التموين ، نقص المادة الخام ، تضخم الأيدى العاملة ، كساد السوق ، تلك موضوعات عامة يسهل علينا الضرب على أوتارها بأنغام تحقق طربا عظيما لدى المستمع فيقف فى صفنا ، لكن تعال على مهنة كصناعة الجلود مثلا أو صناعة الصابون أو الخراطة أو الزجاج أو الألومنيوم أو الحلوى أو ما شاكل ذلك من مهن ، كيف نزعم لأهلها أننا جئنا لندافع عنهم فى الصحافة ضمن حملة كبيرة فى حين أننا لا نعرف موضوع الأزمة على وجه التحديد فضلا عن أن نعرف بيت القصيد فيه ؟ تلك هى موهبة مختار حامد قريطم والذين معه . إنه يحتاج فقط للعميل الأول من أهل المهنة التى ينتوى اقتحام سوقها ، فيقعد معه قعدة بريئة منزهة عن أى غرض إعلانى ، يتقمص فيها شخصية الصحفى الحقيقى المهموم

بمشاكل القطاع الخاص الصناعى والتجارى ، فيستقى من العميل كافة أسرار المهنة وألاعيب أصحابها وطرائقهم فى الغش والتحايل أو الإجادة والاتقان ، ثم يودعه ويمضى بعد أن يلتقط له الصور . وعند العميل التالى مباشرة يكون مختار على استعداد تام لمحاجية أعرق أبناء المهنة ، يستطيع أن يعزف له على كل الأوتار المطربة التى يزعم للعميل أنه سيعالجها فى حملته الصحفية . وفى النهاية يفاجأ الشخص بأنه مطلوب منه نصف أو ربع أو ربما صفحة إعلان - حسب التقدير الذى يلمسه مختار أثناء المحاورة - فى صورة بطاقة تهنئة للسيد الرئيس ، أو للأمة العربية بمناسبة كذا . فأما الموضوع - يقول - فإنه بالمجان ، وأما الإعلان فإنه مدفوع الأجر . فى النهاية يدفع الشخص بكل أريحية ، لأن تمهيدا نفسيا بارعا قد أعده له مختار ..

كنت أكره هذا العمل كراهية الموت لشعورى بحقارة الكمين الذى ننصبه لشخص ما ، لكى نوقع به فى براثن إيصال بمبلغ كبير لم يكن فى حسابه ، ولربما اهتز الشخص من ذكر اسم الرئيس أو الضباط الأحرار فقام واقترض المبلغ ، ولربما كان رجلا غشيما طيب القلب فيقلب المائدة علينا بسلامة نية ، ينبرى فى شكوى الزمان وخسة العصر وهوانه وشدة ما هو فيه من عوز وفاقة حتى ليكاد يدفعنا دفعا إلى الإحسان إليه بكل ما جيوبنا لكى يسكت عن إرسال هذا الكلام المؤلم المدبب . بضعة مشاوير من هذا النوع اضطررت للمشاركة فيها مع بعض رجال مختار تحت إلحاحه لكى أسدد إيجار اللوكاندة . غير أن المشى مع مختار حامد قريطم نفسه يعتبر متعة مثيرة بالفعل ، إذ هو يتميز عن كل أفراد هذا الطاقم بنزعته الإنسانية الطاغية ، وحسن أدبه ، وصفاء قلبه ، ولباقته ، وصدقه فى العمل، وعدم المبالغة فى أى شئ ، ثم إنه لن ينصب على أحد مطلقا ، فلسوف ينشر الموضوع على أحسن صورة ممكنة ، ولسوف يرسل للعميل بضعة نسخ من المجلة بالبريد المسجل، وفى الأعياد يرسل له بطاقة

معايدة ، وحينما يتكلم فإنه العميل لابدّ أن يصدقه ، لذا كان يقبل تأجيل دفع بعض النقود لحين انتهاء النشر وهو ضامن أنه سيحصل عليه بكل سهولة .
ولقد نمضى اليوم كله متجولين فى الشوارع فى جميع الأحياء والضواحى والبلدان والمحافظات ، ليتوقف مختار كل بضع خطوات شاهرا رأسه لأعلى متمعنا فى اللافتات أو يخرج من جيبه شريحة من ورق مطوية كتب فيها عشرات العناوين التى نقلها من دليل التليفونات والدلائل التجارية والصناعية التى تصدرها الهيئات والمؤسسات والغرف . فإذا ما استقر على عنوان ، جذبنى من يدى برفق ومودة وشقاوة ، ثم يسرع الخطا بساقيه الطويلتين وبذلته الكاملة فيبدو كفراشة فرس النبى . عند اقرب مقهى يحط الرحال مصفقا طالبا الشاى، يشعل سيجارة ، يفتح الحقيبة ، يخرج ورقة ليدون عليها بعض الأفكار والملاحظات . يقول :

- «شف يا سيدى ! الرجل الذى سنقابله الآن هو رئيس مجلس إدارة كذا شركة لصنع المواسير ! ونحن وشطارتنا معه ! لا نقبل أقل من صفحتين ! النصف كاش والنصف بإذن نشر ! نريد الآن نعد أنفسنا للدخول عليه ! كيف تكون دخلتنا ؟ ما الموضوع ؟ الغرض من الزيارة ؟ ما الذى سنقوله ؟!»

وهكذا نقضى حوالى نصف ساعة نتبادل فيها تمثيل الأدوار ، كأعظم ممثلين ، أنا رئيس مجلس الإدارة وهو الصحفى الزائر ، هو رئيس مجلس الإدارة وأنا المدير المالى والإدارى للشركة ، الذى قد يعرقل الأمر لسبب من الأسباب الجاهزة ، ما الذى يمكن أن يقال أو يحدث بحيث نخرج مجبورين متعشيين. وإذ نشعر أننا قد أحكمنا الحصار حول الفريسة المرتقبة نهضنا ، قد نتطوح فى الشارع كالبلطجية تتمايل فى ضحكات ماجنة ، حتى إذا ما اقتربنا من المبنى المعنى تصلبت أقفيتنا وتخشبت هيئتنا واتخذت سمت الرجال ذوى الشأن الخطير ، لا تلين لوجوهنا عضلة إلا ونحن - بالكاد - نبتسم لمدير المكتب

أو سكرتيره فيما نطالبه – بكل بساطة – إبلاغ رئيس الشركة أن بعثة صحفية فى انتظار السماح لها بالمقابلة لأمر مهم . فى العادة كنا ندخل على الفور ، ولست أذكر أن مشوارا من المشاوير المعدودة على أصابع اليد الواحدة التى مشيتها مع مختار قد خاب ، لابد أن نخرج بنتيجة إن لم تكن هى التى طمحنا إليها فهى على الأقل مرضية لنا ..

دخلنا فى زحام أكثر كثافة ، وقد حدست أن مختار يقصد لاشك ورشة من ورش الأحذية المختفية فى واحدة من هذه الحارات الضيقة الحافلة . أذكر منذ خطوات طويلة مضت أن مختار كان يراجع نفسه فى بعض المعلومات ، وكنت أتأهب للرد عليه ، غير أن كتلا من الزحام الشديد حجزت بيننا ، فدفعتنى القوافل إلى الأمام بينما تلكأت به فى الخلف ، فظللت أسير شاعرا بظله يقترب من خلفى ولابد أنه سيلحق بى ..

فجأة رأيتنى أمام باب غرزة كنت أتردد عليها من سنوات ولى فيها وبين عمالها ذكريات حميمة . وبدا كأننى كنت أمشى فى هذه الحارة خصيصا لكى أصل إلى مقر هذه الغرزة الكائنة فى منعطف سحرى ضمن حارة جوانية فى أمعاء حى الجمالية العتيق ، وبدا كأنى لم أغب عنها يوما واحدا . ثم رأيتنى جالسا على كرسى من القش فى ركن بين هديم على الجانبين ، وكنت على يقين من أن الولد الغرزجى يعد لى الآن شايا وحجارة عند النصبة المختفية فى أعماق الهديم فى منحدر . وفيما كان الولد الغرزجى يضع أمامى الشاى والحجارة فوجئت بمختار حامد قريطم يمر مسرعا ، متأبطا ذراع رفيقه الأزلى أدهم حبيب ، وقد اندمجا معا فى كلام . انتفضت فى جلستى ، تأهبت لاستقبالهما بشوق حار لكنهما مرقا من جوارى دون أن يشعرا بوجودى . كنت أحس أننى منذ زمن طويل جدا لم أر صديق الصبا مختار حامد قريطم ، فى نفس الوقت كنت أحس كأننى كنت قد رأيته منذ وقت قريب جدا لا أدرى أين . وقفت مناديا ، لكن صوتى ذاب فى بحر الصخب الهائل . طلبت إلى الغرزجى

أن يجعل باله لبرهة ثم انطلقت أهرول مناديا : «يا أبو مجيدة ! يا أستاذ مختار !» ، لكن يبدو أن إحدى الحارات الفرعية قد ابتلعتهما أو لعلهما اختفيا فى بناية من هذه البنايات ، فاستدرت عائدا وقد شعرت أن مفاجأة ظريفة كانت ستحدث لو سمعنى مختار وجاء . ثم رأيتنى جالسا على كرسى فى غرزة أخرى فى حارة أخرى من نفس الحى ، ومن حوالى رهط كبير من الصحفيين والممثلين والأدباء ممن يفضلون الجلوس ها هنا ، وقد فوجئت بمختار وزميله يجلسان معى ، وكان من الواضح أنهما اصطدما بى أثناء مرورهما فانتهز مختار فرصة مقابلتى وكلفنى بصياغة إعلان تحريرى على أربع صفحات لمجلته أى ما يقرب من عشرين صفحة بخط يدى ، أعطانى بضع قصاصات وبطاقات وكتيبات وتركنى أقلب فيها ، ثم إننى قمت بعجنها كلها فى موضوع واحد ذى شكل فنى محكم بحيث أن من يقرأه لا يشعر أنه يقرأ إعلانا . مختار باعتباره أديباً سابقاً يعرف أن عملية نفى الإعلان عن الإعلان تقتضى موهبة كبيرة جبارة كموهبتى، أتقبل هذه المداعبة لإحساسى أنها مبنية على تقدير حقيقى أستشعره منه ، ها هو ذا يتكفل بالصرف على القعدة من طقطق لسلامو عليكم ، جاءت صينية الكباب لحد عندنا ومعها البيبسى كولا ، ثم الشاى ، وسنة الأفيون لترويق الأعصاب وشحذ نشاط الذهن . قرأنا الموضوع ، الحافل بلا سيما وبيد أن ومن نافلة القول وما إلى ذلك من عبارات رنانة شائعة يطرب لها المعلنون ، ومجموعة عناوين فرعية ومانشيتات لافتة . صار المساء فُلاً بحق ، منحنى مختار ورقة بخمس جنيهات ، قمت فمشيت معهما إلى محطة باب اللوق . ودعتهما على المحطة ، عدت إلى الشارع ، صدرى مرفوع وهامتى متألقة ، ظهر جمال شوارع مصر فجأة ، ظهر أننى بالفعل فى مدينة القاهرة ، شعرت أننى مصرى، أن البلدة بلدتى بالفعل . طارت مشكلة النوم بكل قلقها البليد الثقيل الرطيب ، طار النوم نفسه رغم عمق التعب . تحرك قطار الواحدة صباحا من محطة باب اللوق ، من الخطل اقتحام أى لوكاندة الآن ، لست عبيطا حتى أدفع إيجار ليلة لكى

أنام ثلاث ساعات أو نحوها لأواجه المشكلة نفسها بعد قليل ، لا ، أنا الآن ثرى بحق فقلبى جامد وخطوى واثق ومزاجى على سنجة عشرة ، أتوق الآن إلى من أتحدث معه وأتبادل الأفكار والنكات ، البطن ممتلئ ونكهة الكباب فى فمى ستظل تشبعنى لعدة أيام قادمة ، سأمضغ على حسها فولا وطعمية وجبنا وزيتونا بشهية فائقة . بى شوق إلى التدخين بشراهة . إشتريت علبة سجائر بلمونت عشرين من «عبده» على ناصية شارع باب اللوق وشارع التحرير . وقفت أدردش معه ، إنه صديق قديم ، كان صاحب بوفيه للشاى فى الطابق الثانى من سوق خضار باب اللوق ، كان قد طهق من معاملة الباعة وأصحاب الورش فاستعمل البوفيه لحرق الحشيش ، فكان من البديع جدا أن تنزل طائفة من نادى الإذاعة فى شارع علوى أو من مقهى ريش على ناصية سليمان أو من مقهى إيزافيتش فى ميدان التحرير ، لنشترى قطعة الحشيش من خرابة خلف عمارة استراند من سيدة تجلس فى قاعة جوانية وفى حجرها كيس ملئ بالقطع ، ثم نعرج على سوق الخضار لنشرب عند «عبده» . كان رقيقا جدا معنا . على أنه تعب من كبسات الشرطة ، ورأى أن تجار الشنطة شغالين على سوق غزة وليبيا والكويت والسعودية ، فاتكل على الله وجرب طلعة وطلعتين فثلاثة فعشرة فاحلوت اللعبة فترك البوفيه ونزل إلى الشارع على باب السوق نفسه فوضع يده على شريحة لابأس بها من جدار السوق فأنشأ فوقها ڤاترينة أنيقة لبيع السجائر والمياه الغازية ، وركب فيها جهاز تليفون بخزنة يدر وحده عائدا يوميا مذهلا ، ثم توسع فعلق القمصان والسراويل والشيلان والبالونات ولعب الأطفال والحقائب السمسونيت والولاعات والشباشب الزنوبة ، صار مملكة قائمة بذاتها أضيفت أضواؤها النيونية الفسدقية إلى أضواء شارع السوق . وفى آخر الليل تضمحل الضوضاء ويروق الشارع فى ضوء كلوبات البوتاجاز على بعض عربات الفاكهة والساند ويتشات ، فتبدو مملكة «عبده» من بعيد كأنها

مدينة قائمة بذاتها ، ودائما تجد رهطا من الجنسين واقفين فى انتظار دورهم للتحدث فى التليفون ..

شربت زجاجة اسباتس مثلجة على حساب «عبده» ، وانتهزت الفرصة فتلفنت لصديقى ممدوح الجمال ، فرد على مندهشا ضاحكا بصوت نصف مخمور، دردش معى قليلا ، حاول استدراجى لمعرفة ما إذا كنت محتاجا لشىء، أنبأته بأنى الليلة غنى وفى رغد من العيش . وضعت السماعة وأعطيت لعبده ورقة الجنيهات الخمسة فحجز منها ثمن السجائر فقط ورد لى الباقى ، وطالبنى بحق العشرة القديمة أن أزوره كل وقت ..

شرعت أتحرك من أمامه ، إنتفض قلبى ، فجأة من الرعب تذكرت أننى ما كان ينبغى لى أن أمر من هذا المكان حتى لايرانى «عبده» هذا بالذات . إذ أننى مكسوف منه وفى غاية الخجل ، ففى ذات يوم منذ وقت مضى كنت مارا من أمامه فرأيت مجموعة من الغلايين معروضة بشكل مغر ، وكنت أزمع تبطيل السجائر ، فخطر لى أن أستبدلها بالغليون اختصارا للمصاريف وذل السجائر وتحجيما للتدخين . وفى حقيقة الأمر أننى كنت مغرما بتدخين الغليون كعملية شكلية محضة ، منشؤها رؤيتى أثناء الطفولة لشكرى بيك التركى ناظر الزراعة وهو ينجعص على كرسى مرتديا القبعة وبين أسنانه الغليون ، وهو يتكلم ويشفط وينفث الدخان فى آن واحد ، والخلق أمامه راكعون خائفون ، فمن يومها وأنا مشوق لتجريب هذه النفخة الغليونية فلربما أضفت على شخصيتى لمسة من المهابة أو الأهمية . طلبت من «عبده» رؤية هذه المجموعة من الغلايين فعرضها علىَّ بمحاضرة بليغة عن أصالة خشبها وعالمية ماركاتها . سألته عن ثمن الواحد منها فقال : «جنيه ونصف لاغير !» ، فبدا علىَّ الإعجاب والعجز معا ، قلت :

- «ممكن تحجز لى واحد ! »

قال بأريحية :

- «واحجز ليه ؟ ما تاخده اهه ! »

ثم شرع يلفه فى ورقة . قلت : «أصلى ..» .

قاطعنى :

- لاأصل ولافصل ياسعادة البيه ! يوم ما يجيلك فلوس أبقى هات الجنيه ونص ! »

ولفه ، ورفع نحوى وجهه القريب الشبه بوجه الممثل شكرى سرحان . مددت يدى ، فأستدار هو قائلا :

- «تأخذ علبة تمباك بالمرة ؟! علبة أنفوره أهى بستين قرش يبقوا اتنين جنيه وبريزه ! ليلتنا فل بإذن الله ! » ..

ولف الغليون مع كيس التمباك فى ورقة قائلا : مع السلامة يابيه . فمضيت وفى نيتى أن أعود إليه فى أقرب وقت ممكن لكى أرد له حقه وأشكره على هذه الشهامة وهذا الذوق ، لكننى بكل أسف لم أعد مطلقا ، فلم تكن الفلوس لتجىء بسهولة ، وإذ تجيء أكون كالأرض الشراقى ، لاأهنأ بوجودها معى أكثر من ساعات معدودة ، حتى لقد نسيت أمر «عبده» تماما ، حتى بعد أن سهل مجىء الفلوس بعض الشىء لم أكن أتذكره إلا فجأة وأنا أهم بعبور الشارع إلى محطة باب اللوق ، فسرعان ما أرتد كمن أصابه مس كهربى ، وأنطلق فى الطريق المعاكس مهرولا تسابقنى أنفاسى اللاهثة شاعرا كأننى ارتديت فوق رأسى قبعة اللهب . كيف جرؤت الآن واقتحمته بل كيف آمنت على الورقة أم خمسة وأسلمتها ليديه ؟! لابد أن يكون قد نسى هذا الأمر تماما ، هذا هو الأرجح وإلا ما ظهر فى مقابلته كل هذا الود والإشتياق ..

رأيتنى أهرول مسرعا ، متغاضيا عن زحف السيارات المسرعة ، فأعبر شارع البستان قفزا ، لأدخل فى حارة قصيرة تفضى بى إلى شارع هدى شعراوى . كان مستودع البيرة ستلا قد أنزل نصف الباب وصار يلملم نفسه .

نظرت فى الشباك المطل على الشارع فرأيت بجواره شابا يرتدى قميصا وسروالا ومنظارا ، يضع أمامه مجموعة من الكتب والمجلات ومجموعة زجاجات بيرة فارغة ، وزجاجة كونياك مليئة حتى المنتصف ، وهو فى حال من السكر البين يصعر خديه للهواء ويلوك حبات الترمس . تذكرت أننى أراه كثيرا فى بعض المؤسسات الصحفية وعلى مقهى ريش لكننى لم أكن أعرف من هو على وجه التحديد مع أنه كلما رآنى بش فى وجهى وكاد يدعونى لمشاركته فى شرب كأس . ولم يكن الكأس مشروبى لكننى كنت مشوقا لمعرفة من هو هذا الشخص، وإذ صار فى جيبى نقود رأيتنى أحييه من خلف شبكة الشباك بقلب جامد ، فأبتسم وأشار لى أن ألف وأدخل ، فدخلت ، قام يترنح ليسلم على ،عدلته ، أمسك الزجاجة وصب لى كأسا ، إعتذرت ، إكتشفت فى الحال أننى قد تورطت فى مسئوليته وقد أختم الليلة ختاما غير مستحب . نهضت واقفا وانسحبت بصنعة لطافة دون أن يدرى . وعند الباب الآخر أصطدمت بفهمى عزيز خارجا من دورة المياه متسللا إلى الخلاء . بإبتسامة خبيثة سحبنى معه ، قال إنه كان جالسا مع هذا الصحفى المثقف الذى يكتب نقدا أدبيا متعنتا ، فشرب على حسابه حتى سكر وخاف أن يتورط فى توصيله ويدخل فى عراك مع البار بسببه فقرر الهرب . ثم إن فهمى عزيز اختفى فى الحال لا أدرى كيف ولاأين .

حين صرت فى شارع سليمان كان يخيل إلى أن «عبده» يبحث عنى فى الحوارى ، إذ لابد أنه تذكر دينه .. فجعلت أسرع متوجها إلى بوفيه محطة مصر فى باب الحديد ، لأشترى الجرائد هذه المرة كالناس المحترمين ، وأطلب القهوة فالشاى بالحليب ، وأجلس يقظا لإقناع النادل أننى لا أجىء هنا للنوم فحسب ، وعند بداية الضحى أستطيع أن أعرج على إحدى لوكاندات كلوت بيك لأحجز سريرا ثم أدخل لأتمدد فيه ساعة القيلولة ثم أخرج لأسهر سهرتى وأعود فأنام بعمق حتى ضحى اليوم التالى .

فى الحال رأيتنى ممددا بالفانلة والسروال الداخلى على سرير سفرى داخل غرفة ضيقة عتيقة الطراز سقط الطلاء عن جدرانها بفعل الرطوبة العريقة فرسمت خرائط وأشكال ديناصورات وتنانين غامضة مخيفة . بجوارى سرير آخر خال ، مطابق لسريرى ، وسادة على السرير بلا سمك يذكر ، ملاءة بيضاء كالحة ، رائحة الصابون مختلطة بزناخة العرق ، تحتها حشية غير سميكة لدرجة أن الأضلاع الحديدية للسرير كانت بارزة تحت عظامى ، وفوقى كانت بطانية من بطاطين الجيش ، وسروالى وقميصى معلقان على مشجب فى الحائط فوق رأسى مباشرة ، أما النقود المتبقية وساعة يدى فقد سلمتها للأمانات مع بطاقتى الشخصية . كان من الواضح أننى على علاقة وطيدة بهذا السرير وبهذه الجدران وهذه اللمبة الكهربائية الشاحبة المتدلية من سقف حديدى شديد الإرتفاع . بجوار رأسى صوان كالح عليه دورق ماء بلاطعم ، فوقه شباك مطل على الشارع نصفه الأعلى يفتح ويغلق أما نصفه الأسفل فمستخدم كرف توضع فوقه أشياء النزيل، كان ضجيج الشارع وصوت جلجلة الترماى كأنه فوق رأسى. التعب كان ينفخ فى عروق ساقى من أثر مشى طويل بلا بداية ولانهاية . جميع أطرافى منطرحة متباعدة. مع ذلك رأيتنى فى حالة انتصاب صلبة وغريبة، والرغبة حامية ملحة جامحة. فى رأسى امرأة مستديرة الوجه أراها دائما تطل من شباك ما فى منطقة لا أذكرها . أغمضت عينى واستحضرتها فألقيت بها على السرير بجوارى . دفنت نفسى فى الحشية المتصلبة محاولا رؤية تفاصيل جسدها الدقيقة لكنى كلما أفلحت فى تجسيده أرى فهمى عزيز يمر فى خاطرى كالسحابة الداكنة مخلفا دخانا يبدد كل شىء . صار من الواضح أننى قد تعبت تماما وفشلت فى الإتصال بالمرأة التى رأيتها دائما تطل من الشباك فى دلا وطراوة . أرحت رأسى وأطرافى ، استسلمت لخدر لذيذ راح يتمشى فى جه أنحاء جسدى .

رأيتنى عائما فوق بطنى فى مايشبه حمام سباحة عريض وكانت عينى ساقطة تطل فى قاع المياه فترى الأرض على بعد سحيق مفروشة بالحصباء والرمال ، وكانت بلطية كبيرة جدا كسمكة القرش تتلعبط قادمة من بعيد كسفينة جامحة . خفت من منظرها ، لكن شكلها كان بديعا جدا ، ملونة ، بلا حراشيف أو أشواك ، بفخذين بشريين مسحوبين فى اسطوانية رشيقة . إقتربت منى تماما ، رفعت رأسها ، فإذا بى أمام وجه نازك بكل حذافيره مثل القنديل الساجى . كان من الواضح أنها تؤدى رقصة حميمة بديعة الحركات ، تظهر حولها كائنات بحرية متنوعة جميلة الشكل لا أعرف لها إسما ، تتصارع فى محاولة الإلتصاق بالبلطية الكبيرة ، من ينجح فى الإلتصاق يلقم أحد ثدييها ويرضع فى نشوة بالغة ، ثم اندفعت البلطية تشق المياه متباعدة وخلفها موكب هائل من قوافل البط والأوز والدجاج فى تشكيلات رائعة . دار بى الموج فإذا بالأرض من ورائى متسعة تحتشد بأسراب من الأبقار والأغنام والجمال والحمير والخيول تختفى سيقانها بين مساحات شاسعة من السنابل والبرسيم والفول وأعواد الذرة والأرز . تبين لى أننى ربما أكون قد نزلت فى نهر النيل للإستحمام فى مياه الفيضان الذى يحيل بلدتنا دائما إلى جزر من المنازل تحيطها المياه القرمزية من كل ناحية . إن هى إلا برهة وجيزة حتى شق الماء تمساح أسود قبيح الشكل رهيب الفكين تطل من عينيه خسة بلا حدود ، يفتح فما كفتحة الخيمة ، إذا به يقفز غائصا فى الماء بحركة بهلوانية ويخرج ممسكا بالبلطية الكبيرة بين فكيه يحاول ابتلاعها بصعوبة فانحشرت فى حلقه حتى أعلى المنكبين، وكان من الواضح أن أسنانه عاجزة عن الغوص فى لحمها ، فصار يطوحها فى غضب وغيظ شمالا ويمينا وأعلى وأسفل والماء يهدر صارخا فى جلبة فاجعة ، [illegible] بها فى الأعماق . صرت أبحث عن دارنا متذكرا أننى كنت دائما [illegible] البركة المجاورة لها . رفعت رأسى ، رميت ببصرى فى الفضاء ، رأيت

على بعد أبنية كثيرة لعمائر فخمة وحدائق غناء تلتقى فى نصف دائرة ، غائرة فى سفح الماء حتى القاع السحيق. أيقنت فى الحال أن لى مصلحة مهمة جدا بل وخطيرة على هذا الذى يبدو أنه شاطىء قريب، وأننى لابد أن أعبر الماء إليه ، نعم لابد أن أصل إليه بأى شكل فهو الملاذ النهائى بالنسبة لى الآن . كان من الواضح أننى سباح ماهر رغم أننى لا أذكر متى تعلمت السباحة حتى وصلت إلى هذه الدرجة العالية من الحرفنة ، بدليل أننى عائم فوق الماء دون أن أبذل أى مجهود . مهمتى الآن أن أدير دفة وجهى نحو ما بدا لى أنه شاطىء الأول والأخير . أوشكت بالفعل أن أرسو عليه ، جعلت أتهيأ لقفزة أخيرة ، إذا بى أرى البلطية فى مواجهتى ، نصفها الأعلى كله فوق صفحة الماء تنظر لى بعينين واسعتين فوق رقبة طويلة كعمود الرخام ، وكانت تبتسم ابتسامة كبيرة وتغمز لى بعينها نحو المرسى الملائم ، وكنت أشعر أن نصفها السفلى كله فى فك التمساح المختبىء تحت الماء ، فتجنبتها لكى أقفز من جوارها ، لكننى شعرت بالماء من تحتى يزلزل بعنف حتى كاد يلفظنى ، وإذا بضربة من ذيل التمساح تعاجلنى فتدير رأسى تلقى بى إلى بعيد أكاد أفقد صوابى . جعلت أسترد أنفاسى شعرت أن الضربة ستترك فى جسدى ونفسى عاهة مستديمة لاشفاء منها إلى الأبد ، لكنها تهون فى سبيل أن أنجو بالعبور إلى هذا الذى بدا أنه شاطىء . عدلت نفسى ، سبحت مسافة طويلة فى خط مواز للعمائر والحدائق ، حتى إذا ما تيقنت من أننى بعدت عن فخ البلطية التى نصفها العلوى إنسان ونصفها السفلى تمساح غدار ، شرعت أدير نفسى فى اتجاه المرسى ، ما أن تهيأت للقفز حتى ظهرت البلطية ناظرة لى فى ود سلبى أملس ، رجوتها بنظرة أودعتها كل مشاعر الود الحار أن تتركنى أمر . هزت رأسها بعين مقهورة مشيرة لى بيدها الجميلة أن : تفضل . تسحبت برفق إلى بعيد ، إلا أن زلزلة الماء من تحتى فجرته إلى رذاذ ، وضربة أخرى فوق عينى ملأت الدنيا باللهب

الحارق حتى صرخت كالذبيح وأنا أرتفع على موج الرذاذ لأهبط فوق الماء غائصا فى القاع البعيد تمتلىء خياشيمى ومعدتى بالماء الخانق .. فإذا بيد قوية تقبض على كتفى وترفعنى من بين طيات الغرق فترتد لى أنفاسى شيئا فشيئا .

فتحت عينى فى صعوبة شديدة وشهقات الفزع تبعثرنى . طاقتان من السماء تهبطان على عينى بزرقة صافية يحيطها سياج من الرموش المدببة ، عرفت فيهما عينى زوجتى ، رأيت فيهما قليلا من الأسف المشوب بالحزن . جاءنى صوتها العاتب الرقيق : «ماذا فعلت بنفسك ؟!» . قلت : «ماذا ؟!» ، وهززت رأسى استدرارا للإنتباه ، فإذا بى أجلس على كرسى أسيوطى مريح ، مرتديا ثيابى الكاملة . إتسعت الدنيا فى ناظرى ، إذا بى فى حجرة مكتبى بمنزلى ، التى هى فى نفس الوقت غرفة استقبال ومعيشة ، رأيت أمامى على الطقطوقة صينية عليها فنجان قهوة وضح أنه صات من فرط الركنة والإبتراد . بجواره جريدة الأهرام مفرودة وفوقها كومة من دخان السجائر الفرط ، ودفتر ورق بافره ، وطفاية السجائر عليها كومة هائلة من أعقاب السجائر الملفوفة ، وسيجارة كاملة نائمة فى تجويف الطفاية وقد احترقت بكاملها وبقى هيكلها العظمى خطا متماسكا من الرماد . وضعت زوجتى أمامى طبقا به بعض حبات الجوافة وعنقود من العنب الأحمر ، تذكرت أننى اليوم قبضت مكافأتى الشهرية من إدارة التفرغ ، وأننى انتويت ليلة جميلة مع زوجتى ولابد أن أعيشها بعمق قبل أن تنفد النقود فلا يبقى هناك إلا مناخ الغضب والعراك والعصبية وانصداد النفس من الطرفين عن أى شىء . إبتسمت لزوجتى كالمعتذر ، وكانت رأسى ثقيلة لزجة ، فألقيت فى فمى بحفنة من العنب ، ووراءها حبة من الجوافة ، فاتسعت عيناى ودب فيهما النشاط . قلت : «أما لو .. فنجان قهوة ؟! » . قالت وهى تعيد إحكام الروب حول جسدها : «يشهد هذا الفنجان أننى عملته لك بمزاج رائق ! لكنك تركته وسرحت فى النوم ! أهذه هى الدقائق الخمس التى

قلت أنك ستجيء بعدها ؟ لقد قرأت مجلة حواء كلها فوق السرير فى انتظارك !» قلت : «معلهش! خمس دقايق كمان! » ، فحملت الصينية ومضت ، وكانت فى أبهى زينتها . شعرت أننى يجب أن أصحصح ، أسرعت إلى الحمام ، خلعت ملابس الخروج ولبست المنامة الخفيفة ، وأطلقت صنبور الماء فوق رأسى طويلا ثم جففته وعدت إلى حجرة المكتب ، أخذت أرشف القهوة ، وشرعت ألف سيجارتين ، واحدة أدخنها مع القهوة وأخرى أدخنها فى السرير حتى أكون قد وصلت حقا إلى تلك المنطقة النفسية الفاصلة بين الحقيقة والخيال ، بين السحر والواقع . كنت أشعر مع كل رشفة وجذبة نفس أننى على وشك أن أمسك بهذا الخيط الرفيع الذى إن قبضت عليه اضمحلت الكآبة وحضرت البهجة واكتسبت الأشياء جمالا وحيوية .

قمت مندفعا إلى حجرة النوم قبل أن يضيع الخيط من يدى ، كنت واثقا أننى سأحكم قبضتى عليه إذا ما أطفأت النور مستلقيا على الفراش الوثير . خلعت ملابسى وتمددت على حرف السرير وأشعلت السيجارة الثانية وجذبت منها الأنفاس المتلاحقة بنهم شديد ، وزوجتى بجوارى تعبر عن استيائها بتحريك يديها يمينا وشمالا تضرب سحب الدخان تبعدها عن أنفها. كنت أجاهد حتى لا أنظر لها خوف أن أرى على وجهها أية علامة تحبطنى . عوجت نفسى بعيدا حتى أبعد الدخان عنها . مالت هى الأخرى ورمت بنصفها فوقى ، شعرت أنها تستعجلنى ، إصطدمت بمسحة من اللامبالاة و الإعتيادية المقيتة . وكان لابد أن أطفيء النور حتى لا أرى سوى المرأة فحسب ! أطفأت عقب السيجارة والنور ثم استلقيت وشرعت أحتضن زوجتى التى أحبها بالفعل وأتمنى إرضاءها بكل ما فى وسعى من جهد . ما أن عم الظلام حتى حضرت نازك واستلقت على الفراش بينى وبين زوجتى ، وكان علىَّ أن أتعامل معها هى ، لكننى لا أجد بين يدى إلا جسد زوجتى . أرانى حائرا ممزقا بين قطبين سانقين أحدهما

غائب حاضر والآخر حاضر غائب ، وفى هذه المسافة الطويلة بين حضور الغائب وغياب الحاضر يزداد لهاثى ويتصدع فى داخلى شىء ما ، يصير رخوا ، يسقط من طوله كورقة الشجرة فى الخريف ، أحاول استعادته بسرعة ، أشد خيوطه متشبثا بعينى نازك متوسلا بشعرها الشلال وصوتها الدافىء الحنون ، أكاد أنجح ، أصطدم فى الحال بالحاضر الغائب ، أرتد كاسفا ، أنطوى على نفسى مصدوما عنيدا لا تجدى معى المحاولات فتيلا ، ينقطع ذلك الخيط السحرى الفاصل بين جبال الكآبة وشطآن البهجة ، تضيع أطرافه تماما كأن لم تكن ، يكاد يقتلنى اليأس والإحباط والغضب أنطرح على ظهرى مستسلما وصدرى يعلو ويهبط بفعل الكمد لابفعل التعب .

شيئا فشيئا بدأ تنفسى ينتظم ، راح ثقل شديد كجبال من الرصاص يزحف فوقى يبطحنى يسوينى بالفراش ، أريد أن أصرخ لكنى لا أجد صوتى ، أريد أن أحرك يدى أو قدمى أو أتنفض قاعدا لكننى لا أقدر على تحريك أى شىء فى جسدى . صرت أغيب فى الظلام القاحل الجدب ، إلى أن رأينى عاريا بالمايوه أجرى بمرح فوق رمال طرية والبحر على مشارف البصر يهدر بالزبد ورائحة اليود . كنت مبتهجا جدا فيما بدا لى ، رأسى ساخن وجسمى حار ، سرعان ما وضح لى أننى أجرى وراء امرأة عارية هى الأخرى بالمايوه ، حينما ظهرت أمامى كالفراشة البيضاء ، وكان من الواضح أننى أعرف أن هذه المرأة هى زوجتى ، وأننا لابد أن نكون فى رحلة صيفية ، وهذا الشاطىء لابد أن يكون شاطىء سيدى بشر بالإسكندرية ، الذى حلمت طول العمر أن أقضى فيه شهرا أو حتى جمعة مع امرأة أحبها وتحبنى ، لابد أن يكون هذا قد حدث بالفعل أو هاهو ذا يحدث الآن، إنما شعورى يقول لى إننى عشت هذا المشهد من قبل أكثر من مرة وأنه حميم . ها أنذا ألحق بالمرأة التى من فرط حبى لها خفت أن يكون جريها نهائيا وبلا عودة . أمسكت بها لاهثا ، إحتويتها ، جسدها مشدود مربرب

محدد التقاسيم ، إنه بكل حذافيره جسد نازك ، لكننى حين انحنيت على ثغرها لأقبله فوجئت بأنه وجه زوجتى بدون أى لبس . وكانت القبلة لذيذة بل مسكرة بشكل لم أعهد له مثيلا من قبل . أعدت القبلة مرة أخرى ، ثم اندفعت أقبلها فى جميع أنحاء وجهها ، ثم برح بى الشوق فحملتها علىّ ذراعى وانطلقت أهرول فى اتجاه البحر . وكان ثمة عشة تقترب ، ناشزة وحدها عن بقية العشش المتاخمة . كنت على شىء من اليقين أن هذه العشة يملكها رجل من أقارب زوجتى فى الإسكندرية ، وأنه كما يلوح لى سبق أن عزمنا فيها . دخلت العشة وأنا من الشوق فى حال صلبة عفية . بدا أننى أعرف أن الحجرة التى على اليمين مكشوفة ، وأن الحجرة الوسطى هى أنسب الحجرات لكونها مطلة على البحر بشرفة عالية مسقوفة بالخشب كدكاكين الأسواق ، فضلا عن أن بها سريرا عريضا وثيرا ولمبة حمراء وفراشا وردى اللون . أضأت نورها الأحمر بأصبعى الذى مددته من تحت إلية الجسد الذى أحمله ، ألقيت بالجسد على السرير ، هجمت عليه كالليث يهجم على الفريسة . إندفعت لثما وتقبيلا وتمريغا وتشويقا ، فلما صار الوصل قاب قوسين أو أدنى دهمنى شعور مفاجىء بالكآبة الحادة كحرارة سبتمبر فى زمتة النيل ، هويت من حالق ، تمنيت لو دق عنقى وانتهيت . غير أنى مالبثت حتى شعرت بأنفاس غريبة داخل الحجرة ، فارتعدت، رأيت شبحا يمرق أمام باب الحجرة فى الممر ، سمعت خرخشة الستائر التى اهتزت كأن لفحة هواء صافحتها ، إنتفضت صائحا : «مين اللى بره ؟! » . لم يأتنى جواب، بل سمعت طقطقة الخشب تحت وقع أقدام ، داهمنى خوف مروع. من فرط خوفى من المجهول البادى رميت نفسى فى قلب الخطر دفعة واحدة : ياقاتل يامقتول . نزلت عن السرير ، مشيت على أطراف أصابعى ، أضأت النور الكبير الأبيض ، غمر الضوء الحجرة فبانت زوجى منكمشة على نفسها فى روع حقيقى ، تشد الملاءة على جسدها. نظرت حوالىَّ فى ترقب ،

رأيت على صوان التسريحة طبقا من البلاستيك عليه بقايا فاكهة ، وسكين كبير من سكاكين المطبخ . إهتز قلبى لمرآها ، جفلت عينى ، رأيتنى أمسكها من مقبضها العاجى الخشن فتموت قبضتى عليها . داريتها خلف ظهرى وفتحت الباب . إندفع شبح يجرى فى الممر الدائرى المؤدى إلى الشرفة المطلة على البحر ، أضأت نور الممر ونور الشرفة حتى تبينت الشبح تماما من خلفه . كاد عقلى يذهب بددا ، قبضتى تقاوم الرعشة فوق مقبض السكين . إندفع الشبح خارجا إلى الشرفة ، تأهب للقفز من فوق السور الحاجز لكنه فوجىء بأن الموج العارم يتأهب لاستقباله ، فعدل عن هذا الفعل وانزوى فى ركن من السور كان من الممكن أن يقفز منه إلى الخلاء ليتوه فى الصحراء ، لكن الظلام الكثيف خلف ظهره جعله يستسلم فى الركن كالفأر المذعور ، رافعا ذراعيه فى استنجاد صائحا :

– «إخز الشيطان ! أرجوك لاتظلمنى !»

– «ياسافل يابن السافلة ! أهو أنت ؟!»

قال بابتسامة شاحبة مرتعدة :

– «سأشرح لك !»

وجدتنى لاأكاد أصدق ما أرى ، فآخر ما كنت أتصوره أن يتربص بى «فهمى عزيز» إلى هذا الحد ، ووجدتنى أقترب منه ملوحا بالسكين نحو كرشه :

– «كيف سولت لك نفسك الدنيئة أن تتجسس على فراشى ؟!»

إفتعل ضحكة صفراء يذكرنى بها بنبرة الصداقة والذكريات الحميمة المشتركة ، قال :

- «ياوغد ! كيف تفكر هكذا ؟ لقد جئت لزيارتك ! تقابلنى بالسكين ؟!»

كانت هذه الصفاقة والبجاحة الفجة وحدها كافية لأن تجعلنى أدب السكين فى كرشه على الفور ضيقا وبرما بهذا الزيف الدنىء ، لكننى صرخت فيه بسخرية مريرة :

- «لست أرى أحدا يزور صديقه على هذا النحو إلا أنت ! إننى أفهمك أكثر من أمك وأبيك ! أعرف خستك المتأصلة فيك ! لكننى لم أكن أعرف أنها خسة مبطنة بالجنون ! »

رسم على وجهه شعورا بالإستياء ، قال بلهجة تمثيلية :

- «هكذا ياوغد نظرتك لى أنا الذى لم يفرغ من حبك لحظة واحدة ؟! أقسم بشرفى أننى أنتظرك فى هذه الشرفة من أذان العصر ! عطلت نفسى عن السفر من أجل أن أراك ! إفتقدتك ! لم تعد تجىء إلى المجلة ! قلت فلأطمئن على صحتك !! »

- «ومن أنبأك أنى هنا ؟ من أين جئت بالعنوان ياروح أمك ؟!»

- «لا تهزأ بى ياوغد ! تذكر أننى صديقك وبمثابة أخيك ! تذكر أن بيننا عيش وملح ! صدقنى إننى أعرف علاقتك بهذه العشة ! لقد عزمتنى فيها أنا ونازك ذات يوم ! حتى بالأمارة عرفتنا على صاحبها الذى هو قريب لزوجتك ! بالصدفة المحضة كنت مارا من هنا ! خطر لى أن أسأل عليك ! وجدت الباب مفتوحا وثيابكما موجودة فمكثت فى انتظاركما ! هذا كل ما فى الأمر !! »

وصل ضيقى إلى ذروته . أردت أن أصرخ فيه فانحبس صوتى . إرتبكت لبرهة وجيزة ، صرت أتلفت حوالىَّ فى حيرة ، أهم بأن أرمى السكين فى البحر، لكننى ما كدت أحول وجهى عنه حتى شعرت بانتفاضته ، فانتبهت فى الحال

فرأيت فى عينيه إحباطا شديدا لمحاولة هجوم مباغت شرع يشنه علىَّ فى غفلة منى ، بل إنه كان قد هم بأن يحيطنى بذرأعيه .. فما دريت إلا وأنا أقذف قدمى بين ساقيه فى مباغتة ناجحة ، فاختل توازنه وتهاوى كالنخلة ، فعاجلته بالسكين فى بطنه فاندبت حتى نهايتها ، ثم سحبتها لأدبها فى قلبه ، ثم أتحول إلى حيوان متوحش يقطع فى لحم الفريسة بنشوة فائقة ، حتى تيقنت من فنائه . جرجرته ، أسندته واقفا على السور ، أمسكت بقدميه ، رفعتهما ، دلقته فى قلب الموج فتدحرج فى المنحدر ، واختفى يزغرد فيه الموج . ومن بعيد جدا كانت سحابات الزبد الطافى فوق الموج تنعكس عليها أشعة النجوم فتكشف عن الإحمرار الذى اعتراها . عدت إلى الداخل ، صادفت المطبخ مضاء فدخلته فوجدت خرطوما طويلا من البلاستيك الأحمر فركبته فى الصنبور وسحبت طرفه خارجا إلى الشرفة . طوحت بالسكين فى البحر على طول ذراعى . سلطت الخرطوم على الأرض ، فاندفعت قراطيس المياه تفرش نفسها على الأرض تأكلها أكلا ، وينحدر الماء من تلقاء نفسه نحو ميزاب خفى تحت السور ليخر فى قلب البحر ، حتى صارت الأرض الخشبية نظيفة تماما ، وقلت لنفسى إن الموج لن يحتفظ بتذكار الدم أكثر من سويعات قليلة . ثم رأيتنى أدخل على زوجتى فى الحجرة الوسطى ، فدفعت عن نفسها الملاءة ، وبدا كأنها لم تر ولم تسمع ولم تعرف مما حدث شيئا ، وبدأ فى نفس الوقت كأنها عرفت كل شىء . شعرت بشىء قليل جدا من الضيق ، لكننى حين تمددت بجوارها كنت أشعر بمنتهى الراحة ، بل بالسعادة الفائقة كأننى قمت بأعظم عمل يمكن أن أقوم به فى حياتى ، أروع وأشفى للنفس وللغليل من أى مجد يمكن أن أطمح إليه ، ثم إننى اعتدلت نحو زوجتى كأن شيئا لم يكن . وكان فى نيتى أن أكتفى باحتضانها والإخلاد إلى إستشعار لذة ما فعلت ، لكن رائحة النشوة المسكرة سرعان ما طرأت فجأة فتشبع بها المكان كله ، بذلك العطر النفيس الفواح . فدب النشاط فى كيانى ، تمددت رغبتى وتصلبت كعود الحديد المحمى . وكان ثمة يقين راسخ فى أعماقى هذه اللحظة أن الرخاوة لن تعرف طريقها إلى أوصالى ثانية .

- ١٥ -

سلاسل فى الرقاب

هذا ، فيما يبدو لى ، مصعد ، أشبه بأكشاك محطات الكهرباء فى شوارع القاهرة . وهذا ، فيما يبدو لى ، هو أنا ، يقف أمامى فى المرآة التى تحتل نصف جدار المصعد المواجه لبابه - ثمة مصباح خفى عليل الضوء يبدو تحت تكور فى سقف المصعد ، تكور من الضوء تتخلله شبكة من الظلال تمتد على السقف كله . من يبدو أنه أنا فى المرآة يرتدى سترة مبرقشة بنقط سوداء كحبات العدس على أرضية خضراء داكنة ، بياقة كياقة المعطف تمتد فتحتها من الصدر إلى البطن بزرارين وعروتين ، الزرار الفوقى مزدوج ، واحد من خارج وآخر من داخل السترة . تحت السترة فانلة برقبة وأكمام من النوع المسمى بالهيلانكا ، سوداء اللون ، وسروال واسع فتحة الساقين بتفصيلة تسمى شارلستون . الرقبة قصيرة والرأس مستديرة والوجه بيضاوى أشهب أشقر الشعر بسوالف طويلة وأنف مستقيم كقلم الشفايف ، فوقه منظار طبى أخضر العدسات خضارا قاتما ، بوادر صلعة خفيفة تعمل جاهدة على أن تشق لنفسها جزيرة صحراوية اللون فوق الجبهة المقلوظة كبوز القرعة العسلى . منظره على أى حال أعجبنى إلى حد ما ، فاقتنعت بأنه ليس يقل عن أى واحد من طائفة الأنقاء الذين أعرفهم . رفع يده لى بالتحية ، وكنت لحظتها أحاول عدل المنظار

على أنفى ، فداخلنى شىء من الرعب الخفى ، فيما كان المصعد يتهدهد فى رجة خفيفة أثناء صعوده . وكان يبدو على أننى منسلخ لتوى من غيب طويل لست أدريه ، كأننى ولدت الآن فحسب ..

توقف المصعد ، إنجذب الباب الخارجى . من خلال زجاج الباب الداخلى ظهر رجل ضخم الجثة بكرش مدبب وذقن طويل وعينين جاحظتين فيهما شعور عميق بالقهر والإستسلام لقدر مجهول . يرتدى بذلة رمادية اللون تبدو نظيفة وإن كانت عتيقة جدا قديمة الطراز كأنها من القرن التاسع عشر بسترة تشبه ما يسمى بالريدنجوت ، طويل الأذنين كأرنب ، برأس مقلوظة كأنها مجرد فروة غزيرة من الشعر المتجعد تتخلله شعرات بيضاء ، ورباط العنق مبروم حول رقبته وهو لايتنى يمط رقبته زاغدا الهواء بذقنه يمينا ويسارا كأنه يريد أن يخلع عنقه من هذا القيد الخانق ، بيده حافظة أوراق جلدية منتفخة ذات شكل هرمى. تبسم لى عن سن ذهبية وشفتين محروقتين من فرط التدخين . تبسمت له أنا الآخر ، وجدتنى أقول : «أهلا عبس !» . دلف داخلا ، مادا يمناه ليسلم علىَّ قائلا من خلال أنفاس تتردد بصعوبة عبر أنفه : «إزيك ياأستاذ !» ، واستدار تلقائيا ليغلق درفتى الباب الداخلى بعد أن جذب الباب الخارجى جذبة تأمين قوية ، ثم ضغط على زر الطابق الأخير .

هذا إذن هو «عباس نحمده» ، إسم أبيه : «نحمده» وهو لا يمل دائما – وبجدية هائلة – من تكرار قصة الإسم لكل من يسأله أو يبدى استغرابه ، سواء كان ذلك بدافع السخرية أو بدافع الفضول : كان جده المزارع الأجير كثير العيال ، ولم يكن يستطيع الإنفاق عليهم كلهم ، ومع ذلك كانت جدته تحبل عقب الولادة بأربعين يوما وربما جاءت بتوأمين ، وحين ولدت أباه كانت السلطة قد أخذت أبناءها الذين تعبت فى تربيتهم ، مع ذلك استبشر جده به فأسماه : نحمده ، وقد صدق الفأل ، فـ «نحمده» كان الوحيد من إخوته الذى لم تأخذه

السلطة للعمل فى السخرة، إذ بارك الله فيه فأعطاه النعمة حتى علم جميع أولاده تعليما عاليا ومن بينهم عباس الذى تخرج فى المعهد العالى للفنون المسرحية ، وصحيح أنه تخرج فى قسم النقد إلا أنه يهوى التمثيل ويعتبر نفسه مؤهلا له بالدراسة ، وهو أولى به من أولئك الهواة غير المعهديين الذين يستعين بهم المخرجون فى الإذاعة والمسرح والسينما ، هو لن يستريح حتى يستصدر قانونا بمنع تشغيل غير المعهديين . وصحيح أنه يعمل بإدارة الشئون المعنوية التابعة للقوات المسلحة ولكن لماذا لايشبع هوايته بالتمثيل فى برامج الإذاعة كغيره و .. قدم لى سيجارة وأشعلها وكنت أعرف أنه سيستأنف الحديث فى موضوع من عشرات المواضيع التى يفتحها معى كلما التقيته . إنشغلت عنه بالتدخين والنظر فى الأرض بشرود . وكنت أعرف أن حافظة أوراقه تحتوى على عجائب : عرائض ومذكرات وقصاصات صحف قديمة وصور قرارات إدارية ونصوص تمثيليات وبرامج يمثل فيها ومسرحيات يخرجها لفرق المدارس والساحات الشعبية ، وجريدة الأهرام ، وقميص نظيف لزوم التغيير إذ هو يمكث فى القاهرة خمسة أيام كل أسبوع واليومان الباقيان فى بلدته الحسينية بمحافظة الشرقية . دائما أبدا نلتقى فى هذا المصعد لننتهى إلى مكان واحد ، قد يجلس معى ، أو يسرح به الكلام فنقطع شارعا بأكمله فلا يستأذن فى الإنصراف إلا إذا صرفته أنا بصريح العبارة .

وضح لى أنه صاعد من الطابق الثالث ، حيث توجد مراقبة التمثيليات بكل مخرجيها وسكرتاريتها ، وفى الجناح المقابل توجد إذاعة البرنامج الثانى ، وفى الطابق الرابع توجد إذاعة صوت العرب ، ومكتب الشاعر أحمد رامى ، ومكاتب إدارات أخرى ضاق بها مبنى الشريفين المقابل ، فهذه العمارة تقع على ناصيتى شارعى الشريفين وعلوى حيث استأجرت فيه الإذاعة طابقين كاملين حافلين بالغرف الكثيرة ، أما الطابق الأخير ، الذى كان بمثابة سطح ، فقد

استأجرته جمعية الخدمات المكونة من العاملين فى حقل الإذاعة وحولته إلى ناد للإذاعة ، فابتنت الجمعية جناحا واحدا هو الجناح المطل على شارع الشريفين ، وجعلت من الجنــاح المطل على شــارع علوى قاعة كبيرة تحيطها الشـــرفات كالكورنيش من جميع الجهات ، ثم قسمت هذه القاعة الكبيرة إلى قاعتين فسيحتين ، إحداهما تشبه المقهى الجميل الحافل بالمناضد والمقاعد ، بحوائط من الأخشاب والزجاج والمرايا ، والقاعة الأخرى للتدريبات على التمثيل قبل التسجيل ، ولها شرفة تطل على شارع علوى ، حيث تقف عمارة استديوهات علوى شامخة عتيقة الطراز .

كان «عباس نحمده» يتصبب عرقا مع أن الوقت ليل بارد . وجدتنى أسأله : «ستجد أحدا فى النادى الآن ؟» قال وأنفاسه تصفر فى صدره : «النادى سهران حتى الفجر !» ، ثم أضاف : «هناك بروفات ومقابلات ! برنامج أضواء المدينة سيقيم غدا حفلا لصالح الجمعية صاحبة النادى ! كل الفنانين متطوعين بلا أجر ! » . وجدتنى أسأله : «هل الشيخ إينو هناك الآن ؟! » . قال : «نعم ! هو رئيس مجلس إدارة الجمعية وصاحب النادى وصاحب فكرة الحفل ! هو طول النهار كأم العروسة فاضية ومشغولة ! » . شعرت بانقباض مفاجىء ، سألت نفسى : لم هذا الإنقباض ؟ لم سألت عن الشيخ إينو ؟! تبينت أننى كنت صاعدا إلى النادى لنفس الغرض الذى يسعى إليه عباس نحمده : إختلاس ساعة أو ساعتين من النوم فى مكان آمن بلا حرج . تبينت أن طموحى لم يكن يقف عند هذا الحد ، وأننى كنت أزمع التسلل خفية إلى غرفة خلفية نائية فى الجناح المطل على شارع الشريفين ، هى على وجه التحديد غرفة رئيس مجلس إدارة النادى الشيخ عبد العزيز إينو ، ذلك الرجل الطيب ، الأفندى المطربش ذو اللحية البيضاء الطويلة والقامة الفارعة المهيبة ، الذى حصل على لقب المشيخة كعضو مهم جدا فى القيادات الأولى لجماعة الإخوان المسلمين ، وأصبح يتعامل

فى هذا النادى مع فئات يعرف أن الكثيرين منها على درجة كبيرة جدا الإنحلال الخلقى لكنه يعرف أن نسبة أكبر على غاية من الفضيلة والطهر ليست غرفته نفسها هى قصدى إذ أنها فى عدم وجوده مغلقة بالمفتاح ، إنما أقصد غرفة الصالون الملحقة بها ، وهى كبيرة جدا ، تصلح كسرادق كبير ، تتسع لحوالى مائة كرسى صالون منجد مذهب على طراز ملوكى مهيب ، وعشرات من الطقاطيق والترابيزات الصغيرة ذات السطح الرخامى ، أما الأرض فمفروشة بالسجاد الثمين ، أعدت للإجتماعات الكبيرة ، إلا أن النوم فيها متعة لاحد لها ..

رأيتنى مقبلا نحو هذه الحجرة من الجهة اليمنى وقد وقر فى ذهنى أنها مخبأ عظيم لمن يريد أن يقطع صلته بالعالم كله نهائيا ، هى نادرا ما تفتح للزوار ، وحتى إن هى استقبلت زوارا فإنها تستوعبهم جميعا فى ركن صغير بحيث لايتمكن الجالسون فيه من رؤية من يستلقى نائما خلف أحد المقاعد بينه وبين الحائط . بابها دائما مقفل لكنه غير مغلق بمفتاح الخبثاء من الممثلين والمخرجين يتسللون إليها فى أحيــان نادرة جدا للإختلاء بغدوة شهية شــاركوا فى تكاليفها . ضبطهم الحاج إينو ذات مرة فهاج فيهم وفى الجميع وملأ جدران النادى بالملصقات التى تحض على احترام المكان وعدم اقتحام الغرف المصونة . ولقد نفذوا تعاليمه بالفعل ، إلا الممثل العاطل « إسماعيل نعيمه » ، ذلك الطيب القلب ، المتخرج فى معهد الفنون المسرحية فى أول دفعة مع شكرى سرحان وصلاح منصور وسميحة أيوب وعبدالمنعم إبراهيم وغيرهم من النجوم ، يعمل مفتشا للمسرح المدرسى بوزارة التربية والتعليم ، يشغل نفسه دائما بقضايا الممثلين المهنية ، عضو بمجلس إدارة نقابة السينمائيين ، يسعى لتأليف نقابة للممثلين وحدهم ، يتحدث عن التمثيل حديثا مثقفا راقيا ، يقرأ باستمرار أحدث ما صدر فى العالم من أعمال درامية ونقدية ويعرف أحدث المدارس ، والمذاهب

والتيارات الفنية الجديدة من بز أمها ، من اللامعقول إلى الغضب إلى الخنافس، والهيبيز ، دائما أبدا يحمل كتابا إنجليزيا أو فرنسيا فى جيبه ، وجميع ما صدر اليوم من صحف ومجلات وكتب ، حيث يجلس فى النادى ليقرأها . مع ذلك هو آخر من يعمل بالتمثيل ، لسبب يبدو مجهولا ، مع أنه نمط فنى مناسب للسينما على وجه خاص ، إذ هو ربعة القوام مبروم متين البنيان فى غير امتلاء ، يرتدى البذلة الكاملة صيفا وشتاء وهى دائما مكوية ، ولابد من رباط العنق تحت ياقة يعلوها الغبار وزيت العرق على حافتها الدائرية حول رقبته القصيرة الملفوفة . وجهه مدور، بملامح باهتة ، فالأنف مجرد إشارة بمنخرين لطيفين ، والفم مجرد بسمة مهذبة أسيانة على درجة كبيرة من النبل . مهذب إلى أقصى حد ، رقيق الحاشية صافى العبارة موجزها ، لايتحدث إلا بالشديد القوى ، حين يكون هناك ضرورة ملحة لأن يتحدث ، فإن تحدث أفاض حتى أوفى وأفاد وقدم معلومات جديدة وكشف عن أدلة دامغة وبراهين عقلية محكمة ، بصوت رخيم رصين متزن مهيب، قد يعرج الحديث على السياسة فإذا هو سياسى حريف من ساسه لراسه ، وإذا هو موسوعة فى أسماء السياسيين وشئونهم فى جميع العصور فى جميع أنحاء العالم ، وبتوسع أكثر فى شئون أفريقيا وأمريكا اللاتينية وإسرائيل . حديثه فى هذا فريد فى لونه لم أعهده عند كبار الأساتذة والمثقفين ، حيث تمتزج السياسة بالأدب بالتاريخ ، حيث يعقب بقول لبرنارد شو فى إحدى مسرحياته على فعل لأحد الزعماء ، وحيث يحلل التاريخ على ضوء رواية لشتاينبك أو هيوارد فاست من أمريكا أو لتشيكوف ودستويفسكى من روسيا ، وحيث يربط بين النشرة الجوية وتصريحات عبدالناصر ، وبين تأخر الجرسون فى الإتيان بفنجان القهوة وما حدث لنا فى النكسة العسكرية ، حديث يتسم بالصراحة والجرأة على طول الخط ، رأيه فى مستوى المخرجين والممثلين والمؤلفين معلن بشكل أو بآخر ، كل واحد من هؤلاء وأولئك يعرف وزنه

الحقيقى فى نظره . ربما لهذا يحجم المخرجون عن استدعائه للتمثيل فى برامجهم ، ربما لشدة اعتزازه بكبريائه لدرجة أنه لم يفاتح أحدهم من قريب أو بعيد فى مسألة العمل ، بل إنه لايأبه بهذه المسألة على أى نحو ، هو الوحيد الذى يبتسم لكل الناس ، يعطف على من يسخرون منه سرا وعلانية ، يقرض نقودا لمن يحرمونه العمل فلا ينتظر استردادها وكل معذور فى قرشين يميل عليه فلا يرده خائبا أبدا . غداؤه فى النادى يعم بالخير الوفير على جميع الموجودين لحظتها فضلا عن نغنغة السعاة هو ليس ثريا مع ذلك ، بل إن حياته أطرف من فيلم فكاهى دامع الضحكات ، إذ هو ورث عن أمه عمارتين كبيرتين متجاورتين فى شارع شريف فى وسط المدينة . وكانت أمه متزوجة من رجل آخر بعد موت أبيه الذى لم ينجب منها سواه ، وخلفت أمه بنتا وحيدة من زوجها الثانى ، الذى كان موظفا بسيطا جدا تزوجته عن حب ولشدة افتتانه بشخصها جعل بينه وبين أموالها سدا منيعا ، وقد مات زوج أمه ، وباتت أخته عاجزة عن العيش وحدها فى شقة كبيرة فى العباسية بإيجار كبير ومعاش قليل ، فنقلها إسماعيل لتعيش معه فى شقته فى مصر الجديدة وأهدى شقة العباسية لعروس كانت تخدم أمه منذ طفولتها . صار يسعى لستر أخته حتى يخلو تماما من المقلقات ، حالفه التوفيق فى اختيار عريس محترم من زملائه فى وزارة التربية والتعليم لكنه فقير الحال وإن كان ماضيا فى سلم الترقى بسرعة يحسد عليها لولا أنه يستحقها بدعائم من أخلاق حميدة وجد واجتهاد كبيرين . وقفت شقة الزوجية عقبة فى طريق إتمام الزيجة ، فلم يضيع إسماعيل وقتا ، تنازل لأخته عن شقته بكل ما فيها من أثاث ثمين عريق فاخر الرياش استوردته أمه من بلاد الفرنجة ، إنطلق متصعلكا فى وسط المدينة قريبا من الجو الفنى وسهراته وتجمعاته ، إستقر سكنه فى بنسيون أنديانا ، تملكه سيدة يونانية عجوز . الطريف أن البنسيون عبارة عن شقة مهولة فى إحدى العمارتين اللتين ورثهما إسماعيل نعيمه عن أمه.

هو يستحق من اليونانية العجوز إيجارا شهريا عن الشقة التى حولتها إلى بنسيون هو أحد سكانه ، لكنه حريص دائما على أن يعطيها إيجار غرفته كل شهر سواء دفعت هى الإيجار أو تأخرت فى دفعه . لم يحدث أن قال لها فى يوم من الأيام : «إخصمى حقك من حقى لديك !» ، تقول هى ذلك لكل صديق يزور إسماعيل فى البنسيون أثناء أنتظاره فى غرفة الصالون العمومى . لذا فإنها تهتم بضيوفه غاية الإهتمام ، تسجل له أسماء من يطلبونه فى الهاتف أثناء غيابه ، تولى غرفته وفراشه عناية خاصة ، تضيف ثيابه إلى الملاءات عند الغسيل لثقتها أنه سيدفع تكاليف غسيل البنسيون كله عن طيب خاطر . ولقد تجاوز الأربعين من عمره بقليل ولم يفكر فى الزواج ، ولم يدخل فى علاقة نسائية . الكل يعرف ما يمكن أن يكون السبب ، إنه مرض جلدى خبيث جدا فى يديه ، إذ تبدو اليدان والعياذ بالله محروقتين متسلختين على الدوام يتحول جلدهما إلى قشر سميك كئيب اللون يتشقق ويتساقط صانعا جزرا على ظاهر اليدين وحول الرسغين . لم يكن يغيظه من هذا المرض سوى أنه يضطر دائما إلى الهرش فيهما بلذة تزيد المرض تفاقما وخطورة ، فدرب نفسه بشق النفس على مصادرة حركة الهرش بسرعة كلما شرعت أطراف أصابع يد تمتد لتهرش فى الأخرى ، إذ سرعان ما ترتد الأصابع إلى بعيد بقليل من العصبية . كان دائم الرغبة فى إخفائهما داخل جيبى السروال خاصة فى بعض اللقطات السينمائية العابرة التى صورها فى بضعة أفلام قليلة . ثم إنه اعتاد أن يفقد إحساسه بهما لوقت طويل ، لا يتذكرهما إلا حين تأكله جرثومة الهرش فيتحسس موضع الأكلان براحة يده فى تمسيس خفيف . ولقد صرفت أمه على الأطباء لمدة عشرين عاما سافر هو خلالها إلى بضع عواصم عالمية ليعرض نفسه على أشهر أطباء الجلد حتى يئس وعافت نفسه العقاقير والمسكنات وقرفت من الأدهنة والمراهم . مع ذلك يبتسم فى نبل حقيقى وهو يحدثك عن هذه المحنة ثم يقول ببساطة . «لقد

أصبحت أحب هذا المرض بحكم الألفة والعشرة الطويلة ! ولن أنسى أنه كان السبب فى أنى أجدت اللغتين الفرنسية والإنجليزية من كثرة السفر ودروس التقوية ! سيظل دائما صاحب الفضل فى أننى أقرأ الآن كنوز الفكر الأوروبى الثمين الذى يعوضنى عن خواء بلادنا من مثله ! يهون المرض الجلدى إن كان فى يدى لكنه يصعب إن كان فى عقل الأمة ! » .

ها هو ذا يخرج من هذه الغرفة الخلفية ساحبا الباب فى رفق وتلصص لطيف ، متأبطا لفة كبيرة من الجرائد والمجلات ، ويمضى متبخترا فى هدوء عبر الممر الطويل ، وكان الجو مغيما والسماء ترسل رذاذا خفيفا رفيعا تتسرب نقاط منه عبر تندة الممر لتسقط فوق الجزيرة الصلعاء الصغيرة فى رأس إسماعيل نعيمة ، محدثة صوتا ورذاذا ، فيمد يده المسلوخة ليمسحها بمنديل حريرى لونه لون السماء ، لم ينظر خلفه فلم يرنى . دفعت باب الغرفة برفق ودلفت داخلها ، فوجئت بشهقة توشك أن تكون صرخة ، رحت أتلفت منتفضا باحثا عن مصدرها، داهمنى صوت نسائى لاهث مرتعب ضارع : «إقفل بسرعة أرجوك !» إستدرت فى الحال ، رأيت فى الباب مزلاجا داخليا فدفعته فصار من المستحيل فتح الباب من الخارج . خطوت فى اتجاه الصوت ، هناك فى آخر الغرفة عند صوان كبير عريض يقف كالحائط يمتلىء بالملفات والأضابير والدفاتر والكتب ، لصقه على الجانبين مجموعة دواليب وأدراج معدنية صنع شركة إيديال . أعرف أن خلف هذا الصوان مساحة فارغة تتسع لأربعة أشخاص متجاورين بالعرض وخمسة بالطول، أعدها الشيخ إينو ليقيم فيها الصلاة مع من حضر إذا أدركهم موعد الصلاة أثناء الإجتماع ، وفرشها بسجاد ثمين ، فباتت محوطة بكثير من الرهبة ولا أحد يقترب منها ، لايقتحمها إلا من أراد الإستعانة بالصلاة على النجاح فى تسجيل أو سريان مشروع . رأيتنى أقترب من هذه المساحة مرتعش الساقين ، مائلا برأسى لأتمكن من رؤية من يكون مستترا فيها . لمحت ظهر

امرأة فارعة ، عارية تماما إلا من سروال صغير فى حجم الكف لايغطى أى شىء . غملت الدماء فى عروقى وفارت . كانت هى ملخومة مرتبكة كمن أصيب بمس شيطانى، تحاول تخليص القميص من الفستان لتتمكن من لبسه، مؤخرتها البارزة الشامخة المفلوقة تترجرج . إستدرت أريد وجهها فأطلقت صيحة مكتومة وشرعت تتكور على نفسها . أهو أنت ؟! ماذا تريد ؟! هكذا قالت فى اضطراب وقد اصفر لونها وغاضت الدماء تماما فى وجهها . قلت : « لاتخشى شيئا ! لست أريد شيئا ! لكن ماذا بك أنت ؟! مالحكاية بالضبط ؟! » . تربعت على الأرض باكية ، كانت قد ارتدت القميص وشرعت ترتدى الفستان ، فلما ظهر وجهها من فتحة الطوق راحت تجدف بذراعيها باحثة عن أحد كمى الفستان ، فتقدمت لمعاونتها ، أمسكت بالكم وعدلته هيأته لدخول ذراعيها فيه ، فلما أكملت ارتداء الكمين صارت تشد الفستان تحت صدرها وهى تنظر فى عينى من خلال دموعها فشعرت أنها تكاد تبتسم إذ أن لمعة الهزل الساخرة كانت تبرق فى عينيها على الدوام . شعرت أننى يجب أن أجلس لأستطيع التحكم فى تنفسى ، فجلست قبالتها على الأرض متربعا ، فصار كل منا ينظر فى عينى الأخر حتى انفجرنا فجأة فى ضحك مكتوم . ساقاها متكسران على بعضهما عاريان .

.. لم يكن يخطر ببالى على الإطلاق أن «مايسه البحراوى» يمكن أن تقع فى مثل هذا المأزق السخيف، آخر ما كنت أتصوره أن تكون بهذا الرخص برغم كل ما أعرفه عنها . إنها تتمتع ليس فحسب بحب الجميع بل واحترامهم ، إذ هى جامعية ، تخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية ، ومن أصل تركى محافظ ، عشقت فن التمثيل فأقنعت الجميع بأنها تنزلت من عليائها وتعطفت على الوسط الفنى بالنزول إليه ، دائمة التلميح إلى أن التاريخ سيعتبرها رائدة من الرواد أثبتت أن بنات البيوتات والأسر الكبيرة المحافظة يمكن أن يدخلن

حقل التمثيل ليجعلنه شيئا محترما فى نظر الناس ، وقد ظهرت بالفعل فى بعض مشاهد فى مسرحيات كثيرة ، ويسيل عليها لعاب مخرجى الإذاعة فيطلبونها بإستمرار للتمثيل فى مسلسلاتهم وسهراتهم فى أدوار تؤديها بحرفنة لابأس بها مدعومة بخفة ظل تمهد لها القلوب إلى حسن القبول مهما كان أداؤها ضعيفا ، معظمها أدوار إغراء تتطابق مع مواهبها الطبيعية ، كجسد فاره مخروط كأنما صنعه نحات زئر نساء على المقاييس التى تلهب الصخر ، بصدر وبطن كالخريطة الملونة وخصر رفيع ومقعدة مدورة باسياب مخروطى نحو ساقين رخاميين ، وعينين سوداوين ، وصوت حريرى مبحوح ومكتنز بالمشاعر الحياتية الرنانة . لا تظهر مطلقا فى سهرات الوسط الفنى ، لم تضبطها الأعين مرة واحدة فى مكان عام بصحبة أحد ، لم تتردد حولها أى شائعات ، يغازلها كبار السن فقط ولكن بتحفظ وعلى استحياء . على ترابيزة البروفات فى النادى تتلقى مكالمتين عبر الهاتف فيعرف الجميع أن «داده» تطلبها لتطمئن على وجودها إذ هى تأخرت عن موعد العودة للغداء .. هذه هى الصورة التى نجحت هى فى رسمها فى أنظار كافة المنتمين إلى الوسط الفنى . أنا الوحيد الذى يعرف أن هذه القصة كلها كذب فى كذب . الفضل لصياعتى الأزلية بحثا عن مأوى، رغيف، كوب شاى، لفافة تبغ ، فحينما يئست من الوسط الفنى والصحفى كمصدر للعيش لجأت إلى صنعة كنت تعلمتها طفلا فى قريتى ، صنعة خياطة الجلاليب البلدى ، كنت قد حققت مهارة مبكرة فى شغل الماكينة بالذات حتى صرت أراهن على عشرين جلبابا أدقها على الماكينة فى اليوم بليلة لولا أننى أشعر نحو هذه المهنة بالأنفة والكبرياء والكراهية لأنها لا تترك لعينى فرصة للقراءة أو الكتابة ، لم أكن ألجأ إليها إلا كعملية إنقاذ سريع مؤقت ، خاصة فى المواسم كشهر رمضان أو العيد الكبير ، حيث أجوب الأحياء البلدية المغرقة فى الشعبية أو الضواحى البعيدة المتصلة بالريف ، أبحث عن محل ترزى

عربى ، لأدخل على المعلم . صحيح أننى آخذ سمت الأفندى المثقف ، لكن بصمات المهنة ماتزال باقية فى شخصى فى مظهرى فى أطراف أصابعى فى طريقة إمساكى بالقماش فى انحناءة رأسى فى حديثى المليء بمصطلحات المهنة ومفرداتها . المعلم سرعان ما يفهم أننى ابن المهنة ، يسألنى فى الحال ، «فطرت ياأسطى ؟» أرد عليه مغمغما بألفاظ مضغمة ، يرسل فى طلب صينية الفول وبراد الشاى . أقوم لأرد التحية ، فأركب الماكينة - ماركة سينجر فى الغالب - أفك سيرها الجلدى المبروم أمسك بالمزيتة فأزيت رأس الماكينة من الداخل بعناية ، ثم أعيدها إلى وضعها وأزيتها من الفتحات الخارجية ، ثم أمسحها بكهنة من القصاصات ثم ألضم الخيط فى الإبرة ، وأسرب يدى تحتها فأنزع المكوك لأرى إن كان مملوءا بالخيط أم يجب أن أملأه بالمرة . ذلك والمعلم المتربع خلف «التكزة» - بنك التفصيل الذى بلا قوائم - يراقبنى من تحت لتحت ، يدرس طريقة إمساكى للمزيتة وطريقة لضم الخيط وكل حركاتى الواثقة من نفسها فيتأكد أننى صنايعى أطلب العمل بالفعل ، ينزع من جانبه لفافة قماش مفصلة يرميها أمامى على بنك الماكينة منتظرا تصرفى الأخير : طريقة فكى للفافة وترتيب القطع والقصاصات وبأى قصاصة أبدأ الخياطة ، بعدها يندمج فى التفصيل مؤجلا الكلام فى التفاصيل حتى نهاية اليوم ، حتى يرى نظافة شغلى ومرانى وتدريبى ، القطعة بكذا ، واكراما لضيافتك بكذا ، ثم : أمال الأسطى منين ؟ من الحتة الفلانية ، ظروفى كذا وكيت ، أهلا بك ، ربنا يوقف لنا أولاد الحلال فى الغربة ..

دكان المعلم حسين حرفوش فى حى باب الشعرية بجوار مقابر باب النصر هو الدكان الوحيد الذى وافق مزاجى النفسى فمكثت فيه أربعة مواسم متتالية ، إضافة إلى أسابيع متقطعة بين المواسم . أمام الدكان مباشرة دكان مكوجى كان المعلم حسين يتعامل معه . المكوجى إسمه إينال مرزوق شاب فوق

الثلاثين من العمر بقليل ، جميل التقاطيع ، قمحى اللون شرس النظرات يشبه الممثل توفيق الدقن إلى حد كبير ، يكاد يكون هو، إلا أنه طيب مسالم ، كسيب ، بيته فوق دكانه . البيت ملكه ، وحاله ميسور إلى حد يعلمه الجميع ويقولون إن بيته هذا مبنى فوق كنز فاطمى من العملة الذهبية . لهذا خطبت له أمه فتاة من بلدة فاقوس بمحافظة الشرقية كانت آية فى الجمال أسمها «عزيزة القشلان» تمت إليها بصلة قربى من بعيد . قيل إنها كانت طالبة بكلية الأداب لكنها رسبت فى الليسانس أربع سنوات ثم فصلت بسبب سوء سلوكها ، فلما تزوجت من إينال مرزوق أشاعت هى أنهم خدعوها فيه فزعموا لها أنه مثقف من الأعيان وأنها لو علمت أنه مجرد مكوجى مارضيت به . على شدة جمالها الفاتن لم يكن إينال مرزوق مستريحا معها ، بل كان دائم الشجار معها ليل نهار يضربها كل يوم علقة ، يعلو صراخها حتى آخر الحارة ، تظل بقية النهار تتبادل الردح مع حماتها بأعلى صوت وأقذع الألفاظ ، حتى علمت الحارة كلها أن عزيزة القشلان بنت سنكوحة لا هنا ولا هناك ، وأنها أجهضت مرتين وأجريت لها أربع عمليات ترقيع لغشاء البكارة فى أربع زيجات فاشلات قبل أن تلمها حماتها وتسترها ، مما جعل إينال مرزوق يضيق بها وبأمه وبالدنيا كلها ، فكان يضربهما معا حتى تسيل الدماء من ثلاثتهم . وكل بضعة أيام تلم عزيزة هدومها وترحل ، لتعود بعد بضعة أيام أخرى تطلب ورقة الطلاق ، فتتصدى لها حماتها معلنة أن هذه الورقة بعيدة عن شواربها ، فتدب الخناقة من جديد ، لتظهر أسرار جديدة مذهلة ، آخرها اعتراف حماتها بأنها من أسرة متهتكة ، أمها فى الأصل راقصة من العوالم من شارع محمد على ! اتضح من ردود عزيزة أن أمها كانت بالفعل من أهل الفن ، أما الحماة فكانت قوادة ، إبتنت هذا البيت من عرق فروج الضائعات ، وأن هذه الراقصة أم عزيزة هى الوحيدة التى لم تنجح فى الإيقاع بها فتأكدت من شرفها وإلا ما خطبت ابنتها لابنها . إلى أن جاء يوم

خرجت فيه عزيزة القشلان فلم تعد قط ، فداخ إينال فى البحث عنها فى كل مكان ، وكان فى أعماقه يحبها حبا كبيرا فظل يبكى حتى ذبلت جفونه ، وراح الناس يستنكرون حزنه عليها ويلومونه بشدة ويطالبونه بأن يحمد الله على أن خلصه من وكستها وكان لابد لإينال مرزوق أن يقنع الناس بأنه احتقرها ونسيها ، فخطب فتاة من نفس الحارة ودخل عليها فعوضته فى الحال بالخلفة التى كانت عزيزة تحرمه منها بإرادتها مما يؤكد أنها لم تكن تنوى الإستقرار معه .

.. وحين شاهدت عزيزة القشلان أول مرة فى نادى الإذاعة ذهلت ، ومالت بى الأرض لما عرفت أنها تسمى نفسها «مايسة البحراوى» . كانت تعرفنى جيدا مثلما أعرفها ، غير أنها كانت تتحدانى من طرف خفى . إختليت بها ذات مرة لمدة دقيقتين فى المصعد فهمست لها قائلا بإبتسامة ودود : إزيك ياعزيزة ، فصوبت نحوى نظرات حامية وقالت بمنتهى الجرأة والتحدى : أهلا ياسطى ، فلم أعقب ، وبدأ كأن بيننا عقد شفوى بألا يتعرض أحدنا للآخر . وكنت أعرف أنها كظاهرة من ظواهر الوسط الفنى ليست الأولى ولن تكون الأخيرة ، ولهذا تركت الملك للمالك كما أوصانى أهل زمان ، لكننى لم أكن أتوقع - ولاهى أيضا - أن يجمعنا هذا الموقف العجيب العصيب .

كانت عيونها ماتزال تثقب عينى . قالت :

- «تتجسس على يانذل ياخسيس ؟!»

قلت بكل هدوء :

- لست نذلاً ولا خسيسا ! والله ما تجسست ولا هببت ! إنما تسللت إلى هنا كى أضع رأسى خلف أحد هذه المقاعد أسرق ساعة نوم !»

بدا كأنها اقتنعت ، قالت :

- «ما كنت تحلم بفرصة كهذه ! جاءت لك على الطبطاب ! »

قلت :

- «مظلوم والله فى كل ما ترميننى به ! »

قالت :

- «ماهى شغلتك بالضبط ؟ !»

قلت :

- « تعرفين جيدا أننى صحفى وأديب ومؤلف ! »

قالت مستدركة مع هزة رأس خفيفة تماوج منها شعرها بجميع شلالاته المنطرحة على ظهرها :

- « نعم ! مثلت مرة فى برنامج من تأليفك ! لكن ما حكاية الترزى العربى هذه ؟!»

قلت :

- «مهنة تعلمتها فى الصغر ! ألجأ إليها كلما ضاقت بى الحال ! ولكن قولى أنت ما حكاية ما أراه الآن ؟ ! »

سحابة من الدمع الهازل تترقرق فى عينيها !

- «نصيبى ! بختى المائل وحظى العاثر ! الحمد لله على كل حال ! »

وشرعت تنهض واقفة ، لولا أن الباب اندفع من الخارج فانتفضنا معا ، وهمسنا فى نفس واحد : الفضيحة !! ثم فوجئت بأننا قد ارتمى كل منا فى حضن الآخر بحثا عن ملاذ . كانت رائحتها مسكرة . سمعنا أصواتا فى الخارج تتهامس : «الشيخ إينو أغلق الحجرة بالمفتاح ! كان لابد أن يغلقها بدلا من المسخرة والمهازل التى قد تحدث بها ! هيا نختفى الآن من هنا قبل أن نتهم بأننا كنا نحاول كسر الباب !!» ، وسمعنا أصوات أقدامهم تتباعد . فدفعتنى عنها برفق وهى تشير إلى حجرى قائلة :

– «طلبت مرخيا يرفضنى فظفرت بمشدود أرفضه !»

إنتبهت إلى أننى صرت مشدود الوتر بصورة مخيفة وأننى غارق فى البلل ، فهجمت عليها بجنون قائلا :بطلى فلسفة ، وصرت أهصرها وأقبلها فى كل مكان . بكل جنون وشراسة نزعت ثيابها حتى عريتها تماما ، وكورتها ، فتضاءل جسدها حى صار كالخيرزانة المطوية . لاأظن أننى يمكن أن أنسى حرارة اللقاء ونشوته ما حييت . طوال ما يقرب من ساعة كأننى أتشبث بآخر فرصة ساحرة فى حياتى .ثم أفقت وأنا أزرر السروال وأحكم وضع الحزام فيما أتسلل على أطراف أصابعى لأزيح المزلاج برفق شديد وأنظر من خصاص الباب إلى الممر ثم أندفع خارجا أتنفس الصعداء ، متسللا إلى حجرة البروفات ومنها إلى مدخل النادى فأنتقى منضدة أجلس إليها لأراها مقبلة من الممر الأيسر . أشرت إليها فأقبلت كأنها ترانى صدفة . طلبت قهوة لى وينسونا لها ، ثم أنصت إليها وهى تحكى لى قصتها مع إسماعيل نعيمة :

– «على فكرة ! لقد رضيت لك لأنى أحسست أنك أصيل ! أنت تعرف عنى أشياء كثيرة ومع ذلك لم تقلها لأحد ! وأحلى ما فيك أنك تركتنى فى حالى ولم تحاول الإحتكاك بى ! ربنا يسترها على ولاياك » .

قلت :

– « ما أظن أن الكلام عنى يهمنى الآن ! إنما يهمنى أن أعرف ما حكايتك مع إسماعيل نعيمة ! سأعرف لنفسى فحسب ! »

بسطت يديها أمامها بكل هدوء وبساطة !

– «أحببته ! لم أحب أحدا فى الدنيا مثلما أحببته لا أحد فى الوسط الفنى كله يعرف أنه كل شىء فى حياتى ! هذا ما يحببنى فيه أكثر وأكثر ! غير أننى لست أفهمه أبدا : هذه أول مرة فى حياتى أعجز عن فهم رجل ! واليوم

كنت أتخيل أننى على مقربة من فهمه ! فإذا بى أقتنع أننى لن أستطيع فهمه ولو عملت البدع ! إنه إنسان غريب غريب غريب ! هل تتصور أنه كل شىء فى حياتى ؟ نعم قصتى معه طويلة ! يعرفنى وأنا طفلة فى الإبتدائية فى المسرح المدرسى ! كان يفتش علينا ورآنى أمثل دور كليوباترا فى مسرح المدرسة فقبلنى وتكلم عنى فى ميكروفون الحفل قائلا إننى مفاجأة وإن مستقبلا كبيرا ينتظرنى ! كلمته سكنت أذنى بقية سنين الدراسة ! إعتقدت أننى بالفعل لم أخلق لشىء آخر غير التمثيل ! وكنت أريد أن أدخل معهد التمثيل لكن أبى كان معقدا من الفن ويمقت اسمه ! إنه للعلم شيخ بلد لقرية فى مركز فاقوس ! أقصد أنه حين تزوج أمى كان شيخ بلد ! وكانت أمى متخصصة فى زف العرايس يجىء لها الناس من كل مكان ! وقع أبى فى هواها فتزوجها وعاش معها فى مصر سنوات طويلة باع فيها جزءا كبيرا من أملاكه وضاعت منه مشيخة البلد ! ولما رأى أن الحياة فى مصر مكلفة عاد إلى البلد وقهر أمى فى البيت منعها من الفن! وكان العجائز من أهل البلدة يغمزون ويسخرون منه ومن زوجته الأرتيست ! ولولا أنه يحب أمى لطلقها ! لكنه كره الفن ومنعنى من ذكر أسمه ! من ورائه صرت أمثل فى المسرح الجامعى وفرق الهواة ومجاميع الكومبارس حتى أهملت الدراسة فى كلية الآداب ففصلتنى فخفت الرجوع إلى البلد فتزوجت من رئيس اتحاد الطلاب الذى فشل فى الدراسة هو الآخر وصاع شهورا فطلقت نفسى منه فسافر للشغل فى الكويت ! فتزوجت تاجر مانيفاتورة كبيرا فى شبرا كنا نسكن فى بيته أنا وزوجى السابق ! لكنه كان متزوجا وله قبيلة من الأولاد إشـــتغلوا لى فى الأزرق : تهديد بتشـــويه الوجه وبالقتـل ! أبوهم ضـعيف

الشخصية يخاف منهم ! خفت على نفسى ! فاوضته فى الأمر فأعطانى مبلغا فوق مؤخر الصداق وطلقنى دامع العينين ومات بعد تطليقى بشهرين ! صرت أتنقل من شقة مفروشة إلى شقة مفروشة وأتسقط أخبار البلدة فعلمت أن أبى قد مات منذ شهور لكنه كان قد أنجب من أمى طفلة جديدة ! أمى باعت الفدان الذى ورثته وافتتحت محلا لتفصيل الملابس الحريمى ! قلت يابنت ارجعى إليها وعيشى معها فى المحل أكرم لك ! تغيرت أمى من جهتى أصبحت لا تأمن جانبى ! ما صـدقت أن خطبنى إينال فقالت : المركب اللى تودى ! على فكرة أنا لا أكرهه ! إنه ولد طيب وجدع لكنه مقفول وغشيم وغير متحضر ! كنت أستطيع أن أنجره وأجعله على مقاسى لو كنت أنا التى اخترته بمزاجى ! إنما هو كان فى نظرى الرجل الذى زحلقونى عليه ! قلت يا بنت اقبليه مؤقتا لكى تعودى إلى مصر قريبا من هوايتك ! المهم صارت تحدث المهازل التى كنت تراها بعينيك ! أنا على فكرة لست بالصورة التى كنت ترانى عليها ! إنما كنت مضطرة للظهور بالشراسة حتى ينفر منى إينال ويطلقنى ! أنا مصدر كل الشائعات السيئة التى انتشرت عنى فى الحارة ! لكن إينال كان يفهم حقيقة شخصيتى وهذا هو الشئ الوحيد الذى فهمه فى حياته ! لما تأكدت أنه لن يفرط فى حتى لو ضربته بالجزمة القديمة قررت الاختفاء من حياته وتغيير شخصيتى القديمة كلها ! لحظة رميت بنفسى بحقيبة ملابسى فى أول تاكسى فى دغبشة الفجر خلعت شخصيتى ورميت بها فى صندوق الزبالة فى الطريق ! فى مصر الجديدة داريت نفسى فى كافيتريا حتى الضحى فقمت لزيارة صديقة لى من زملاء الجامعة زوجها ضابط فى الجبهة فى القناة ليل نهار حتى نسيت هى أنها متزوجة ! تعيش مع أمها الأرملة وأخ صبى صغير ! كنت أنوى أن أجعلها توسط زوجها فى إلحاقى بوظيفة فى مكان محترم فإذا بالقدر يدخر لى مفاجأة من أعجب ما يمكن ! فوجئت بإسماعيل نعيمة يقف أمامى بلحمه وشحمه فى

مدخل العمارة ! ركبتنى عفاريت السعادة كلها ! واندفعت عليه أكاد أحضنه : الأستاذ نعيمة ؟ مش معقول ! ذاكرته حديدية ! نظر فى وجهى لمدة نصف دقيقة ثم هتف : عزيزة ؟ القشلان ! قلت : ما شاء الله ! ظهر الانبهار فى عينيه من شكلى صار يحيطنى بنظرة من فوق لتحت متبسما كالعبيط ! ثم قال : أية ريح سعيدة جاءت بك إلى هنا ؟ عامله إيه ؟ دفنتى نفسك ليه ؟ يا ريتك دخلتى معهد التمثيل ! قلت هل تسكن فى هذه العمارة ؟ قال أختى هى التى تسكن فى شقتى القديمة وسأتغدى عندها اليوم كل سنة وانت طيبة بمناسبة موسم عاشوراء ! على فكرة يمكن أن أعزمك لو أحببت ! قلت شكرا أنا فى زيارة لصديقتى هالة السمديس ! قال اعزميها وأمها وأخاها أهلا بهم قولى لها تكلمنى فى التليفون إن الرقم عندها ! بعد الغداء صعدنا إليه فى الطابق الخامس فى شقة السطح التى بعرض العمارة كلها ! جلسنا فى الشرفة البحرية نشرب البيرة وندخن ونضحك ونتحدث إلى وقت متأخر من الليل ! عند انصرافنا تلكأ خلفى وهمس لى بكل مواعيده وعناوينه وطلب أن يرانى ! بعد يومين كنت أجلس معه فى كازينو البيروكيه أحكى له قصة بختى المايل ! كاد يبكى ! فى تلك الليلة رسم لى خطة الدخول فى الوسط الفنى ! اختار لى اسم مايسه البحراوى ! ونزل معى فاستأجر لى حجرة فى بنسيون أنديانا فى جناح مقابل لحجرته ! أعطانى مبلغا من المال أصرف منه وأوصى بى اليونانية قائلا لها إننى بنت عائلة كبيرة ! على فكرة هذه اليونانية هى الدادة التى تطلبنى بالتليفون دائما على ترابيزة البروفات كما أوصيتها وعيشتها فى دور الأم بالنسبة لى ! صار إسماعيل نعيمة يتكلم عنى فى قعداته بين المخرجين والممثلين والمنتجين حتى فرش لى أرضا بالزهور وأصبح الجميع متشوقين لرؤيتى ! ولهذا اشتغلت من أول لقاء بينى وبين مخرج مسرحى فى مسرح الأزبكية كان يخرج مسرحية لفرقة خاصة كبيرة ! المدهش أن الدور الذى أعطاه لى كان - أيضا - دور كليوباترا استغرق على

المسرح عشر دقائق ! أدهشت الجمهور فصفق لى حتى غسلنى بالفرح وشعرت كأننى ولدت من جديد ! من هذه اللقطة عرفنى جميع المخرجين ! كان إسماعيل نعيمة دائما يرسم لى خطط التعرف ويشرح لى نفسيات المخرجين قبل رؤيتهم ويشرح لى الأدوار التى أمثلها ويعيرنى كتبا مهمة أقرأها ويشترى جميع المجلات والصحف ليبعثها لى آخر الليل ! منذ بضعة أيام فاجأنى بعقد فى فيلم سينمائى لحسن الإمام ! رغم توقيعى للعقد لم أصدق أننى قد صرت ممثلة بهذه البساطة ! دور بنت سكرتيرة بطل الفيلم رشدى أباظة ! كل ذلك ولم تبدر منه أية لمحة تدل على أنه يطلب منى أى شئ ! توهمت أنه ربما يدخرنى للزواج لكنه صرح لى بأنه ليس فى خطة حياته الزواج ! ليس من المعقول أن فى الحياة شخصا يقدم لإنسانة ضائعة كل هذه الخدمات بلا مقابل ! أحيانا كثيرة كنت أسعى للانفراد به فى أى مكان فأقبله فإذا بقبلته ساخنة تؤكد حرارتها أنه يشتهينى ! من حبى له وامتنانى قررت ألا أضن عليه بجسدى ! لقد ركبنى الأنذال والأغبياء والضعفاء بموجب ورقة رسمية لا قيمة لها ولم أكن أشعر مع أحد منهم أننى أريده بالفعل ! أما هذا الشخص فقد أردته بكل كيانى بملء حريتى ! قررت أن أنهى قلقى من جهته ! أن أعرف النهاية لأريح بالى ! ظننت أنه ربما يكون مكبوتا لعدم وجود المكان إذ أن البنسيون فيه حواجز ! وهو من جانبه لا يتحرك نحوى ! لكنه اليوم قابلنى فى النادى فأخذنى بالحضن لأول مرة وضغط على ظهرى بذراعيه على غير العادة فتفككت أعصابى ! وكان النادى خاليا تماما فصرنا نتمشى فى الممر ! صرت أحدثه عن حبى له ! صار يحدثنى بالمثل ! رأينا الغرفة الخلفية مفتوحة ! وجدنا أنفسنا بداخلها وقد اندمجنا فى احتضان وتقبيل وتمريغ وفرهدة حتى هيجنى وسيب كل مفاصلى ! فقمت فى الحال فأغلقت الباب بمزلاجه واستترت بالصوان فخلعت ملابسى وناديته لكن الملعون سابت مفاصله وصار يرتعش كريشة فى الريح وصار يرجونى فى فحيح

مخيف : لا ! إلبسى هدومك بسرعة ! أنت مجنونة ! سأخرج ! وفعلها بكل بساطة ! تركنى وخرج ! فكأننى وقعت من برج الجزيرة فوق الأرض فتهشمت ضلوعى وحتى الآن لم أفق من الصدمة ولست أعرف ماذا سأفعل معه أو يفعل معى حينما نتقابل ! إنى واثقة أنه طيب القلب لن يفعل شيئا يسئ إلىَّ ! الآن قد أحببته أكثر وأكثر لتأكدى أنه ليس دنيئا وليس طامعا فى شئ !! صدعتك وصدعتنى لكننى أرحتك وأرحتنى ! عن إذنك لأن عندى بروفة مسلسل إذاعى !!».

★★★

.... ارتجت الأرض ، سرعان ما توقف المصعد . تقدم «عباس نحمده» وفتح الباب الداخلى ثم دفع الباب الخارجى فظهرت أضواء النادى تغمر الممر ، وانبعث صوت غناء الراديو ودندنة آلات موسيقية فى مكان قريب ، وأصوات زهر الطاولة واصطكاك الأكواب وضحكات ماجنة وبكاء حار وجعير ملتاع ، هى إذن بروفات لتسجيلات سوف تتم فى الساعات القليلة القادمة . تبينت أننا لابد أن نكون فى شهر رمضان ، تذكرت أننى اليوم ، بينما كنت ما شيا فى شارع شريف الساكن تماما والخالى من أى حركة بعد المغرب مباشرة سمعت صوت آمال فهمى فى الراديو تلقى نهاية الفزورة والموسيقى تزفها بهدير صاخب ..

«عباس نحمده» يتقد منى داخلا . الأخضر يجابهنا من الداخل ملفوفا بضوء باهت منبعث من شمعات كهربية متخفية فى الجدران كجفون مقروحة خلف أهداب من الزجاج المغبش . الأرض هى الأخرى مفروشة بالفرومايكا الخضراء الباهتة وكذلك الجدران مدهونة بالزيت الأخضر . ثمة لوحات كلاسيكية منقولة بسذاجة عن لوحات عالمية ومعلقة هنا وهناك . مناضد مرصوصة على الجانبين فى الردهة المستطيلة ، كل منضدة محاطة بأربعة مقاعد من الخيزران . فى الجدران شبابيك كبيرة تطل على ممر رفيع ، يحده سور

طويل بارتفاع نصف قامة رجل ، كثيرا ما يرتكن عليه بعض الذين يختلون ببعضهم فى أحاديث جانبية ذات شجون . على يمين الداخل ممر يؤدى إلى حجرة البوفيه الصغيرة ، يجاورها باب يفتح على الممر ، الذى إن سلكه الداخل وحود يمينا أيضا ومضى طويلا يستطيع أن يكسر يمينا ليصير فى مواجهة باب الغرفة الخلفية ، غرفة الصالون الملحقة بغرفة الشيخ إينو رئيس مجلس إدارة النادى . وعلى يسار الداخل ممر عريض . فى مواجهة الداخل من باب النادى منصة صغيرة يجلس عليها مراقب يتلقى الماركات كنظام المقاهى ويقوم بمهمة موظف الاستعلامات ، بجواره آلة التليفون . من هذا الشخص تستطيع أن تعرف كل ما تريد أن تعرفه عن أى شخص من رواد النادى وأى بروفة وأى خبر عن أى تسجيلات ، بل إنه ملم بأخبار جميع السهرات السرية التى يقضيها عدد كبير من الرواد ، وخط التليفون قائم بينه وبينهم طوال الليل يتلقى أخبارا يبلغها لفلان وفلان بأن فلان وفلان فى انتظاره فى المكان الفلانى وأن على فلان أن يستحضر معه كذا وكيت . بجوار منصته كنبة كبيرة ومقعدان على الطراز الأسيوطى المنجد ، ومثلهم فى الجانب المقابل . للداخل أن يجلس هنا أو ها هنا فى انتظار موعد بروفة أو موعد تسجيل ، وله أن يدخل إلى الممر الضيق الذى يطوق النادى من جميع الجهات ، فإن عبره وجد نفسه فى غرفة مستطيلة عريضة تحتلها ترابيزة وسط كبيرة جدا مطوقة بالمقاعد من جميع الجهات تلك هى ترابيزة البروفات المبدئية ..

مثلما يحدث دائما اتجهت إلى الكنبة المجاورة لموظف الاستعلامات فرميت بنفسى فوقها . ثم انتبهت إلى أن منظرى لم يكن لائقا فسرعان ما اعتدلت محاولا الانجعاص قدر ما أستطيع مريحا مؤخرة رأسى على حافة الخشبة ، واضعا ساقا على ساق كأى نجم من نجوم النادى وما أكثرهم . أعرف أن مصطفى النادل سيجئ لى بفنجان القهوة تلقائيا دون أن أطلبه ،

وسوف لا ينتظر أن أدفع ، إنه حسن النية بى مثلما هو حسن النية بكل رواد النادى ، أنا فى نظره سعادة البيك المؤلف والمحرر الصحفى ، لم يعرف بعد ، وربما لن يعرف أن هـذا مجرد لقب اشتهرت به ولا تمثيل له فى الواقع بأى قدر ، إلا أن الأمر لا يخلو من مفاجآت تؤكد صدق اللقب تمنحنى فرصة أعرض لمثل هذه الإنجعاصة المرفوعة القامة ، فمن حين إلى حين يسجل لى أحد البرامج أقصوصة فى خمس دقائق أقبض عنها أربعة جنيهات وربع ، أبادر فأدفع حساب البوفيه وحساب محلى السجائر على ناصيتى الشريفين وعلوى تحت نفس العمارة، وحساب المقهى ، أو بعض ذلك ، مجتهدا أن تتوفر بعض البرايز والشلنات لزوم الائتناس بوجود النقود فى الجيب لبعض الوقت . الولد «سمير بندق» الكومبارس علمنى فكرة عبقرية حمدتها له ، جعلتنى مشهورا فى هذا النادى فى ظرف أسبوع واحد ، وبات اسمى على كل لسان ، إذ أعطيت رقم تليفون النادى لكل من التقيته ، لفتيات من الكومبارس توهمن أننى قادر على تقديمهن للمخرجين أو التنويه عنهن فى أخبار صحفية بصورهن ، لناس اقترضت منهم نقودا أثناء زنقات ، لناس أوصيتهم أن يبحثوا لى عن عمل ، لبعض أصدقاء ومعارف يتصورونني ذا شأن فى الوسط الفنى ، ففى كل بضع دقائق يرن جرس التليفون ويصيح موظف الاستعلامات فى جدية ومهابة : الاستاذ فلان الفلانى ! الاستاذ فلان الفلانى ! . فإذا ظهرت بعد ذلك فإن أحد النوادل يهرول تجاهى هاتفا : يا فلان بيك ! فلان الفلانى أو فلانة سألت عليك اليوم أربع مرات ! وفلان يقول لك من فضلك إسأل عليه ! .. فأهز رأسى فى شياكة ورزانة – كما يفعلون – قائلا له : شكرا يا فلان ! ثم أعطيه سيجارة إن كان معى سجائر ..

فتحت عينى فى سأم ، طعم مر فى فمى . رأيت أمامى على الكنبة المواجهة تمثالا بالحجم الطبيعى لمومياء فرعونية فى لون الفخار المحروق حادة

الملامح منحوتة التفاصيل ، بعينين لوزيتين تنطلق منهما نظرات سأمانة مليئة بالكبرياء والأنفة ، وأنف طويل مستقيم كحرف الألف ، تحته فم ببوز ممدود بشفتين غليظتين مطبقتين على شعور بالاشمئزاز ، تنسرب من بينهما سحائب الدخان . ذراع طويلة تمتد لتمسك فنجان القهوة بأصبعين طويلين تلمع فى أحدهما دبلة الزواج ، وزرار القميص حول المعصم . الفنجان يقترب من الشفتين الغليظتين مارا برباط العنق الثمين الأحمر والياقة المنشاة البيضاء والسترة السوداء الأنيقة . سرعان ما تبينت أنه الكاتب المسرحى الاستاذ ميشو ، الذى يترجم لإذاعة البرنامج الثانى مسرحيات لأرثر ميلر الأمريكى وقصصا لفوكنر ، ويكتب البرامج الخاصة الدسمة والقصص القصيرة المكثفة . كان الفنجان قد راح يتراقص فى يده فاضطر إلى تركه بالطبق فوق الترابيزة الصغيرة واستغرق فى ضحك عميق حيث انفشخ حنكه فظهرت أسنانه الكبيرة الصفراء . سرعان ما فهمت أنه يضحك من منظرى . سرعان ما تبينت أننى قد ملأت النادى شخرا وشخيرا منذ دقائق طويلة مضت . لم أسمع بنفسى هذا لكننى على ثقة تامة من أنه قد حدث . تبسمت مداريا بعض الخجل ، لو كان الاستاذ ميشو وحده لما خجلت ، لكن الممثلة الضاحكة «حميدة بلبل» كانت جالسة بجواره مندمجة معه فى هوايتهما المفضلة : النميمة البريئة التى إن شعر ميشو أنها ستتطور لنهش الأعراض أو الطعن فى الذمم قطب جبينه الضيق الشبيه بقعر البراد المسود ورفع هامته صائحا بعجرفة وغطرسة : «بس بقى يا ولد أنت وهو ! كفاية كده ! قلت كفاية ! كده تجاوزنا ! إنقل على موضوع تانى !» ، هكذا يصيح فيمن يحادثه ، الذى كان يبدو منذ برهة وجيزة أنه من أخلص الخلصاء وأصدق الأصدقاء ، بل إن ميشو لن يتورع عن أن يتبع صيحته بشخطة حادة مهيبة للغاية : «يلا يا ولد قوم من هنا !» ، فإن لم يقم الشخص فى الحال ضاحكا لينصرف فإنه لن يستنكر هذا الأمر من ميشو . ذلك أن ميشو فى الأصل استاذ لعلم الكيمياء والأحياء فى المدارس الثانوية وقد

تنقل فى عدة بلدان وترقى إلى درجة مفتش أول لهذه المادة ، وبين جمهرة هؤلاء الممثلين والمخرجين والإداريين من كان تلميذا له فى فترة من فترات الدرس ، والجميع لا يرى فيه إلا ذلك الأستاذ المهيب الذى يصلح أن يكون قدوة حميمة فى انضباط السلوك والاحترام والكبرياء الشديد والاعتزاز بالرأى والثقة بالنفس وثقل وزن الشخصية بثقافة متألقة بجديد الأفكار والمعانى حول الوطنية والحرية والعدالة الاجتماعية والشعور بالمسئولية . يحكى المخرج الاذاعى الشاب «حامد شرف» – وهو تلميذ سابق له – أن تلميذا من فصله فى لحظة هياج عبثى كان يمسك بغطاء المكتب ويهبد به فوق حافته على إيقاع الصياح ، فإذا بالاستاذ ميشو قد انشقت عنه الأرض فوقف غاضبا وقد تغير لون بشرته من الفخارى المحروق إلى لون القلل الصفراء . كان ينتفض وهو يشوح بذراعه الطويلة . بمجرد ظهوره طق الضجيج طقته الأخيرة فى سرعة الضوء ومات الولد فى جلده . راح الجميع ينصتون فى شغف هائل لهذا التوبيخ الغاضب الثائر ، إنه ليس توبيخا بقدر ما هو درس عظيم فى الوطنية والتحضر ، فهذا الولد الذى راح يخرب التختة إنما هو فى الواقع كمن يضرب أباه بالحذاء ، لأن هذه التختة مشتراة بمال الضرائب التى يدفعها أبوه .. وحين تحتاج المدرسة لتختة بديلة فسيدفع أبوه ثمنها من دم قلبه أو على الأقل يحرم منها أخوه ، أما الذى يهتاج هكذا بالصياح والخبط والرزع فإنه محض حيوان غوغائى جهول ليس يليق بمقعد الدرس ولا هو صالح لتلقى العلم أصلا . يقول المخرج الإذاعى الشاب أنه شخصيا لولا هذا الدرس ماكان استمر فى التعليم أما الذى كان السبب فى الدرس الغاضب فإنه بات من المتفوقين ، أصبح من ألمع ممثلى المسرح القومى لدرجة أن الأستاذ ميشو كتب مسرحية (اللهب) خصيصا له ، صحيح أن الدور قد لعبه ممثل آخر نظرا لسفر الممثل الشاب فى بعثة دراسية ولكن الأستاذ ميشو يعتز بتلميذه النجيب لأنه ألهمه هذه المسرحية الناجحة ..

صار من الواضح أننى كنت موضوع النم بينه وبين حميدة بلبل ، التى أشارت لى صائحة فى النادل : «هات قهوة ساده للبيه !» . وكان من الواضح أننى أترقب انصراف الأستاذ ميشو ، الذى أوقن أنه يحبنى ويحب المشى معى.

سرعان مارأيتنى أمشى بجواره فى شارع يبدو أنه شارع قصر النيل والوقت فيما يبدو قرب منتصف الليل . وكان من الواضح أننى قد وصلت الآن إلى هدف حميم جدا ، فهذه السرحة الليلية مع صديقى الأستاذ ميشو هى من أحب الأمور إلىّ ، منها تضييع وقت من عمر الليل فى صحبة حميمة أدخن فيها السجائر الكابتول بدون فلتر ، ومنها فائدة عظمى يشتعل خلالها خيالى باحتكاكه بخيال الأستاذ ميشو وثقافته الرفيعة ، يحكى لى عن مصادر مسرحياته ومشاريعها المبدئية وبعض المشاهد الختامية التى يغرم بكتابتها قبل المشاهد الأولية ، يحكى عن خصائص أرثر ميلر الذى يعشقه ويتأثر به ، وجماليات فوكنر الذى يحب إخلاصه لطبيعته الجنوبية ، يبدى اشمئزازه من كتب النقد الأدبى يعتبرها وباء يطفح على جلد الأعمال الأدبية العظيمة ليشوهها ، ينصحنى بأن أنبذها فلا أضيع وقتى فيها حتى لاتشتت مخى وتقولبنى على مزاجها ، الخير كل الخير أن أقرأ النصوص الأدبية نفسها لأنها هى الوحيدة التى يمكن أن تفيدنى . لميشو أطوار غريبة غير مفهومة لى ، مثل أن يكون - وهو الكاتب المسرحى المجيد - على نفور دائم من العروض المسرحية ، لايأنف من إعلان هذا مؤكدا أن أطول مدة قضاها فى عرض مسرحى لم تتجاوز الفصل الأول . إنه يسكن فى ضاحية المعادى ، وإذ نلتقى صدفة أو بتدبير يكون الإتفاق أن أوصله حتى محطة باب اللوق ليلحق بآخر قطار . فى العادة يسرح بنا الكلام فينسى آخر قطار ، ليجد مبررا يتيح له أن يحود على أحد الأماكن الساهرة ليخطف كأسين يتحمل بهما سخافة سائقى الأجرة بالنفر . رغم ضيقه بهذه العربات وبغوغائية ركابها وسائقيها فإنه فى

مثل هذه الليالى يفضلها على المترو ، إذ أنه ذات ليلة قريبة ركب المترو وكان مرهقا بسبب مناقشة حامية مع مسئول كبير فى المسرح ، فأخذته سنة من النوم فلم يستيقظ إلا فى حلوان ، فغضب ، ورجع فى نفس القطار إلا أن النوم غلبه مرة أخرى فلم يستيقظ إلا فى باب اللوق ، فظل أياما طويلة ساخطا على نفسه محتقرا لها ..

هاهوذا يتطرق إلى الحديث فى مسألتى الخاصة :

- « يبدو أنك معجب بتشردك ! كل من هب ودب يكتب للتليفزيون ويقبض المئات إلا أنت ! صحيح أنك لست ممن هب ودب لكنك تتمتع بغباء منقطع النظير ! تقول أنهم يرفضون شغلك ! وأنا أقول لك السبب ! أنت تكتب أعمالا واضحة جلية ! ومخروجونا بوجه عام لديهم ولع بالغموض حتى لو لم يفهموا منه شيئا ! هم فى الغالب لا يفهمون شيئا فى أى شىء ! لكن العمل الفنى الغامض يسحر خيالهم يوهمهم بأنه عمل عميق ! إسمع ياولد ! أنا متطوع بأن أساعدك فى تغميض ماتكتب ! إكتب تمثيلية سهرة وهاتها لى أغمضها لك وهى تمشى فى الحال ! لاتحمل همها ! سأتصرف فيها بمعرفتى ! سأعطيها لأى مخرج من الذين يثقون فى ذوقى فينفذها ! المهم أن تكتب أولا ! هات لى جسم الجريمة وأنا أجىء لك بحقك ! أعرف سنكم هذا ! يأخذكم الحماس نحو التجريب والشكلانية الجوفاء المفرطة فى الهوس بالشكل ! سأقول لك ماالذى يعطلك عن الكتابة الجيدة ! أنت تحتشد وتبالغ فى الإستعداد كأنك ستفتح عكا! فتكون النتيجة أنك تشيل حملا ثقيلا فتستمر فى تلفيق أشياء من الشرق والغرب متعسفة وملحومة فى بعضها بالغراء ! أو تنخ فتسأم وتهرب من الكتابة ! الواقع أن العملية الفنية ليست هكذا على الإطلاق ! المسألة كلها من أساسها لعبة ! فنان يلعب مع المتلقى ! متى ما اعطاه أصول اللعبة يكون قد لعب لعبته فعلا بشكلها الصحيح ! المتلقى من خلال هذه الأصول المرسومة سيفهم ما يجب أن

يفهمه ! إنه يلاعبك ! يلاغيك مثلما تلاغيه ! يلاغيك يعنى يفهم غمزاتك الخفية يشوف نهاية اكتشافك ! خذها نصيحة منى ! ساعة تزمع الكتابة ادخل على الكتابة بإحساس من سيلعب ! كن على أكبر درجة من المرح والتفاؤل والحب ! متى ماتمكن منك هذا الإحساس العبقرى تجد نفسك مندمجا فى كتابة شىء جميل! أفهمت ياحيوان ؟! أقول لك هذه النصائح الغالية مع أنك نذل لاتستأهلها! والأن دعنى وانصرف لأنى على موعد فى هذه العمارة مع من لايصح أن يرى حيوانا مثلك ! هاك ربع جنيه وثلاث سجائر حار ونار فى جتتك !! »

★ ★ ★

.. وكنت عائدا وحدى فى ميدان كميدان الازهار نحو مقهى كمقهى الحرية أطفأت معظم أنوارها الخارجية حينما فوجئت بمن يعترض طريقى ، شهقت فزعا لبرهة ، تبينت أنه الممثل «سناء البسيقى» مجنون هاملت، لابالطويل ولا بالقصير ، نحيف القوام خمرى اللون بجبهة بارزة مظللة بخصلتين هزيلتين من الشعر الأسود كمقاصيص النساء الريفيات ، طويل الأنف فى غلظ خفيف مدبب المقدمة فوق شفتين غليظتين عبر حنك واسع بارز الأسنان مفتوح على الدوام لا ينغلق برهة واحدة لا ينى يتكلم فى أى شئ بجدية هائلة تتخللها ضحكات متراوحة النبر بين السخرية والهزء والاستياء والاستهجان واصل إلى حد القهقهة بصوت مبحوح متحشرج ، ضحك غير واضح الأسباب فى العادة ، مما يجعل خيال ضحكاته ينعكس فى بحرى عينيه بلمعة جنونية لاشك فيها . يرتدى بذلة كاملة على أحدث طراز بفتحتين أسفل السترة من الخلف وخصر محزود وياقة معطف عريضة تتقابل معها ربطة عنق تخينة كالبصلة ينساب منها قرطاس من القماش المشجر الثمين وياقة قميص منشاة عريضة ومشبك ذهبى يثبت رباط العنق فى القميص مع أزرار مزدوجة فى كمى القميص . تخرج فى معهد الفنون المسرحية قسم تمثيل بدور هملت لشيكسبير ، بدرجة جيد جداً ، من لجنة تضم جهابذة التمثيل والنقد فى المعهد والحياة العامة ، جميعهم أثنى

عليه. كان ترتيبه الثالث على دفعته فكيف يصبحون كلهم نجوما ومشاريع نجوم فى حين يبقى هو محلك سر ، يجرى فى أروقة الإذاعة بحثا عن دور يمثله ، أينحط به الحال وهو المعهدى المتفوق إلى حد أن العيال الصايعة يحققون فرصا ونجاحات أكثر منه ؟! الوالد «عبد الوديع الدوادار» ، ذلك القصير القامة ، ساقط الشهادة الابتدائية الذى بدأ منذ سنوات قليلة صبيا لمتعهد الكومبارس الشهير «رائف زهدى» شغلته تبليغ أوامر العمل ومواعيده إلى الناس المطلوبين ، تجرأ فدخل امتحان التمثيل بالإذاعة فنجح بالكوسة ، على أساس أن يستعين به المخرجون فى بناء بعض المسامع الدرامية كأصوات ثانوية مساعدة ، لكنه بات يلعب أدوارا ، ثم أدوارا مهمة فى برامج وسهرات ومسلسلات كان من الممكن أن يلعبها من هو أهل لها من المعهديين المطوعين فى النادى وعلى المقاهى . أيلعب المؤهلون دور الكومبارس ويلعب الكومبارس دور المؤهلين ؟! كيف ذلك يا خلق الله ؟! أليس من الجنون أن يلعب عبد الوديع الدوادار - دور أمير المؤمنين مرة ، ودور الحجاج مرة ، ودور نابليون بونابرت ودور عمر مكرم ؟! الذى غطى ووطى أن جئ به أخيرا ليلعب دور عباس العقاد فى شبابه فى برنامج يقدم قصة كفاح العقاد !! هذا المخرج ابن المعتوهة يعطينى ظهره كلما رآنى أثناء توزيع الأدوار لأى برنامج يخرجه ، ثم يعطى حضنه لعبد الوديع الدوادار . ما خفى كان أعظم ، يا صحافة الارتزاق ويا نقاد النُقر افتحوا أفواهكم بهذا الكلام نيابة عنى وعن التعساء من زملائى إن كان عندكم ضمير لكنكم كما قال أبى الشيخ أبناء العصر الذى يعود فيه الإسلام غريبا وتأكل الأم من فرج إبنتها !! أنتم جميعا يا أبناء هذا الزمان زمان المسيخ الدجال صور ممسوخة من ذلك المسيخ الذى على وشك الظهور !! أبى الشيخ قالها كلمة حكمة وها هى ذى قد تحققت !! بذمتى يا ولد يا عكروت لو رأيت أبى الشيخ هذا لنزل الورع فى قلبك وخرجت من عنده تقول الحقيقة على الدوام ورزقك على الله !! أبى الشيخ البسيقى هو عمى الكبير ، أزهرى فقيه ذو مؤلفات فى الفقه يدرسونها فى

الأزهر ، قد ربانا جميعا على الغالى ، وما محنتى هذه ونذالة الحظ معى سوى لعنة أبى الشيخ !! لقد سقت عليه أبى وأعمامى وأخوالى وكل أفراد القبيلة فى بنى سويف لاستصدار فتوى منه بجواز دخولى معهد الفنون المسرحية فلم نستطع ، وقال : والله لو وضعوا الشمس فى يمينه - يقصد يمينى أنا - والقمر فى يساره - يقصد يسارى أنا - على أن أوافق على دخوله هذا الميدان الفاسق المنحل ما وافقت وعندى أنه لو اشتغل زبالا أو خبازا أو ماسح أحذية فإنى أباركه إذ يباركه الله !! ولقد عصيته فدخلت المعهد واختلطت بحثالة القوم فشاهدت بعينى ما قتل الحاوى بين طالبات وطلاب المعهد ، وشاهدت الطبيخ يطبخ على رؤوس الأشهاد من أجل الشهرة العاجلة والفرصة السانحة !! بينى وبينك يا ولد يا عكروت كثيرا ما ضعفت وأوشكت على اقحام نفسى فى حلل الطبيخ وأناجر الفتة علنى أهبر هبرا مجزيا !! كثيرا ما كنت أمضى فى الطريق إلى قرب لحظة مد الأسمطة بأناجر الفتة لكننى كنت كالآنية الزجاجية فى يد مرتعشة سرعان ما تسقط على الأرض هشيما جارحا !! كثيرا ما كانت تركبنى الجنونة حين أفيق على حقيقة أننى أهدرت من كيانى ومن قيمتى ما أهدرت وعند اللحظة المهمة وزعت الفتة والهُبر على ناس كانوا بالصدفة مارين فى الطريق !! الجميع أصبح يتجنبنى كأننى الشوك ، المخرجون يلاطفوننى بشكل مبالغ فيه كأنهم يتقون شرى ، أشعر أحيانا كأننى مجرد طفل شرس يداعبونه بفنون المحايلة ولا بأس من قطعة حلوى صغيرة بدور مدته خمس دقائق فى برنامج عابر !! زملائى وأصدقائى من أيام المعهد يوالسون وينافقون ويبيعون ويتسترون فى سبيل المكسب العاجل الرخيص التافه ، كلهم فسقة فجرة ، فالإنحطاط تنتشر عدواه كالانفلونزا بسرعة البرق !! الذين قُدر لهم - بفضل ثورة يوليو المجنونة الخرقاء - أن يكونوا أصحاب أدوار مركزية وهم فى الأصل من السفلة والرعاع هم أول من يفرط فى دوره فى مركزه فى شرفه فى موقعه

لقاء مكسب دنئ ربما انحصر طموحه فى مواقعة امرأة ساقطة !! أبى الشيخ قالها عن النبى عليه الصلاة والسلام كلمة عميقة الدلالة بعيدة النظر : لا تعلموا أولاد السفلة العلم ، لأنهم - فى تفسير أبى الشيخ - سينحطون به إلى الدرك الأسفل !! أتعلم يا من تزعم أنك صحفى وناقد ومؤلف ذو شخصية وضمير إن شخصية عبد الوديع الدوادار تلغى شخصية المخرج ؟! المخرج بذات نفسه يتنازل عن دوره طائعا مختارا لعبد الوديع ! أقول لك كيف ! إن عبد الوديع الدوادار هو الوسيط بين المخرج والممثلين ، يجمع له المعلوم منهم ! هى تسعيرة متفق عليها ويعرفها الجميع حتى رئيس الإذاعة ووزير الإعلام لكنهما يطرمخان. بدعوى أن المخرجين غلابة ومرتباتهم ضعيفة أمام أجور الممثلين : تمثيلية السهرة رشوتها جنيه كامل ، نصف الساعة بنصف جنيه ، المسلسل كل أربع حلقات بجنيهين ، وحدة الصرف الفورى ملحقة باستديوهات التسجيل يخرج الممثلون من الاستديو عقب التسجيل مباشرة إلى وحدة الصرف ليأخذوا الأذونات إلى الخزينة المجاورة ، اللقاء فى العادة يتم فى بار الانجلو أو كافيتريا زوزو ماضى المواجهة له أمام مبنى البنك الأهلى فى شارع شريف على مرمى حجر من مبنى الإذاعة ، حيث يجتمع الممثلون على زجاجات البيرة وكئوس المارتينى والزبيب ، ليتم تجميع الرشوة فى جيب عبد الوديع الدوادار ، الذى ينطلق من فوره إلى المخرج فى النادى أو فى ركن من الردهة أو المصعد أو دورة المياة ليغمزه بالأمانة فى السر ولا من شاف ولا من درى !! مثلما هناك مخرجون نظفاء لا يرتشون ولا يقبلون العزومات أو الهدايا أو مرقعة النسوان هناك أيضا ممثلون لا يبرطلون لأنهم لو فعلوا ذلك فقدوا الثقة فى أنفسهم وهم يودون الوصول اعتمادا على مواهبهم فحسب ! هؤلاء أغبياء وأنا على رأسهم ، عشمهم عشم إبليس فى الجنة ، لن يفيدهم حسن الخلق ولا طيب المعشر ولا حلاوة الريق إلا قليلا ، من باب ذر الرماد فى العيون . ما لم تقع الطيور

على أشكالها فبشرهم بالبوار ، كل حين تجئ صدفة يلتقى فيها مخرج شريف بممثل شريف بغية تقديم عمل جاد شريف ! إلى أن تجئ تكون نار الموهبة قد آبت إلى رماد !! الويل لمن اشتهر بالشرف أو حسن الخلق !! أعرف ناسا طيبين يلوثون سمعتهم بأيديهم بغية استجلاب الفرص ! يصادقون أمثال عبد الوديع الدوادار ويتوددون إليه ! لكنه ملعون ، خبير بالنفوس ، يعرف الحقير الحق من الحقير المفتعل ، حين يجلس مع المخرج ليقوم بدلا منه بتوزيع الأدوار يضع فى حسبانه من يثق أنهم حقراء بالسليقة . إن الخراب قادم لاريب فيه ، ولكن قل لى : إلى أين أنت ماض فى هذا الليل البهيم ؟! هذه السترة فوق كتفيك منذ ما يزيد على شهر وقد صار منظرها حقيرا مخزيا فما هى حكايتك بالضبط ؟! على فكرة ! أنا من هواة الفلسفة ! درستها مع أبى الشيخ وعندى ميل إلى جماعة تسمى بالرواقيين ! فها أنت ذا ترانى لا أحب إلا المتطهرين ! غير أننى أراك تحوم حولى كثيرا ، تستعير منى سجائر كثيرة لا تردها ، كهذه التى سأعطيها لك الآن حار ونار فى جتتك ، تستغفلنى كثيرا فى شايات وقهاوى على حسابى فى النادى ، فقل لى بصراحة هل أنت مخبر سلطك أحدهم علىَّ ومن الذى سلطك ؟أهو المخرج عثمان المهدى ؟ إنه يعرف أننى أملك وثائق تمحوه من على ظهر الأرض ، وأعرف أنه يدبر للإيقاع بى فى شر أعمالى ولا يتورع عن اغتيالى !! أهى المباحث الزاعمة ظلما وعدوانا بأنها أمن الدولة ؟! أعرف أن الذين يؤتون من الخلف يشيعون عنى التهم الباطلة ، بالشذوذ تارة والزئرية تارة أخرى والإخوان المسلمين تارة ثالثة والشيوعية تارة رابعة !! كل جريمتى أننى رأيتهم وجباههم تصافح الأرض لغير الله ! ثم إننى لم أعد أشتغل بالسياسة ، لم أعد سكرتيرا لإتحاد الطلاب ، ومعروف أننى منشق على الإخوان المسلمين منذ قيام الثورة ، وقطعت صلتى بالماركسيين بعد تعرفى عليهم بشهور قليلة ! هؤلاء وأولئك يقرشون ملحتى ، يشعرون أننى كشفت مستورهم رأيت عوارهم

فباتوا يدبجون التقارير فى شأنى فقل لى من فى هؤلاء أو أولئك سلطك علىَّ ؟! أنا الأبقى لك منهم جميعا ! أنا فقير إلى الله مثلك وحينما تميل علىَّ فى أى لحظة تجدنى أمد لك يدى ! ألم أعزمك على غدوة كباب يوم طلبت منى سندوتش الطعمية ؟ ألم أشتر لك علبة سجائر كاملة يوم كنت جالسا تكتب فى النادى وأنت خرمان ؟ كنت أعرف أنك تكتب برنامجا للإذاعة ومع ذلك لم يخرج من يدك أن توعز للمخرج باستدعائى للتمثيل فيه ؟ ألم أقرضك خمسين قرشا يوم زعمت أنك مسافر إلى البلد تطلب عونا من أبيك ؟! أنت لم تقل لى معلومة واحدة عن حياتك فى حين أنك تعرف عنى كل شئ !! ألم تعلم بأننى أمشى خلفك كظلك من أول الليل ؟ رأيتك تدخل أماكن ثم تخرج منها فى الحال ، وتتوقف عند أماكن ثم تستأنف السير ، وتحود فى حوارى غريبة ثم تعود فترتد ، أطوارك غريبة ، وقد سمعتك بأذنى فى أول الليل فى بوفيه الشاى فى سلم الخدم بمبنى علوى تقول أن بحور الدم ستغرق من يتاجرون بالشرف ، لماذا قلت هذه الكلمة عقب انصرافى مباشرة بعد أن كنا نتطاحن فى مناقشة حول الأخلاق وانحدار البشر؟ كنت عدوانيا فى نقاشك معى وفى صوتك نفس النبرة التى يكلمنى بها أعدائى الذين تعرفهم أنت جيدا !! بصراحة قررت ألا أدعك الليلة حتى أعرف إلآم ينتهى تجوالك وعلى أى بر سترسو قواربك الجانحة !! ...

اللعنة ، لسوف يعذبنى البسيقى بهذا المشهد بحذافيره شأنه كلما التقانى فى عمق الليل ، وما أكثر ما يلتقينى . فكيف أخلص منه ؟ الصراحة هى أقصر الطرق ، هذه حكمة أسمعها كثيرا والحقيقة لا تخجل . الوسيلة الوحيدة لقطع الطريق عليه ، بدلا من أن يقطع الطريق علىَّ ، هى أن أصارحه بحقيقة الأمر قبل أن ينخرط فى مونولوجه الأزلى ..

المأفون لم يمهلنى ، نظر فى عينىَّ نظرة ثاقبة متشككة كأنه يقول : قفشتك . وجدتنى أقول له باسما «بصراحة يا سناء ! أنا ليس لى بيت فى هذه

المدينة ! فكلما توفرت معى نقود بت فى لوكاندة من لوكاندات شارع كلوت بك الرخيصة ! وحيث لا يوجد نقود فالشارع مأواى ! والأماكن التى رأيتنى أدخل فيها وأخرج مسرعا هى أماكن يسكن فيها بعض الأصدقاء والمعارف الذين أطمح فى المبيت عندهم ! وسر جفاف النقود فى يدى هو نفسه سر أزمتك مع المخرجين ! محنتى هى الشرف والكرامة وما إلى ذلك من صفات تحبها !» . هز رأسه فى اقتناع وإشفاق شديدين ، قال بأسف : بلد وسخة ما فى ذلك شك ! هذا ما توقعته والله ! أنت إذن غلبان مسكين ! تصورتك ولدا من المخربشين فإذا بك عابر سبيل ! هذه بلد معرصة ! تحكم على خيرة أبنائها بالتشرد والتسكع فى الطرقات بلا رغيف بلا مأوى ! تراك لم تأكل طول النهار ! الله وحده يعلم حقيقة ما فى جيبى ! لكننى أستطيع أن أشترى لك عشوة فول عند الدمياطى ! لن أعطيك شيئا فى يدك ! إنما أجلس معك حتى تأكل أمام عينى ! تراك لم تدخن طوال النهار ! خذ عفر هذه السيجارة حتى نصل إلى المطعم !» .

مشيت بجواره كالطفل .لم أكن أحس بالجوع قبل برهة أما الآن فقد سال لعابى وانفتحت شهيتى . فى الطريق تذكرت أننى صرحت له بهذا التصريح عشرات المرات ، وأنه رد علىَّ نفس الرد وفعل نفس الفعل عشرات المرات كأنه يسمعنى دائما لأول مرة . أدركت أننى يجب أن أحبه ، ويجب ألا أنفر منه ، وألا أقف فى ردهة النادى لأقوم بتقليده أمام شلة من الأصدقاء لكى يضحكوا حتى النخاع من براعتى فى تقليده وإحكام لهجته متسقة مع نمطه فى التفكير ..

صرنا على وشك أن ندلف إلى مطعم الدمياطى فيما العمال يقلبون المناضد فوق بعضها تمهيدا للكنس والتشطيب . إن هى إلا برهة وجيزة حتى رأيتنى جالسا فى ركن قصىٍّ إلى إحدى المناضد . كنت وحدى ، وكان من الواضح أننى قد أكلت طبقا من الفول ورغيفين ، ويدى كانت قابضة على نصف

الفرنك الفضى فما أن رأيت النادل مقبلا نحوى حتى مددت يدى بنصف الفرنك ورميت به فوق رخامة المنضدة مستهدفا أن ينط محدثا رنينه الفضى الصافى ، هكذا تعودت أن أفعل دائما ، خوفا من شرود النوادل عند الزحام فإذا ما اعترضنى عند خروجى قلت له لقد أعطيتك نصف الفرنك بأمارة ما رن فوق الرخامة . ثم رأيتنى أقف متأهبا للإنصراف .

★★★

نفس العمارة مرة أخرى ؟ ما الذى جاء بى إلى هنا بحق الشيطان ؟ أشعر أننى منذ مدة تقدر بالأسابيع وربما بالشهور لم أحم حول عمارة الإذاعة القائمة على ناصيتى علوى والشريفين . الوقت يبدو ظهرا أو بعد الظهر بقليل . تذكرت أننى يجب أن أهرب فى الحال قبل أن تقبض علىَّ يد المحظور . سرعان ما تذكرت أننى مدين بثلاثة جنيهات لبائع السجائر على ناصية الشريفين ، وجنيهين لبائع السجائر على ناصية علوى ، وحوالى سبعين قرشا للمقهى المجاورة ، ونصف جنيه للحلاق القائم بينهما . استدرت فى الحال لأختفى ، لكننى تذكرت أننى يجب أن أدخل هذه العمارة الآن بأى شكل لأمر ما على جانب كبير من الأهمية ..

فى الحال رأيتنى أمشى بحذر فى ممر ضيق ذى درابزين من الحديد بقوائم وعمدان . سرعان ما وضح لى أنه سلم الخدم . كان يبدو حميما وأليفا ، سرعان ما وضح لى أننى ذاهب إلى هذه الحجرة الصغيرة القابعة فى نهاية الممر . من الواضح أنها فى الأصل حجرة مطبخ الشقة المطلة على هذه البسطة المستطيلة الضيقة تم إغلاقها من داخل الشقة وفتح بابها الذى يفتح على سلم الخدم . سرعان ما اتضح لى أنها مقر البوفيه الذى يديره الولد «فايد الغزولى» ، يصنع الشاى والقهوة لموظفى مكاتب الإذاعة التى تحتل فى هذه العمارة طابقين كاملين ، يزورها فى اليوم مئات من الفنانين ، فيها إذاعة

البرنامج الثانى وإذاعة صوت العرب ومراقبة التمثيليات وبعض كبار المراقبين والمذيعين ومقدمى البرامج والمسئولين الإداريين . تبين لى أننى الآن قادم لاشك من إذاعة البرنامج الثانى ، فبدلا من الإستمرار فى المشى حتى السلم العمومى أو الوقوف أمام المصعد للصعود إلى النادى حودت فى هذا المدخل الشبيه بالسرداب لأجدنى فى هذا الممر مقتربا من حجرة البوفيه هذه . الحجرة ليس بها سوى ترابيزة خشبية كالحة ، فوقها وابور غاز ماركة بريموس ، حوله مجموعة من الفناجين والأكواب والكنك والبراريد الألمونيوم بأحجام مختلفة ، وكرسى من كراسى المكاتب المجاورة . الوابور مشتعل على الدوام وفوقه البراد الكبير – العمال – مملوء بالماء الساخن ليصب منه على البن أو الشاى . أم فايد الغزولى سيدة عجوز تجاوزت الخمسين من عمرها بسنوات كثيرة ، لكنها متماسكة بعض الشىء وإن تمايلت فى مشيتها كشجرة يابسة طوحتها الريح ، جارمة الأطراف ضخمة عظام الحوض ، ناشفة الوجه كقرص العجين الخمران طال اختماره حتى تشقق وتجعد وكثرت كرمشاته حول عينين معروقتين مقروحتين من طول ما بكت وسهرت وولولت ولطمت الخدين الأعجفين ، ينساب على جانبيه مقاصيص شعر أبيض به بعض بقع سوداء وأخرى حمراء تحت مدورة تعصب بها رأسها تاركة خلف ظهرها ضفيرتين سمينتين تشهدان بأن صاحبتهما ذات يوم ليس بالبعيد كانت تتباهى بشعرها الجميل ، كما أن شفتيها المزمومتين على كثير من الاسى والتنهدات المكتومة كانتا كحبتى الفراولة . مقوسة الساقين قليلا فى غير عوج . تتكلم بصوت خافت بنبرة حكيمة تعكس أمومة عريقة فى التحنان وبعث الدفء ، تختلط الحروف ببعضها أحيانا ، لكن حرف السين ينقلب شينا على طول الخط حتى وطاقم الأسنان فى فمها . كانت زوجا لشرطى فى إدارة المرور، تسكن معه فى شقة متهالكة فى قلب حارة سد من حوارى حى الحنفى بحى السيدة زينب ، فى الطابق الثالث ، إيجارها ثمانون قرشا ومكونة من ثلاث غرف ضيقة وردهة مربعة ، الشقة مبنية بخشب

البغدادلى حيث تساقط الغفق عن جدرانها وانكشفت أضلاع الخشب الرفيعة . مات زوجها فى عز شبابه مخلفا ثلاثة صبيان وفتاة زغب الحواصل ، ومعاشا لا يكفى لشرب الماء وحده . الفتاة هى البكرية ، على درجة كبيرة من الجمال التركى اليونانى ، إلى الدم اليونانى أقرب ، البياض الشاهق والشعر الأسود والتقاطيع المسمسمة . فيها وفى كل إخوتها حنك أمهم الواسع واختلاجة الخجل الرقيقة فى الشفتين المضمومتين ، والأنف المستطيل المحروط كحردة الياقة المنشاة ، وطول القامة مع نحافة الجسد . هكذا كان «مرتضى الغزولى» ، الإبن الثانى ، الطالب النجيب بكلية الحقوق ، الجميل كالقمر ، المهذب كفتاة ريفية عذراء تتدفق صفائح الدم على صفحة وجهه البيضاء لدى أقل شعور بالحرج ، خافت الصوت كأمه تماما ، لابد أن يخدعك مظهره بأنه ابن بأشوات مدلل منعم، فإذا ما احتككت به لأول وهلة فاجأك برجولة راسخة ، وروح صلبة لإبن بلد حقيقى ، وفاجأك بأنه على شىء كثير من المعلومات المهمة التى قد يجهلها المثقفون الذين يملأون العمارة ، يعرف الكتاب والشعراء والصحفيين الكبار فى جميع أنحاء العالم العربى معرفة متابع دءوب ، يعرف الأقاليم العربية وطبائع أهلها وبعض عاداتها وعائلاتها الشهيرة ، يعرف القصص الحقيقية لحياة الكثيرين من الأعلام والنجوم بل يعرف عنهم كثيرا من الأسرار المحطة بالكرامة المناقضة لكل ما يظهرون به لكن الله حليم ستار ، مالناش دعوة ، اللهم أكفنا شر النميمة والإغتياب . عند خروجه من الكلية يأتى إلى البوفيه لاليساعد أمه بل ليكون بجوارها والسلام ، يسحب أى كرسى من أى مكتب مجاور ، يجلس فى آخر الممر مستندا على الدرابزين بساقيه ممسكا بأى كتاب أو جريدة أو مجلة ، وسلم الخدم من تحته ومن فوقه كهيكل عظمى لحيوان خرافى انقرض من ملايين السنين ، يندمج فى القراءة بشغف حقيقى وتطلع نهم للمعرفة ، حتى إذا ما رأى أن الطلبات تكاثرت على أمه نهض فنحاها جانبا ليقوم بتخليص الطلبات فيما تقوم هى بغسل الأكواب أو شراء المونة أو تدبير طعامهم . البوفيه فى الأصل

باسم أخيه فايد ، الذى يصغره بعام واحد ، ومع ذلك يبدو أكبر منه سنا ، وأطول قامة ، لكنه أقل ذكاء واهتماما بالدرس ، وأقل تناسقا فى ملامح الوجه من قريب وإن بدا من بعيد كنجوم السينما ، فمثلهم يرتدى أفخم القمصان أفخم السراويل أفخم الأحذية أرق الجوارب ، يترك أزرار القميص مفتوحة على الصدر الذى بلا فانلة داخلية لكى تظهر شبكة الشعر الثقيل الأسود ، لا يرى إلا حاملا صينية حافلة بالأكواب والفناجين إما فارغة أو ملآنة، من البوفيه إلى المكاتب ومن المكاتب إلى البوفيه ، القلم الرصاص نائم فوق أذنه اليمنى ، ما أن يصل إلى البوفيه حتى ينزع من درج الترابيزة دفترا كان فى الأصل أجندة قديمة ، يفر الصفحات المترهلة ، يقيد أثمان الدفعة التى وزعها على المكاتب . فى انتظار تجهيز الطلبات يقف على الباب مائلا فى عياقة يصفر لحن عبدالوهاب ياوابور قوللى رايح على فين ، وربما ترنم بأغنية أهواك لعبد الحليم حافظ أو ياأعز من عينى قلبى لقلبك مال لليلى مراد . من يراه يتصوره «دون جوان» بذاته لا هم له سوى الإيقاع بالفتيات فى غرامه المشبوب ، لكن من يتصوره هكذا سوف يدهش إذا رآه يتكلم مع أى فتاة أو سيدة حتى لو كانت متسولة حقيرة ، إذ يطرق بوجهه فى الأرض ، يحمر وجهه المدور المصفوط الخدين بما يعطيهما استطالة كاذبة ، تتلعثم الحروف على شفتيه ، ليس فى فمه سوى كلمة : حاضر ، حاضر يامدام ، حاضر يابيه ، فإن جادله أحدهم فى قيمة حسابه المثبوت فى الدفتر أغلق باب الجدل بصوت غاية فى الرقة والأدب : بينى وبينك ربنا والدار أمان. محبوب من الجميع، من أكبر رئيس إلى أصغر مرؤوس ، إذ أنه موهوب فى استقطابك دون أى قصد ، يغريك بأن تتبناه ولذا فإن الشفاه تردد اسمه بحميمية عميقة. هو الوحيد الذى تنفتح أمامه أبواب المسئولين مهما كانت الإجتماعات سرية أو الزحمة حابكة، ما أجمل أن يفاجأ ضيوف المسئولين بشاب فى غاية من الأناقة والنظافة والجمال والتهذيب يدخل

عليهم بصينية القهوة لينحنى واضعا أمامهم الفناجين بعناية فائقة وابتسامة لطيفة خجول . قد يستغرق بضع دقائق أثناء احتدام مناقشة حامية فى مواضيع حساسة فى اجتماع رسمى ؛ قد تصل إلى أذنه بعض الأسرار أو بعض الحقائق التى يفهمها بفطرته الذكية لكنه أبدا لا يذكر عنها أى شئ بعد خروجه ؛ قد يستمع إلى شتائم واتهامات موجهة إلى ناس فى المكاتب المجاورة التى قد يضطر لدخولها فى البرهة التالية لكنه لا يبدو عليه أنه استمع . هو بالكاد يجيد القراءة والكتابة حيث قد ترك المدرسة فى السنة السادسة الإبتدائية لنفوره من خشونة المعلمين ولعبكة المواد الدراسية ، فصار يتنقل بين الحرف ، من صبى مكوجى إلى صبى عجلاتى إلى صبى كهربائى سيارات ، لكنه فى أعماقه كان يهوى فن التمثيل كعمل توهم أنه غير محتاج للشهادات ، فلما عرف أن الممثلين أصبحوا يتخرجون فى معهد الفنون المسرحية بمؤهل عال فكر فى الدخول من الأبواب الخلفية مثل الكثيرين ، إلا أنه وجد الطريق صعبا ، فى الوقت الذى فوجىء بأنه قادر على نظم الكلمات المرعوشة المزخرفة فى شطرات تحت قواف مسبوكة من ألفاظ كثيرة جدا يحفظها من أغنيات أحمد رامى ومأمون الشناوى، فقرر أن يجرب حظه فى تأليف الأغنيات للمطربين مثلما يفعل بعض من يراهم من الشبان . فوق سطح أكبر عمارة فى شارعهم العتيق كان يسكن شاعر أغنيات كبير الموهبة فريد القاموس ينتظره مستقبل حافل لولا أنه مريض بالقلب رغم أنه فى عز شبابه المبكر ، يعمل موظفا صغيرا بهيئة الإذاعة إذ هو الموظف المختص بتوزيع أذونات الصرف من شباك بجوار الخزينة ، عن طريقها تعرف على الفنانين فوصلت كلماته إلى بعض كبار المطربين والملحنين وأصبحت على وشك الوصول إلى أم كلثوم وعبدالوهاب . كان فايد يزوره فى غرفته فوق السطح وفى مكتبه بالإذاعة ليعرض عليه كلماته ، فأشفق عليه ورأى أنه قد أهمل أكل عيشه جريا وراء وهم، وباتت أمه تذهب إلى الشاعر وترجوه أن يخلص النصح لولدها فيرده عن غيه . كان الشاعر يعرف أن ذلك صعب ، لكنه

عالجه خير علاج : فبحكم موقعه عرف أن مكاتب الإذاعة فى العمارة الجديدة فى حاجة إلى بوفيه خاص يخدم موظفيها ، فاقترح على المسئولين الاستغناء عن مطبخ إحدى الشقق غير المزدحمة ، وأقنع فايد بأنه يستطيع أن يكون فى قلب ميدان هوايته إذا أخذ عهدة هذا البوفيه وتولى إدارته خاصة وأنه ليس مطلوبا منه أى تأمين أو رأس مال . إن هى إلا أيام قليلة حتى أصبح هذا البوفيه جزءاً لايتجزأ من هذه المكاتب ، وبات فايد الغزولى ملمحا رئيسا فى هذا المجتمع الخاص ، لديه موهبة التعرف على الناس بسرعة ، فإستطاع أن يكون لافتة تجلب على إخوته عطف الجميع وعونهم . حريص هو على أن ينوه لك بشكل ما أنه ليس مجرد قهوجى بل إنه مؤلف أغان إلا أن زمن ظهوره لم يحن بعد ، يطول حديثه معك إذا عرف أنك شاعر أو صحفى فيما هو يسير بجوارك وأنت خارج من أى مكتب ، فإذا ما شرع يحود فى الفتحة المؤدية إلى سلم الخدم دعاك إلى زيارته فى البوفيه وشدد فى العزومة . هذا ما قد حدث معى حين التقيته أول مرة ، وكانت شمس الضحى الكهرمانية اللون تسقط فى بئر سلم الخدم كأنها اختارته بيتا لها تتكىء أشعتها على أفاريز السلم ، والبوفيه فى منطقة الظل يذكرنى بالدكاكين الحميمة التى أغرم بالجلوس فيها فى قريتى النائية . أذكر أننى كنت أصاب بكثير من الحرج كلما لمحنى أحد المتحذلقين داخلا إلى البوفيه فيوجه لى نظرة معناها أننى عرفت مكانى الصحيح فى البوفيه على سلم الخدم بدلا من إدعاء التأليف أو الأدب . أذكر أننى تحديتهم جميعا ، بل أغريت بعضهم بمشاركتنا الحديث وقوفا على البسطة الضيقة فيما يشبه الندوات السريعة الساخنة التى كانت تترك فى النفس مذاقا طيبا ..

ها أنذا قد صرت أمام البوفيه . نظرت فى داخله ، لم أجد أحداً على الإطلاق . الوابور فى مكانه لكنه غير مشتغل ، الأكواب والفناجين متناثرة وغير مغسولة . قلت لنفسى إن هذا يحدث كثيرا خاصة فى فترة بعد الظهر حيث تضمحل الحركة تماما ويخلد المبنى كله إلى السكون هكذا . كنت تواقا لكوب

من الشأى المعمول جيدا ، شعرت أن من الطبيعى أن أشعل الوابور بنفسى فأصنع لنفسى شايا ، تذكرت أن هذا قد حدث كثيرا فيما مضى ، بل لقد يفاجئنى أحد الزبائن طالبا شايا فأعده له بالمرة وأقيد ثمنه فى الدفتر وأنادى الساعى ليوصله .

حين أغلقت محبس الوابور وشرعت أملأه بالهواء خطر لى أن الفرصة سانحة لما هو أهم بكثير من شرب الشاى الآن ، أن أسحب هذا الكرسى وأعدله فى هذا الركن القصىِّ وأنجعص فوقه ساندا رأسى على الحائط وساقى مدقورتان فى الحائط المقابل وأندمج فى نوم عميق لمدة ساعتين أو أكثر . إن جاءت أم فايد ورأتنى ستنظر لى قائلة : «حبة عينى ! خليك نايم ياخويه باين عليك تعبان !» ، وقد تغلق الباب علىَّ وتنصرف حتى صبيحة اليوم التالى . وإن رآنى أبنها مرتضى فسوف يوقظنى ليسألنى إن كنت قرأت الأهرام اليوم . وإن رآنى أبنها الثانى فايد فسيتركنى حتى آخر لحظة ينصرف فيها ليخيرنى بين الإنصراف أو البقاء أو الذهاب معه إلى البيت . وإن رآنى ابنها الصغير مرتجى فسيصنع لى شايا ثقيلا ويهزنى برفق قائلا : صحصح ..

الكرسى الذى سحبته كان مختل الأرجل ، فعوجته فى الركن ورميت بثقلى كله فى تجويف الركن منعوج الجسد فى شبة تكور حتى احتفظت بتوازن الكرسى . بدأ تنفسى ينتظم ، ستار العزلة يزداد ثقلا وحلكة فى عينى ، تناهى إلى سمعى صوت وقع خطوات مقبلة فى الممر الطويل ، جزمت بأنها خطوات «أمير فايق» : شاب من الكومبارس ، على شىء قليل جدا من الوعى والتفتح ، شكله خادع ، يبدو كوكلاء الوزارات ، كالدبلوماسيين ، كمدراء مكاتب المسئولين، شكل غاية فى الرصانة والإنضباط ، بوجه مستطيل ممتلىء الخدين مكتنز الشفتين ، بأنف مستقيم ذى شموخ صناعى متقن ، وعينين ذكيتين ، وشعر كثيف لكنه قصير متناسق الفودين قصير السوالف مدرج على القفا

بانسياب ناعم ينتهى بحد كالخيط الرفيع . لون الوجه قمحى ، حليق اللحية ، دائم النضارة ، يرتدى سترة من الصوف الكاروهات الغامق اللون فوق سروال بندقى اللون ، مع رباط عنق معقوف عند العقدة . فصيح ولبق حتى لتخاله من كبار المثقفين الواثقين من معلوماتهم ، ولكنك بعد دقائق معدودة تكتشف أنه غير واثق من أى شىء ، وأن كل معلوماته مصدرها الإنحشار بين المتكلمين فى الندوات أو التسجيلات ، وحتى تعابيره الرصينة البليغة يقتبسها بنصها من متحدثى البرنامج الثانى ويستخدمها كيفما اتفق ، مع ذلك يستطيع الإحتفاظ بالستر لوقت طويل ، إذ هو يعرف متى يحق له الكلام ومتى يجب أن يحترم نفسه بالسكوت ، كما أنه يجيد الإنصات بطريقة إيحائية تعطيك الإنطباع بأنه تواق إلى المعرفة فلا تضن عليه بها إن توفرت لديك . يبدأ دائما مرفوع الهامة مهيب الكبرياء ، يعاملك على هذا الإعتبار لحين يعرف من أنت فيتغير سلوكه فى الحال ليناسبك ، فإن علم أنك مخرج أو مؤلف فإنه يحدثك بتواضع شديد يكاد يصل إلى حد الإنسحاق ، يستميل عطفك عليه بأى شكل ، يحدثك عن أمه المريضة ، عن إخوته الصغار الذين يتكفل برعايتهم بعد موت أبيه ، فإن كنت مسئولا فإنه يشكو لك - بصنعة لطافة - من المخرجين الذين يتجاهلون حقه فى العمل ، فإن كنت صحفيا خامل الذكر حدثك عن أمجاده السابقة فى الفرق المسرحية القديمة وعن مواهبه التى لا ينكرها سوى الأغبياء وعن المخرجين الذين يرتشون جهارا نهارا ، فإن كنت مساعد مخرج فإنه يعزمك على واحد شاى مع سيجارة بلمونت مع وعد مستتر بعزومات سخية إذا أنت لفت نظر مخرجك إلى مواهبه . هو مع ذلك يشتغل كثيرا ، طول النهار فى استديوهات علوى من كلمة فى برنامج إلى سطر فى تمثيلية ، فإذا دعى للتمثيل فى برنامج ممتد الحلقات فإنه يقدم خدمات إضافية إذ يفرض مساعدته على المخرج ولو بحمل حقيبته أو شرائطه أو نداء الممثلين من الإستراحة أو خطف الرجل للبحث عن فلان فى المقهى التحتانى أو لتوقيع ورقة من مسئول قبل انصرافه أو

المشاركة مع الإداريين فى تجهيز وثائق ميزانية الصرف ثم الجرى وراء السعاة حتى يضمن صرفها فى نفس اليوم . إلا أنه مفلس على طول الخط . أذكر يوم عرفته أول مرة ، فى هذا البوفيه على وجه التحديد ، قدمه لى «فايد الغزولى» ثم قدمنى له بقوله : «الصحفى فلان !» ، فإذا به يسألنى بكل ثقة ولماضة : «فى صفحة من ؟ أقصد مع من تشتغل من رؤساء الأقسام ؟» . قلت بضيق وغلظة : «ليس مع أحد!» ولم أزد ، لكننى أسفت بعدها مباشرة لأنه تلقى صفعتى ببساطة وواصل الحديث معى بكل ود ، بل إنه عزمنى - بإصرار شديد - على واحد شاى فى مقهى الفيشاوى فى آخر الليل .

رأيتنى أمضى بجواره حول مقهى الفيشاوى فى صمت مريب ، لمدة بدت طويلة . كلما واجهنا المقهى إستأذن لبرهة ، فيروح يبحث فى المقصورات الداخلية ، ثم يعود فيسحبنى لنمشى من جديد فى ميدان الحسين لدقائق نعود بعدها إلى المقهى . لم يكن من الصعب أن أفهم أنه قد عزمنى ولكن على نفقة شخص آخر هو على وجه التحديد ذلك الشخص الذى يبحث عنه الآن . فلما عاد مبسوط الوجه يدعونى للتفضل عرفت أن الشخص الذى سيدفع ثمن شاينا قد حضر . هو ما توقعته ، وقف لملاقاتنا أفندى مهيب جدا ، طويل القامة رفيع القوام يضع على عينيه منظارا ذهبى الإطار عريض العوينات ، تركى الملامح والسمت صلب التقاطيع حاد القسمات أشقر شقرة خفيفة . يرتدى فوق البذلة الكاملة معطفا ثمينا جدا ، يمسك بيمناه مسبحة مطعمة بالعاج والذهب والفضة: أهلا يابكوات ! .. قالها بلهجة أرستقراطية عريضة النغم طالعة من الحلق المجوف . سلمت عليه . أشار أمير فايق نحوه قائلا كأنه يرهبنى : «الأستاذ محسن كامل البدرى».. «أهلا يافندم ! فرصة سعيدة جدا ! يبدو أنى محظوظ !» .. هكذا رحت أردد ، فمحسن كامل البدرى هذا كان سفيرا لنا فى موسكو فى وقت قريب ، وكان كاتبا قرأت له بعض الرحلات الأدبية والترجمات

الروائية ، وله مواقف سياسية محترمة ضد الإستعمار ، فضلا عن أنه من عائلة كبيرة مرموقة مرهوبة الجانب في الصعيد . أشار فجلسنا ، وأمر فجىء لنا بالشاى الأخضر ، وقدم لنا علبة سجائره الاجنبية والقداحة الذهبية فوقها . دقائق معدودة اكتشفت بعدها أن الرجل مغرم بالشعر والزجل إلى حد الإفتتان المنبهر ، يردد أزجال بيرم وأبى بثينة وأشعار حافظ إبراهيم وعبد الحميد الديب وإمام العبد . من حسن الحظ أنى أحفظ أرتالا من هذه الأشعار ، ما صدقت أن فتحنى ، فانهلت عليه إلقاء ، أسمعته ديوانا كاملا لبيرم من الشعر الحلمنتيشى غير المشهور ، وهو يشب على قدميه من فرط الإعجاب والإمتنان ، ومن قصيدة لأخرى يجىء شاى جديد أو قهوة جديدة وتنهمر السجائر حتى انتشيت حقا . ثم فوجئت به ينزوى نحو الحائط قليلا ويخرج محفظته الجلدية الأنيقة فيقلب فيها بأطراف أصابعه الطويلة ثم يكور قبضته على ورقة مالية ثم يعيد المحفظة إلى جيبه الداخلى ثم يخفى الورقة فى جيب المعطف ، ففهمت أنه يستعد لمحاسبة الجرسون ، ثم مال على أمير فايق وقال له : «ياترى الجرايد تكون وصلت ؟ إخطف رجلك شوفها ! هات لنا الجرايد كلها ! خذ من عمك فؤاد الجرسون ! » ثم نادى : «يابو حمادة ! أعط الأستاذ أمير ما يطلبه منك !» . ما كاد أمير يعطينا ظهره حتى فوجئت به يسرب يده نحوى مطبقة من تحت الترابيزة ناظرا فى عينىَّ نظرة ذات معنى قائلا : «مد إيدك !» ، فأسقط فى يدى ، إرتعبت مفاصلى لكننى مع ذلك مددت يدى ، فإذا بالورقة المالية الثمينة الملمس تلتصق براحة يدى . جرادل من المياه الباردة تتدفق فوق رأسى تغرقنى بالعرق ، تكاد الدموع تطفر من عينى . إخشوشنت نظرته ، قال فى تهديد أخوى عميق النبرة : «باقولك أيه ! معيلة مش عايز ! ما تعودت أن يكسفنى أحد فاحذر أن تكون أول من يكسفنى ! ستدفع ثمنها غاليا !» ، ثم ابتسم فى رقة . نظرت حوالى ، فرأيت المقصورة المقابلة لمقصورتنا خالية ، وليس معنا أحد ، وتذكرت أننى لم أر شكل النقود منذ شهور طويلة ، وأننى محتاج لأكل وشرب

ونوم وتنقلات ، فسحبت يدى بالورقة صاغرا ووضعتها فى جيبى وثمة خاطر خبيث يلح على : من أدراه أننى محتاج ، هل شكلى يوحى بذلك ؟ هل أصبحت على سمت المتسول المدموغ ؟! ونظرت فى عينى الرجل فوجدت شيئا كالنبل إلا أنه مشوب بغلالة من ظل كالخبث أو عدم الصفاء .

إقترب أمير فايق حاملا كومة من الجرائد والمجلات رمى بها أمامنا فانبرينا نتصفحها على عجل . لاحظت أن أمير فايق صار يرشقنى بنظرات تحتية قلقة متوترة مليئة بالأسئلة الغامضة كأنه يوشك أن يتهمنى بالخيانة . فازددت قلقا لكننى قررت تجاهله . كان من الواضح أنه يريد قول شىء للرجل ، أخيرا مال نحوه قائلا كأنه يحدث أمير المؤمنين : «اتدرى من قابلت الآن ؟!» . قال الرجل : «أعرف ! لابد أنه المأفون زجال الوطنية !» . قال أمير : «نعم !» . أسرعت قائلا : «تقصد مختار البهلول ؟» . قال الرجل بامتعاض لاويا شفتيه : «مختـار الزفت !» . ارتعت ، كانت هذه أول كلمة نابية تخرج من فمـه منذ جلسنا ، قال لأمير وقد تغير وجهه : «لمحته ينظر إلينا منذ دقائق وهو فائت من هنا ! يجر معه طفليه الصغيرين ! جاء يشحذ بهما ! رجل واطئ ! لن أستجيب له ثانية ! سأتركه يجوع لأرى آخرة الصفاقة ورفع الأنف بالكذب ! كيف يرانى مقبلا عليه منذ أيام فلا يقف لتحيتى ؟ كيف يتحدانى وأنا أطعمه ؟! أنسى أن البذلة التى يرتديها هى بذلتى ؟!» . فى الحال نظرت إلى البذلة الثمينة التى يرتديها أمير فعرفت أنها هى الأخرى بذلته بعد تقييفها وتقصيرها ، فتملكتنى رعشة داخلية وشعرت كما لو كنت قد فقدت بكارتى . ثم رأيتنى فجأة فى بيت الزجال مختار البهلول ، حجرة فى بيت قبيح سئ السمعة فى حارة متفرعة من شارع كلوت بك ، فيها ينام هو وزوجه وثمانية أولاد على جرائد مفروشة فوق البلاط حيث لا شئ سوى وابور غاز أعرج وبعض أوان صدئة ، وحيث يصحو هو من النوم ظهرا فيسعى فى شوارع المدينة بحثا عن قطعة أفيون يستقيم بها

عوده ، ثم زجاجة صغيرة من الخمر الرخيص يصهلل بها رأسه . ثم طبخة مكرونة أو حلة بطاطس مقلية أو حلة عدس يأكلونها . أما كيف ينجح فى ذلك فهذا سر غريب لا يتكرر إلا فى مصر وحدها كما يخيل لى ، إنه دائما أبدا ينجح فى تدبير يومه بأى شكل . كان قمينا بأن يكون نجما ساطعا فى عالم الكلمة الساخرة اللاذعة لما لديه من موهبة خارقة فى نظم الصور التى تنم عن أفكار عميقة السخرية ومعان مشبعة بالحكمة والموعظة ، لولا أنه رخيص بطبعه، على شئ كثير من الوضاعة ، كان يكتب المنولوجات الساخنة باسمه وبأسماء غيره من المشهورين مقابل أجر مضاعف ، ينشر أزجاله فى بعض الصحف والمجلات وبعد يومين يذهب مطالبا بالأجر على طريقة البلطجية والعصبجية وباعة الخضار ، ثم يهجو الجريدة بأزجال جارحة تسلق رئيسها ومحرريها بألفاظ سوقية مغرقة فى البذاءة ، ويوزعها كالمنشورات صانعا منها فضيحة العصر ، حتى امتنعت الجرائد كلها عن ذكر اسمه ، وأهل الغناء عن رؤيته ، فلجأ إلى الكباريهات يرتجل الأزجال الماجنة للراقصات مقابل سهرة وبضع شلنات آخر الليل ، يؤجر موهبته لمرشحى مجلس الأمة ، يكتب أزجالا إعلانية للتجار كى تنشر فى إمساكيات شهر رمضان ، لا يتورع عن نشر صورته مع أى غثاء يكتبه : بصلعته ذات الخصلات الرخوة النازلة على صدغيه كمقاصيص المومسات الغشيمات ، وعينيه اللوزيتين الخبيثتين الماجنتين ، وخدود وجهه الناضحة بالخسة ، وفمه الشهوانى الواسع الغليظ الشفتين المفشوخ دائما عن ابتسامة بليدة لزجة . كل آماله اليوم تنحصر فى بنتين من أبنائه وهبهما الله خفة الظل وجرأة وصوتا مسرسعا ذا نبرة فكاهية إلا أنها طروبة بعض الشئ ، الأولى فى الثالثة عشرة من عمرها لكنها فائرة الجسد ، والثانية فى الثامنة من عمرها ، فجعل منهما ثنائيا أعطاه اسما فنيا : بندق ولوز ، وألف لهما بعض المنولوجات الإنتقادية الضاحكة وعهد إلى موسيقى محبط من شارع محمد على يشتغل مع العوالم ، بتلحينها نظير أن يكتب له كلمات يغنيها فى الأفراح .

باللبط والتلامة والصفاقة تمكن من فرض هذا الثنائى على أحد الكباريهات فى شارع الهرم فأصبح يقدم نمرة يومية ، حيث يذهب بهما إلى الكباريه فى أول الليل وهو نصف ثمل ، ويعود بهما آخر الليل يترنح من السكر التام . البنتان تعطيان أجرهما لأمهما تصرفه على الطعام ، ويحظى هو بالبقشيش .. «العجيب أنه يسمى نفسه زجال الوطنية ! أليس هذا شيئا يفقع المرارة ؟!» ، وكان صوت هذه العبارة مختلفا عن صوتى فانتبهت فزعا فإذا بقائلها هو «محسن كامل البدرى» الذى كان قد استأنف الحديث بشأنه مع «أمير فايق» ..

فجأة دخل «مختار البهلول» ساحبا بنتيه : بندق ولوز ، متجها مباشرة إلى محسن كامل البدرى بك ، الذى بقى مكانه دون أن يعيره أدنى اهتمام . هجم عليه باسما وجعل يقبل رأسه قائلا : «والله ما رأيتك ! لماذا لا تصدقنى ؟ أنا عدم المؤاخذة كنت فى حالة سيئة ! شربت من غلبى خمسة قراع من البوظة قبل أن ترانى بدقائق ! فكيف لكلب مثلى أن يتجاهلك يا سيد الكل ؟! أستاهل ضرب الحذاء لو ثبت أننى عن عمد تجاهلتك ! وحق أبنائى هؤلاء الذين أرجوهم من الله ما كان ولا يمكن أن يكون !» . حاول تقبيل رأسه ثانية لكن محسن بك دفعه عنه بغلظة واستكبار ، فكاد البهلول يترنح بشدة لولا أنه استند على حافة الكرسى ، ثم قال بصوت شاحب : «أنت ظلمتنى ! سأتركك الآن حتى يروق مزاجك !» ، ثم سحب بنتيه ومضى ، فشيعه البك متمتما فى غيظ : «حيوان ! متسول !» ، فشعرت أن عنقى يتهاوى تحت ضربة قاصمة ، وأن رقبتى قد انكسرت ، فاعتدلت فى جلستى كأننى خرقة بالية ، ثم اعتدلت مرة أخرى ، ثم عدت إلى الوضع السابق ، وضع الإنسان الغلبان أمام رجل ذى هيبة وماض مجيد . لكننى ما لبثت حتى اعتدلت من جديد منجعصا عن عمد ، واضعا ساقا على ساق فى شئ من التحدى الخفى ، مما جعل الدماء تترقرق فى صدغيه

لبرهة برقت خلالها فى عينيه بوارق لهب خاطف . قلت له بشئ من التحفظ والحذر : حضرتك هجرت العمل الدبلوماسى وهجرت الكتابة ؟!» . اتسعت ابتسامته ، قال : «الجميع يخلطون بينى وبين عمى ! يا سيدى أنا لست هو ! عمى محسن كامل البدرى بك السفير والكاتب والمترجم يعيش الآن فى الخارج للإستشفاء !» ، ثم وقف مصفقا للجرسون ، وقبل أن يصل أبو حمادة الجرسون كان قد أخرج جنيهين جديدين رمى بهما على طبق صغير فوق الترابيزة وقال : «أحب أن أراك ثانية وثالثة ! مع السلامة !» . وانسلت من بين الترابيزة والكرسى ، ثم لوح لنا بيده ومضى مشيعا منى بنظرة متفحمة ، وفى ذهنى خاطر يؤكد لى أننى لن أراه ما حييت ، حتى لو ألقت به الظروف فى طريقى فلسوف أتجاهله عن عمد ..

ثم فوجئت بأننى قد انزويت فى محل بدورة مياه عمومية ملحقة بمسجد لعله مسجد الحسين ، وجعلت أفرد الورقة المالية فإذا هى خضراء عليها مئذنة حمراء . كانت من فئة الجنيه ، فجاءنى إحساس بهيج بمنظرها فقررت أن أستبقيها طويلا دون أن أفكها مهما كانت الأسباب . ثم وجدتنى أبرمها حول نفسها كالسيجارة الرفيعة ، وأسربها فى فتحة بكية السروال الداخلى فى مجرى الأستك ، غيبتها فى الداخل فى الجنب اليمين ، الجنب الذى أنام دائما عليه . وكنت أعرف أن أمير فايق ينتظرنى خارج المراحيض ، وأننى مسرور بذلك إذ ما يزال فى جوف الليل بقية تحتاج إلى ونيس مسل ... ثم رأيتنى أصعد وراء أمير فايق على درج سلم طينى متآكل إلى سطح بيت لا فرق بينه وبين أى بيت طينى فى العزب المجاورة لقريتى ، مع أن هذا البيت فيما قيل لى فى محافظة الجيزة ركبنا له أتوبيسين ومشينا وسط شوارع مشهورة فتجاوزناها إلى مناطق زراعية بعيدة جدا . فوق السطح حودنا إلى غرفة

صغيرة يحتلها سرير قديم الطراز بعمدان نحاسية عليه ملاءة بيضاء نظيفة . إستقبلتنا سيدة ريفية عجوز تنهض بصعوبة وتتحرك بصعوبة . سلمت علينا وخرجت . من فوق الداير الحديدى للسرير سحب أمير فائق جلابية رخوة رماها نحوى قائلا : «غير هدومك !» ، شممت رائحة عرقها الزنخ فقلت : «لا ! سأنام كما أنا !» ، ثم خلعت حذائى مداريا فى قلبه جوربى النتن ، وتمددت على السرير . فلبس هو نفس الجلباب وتمدد بجوارى قائلا : «عندى بروفة غدا فى النادى فى الثانية عشرة ظهرا فى برنامج خمسه إلا خمسه !» . فغمغمت قائلا «لن تروح علينا نومة !» ، ثم رحت فى النوم .. ..

.. رأيتنى أمشى وحدى فى شارع الشريفين بلا وجهة محددة . لمحت الشاعر الأسود خارجا من مبنى الشريفين حيث توجد مكاتب كبار المسئولين واستديوهات البث المباشر وإذاعة ركن السودان وإذاعة ركن فلسطين . إنه الشاعر «محمود الفرنوانى» ، الكبير رغم حداثة سنه ، الذى يعد بين الشعراء المرموقين فى حركة الشعر العربى الحديث كصوت مستقل يعبر عن الإنسان الأسود ابن القارة السوداء وأحقيته فى التحرر . هو سودانى الأصل لكنه مولود بمدينة القاهرة فاكتسب مصرية صميمة بالمزاج واللكنة واللهجة والثقافة ، ويقال أن أصله البعيد من ليبيا ، ولربما ظهر فى أحيان أخرى أنه سعودى البذرة ، أو أن أمه خليجية . إلا أنه مشهور جدا ، ويعيش كلاجئ سياسى ولا أحد يعرف كيف تحقق له ذلك ، ربما لأنه منذ نعومة أظفاره اتخذ صبغة نضالية ثورية تتيح له الصدام المحسوب الذكى مع القوى الحاكمة فى المنطقة العربية ، لكى يظل فى الصورة صوتا ثوريا مرموقا وفى نفس الوقت لا يخسر مساندة السلطات الحاكمة . تمكن أن يرتحل من حين إلى حين ليعيش فى هذه العاصمة العربية أو تلك ، كلاجئ سياسى . هو قد تعلم فى القاهرة حتى وصل إلى كلية الآداب

قسم اللغة العربية ، وأثناء ذلك كان يعمل محررا مراجعا بجريدة يومية من جرائد الثورة . يقال إنه أهمل فى حضور المحاضرات حتى جاء الامتحان فذهب إلى عميد الكلية يطلب حقه فى النجاح بدون امتحان ، شفاعة لمركزه ومكانته كشاعر حر مرموق يحق للكلية أن تفخر بأنه أحد أبنائها . لم يقبل العميد بالطبع ، والواقع أن أحدا لا يعرف إن كان ذلك قد حدث بالفعل أم أنه مجرد شائعة من الشائعات الكثيرة التى تحاك حوله . كذلك لا أحد يعرف إن كان قد حصل على الشهادة النهائية أم لا ، إنما الواقع أنه شاعر كبير مرموق ، وأنه حاليا يعيش فى سوريا كخبير فى إحدى إدارات وزارة الثقافة ، وأنه الآن فى زيارة للقاهرة فى مهمة قد تستغرق عدة أشهر ، وأنه متزوج من سيدة فلسطينية من غزة ، أنجب منها ستة صبيان يحملون ملامحه على سحنة بيضاء ، بعيونه اللوزية البارزة البراقة كعيون التمساح ، وجبهته الضيقة المدببة ، وفمه الضيق المزموم وأسنانه الكبيرة وحجمه الدقيق ، وقد أجر شقة مفروشة فى الدور الخامس فى عمارة علوى والشريفين فوق مكاتب الإذاعة ..

تذكرت أننى كنت على موعد معه وأننى حرصت على الحضور لأنه عزمنى على الغداء كى يقرأ علىَّ فصولا جديدة كتبها فى أول مسرحية شعرية يكتبها بعد مجموعة من الدواوين ، يريد أن يأتنس برأيى فيها . هى فرصة من الخطل أن أفوتها ، ففيها غنوة بيتية وأنا منذ سنوات صرت أشتاق لرائحة المطبخ البيتى ولجو العائلة ، وفيها عصرية جميلة على أنغام الشعر . ثم رأيتنى جالسا فى ركن من حجرة صالون شديد الفخامة ، مقاعده كلاسيكية الطراز ، فى ردهة كبيرة تحتلها مجموعة متنوعة من المقاعد الثمينة . بجوارى مدفأة كبيرة فى الحائط مبنية بالطوب الحرارى الأحمر على شكل بوابة فرعونية كل من

صدغيها على هيئة زهرة اللوتس . على المقعد المجاور للصدغ الآخر يجلس الشاعر الكبير الأسود مرتديا سترة من الشمواه البنى المحروق على سروال من صوف الهيلد الأسود وفانلة صوفية بنصف رقبة ذات لون سمنى . كان يدخن بشراهة ويقلب فى مجموعة أوراق سائبة مليئة بالشطب والتعديل أغلب الظن أنها مسودة المسرحية الشعرية التى سيقرأها علىَّ . من برهة لأخرى يرفع عينيه عن الورق ليصيح فى عصبية مكبوتة وتوتر دفين : «ترى هل سنتغدى اليوم ؟! مش خلاص يا ست ولا لسه ؟!» فيأتى مما عرفت أنه المطبخ صوت نسائى غليظ مسترجل أشد عصبية وأكثر توترا وبلهجة مصرية كلهجة أولاد البلد الفتوات : «بطل تدى أوامر يا فرنوانى وأنت قاعد على طيزك !» ، فانحرفت عينه نحوى بنظرة يبرق فيها الخوف والفزع والاستنكار ، فخفضت بصرى تجنبا لإحراجه ، فراح يشد الأنفاس من السيجارة مضيقا ما بين حاجبيه محاولا التركيز على ما فى يديه من أوراق . وكان ستة أطفال متفاوتى الأعمار فى لون الجراد يملأون الشقة صخبا وعفرتة ، يجرون خلف بعضهم محاولين الإمساك ببعضهم البعض فى صياح انتصار واحتجاج ، منهم من يقع فيرج الأرض صارخا ، ومنهم من يصطدم بالأشياء فيكسرها فينطلق جعيره الرنان . لحظتها كان الفرنوانى قد انتهى من ترتيب الصفحات ومال نحوى وشرع يقرأ بصوت متهدج أوصاف المشهد وزمنه وشخصياته ، ويزداد تهدجا ودفئا منذ بدأ يقرأ الحوار الشعرى . لكنه ما كاد يكمل المشهد حتى شعر بضياع صوته بل بضياعه نفسه وسط ضجيج الأطفال وصراخهم ، وكركبة المواعين واصطكاكها بشدة داخل المطبخ ، وصوت صنبور مفتوح عن آخره يوش ويكر بصوت خرير الماء ، فإذا به يصرخ بكل ما فيه من قوة وتوتر : «بس! حيوان منك له ! يلا امشى خش جوه ! ياست انتى حوشى العيال مقاصيفالرقبة دول !» . ظهرت

من طرقة المطبخ ســــيدة قصيرة القامة مبرومة الجسد تبدو صغيرة فى السن لكن وجهها بلا ملامح كقطعة لحم نصفها أحمر ونصفها الآخر أبيض دهنى ، يطل منها عينان سوداوان يتصاعد منهما بريق حاد ، وجهها كما هو واضح محروق حتى نهاية الرقبة بشكل يثير الفزع والحزن والشفقة الكئيبة . صاحت بصوت أكثر حدة : «بتزعق ليه ؟! وترت أعصابى ! ما تهمد شوية ! دماغك مصفح ؟!» . فوضع ساقا على ساق وشوح لها بأصبعه قائلا فى جدية كبيرة كأنه يخاطب رئيس الوزراء فى مفاوضة ســياسية خطيرة : «إذا ما احترمتيش نفسك حاقوم أضربك بالجزمة !» . وبدا فى الحال كأنه ندم ندما شديدا على انزلاق لسانه إلى البئر السفلى . جعرت هى فيه بلهجة تفيض بالتهديد والوعيد : «فرنوانى ! احترم نفسك أنت !» . إنفلت عياره ، صرخ : «يا بنت الكلب احترمى نفسك !» . صرخت فيه : «إنتَ اللى ابن ستين كلب !» . رمى بالأوراق وانتفض واقفا كالأسد الذبيح مندفعا نحوها . قمت مسرعا واحتجزته بكل قوتى . أما هى فقد تصدت له كالمصارع الذى يعرف ألاعيب خصمه ، فنحانى عنه بقوة وقفز فانقض عليها ضربا وتلطيشا بالبونية والشلوت وهى ترسل الصراخ والشتائم البذيئة الجارحة فلا يزداد إلا عنفا وهياجا فيما الأطفال مندمجون فى صراخ فزع ، لكنه ذلك الفزع السطحى الذى يشى بأنهم عاشوا مثل هذه اللحظات كثيرا . صرت بكل جهدى أحاول فض الاشتباك لكن كلا منهما يلف من وراء ظهرى فيشتبك مع الآخر فى ضربة شلوت أو بصقة ، إلى أن تعب الفرنوانى فانحط جالسا على المقعد يلهث بأنفاس متلاحقة حتى خلت أنه سيلفظ روحه بين زفرة وأخرى . وجدتنى فى حيرة شديدة وحرج أشد . تهيأت للانصراف . جذبنى قائلا : «إقعد ! سنقرأ ! لا يهمك ما رأيت فهذه هى حياتنا اليومية ! وهذا مجرد حوار عادى بسيط !!» قلت : «لا أظنك الآن قادرا على القراءة ! ولا أظننى قادرا على الاستماع !» ، ثم وقفت مرة أخرى ، فوقف هو الآخر وسار معى نحو الباب ..

فوجئت بأننا نجلس معا فى شرفة نادى الإذاعة المطلة على شارع علوى، الهدوء شامل . كان الفرنوانى يشعل سيجارة جديدة من عقب السيجارة المنتهية ويبتسم فى تهكم عميق مرير وصوته لايزال يتهدج :

– «هذه البنت المجنونة ! لا يغرنك ما رأيت ! لا تُرع ! إنها فى الواقع سيدة عظيمة جدا ! وهى تحبنى حبا عميقا ، وهذا هو سر المحنة ! ألم تر إلى وجهها ورقبتها ؟! لقد سبق أن أشعلت النار فى نفسها ذات يوم احتجاجا على خبر سمعته بأننى انتويت الزواج عليها من امرأة سورية عاشقة لأشعارى ! أنقذناها من الموت باعجوبة ! هى مجنونة لأنها لا تدرك أننى أحبها بالفعل وأحترمها !! لقد ضحيت من أجلها بالكثير والكثير ولست نادما على ذلك لأنها هى الأخرى تحملتنى كثيرا ! سافرت معى من منفى إلى منفى ! وطوال عمرنا لم يكن لها بيت كبقية النسوة ! كل البيوت التى سكناها كانت مفروشة وتستنزف معظم دخلى المادى على قلته ! حياتنا كلها فنادق رخيصة وحقائب سفر وغرف مبقعة الفرش بعرق الآخرين وبقاياهم ! أحيانا كنت أتركها وحدها مع الأولاد فى بلدة بعيدة لأعيش أنا فى دولة أخرى لما يزيد عن العام وربما العامين دون أن أرسل لها إلا ما يقيم الأود ! ولقد طلقتها أكثر من مرة وأخشى أن أطلقها للمرة الآخيرة التى لا ردة بعدها فأتعرض للندم !!» ..

ثم استغرق فى الشرود والتدخين بشراهة ، فيما استغرقت أنا فى مشاعر متضاربة . فمنذ قليل كنت أشعر أننى متعاطف معه ضدها ، الآن أشعر أننى متعاطف معهما معا ضد طرف ثالث مجهول ، ثم شعرت أننى ضائق بالدنيا وبالناس وبكل شئ . ثم رأيتنى أقف وفى نيتى أن أفعل شيئا أخفف به عنه . ، وهجس فى نفسى خاطر : لو كان معى نقود لعزمته على كأسين ، فلقد كان منظره هو التعاسة بعينها. كنت أشعر أن قلبى يتمزق من أجله بل من أجلهم جميعا كأسرة فى مهب الريح لا يعوضها عن ضياعها أى هدف مهما كان

نبيلا وعظيما . قلت : «تشرب قهوة ؟» ، ولم أكن واثقا أن النادل سيلبى طلبى فى الحال إذ تذكرت أننى لم أحاسبه منذ وقت طويل . مع ذلك كررت عليه السؤال بإصرار ، فهز رأسه أن نعم ، فمضيت أتبختر كطاووس من الورق فى الممر الجانبى ، واضعا يدى فى جيبى السروال ، محاولا تدبير خطة تقنع مصطفى النادل بأننى جاد فى دفع حسابه بعد أيام قليلة ....

وكنت مرتكنا بكوعى على حافة سور الممر حينما فوجئت بمنظر الشارع فى عينى . استقر بصرى على المبنى الخلفى لمبنى إذاعة الشريفين ، إنه فندق الكوزمو بوليتان ، الذى يؤمه لفيف من الأدباء والفنانين ليمتعوا أنفسهم بالشرب فى قاعته الشرقية البديعة . خطر فى بالى أننى يمكن أن أحظى بالجلوس فى هذه القاعة ذات يوم بشرط أن يكون ذلك فى الصباح الباكر والقاعة فارغة إلا منى والهدوء يتسلل إلىّ عبر ثقوب السواتر الخشبية المشغولة بالأصداف بنفس طراز المقاعد والمناضد والأرائك الواطئة قليلا للإغراء بالجلوس طويلا ، ويكون أمامى على المنضدة أوراق ، والقلم فى يدى ، وفنجان القهوة بدلا من الكأس يؤنس وحدتى ، وعلبة سجائر كاملة ، فأظل أكتب وأكتب وأكتب إلى ما لا نهاية ففى قلبى كتابة لا حدود لها وإن كنت لا أعرف الآن ما هى على وجه التحديد ، كل ما أعرفه عنها أن النار تحتدم بأعماقى ، بصراعات عارمة ، ومصادمات حامية الوطيس ، ومآزق ومآرب ومحن ونبل فاجع وحزن عميق وأفكار تبرق فى ظلماء العناء تفتح الآفاق على مساحات شاسعة من حدائق تجرى من تحتها الأنهار .. ذلك حلم قريب المنال فيما يبدو ...

– «القهوة يابيه ! حضرتك قاعد فين ؟!»

مصطفى النادل يقف بجوارى حاملا صينية عليها فنجانان . فوجئت به ، ارتبكت . تذكرت أننى طلبت منه هذه القهوة منذ وقت مضى فلم يتلكأ كما كنت أتوقع ، لأننى فيما يبدو مرتبط بصديق كنت أجلس معه منذ قليل فى الشرفة

الحميمة المطلة على شارع علوى ، وفيما يبدو أننى استأذنت منه لأمر ما ، ربما لأدخل دورة المياه ؟ ربما أكون قد دخلتها بالفعل منذ برهة ؟! الواضح أننى أهملته منذ فترة طويلة حتى نسيته ، ولولا حضور القهوة ما تذكرته ، الواضح أننى كنت عظيم الشك فى مجئ القهوة ولهذا تركت نفسى على مشارف الهرب ن الحرج أمام الصديق . جال بخاطرى أن صديقى الذى لابد أنه فى انتظارى . شك معه سجائر . أشرت بيدى لمصطفى النادل أن اتبعنى ، ومضيت إلى الشرفة الحميمة . لأول وهلة لم ألمح أحدا ، فلابد إذن أنه استغيبنى فانصرف غاضبا . شعرت بكثير من النكد والكآبة ، لكننى انتبهت على صوت طرقعة أصبعين مع بسبسة تنادينى ، فانشرح صدرى واندفعت مسرع الخطى . كان صديقى الحميم ، الممثل الناشئ «بشير القلينى» ، الذى ينتظره مستقبل باهر كمشروع نجم كبير ، نمط من الفتيان الأول ذو طعم خاص غائب عن السينما والمسرح ، خمرى اللون بعينين ملونتين فى وجه دائرى صارم الملامح جاد القسمات بما يخفى ذلك المهرج العظيم بداخله ، ربعة القامة رشيق القوام ، يرتدى أفخر الملابس وأبسطها ، القميص والسروال فحسب فى الصيف ، يضاف إليهما بلوفر فى الشتاء مع كوفية كنزة ، لكن القميص دائما أبدا فريد فى تفصيلته ، والبلوفر دائما أبدا وارد سان مايكل لم ينزل مثله فى القاهرة بعد ، وألوانه دائما رزينة ، فيها شباب ورصانة وسخاء وأبهة . تخرج فى كلية آداب القاهرة قسم الفلسفة ثم تخرج بعدها فى معهد الفنون المسرحية قسم التمثيل فأصبح يحمل مؤهلين عاليين فوق موهبته الفطرية الفياضة . بهرنى من أول ما رأيته فى النادى ذات يوم بعيد إذ كان أول ممثل أراه ممسكا بآخر رواية لنجيب محفوظ ، كانت هى القنطرة التى ربطت بيننا فى صداقة عميقة ، إذ شملتنا أخوة القراءة الأدبية واتفاق مزاجنا فى حب يوسف إدريس وصلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى . هو عضو بفرقة المسرح

القومى ويلعب أدوارا صعبة باللغة الفصحى فى مسرحيات البرنامج الثانى ، ويراهن عليه بعض كبار المخرجين فى أدوار بطولية سينمائية فى القريب العاجل. يؤمن بمواهبى أكثر مما أومن بمواهبه ، كثيرا ما يتكلم عنى على ترابيزة البروفات محاولا إغراء المخرجين بتكليفى بالكتابة لهم ..

ها هو ذا يستقبلنى ساخرا : «إنت رحت تشترى البن ولا إيه ؟ خليتنى سبت البروفة ! تعزمنى على فنجان قهوة وتهرب ؟! ولا كنت بتتفاوض على تمويل السد العالى ؟!» . قلت ضاحكا : «أنت تحب التزويغ من البروفات !» . كان موليا وجهه نحو ركن ، وقد فرد ساقيه على مقعد مجاور ، ودكن يديه فى حجره بحركة سرية مع أن النوادل وأنا وربما كل من فى النادى يعرف أنه يبرم قطعة حشيش كالفتلة لينزع المسمار من قلب السيجارة ويسقطها فى الفراغ الذى خلفه خروج المسمار . قلت على سبيل الترحاب : أهلا ! أهلا ! وجلست فى مواجهته . أعطانى السيجارة قائلا : «عندنا الليلة عزومة على كأسين من الويسكى فى مركب قاصد خير !» . قلت : «على بركة الله !» . مرت بجوارنا مؤخرة رهيبة ينسدل فوقها ثوب حريرى مشجر يشف عن نعومة اللحم وعريه . رفعت رأسى إلى الجذع الطويل البادئ من خصر ضيق كدبلة الخطوبة يتعاظم امتلاؤه عند الصدر الناهد والكتفين العريضين حيث ينزوى الثديان كل فى ناحية بينهما برزخ من الضوء الوردى مثير للجنون ، ينحدر البرزخ من عنق طويل ممتلئ بين شلالين من الشعر الأسود الفاحم منسدلين على الكتفين ، ووجه كالتفاحة بفم واسع وعينين واسعتين فيهما كل ملامح فتحة الفم . تلك هى «حمدية إسماعيل» الممثلة ، دخلت حقل التمثيل برخصة جانبية ، بحكم كونها زوجة سابقة لمطرب شهير دالت دولته وهو فى عز ازدهاره وكسدت سوقه بعد انتشار عبد الحليم حافظ وتوابعه . كان من الممكن أن يستمر نجما طول حياته لولا أنه كان على شئ كثير من الشراسة وخشونة الطبع والعدوانية ، مما جعل

دوائر التعاون معه تضيق شيئا فشيئا إلى أن اضطر للرحيل إلى الكويت تارة وبلاد الفرنجة تارة أخرى ليؤدى نمرا فى كباريهات باريس ولندن ويعود محطوما يفترسه المرض بعض الوقت ليصحو من جديد بفضل عناية زوجته الثانية الشابة التى تكلفه أموالا باهظة ، إضافة إلى أن زوجته السابقة حمدية إسماعيل تتقاضى نفقة شهرية تصل إلى مائتى جنيه وهو مبلغ كبير جدا ، إذ أن فى حضانتها ثلاث بنات منه . يعرف الجميع أنه طلقها لسوء سلوكها ، فهى امرأة شهوانية وهو ضعيف مهزول مشغول البال على الدوام وكان على ثقة من أنها تستغفله وتخونه مع شبان من الوسط الفنى وكبار التجار الملاحيس . بمجرد حصولها على الطلاق نزلت إلى الوسط الفنى تطلب أدوارا فى تمثيليات ومسرحيات وأفلام ، زاعمة أنها فى الأصل فنانة وأن زوجها هو الذى أقعدها المنزل يريدها جارية فحسب وأن هذا هو سر الخلاف بينهما وسبب الانفصال . وقد وجدت الأدوار فى انتظارها ، الفضل فى ذلك لمؤخرتها ، وعينيها ، ولسانها الزرب ، الذى لا يخجل من أى لفظ . فأينما أدارت مؤخرتها سال لعاب الجميع، لكن أحدا منهم لم يذق طعم لحمها ، لم يذقه إلا قلة محدودة جدا وبثمن باهظ يقصم الظهر . هى لم تعشق سوى صديقى «بشير القلينى» ، لفحولته البارزة ، وشبابه الغض ، ولأنه - كما يشاع - يرضى فى نفسها نزعات معينة ويجيد العزف على أوتار تطربها وتسكرها . ثم إنها امرأة كيادة ، أرادت أن يتزوجها على سنة الله ورسوله ، لكنه عقلها بلجام ذى طرفين : إن زواجها يعطى زوجها السابق الحق فى حضانة الأولاد وسحب النفقة ، وإنه غير قادر ماديا على تعويضها ثم إن أمامه طريقا طويلا لم يبدأه بعد ولابد أن يمضى فيه متحررا من أى قيد . بناء عليه وافقت على أن تستمر العلاقة بينهما مجرد علاقة عشق ، لكن لكى تضمن ألا يلعب بذيله ويتركها إلى غيرها استكتبته إيصال أمانة بمبلغ مائتى الف جنيه وأخفته . الطريف أن علاقتهما هذه قد باتت معروفة كالماء

والهواء ، الكل يعرف أنها لا تبخل عليه بالمال ، ولا العزائم المتكررة فى أفخر المحلات ، كما أنه يستطيع انتزاعها من أى قعدة ليمضى بها إلى حيث يشاء ، ويمكن أن يشخط فيها فيسكتها ، أو يأمرها بالانصراف فتنصرف . إلا أنها مع ذلك قادرة على الهجمات المرتدة فى أى وقت تشاء ، وهجماتها المرتدة دائما فى منتهى الخطورة ، تستطيع أن تردح له بصوت عال فى أى مكان فى أى لحظة ، وأن تهد أناقته بجرة لسان ، وأن تفضحه ، إلا أن ذلك نادرا ما يحدث ، لأنه يعرف كيف يتجنب هجماتها المرتدة فى اللحظة المناسبة فيسارع بتطويقها وسد المنافذ أمامها ، قد يبقى عندها بضع ليال لا يفارقها ليل نهار حتى يخمد كل تأججها يستل سمومها ثم يرحل ليتفرج عليها مع الآخرين بعد ساعة وهى تخطر كالأوزة فى طرقات النادى مرحة مبتهجة سائلة سخية العطر والأنوثة ..

ها هى ذى الآن تروح وتجئ بجوارنا فى الممر ، تتمحك فينا ، تستلقط عينى لتفرغ فيهما نظرة ذات معنى فيما هى مرتدة تتبختر ، فعرفت أن الشقاق دب بينهما كالعادة ربما منذ ساعات ، وأن عزومة الليلة ستكون على حسابها لتصفية الخلاف المزعوم وأننا سنقضى سهرة مليئة بالصداع والمناقشات البيزنطية التى تنتهى من حيث بدأت وتبدأ من حيث انتهت وتظل تدور فى الفراغ ، والتى لابد تنتهى بأن يقوم معها إلى بيتها فى حى الدقى ، لأبقى أنا ومن تصادف أن كان مشاركا لنا ، نشرب بقايا الكئوس ، وأكون فى العادة آخر من ينصرف ، ربما بعد الفجر .

تفرجت على القبة المفلوقة وهى تعلو وتهبط فى سحر خرافى ، وعلى الجذع الذى يختلج كلما انشد فى خطوة قدم ، وعلى سمانتى ساقيها المسحوبتين كانسياب الضوء كقرطاس من أشعة رخامية ، وعلى الكعبين المدورين . شعرت بأننى أحسد صديقى بشير القلينى على هذا الكنز الثمين . أحس هو بذلك ، قال مع ابتسامة ذات معنى :

- «لو كنت تستطيع تخليصى منها فهنيئا لك ! فليهنأ بها كل من هو قادر على تخليصى منها بالرضا والتسليم ! لقد أصبحت لى مثل قدرى الذى لا مفر منه ! لكننى سأعرف كيف أتخلص منها عن قريب !» .

اتسعت عيناى دهشة وربما حقدا :

- «ذلك هو البطر بعينه يا بشير ! هذه أول مرة أرى رجلا يحلم بالخلاص من الجنة الفيحاء !» .

فى زهو شديد قال :

- «لكل شئ ضريبة ! وهذه ضريبتها باهظة تقصم الظهر ! إنها تقريبا نصف مجنونة ! أحيانا تستل سكين المطبخ لتمزح معى بها فى لحظات المرح القصوى ! مرة أوشكت أن تغرزها فى جنبى بحركة هبلاء ! ليس ضيقا بى بل إعجابا مع الأسف ! عمرك رأيت واحدة تعبر عن إعجابها بمثل هذا العنف ؟! ثم إنها ترهق جدا فى النوم ! إنها بصراحة لابد أن تغتصب ! لابد أن يكون بالك طويلا وأعصابك من حديد وكذلك ذراعيك حتى تقدر على اغتصابها وتتحمل عضها وخرابيشها ونباحها وصواتها مثل كلبة منحرفة المزاج ! إن لم تقدر أنت على ذلك فإنها تخترع لك أسبابا للخلاف تؤدى إلى عراك يتطور إلى التماسك بالأيدى فاستنفار الغضب فاستخدام القوة الغاشمة !! منتهى لذتها أن تستسلم لك بعد أن تهد قواها من الضرب المبرح تفكها من بعضها لتعيد تجميعها من جديد على هواك وهى بين يديك ! متى ما صارت هكذا فحدث ولا حرج ! قل يامغيث ! لا أستطيع وصف النشوة التى تسببها ! لكننى أكون قد انهرت من التعب ولهثت وتبددت قواى فيجئ اللقاء سريعا خاطفا كلسعة النار ! فيتعين علىَّ أن أوصل اللقاء الثانى فى الحال بأى شكل قبل أن تبترد وتلزمنى جهدا جديدا !! لكم تمنيت تحت وطأة خاطر خبيث أن يسبقنى إليها من يقوم بهذه

العملية التمهيدية البشعة بشرط أن ينصرف فى الحال لأدخل أنا على الأكل وهو ساخن بنار الفرن !! أصل الحكاية فيما فهمت منها أنها اغتصبت وهى طفلة فى التاسعة من عمرها !! هى سكندرية من أب مصرى وأم مالطية ! أبوها قبطان سفينة ركاب أجنبية تعمل على خطوط طويلة فى أعالى البحار فكان أبوها يأخذها معه فى الاجازات الصيفية مع أمها ! ثلاثتهم ينامون فى قمرة واحدة وأبوها سكير قرارى وزئر نساء لا يهمد ! فتظل هى طول الليل تسمع سمفونية النشوة من أمها فتتقلى على جمر النار ! فى أحد الموانئ الإيطالية تعرفت على ضابط بحرى ألمانى من أصدقاء أبيها استنفرت رجولته حتى اغتصبها فى نادى البحرية فى الميناء ! من يومها وهى تشعر بالذنب بقوة الشعور بالخطيئة لكنها فى أعماقها البعيدة ترغب فى تكرار الخطيئة بنفس الفنون على شرط أن تكون مغلوبة على أمرها !! لابد أن تشعر أن الأمر تم بالقوة رغما عنها وبدون إرادتها !! المدهش أنها حين تسكر تعترف بأشياء كهذه من خلال الثرثرة التى تموت هى فيها !!»

لم يدر صديقى بشير أنه أشعل جسدى من حيث أراد تزهيدى فيها وهكذا تلقفت عينيها وهى عائدة ، فتلقفتنى بابتسامتها العريضة وفى عينيها سؤال واضح : هل شبعتما من الودودة عنى ؟! فاستأذنت من بشير ومضيت خلفها ، فنادانى قائلا فى همس : «كل مهمتنا الليلة محاولة انتزاع إيصال الأمانة منها بأى شكل ! لابد أن تدبر خطة لذلك من الآن ! لن أذهب معها إلى البيت إلا بعد أن تسلمنى وصل الأمانة فإن ادعت أنه ضاع منها استكتبناها ورقة مضادة !» . قلت باستعجال : «سنرى ذلك !» ، وتبعتها فلحقت بها ، بجرأة حسدت نفسى عليها طوقت خصرها بذراعى ماضيا بجوارها فلم تعترض ، بل انتحت بى ركنا قصيا مطلا على شارع الشريفين وقالت لى :

– «ماذا كان يقول لك هذا الولد ؟!» .

قلت : «لا شئ ! كنا نتفق على سهرة !»

قالت بذعر : «إنه الليلة محجوز !»

قلت : «على مركب قاصد خير !»

قالت : «نعم !»

ثم ابتسمت ، وقبل أن تستأنف الكلام جاء مساعد المخرج فناداها فقالت لى : «جاية لك حالا !» . ثم مضت تتبختر مثل الباليرينا فى بحيرة البجع . ومضى عقلى يتبختر وراءها حتى اختفت ..

ارتكنت بمرفقى على حافة السور ملقيا بصرى على شارع الشريفين ، فرأيت على ناصيته الواقعة على شارع قصر النيل بائع الجرائد بفرشه الكبير ، فتذكرت أن له فى ذمتى خمسة وسبعين قرشا وأنه كف عن مطالبتى وعن توعدى بعد أن وقف على حقيقة الحال . توقف عنده «ربحى عزيز» ، قصير القامة الذى يعمل ناقدا سينمائيا بجريدة أبى الهول ، ويكتب البرامج الخاصة ويترجم المسرحيات لإذاعة البرنامج الثانى فيكسب الكثير ولا يمشى إلا حاملا تلا من الكتب والمجلات الإنجليزية والفرنسية ، ليجلس فى أى مكان ، وفى الغالب على مقهى الحاج أو فى قاعة الكوزمو بوليتان فيكتب ويترجم أشياء ستذاع بعد ساعات قليلة . فكرت أن أناديه من فوق السور ليصعد ويكتب فى النادى لعلنى أتمكن من أن أقترض منه خمسين قرشا أدبر لاقتراضها منه منذ شهور طويلة ولم تأت الفرصة بعد رغم أننى أستشعر سهولة ذلك بالنسبة له ، لكن الصعوبة هى أننى لا أفلح أبدا فى النطق كلما عزمت على ذلك ، وفى ظنى أن وجودنا معا فى النادى وحدنا قد يعطينى بعض الجرأة . فكرت أن أزوغ من صديقى بشير مكتفيا بموعد المساء ، لأنزل فألحق بربحى عزيز وأمضى معه إلى حيث هو ذاهب كما يحدث دائما كلما إلتقيته . مع يقينى بأن الواقف فى

الشارع لا يستطيع رؤيتى جيدا فإننى شعرت - بقلب فزع - بضرورة الاختفاء خلف السور فورا ، إذ رأيت «أحمد ابو خربوش» المحرر بجريدة مسائية ، الذى لا يعرف الفرق بين الألف والنبوت ويتسكع طول النهار فى الوسط الفنى بحثا عن أخبار ملفقة يكتبها له ناس عن أنفسهم ، ويلجأ إلىَّ كثيرا لكى أعيد صياغتها له ، وألجأ إليه بدورى كلما تعبت من المشى بقرب الجرنان فأصعد إليه لأستريح وأشرب كوبا من الشاى . هذا الولد لا مانع لديه من أن يبيع أباه نظير مكسب مهما ضؤل حجمه ، وقد اخبرنى مؤخرا أن البوليس قد سأله عنى بإلحاح وأنه أنكر معرفته بى ، وقال إن ضابط مباحث قسم الأزبكية استدعاه وقرره بكل المعلومات التى يعرفها عنى ، وأوصاه بأن يبلغهم إذا رآنى فى أى لحظة فى أى مكان . ظننت أنه يهرج أو يقصد إبعادى عن الجرنان حتى لا أكلفه شايا إذ هو شديد البخل شديد الحقارة ، لكننى سرعان ما تذكرت أن «ربحى عزيز» نفسه أخبرنى أنه تعرض لنفس الموقف بسببى وبسبب اثنين من زملائه وأصدقائه ، إلا أن «ربحى» بحكم مركزه وقوة شخصيته واتصالاته بشخصيات كبيرة استطاع أن يلم بحقيقة الموقف ، وبلهجة ذكية جدا لمح لى - دون أن يتورط فى الإفشاء أو الاعتراف - أن الأمر بالنسبة لى - ربما - يكون بسبب علاقتى الوثيقة ببعض شعراء العامية الذين قبض عليهم أخيرا بتهمة الشيوعية مع لفيف من الكتاب الشبان ، وأننى لا يجب أن أستسلم للذعر أو الخوف حتى لو قبضوا علىَّ فإن الأمر لن يتجاوز الاستجواب خاصة أننى لست أمارس أى نشاط جماهيرى . أذكر أننى سألت ربحى : «وأنت ما رأيك ؟ هل أسلم نفسى ؟!» قال بسرعة «إياك !» ، ثم أضاف بلهجة ذات معنى يختبئ فى ابتسامة غامضة : «فى المقبوض عليهم ناس فرحوا بشدة من القبض عليهم لأنهم أخيرا قد حصلوا على البصمة التى تدرجهم ضمن المناضلين بشكل رسمى ! لقد حصلوا على الشهادة التى يتاجرون بها فى الوسط الثقافى ومنهم

صديقك إياه الذى لا داعى لذكر اسمه !» . ويبدو أنه رآنى فى حيرة ، فقال بجدية : «اسمع ! هل أنت شيوعى ؟!» . قلت فى شئ من التردد : «فى رأسى بعض أفكارهم !» سألنى بنفس الجدية : «فهل تؤمن بهذه الأفكار ؟!» قلت «أحبها !» قال : «إذن فانتظر حتى يقبضوا عليك ! وعليك أن تواجه الأمر بشجاعة !» . قلت بشئ من الخوف : «لكننى لست مشتركا فى أى تنظيم أو جمعية ! كما أننى لا أمارس هذه الأفكار ولا أعمل على نشرها ! ولست أحب أن أسجن فى سبيل قضية هلامية ؟» . قال ببساطة : «إذن فعليك بالاختفاء الآن من القاهرة حتى يهدأ الحال ! إنهم يقبضون على الشبان الجدد بالذات بطريقة عشوائية بحثا عن معلومات جديدة تفيدهم ! الهرب فى هذه الحالة أفضل ! لأنهم سيورطونك فى اعترافات غير مضمونة العواقب ! ولابد أن يستدرجوك فى كلام يضر أصدقاءك !» شعرت بوجاهة رأيه ، فقررت الاختفاء بأى شكل ....

.. رأيتنى أمضى فى حارة ظلماء كالجب ، ثم رأيتنى فى حجرة سرعان ما عرفت أنها حجرة صديقى السكندرى «إبراهيم الفجلاوى» ذلك الاستورجى الذى كان يكسب الكثير من صنعته فى تلميع الأثاث ودهنه وكان صاحب ورشة لا بأس بها إلا أن موهبة الزجل عنده رشحته لكتابة الأغنيات الطريفة التى يستخدم فيها قاموس مهنته فى حديث العشق والهوى ، فأذاعت له إذاعة الإسكندرية المحلية بعض هذه الأغنيات ، فهداه طموحه إلى بيع الورشة واقتحام القاهرة ليدخل عالم الشهرة من أوسع أبوابه ، لكن الحال تدحدر به حتى سكن فى هذه الحجرة فى سفح منزل متداع من منازل حى معروف القديمة الصادر من المحكمة حكم بإزالتها ، خلف هيلتون النيل مباشرة ، لا تدخلها الشمس أبدا ، ولا الضوء ولا الهواء ، عطنة الرائحة لقربها من المرحاض الطافح ولامتلائها بالرطوبة حتى أن حوائطها تنضح عرقا غزيرا . كان مع ذلك سعيدا بها لقربها من جميع الأماكن خاصة مبنى التليفزيون الجديد على الكورنيش حيث بدأ يسعى للإلتحاق بوظيفة فيه فى قسم العرائس ، وكنت أدس أخبارا

فنية عنه فى الأخبار التى ألفقها لأبى خربوش ؛ فى مقابل أن أبيت عنده بعض الليالى ، ها هو ذا يستقبلنى فى توتر شديد وفتور مع أنه لم يرنى منذ ما يقرب من عام أو يزيد ، قال بلهجة خطيرة : « كويس أنى شفتك ! على فكرة ! البوليس جه سأل عليك هنا ! قلت لهم ما أعرفش عنه أى حاجة ! الكلام ده من مدة فاتت لكن أكيد لسه بيدوروا عليك ! » ، إبتسمت فى مرارة ، إذ انتبهت إلى أن الفجلاوى لضيق أفقه وانعزاله لم يعرف بعد أن الحكومة قد أفرجت عن أصدقائى الذين قبضت عليهم وأنها كفت عن البحث عنى ، بل لعله لم يعرف أصل الحكاية من أساسها ، مع ذلك تجاهلت كلامه ، وكان كل هدفى أن أروح فى النوم بأى شكل ، ولكن ، ترى ما الـذى يصيبنى بالإنقبـاض كلمـا جلســت فى هذه الحجرة ؟! أهو شعورى بأننى لا أجيئها إلا مضطرا كما يضطر الشريد إلى الترحيب بالمبيت فى تخشيبة قسم الشرطة ؟! أم لأنها جحر خانق تعشش فى جدرانه الفئران والسحالى والعرس والصراصير والعقارب ؟! سرعان ما تبين لى أن زمنا طويلا يقاس بالسنين قد مر وأنا فى نفس هذه الجلسة المتكورة فى نفس هذه الحجرة مع نفس هذه الكآبة ، حتى هذا الصراخ الذى بدأ يخرج من حلق حنجرة فزعة هو نفسه سمعته كثيرا من قبل ، مع ذلك انتفضت واقفا كالعادة ؛ صرت أنتفض من قمة رأسى إلى إخمص قدمى ، تبين لى أن الفجلاوى تركنى جالسا واندمج فى غفوة عميقة ، ظلام الحجرة يتكاثف يتموج يلمع كالقار يغلى فى قدر ، بفعل شمعة ذات ضوء مرمد فى ركن بعيد من الحجرة ، كان الصراخ الفزع يتوالى بغير توقف يرج الأرض رجا ، رأيت الفجلاوى متشنج الجسد كعرق من الخشب ينتفض وقد طوق رقبته بيديه إندفعت نحوه ؛ هززته بعنف ، إنتفض جالسا ثم واقفا على حيله ينظر حواليه ، رغم علمى بحقيقة السبب سألته «مالك يا جدع ؟» قال ما كنت أعرف ومالا يمل أبدا من ذكره : إن الثعبان كان يطوق رقبته منذ برهة ويضغط عليها حتى كاد يزهق روحه ، رحت من فزع أشب على أطراف أصابعى وقد تملكتنى الرعدة ،

أضيئت الحجرة ، ورمى الفجلاوى بزر الكهرباء الشبيه بالبلحة وقال : «تشرب شاى ؟»قلت : «أشرب ! » قال : « تذهب فتشترى لنا شايا وسكرا من آخر شارع معروف !» قلت «نحن على أبواب الفجر» قال : «ليس عندى سوى تلقيمة واحدة سأتركها للصباح ! » شعرت أنى يجب أن أقوم الآن لأنصرف ؛ لكن السماء مالبثت حتى أرعدت وزمجرت ثم انهمر وشيش انهمال المطر ، قال : «كيف رأيت الجو وأنت قادم ؟! » تفكرت قليلا ؛ تذكرت أن الجو كان شديد الحرارة خانقا ؛ تذكرت أننا فى عز الصيف ؛ تذكرت أن حصيرة الصيف واسعة ؛ تذكرت أن بهمة الليل قد مضت ، قررت أن أخرج من هذه الحجرة مهما كانت العواقب وخيمة ..

كانت شوارع وسط المدينة كلها مطفأة تبينت أن الفجر الذى أدركنى فى حجرة الفجلاوى كان فجرا كاذبا ، وأن الساعة لم تكن الخامسة صباحا كما قرأتها فى ساعة يدى بل كانت الثانية عشر والثلث ، بعد منتصف الليل بثلث ساعة فقط . كرهت هذه الساعة التى تخدعنى دائما بعقربيها المتساويين فى الطول حتى لا أستطيع التمييز بين عقرب الدقائق وعقرب الساعات فأخلط بينهما فى كثير من الأحيان . الناس فى شارع سليمان يتخبطون على ضوء ذبالات زرقاء اللون تنبعث من هنا وهناك ، وثمة من تنشق عنهم الأرض فيصرخون فى وجه أى ضوء أهوج فينطفئ فى الحال . فوانيس السيارات وفوانيس الشوارع كلها مدهونة باللون الأزرق ، الحياة كلها مدهونة بالأزرق القاتم . صوت المدافع والطائرات الحربية مازال يرعد فى سماء القاهرة منداحا فى الأفق البعيد ليرتد عائدا من جهات متعددة ثم ما يلبث حتى يتضاعف

ويزداد قوة وكثافة فتتزلزل الأرض بزلزال عنيف مدو فلا نعرف إن كان الرعد هابطا من السماء أم صاعدا من الأرض . وكان من الواضح أن جعبة يونيه اللعين لم تفرغ بعد من أسرار النكسة ، وأن النكسة ليست مجرد نكسة ، وأن الآلاف مثلى يتعرضون الآن للقصف المدمر فى العراء ، وأن جميع الأفراح مؤجلة إلى أجل غير مسمى . اخترقت ميدان طلعت حرب الغارق فى الظلام ، فوجئت بالحاج مدبولى يفرش كتبه وجرائده على الرصيف وقد غطاها بالمشمع وجلس بجوارها مع بعض صبيانه . العجيب أنه رغم الظلام والرعد والتوتر كان هناك من يسأله عن أسماء بعض الكتب وهو يؤكد أنها موجودة لكن البيع لا يتم إلا فى النهار . جلست بجواره على الرصيف فوق تل من الجرائد المحزمة بالحبال . قال إن هناك من سأله عنى وترك لى قصاصة ورق معه ، ودب يده فى جيب الجلباب فأخرج رزمة من النقود والفواتير والأوراق استطاع أن يميز بينها فى الظلام وأن يسحبها ويعطيها لى قائلا : تعال جوه ، وسحبنى إلى مدخل العمارة التى يفرش أمامها حيث انزوينا فى ركن خلف الباب ليشعل سيجارة له وأخرى لى كى أتمكن على ضوئها من فض القصاصة . اكتفيت بقراءة توقيعها فإذا هو توقيع المهندس مختار الحبّاك زميل الصبا فى القرية ، الذى يعمل مهندسا بشركة السكر ، يقول إن الجيش طلبه مع الرديف ، وأنه كان يود أن يرانى قبل رحيله . وضعت القصاصة فى جيبى برفق كأنها زجاجة أخشى عليها من الكسر ، ثم انتظرت حتى أجهزت على السيجارة خلف درفة الباب ، ثم خرجت أدب فى الظلام على غير هدى . وكنت ألاحظ أن قدمى تقودنى إلى شارع الشريفين على الرغم من يقينى أنه ليس فيه ثمة من ملاذ .

- ١٦ -

فض اشـتباك الجفـــون

.. رأيتنى معلقا بيدى فى قضيب معدنى يتدلى من سقف «الأتوبيس» الغاص بكتل بشرية تعجن بعضها بعضا وتعصر نفسها عصرا . وكان المحصل اللعين قد نجح فى اختراق كل هذه اللحوم البشرية وصار على مقربة منى ، وكان يضرب سقف «الأتوبيس» بيد القلم المعدنية ضربات مقرعة تصم الآذان يقصد بها تنبيه الركاب إلى وجوده .

حريف أنا فى فن التزويغ من محصلى الناقلات العمومية بوجه عام . فى البداية كنت أحرص على القرش فى جيبى تحسبا لحالة الوقوع فى مأزق اللامفر من قطع التذكرة غير أنى كنت أضن به على هيئة النقل التى تمتهن آدميتنا وتأخذ فوق ذلك أجرا . ثم بات عدم وجود القرش أصلا حافزا أقوى لركوب «الأتوبيس» متحديا وليكن ما يكون . شيئا فشيئا بدأت أستمتع بالتزويغ حتى لو توفرت بجيبى قروش عدة . صرت أتفنن وأخترع أساليب جديدة فى فن التزويغ ، صرت أكثر سخرية من المزوغين المبتدئين الذين يمارسون أساليب بالية متخلفة تدفع المحصل إلى التشكك فيهم ، كأن يهرب الواحد منهم من نظرات المحصل ويتجاهل وجوده تماما ، أو ينظر من الشباك منهمكا فى اللا شئ ، بعضهم ينتهز فرصة اشتباك المحصل مع أحد جيرانه فيجئ هو فى

صف المحصل على طول الخط ويدافع عن حقه بشكل مبالغ فيه اعتمادا على أن المحصل سيخجل بعد ذلك أن يسأله عن التذكرة وإن سأله فبشكل عابر ترضيه أى إجابة ، بعضهم الآخر يرى أحد الجالسين بعيدا يمد يده بالنقود فى اتجاه المحصل فيتطوع هو بأخذ النقود وتوصيلها للمحصل الذى يعطيه التذكرة فيتلكأ فى تسليمها لصاحبها بهدف التمويه على المحصل ، وحينما كان المحصل يلح فى النداء على بعض الشاردين قائلا : تذاكر يا أفندى ، فينجعص هذا قائلا فى ثقة شديدة : أبونيه .. حينئذ أعرف أنه من عتاة المزوغين فى حين قد يبلعها المحصل . أما أنا فما يكاد المحصل يقترب منى حتى أركز عينى فى عينيه بقوة وجسارة متجاهلا مسألة التذاكر هذه كأنها شئ لم أعرفه فى حياتى ، فأحيانا يتجاوزنى ، وأحيانا يسألنى عن تذكرتى ، فأهز رأسى فى ثقة تامة ودودة ومبتسمة قائلا : خلاص يا حبيبى - ثم أشفع ذلك بنزع كفى من القضيب الحديد وتعريضها له لكى يرى تذكرة مبرومة بعناية ومحشورة فى عروة ساعتى، وهى فى الواقع تذكرة قديمة أحتفظ بها جديدة على الدوام إذ كنت بارعا فى التقاطها من أى مكان ، فإن بليت ولم يكن معى غيرها فإننى أهز رأسى دون اهتمام قائلا : أبونيه يا حبيبى، ثم أبالغ فى صلب نفسى على القضيب الحديدى المحاذى للسقف ليرى هو كيف أننى مشغول وغير قادر على استخراج «الأبونيه» . وكنت دائما أدخر سلاحا أخيرا فى جعبتى هو قدرتى على التمثيل المتقن وهو سلاح لا أستخدمه إلا عند الزنقة الشديدة إذا ما أصر المحصل على رؤية «الأبونيه» ، إذ أروح أتحسس جيوبى فى اضطراب مفاجئ ثم أبدأ فى إزاحة من حولى بحركة مسرحية وارتياع مبالغ فيه لكن بإتقان يوازنه ، انظر فى الأرض وفى المحيطين بى نظرات تستغيث تارة وتتهم تارة أخرى وقد تتصافق بعض الشئ تصافقا يعقبه جر ناعم ، أملأ الدنيا صياحا بأننى قد

نشلت ، محفظتى بكل ما فيها ضاعت يا ناس خلوا فى قلوبكم رحمة ويا أيها السارق حلال عليك المحفظة بفلوسها وارم بالأوراق التى فيها على الأرض ينوبك ثواب ينشغل الركاب لبرهة طويلة أكون خلالها قد تزحزحت شيئا فشيئا نحو أقرب باب ، فما يكاد المحصل يمر معطيا إياى ظهره حتى أكون قد انتهزت فرصة محطة قريبة فأهبط منها خلسة لأتصيد الأتوبيس القادم . المرات التى تعرضت فيها للتهزئ كانت قليلة ولست أذكرها . بل لست أذكر أننى تألمت ذات يوم لمرأى واحد من هواة التزويغ المبتدئين حين يقع تحت طائلة التهزئ ويصبح منظره هو المهانة بعينها ، يحلو لى حينئذ - بسفالة لم أكن من أهلها أبدا - أن أشارك فى تهزئ المتهزئ مع الآخرين ، ربما لأدارى بذلك ارتكابى لنفس الجرم، إنما الذى بقى يؤلمنى حقا هو هذه الدقات السخيفة الملحاحة بيد القلم الحديدية على سقف «الأتوبيس» . كل دقات تعطى صوتا كصوتها كفيلة بوضعى داخل «الأتوبيس» على الفور ، حيث تظللنى خيمة من الخوف أمقتها وأمقت «الأتوبيس» كله بركابه وأصحابه !..

ولاح لى أن كل هذه الأفكار والتخوفات قد ودعتنى منذ بضع سنوات ، ولاح لى كأننى كنت قد هجرت ركوب عربات النقل العام بجميع أنواعه لأننى - فيما بدا لى وأنا مصلوب لاأزال على قضيب من الحديد المعدنى الأملس - كنت قد صرت من ركاب السيارات الخاصة !.. ثم عبرنى خاطر سريع امتعض له قلبى ونشف ريقى إذ أننى لا أتذكر شكل سيارتى الخاصة هذه مثلها مثل الأمنيات الكثيرة الحميمة التى لم أعد أعرف إن كانت تحققت لى بالفعل أم هى مجرد وهم وأضغاث أحلام ! . ثم لاح لى أننى أشغل ذهنى الآن بأى أشغال تصرفه عن التفكير فى أمر المحصل الذى كلما اقتربت دقاته هبط قلبى بين الأقدام . سرعان ما لاح لى كأننى الوحيد المصلوب فى هذه الناقلة فحاولت

التلفت يمينا أو شمالا فلم أتمكن من ضغط أجساد غير مرئية ولكننى أشم رائحتها وأشعر بنبض عروقها فوق صدرى وظهرى وجنبى وحتى ذراعى المشبوحتين ..

لاح أننى ارتب نفسى للقاء بالمحصل وكان من الواضح لى أننى منذ عهد طويل طويل لم ألقه حتى صدئت محاولاتى وقلت ثقتى فى نجاحى ، وكان ثمة ما يشبه اليقين فى قرارة نفسى أننى قد صرت أقل صفاقة عن ذى قبل بكثير جدا، وأن جانبا عظيما من الحياء والوقار قد أضيف إلى شخصى لاأدرى له سببا ، مع أن رجرجة «الأتوبيس» وانهراسى بين كتل اللحم لم يكن يحفظ لى أى حياء أو وقار بأى درجة ! ..

ثقل رأسى وازداد ثقلا وصرت أشعر كأنه عبء داهم الوطء على جسدى المسحوق تماما والضائع تماما بين عشرات الساحقين المسحوقين كرها وبرغمهم. وكانت دقات القلم على السقف الخشبى قد صارت تثقب فى أذنى مباشرة حتى لينتفض منها كل عرق فى عروقى ..

فتحت عينى بصعوبة شديدة .. فإذا بى جالس فوق كرسى من الجلد وثير ، أمسك بيدى صحيفة مفرودة تبينت أننى كنت أتصنع الاندماج فى قراءتها فى حين أننى استخفى بها عن عين الجرسون ريثما أخطف لى لحظات من النوم .. وكان الجرسون اللعين لا يزال يطرقع بالملعقة على الصينية بجوار أذنى يستهدف إيقاظى ، وكان انتزاعى القهرى المفاجئ من بحر النوم العميق القرار قد علق روحى بأنفاسى لبرهة وجيزة وأصداء صوت الطرقعات تزغدنى بقسوة فى دماغى الذى بدا لى كالبيضة أم رشت عجينة متكورة . استدركت نفسى موهما إياه - بوجه كالح - أننى يقظ ولم أنم ! .. ينصرف ملقيا علىَّ

نظرة فيها كثير من التأفف المتمسك بأهداب التهذيب . ظللت لبرهة طويلة جدا أموه عليه بكثرة الكح والاعتدال فى جلستى وتصفح الجرنان باهتمام شديد ثم سرعان ما انزلق غارقا فى بحر الظلمات ..

أرانى متربعا تحت شجرة التوت الممتدة فروعها فوق باب وشباك منزلنا فى البلد وظلها عتيق عمره مائة عام صادق خلالها قوافل الرياح من جميع الاتجاهات يستقطب ودها يستضيفها على الدوام فتملأ له الدنيا زفيفا وأنسا وبهجة ومودة وأحلاما رائقة فلا تعرف إن كان ذلك صادرا عن الأضياف أم عن الأعشاش الكثيرة المتوطنة بين الفروع سنوات طويلة . وكنت لحظتها متمطرقا على مصطبة لصق جدار الدار والفروع تصفق بأوراقها فى سرعة نشوانة تسعى لبلوغ ذروة من النشوة طويلة النفس لا حدود لها وتنثر فوق رأسى وحوالىَّ زفيفا وثمار توت جافة وناضجة فيما أنا على برزخ من الرغبة فى نوم لذيذ والرغبة فى يقظة ألذ .. وإذا بطلقات الرصاص تندلع فوق رأسى مباشرة تفزع منها العصافير والرياح والفروع والأوراق ويمتلئ الهواء النقى برائحة البارود الخانق ..

سقطت رأسى على صدرى فاعتدلت فى الحال قبل أن يضبطنى مراقب مجهول ، وقد حلا لى أن أتجاهل طرقعات الجرسون الواقف بجوارى يواصل الطرقعة فى إلحاح ينطق رنينه بالنذير الأخير فى مجال الحوار المهذب . أحسستنى أستند على الترابيزة الفورمايكا الأنيقة بكوعى فى وضع مريح قليلا، مداريا وجهى بجريدة أغلب الظن أنها جريدة الأهرام بتاريخ قديم تهدلت صفحاتها واسودت وآبت إلى أضلاع من التثنى والتكسر ، وكان منظر الأهرامات الأحمر يطالعنى كلما انفرجت جفونى فيداخلنى مزيد من الإعياء ، أحاول التيقظ بالقراءة فتمر عينى على كلمة بصراحة وتحتها إسم ورسم محمد

حسنين هيكل ! أتذكر أنه يتحدث عن أزمة المثقفين وأننى قرأت هذا الكلام عشرات المرات ، أتذكر أننى أحتفظ بهذا الملحق من أجل مقالة للدكتور «لويس عوض» لا أذكر ما هى على وجه التحديد ، أتذكر أننى لم أحتفظ بأى شئ طول عمرى ، بقايا ثيابى مودعة فى حقيبة «هاندباج» أمانة لدى أحد الأصدقاء فى مدينة ما كنت ذات يوم مقيما بها ضمن رحلة الوصول إلى هذه المدينة العاصمة الكبيرة لسبب لم أعد أدريه على وجه التحديد ولغاية - لا شك كانت هامة وحميمة - لم أعد أعرف عنها سوى أطياف غامضة تتضح أحيانا وتنبهم فى معظم الأحايين ! ..

بذلت جهدا جبارا لكى أرفع رأسى وأسنده بين كتفى فى وضع رزين كبقية عباد الله الجالسين أمامى الآن فى بوفيه المحطة ، فكل الذين جاءوا هاهنا الآن هم فى الأصل مسافرون بعد برهة تقصر أو تطول ، هم لهذا على يقظة تامة ودائمة تلتقط صفير القطارات فتنهض فى لهوجة وهرجلة جامعة حقائب وأسبتة وأشياء وأطفالا صغارا . صار من الواضح لى أننى أختار هذا البوفيه لأنه يسهر حتى الصباح متوهما - بعشم إبليس فى الجنة - أننى قد انتهز فرصة الهرجلة واللهوجة المتجددة كل حين لأغفو قليلا من وراء ظهر القوم الذين هم جميعا وبلا شك يتميزون عنى بأن لهم مخادع فى مكان ما من هذه المدينة أو غيرها سيخلدون إليها بعد حين أما أنا فليس لى ثمة مخدع فى أى مكان على الإطلاق ، غير أننى لم أكن أتوقع أن هذا الجرسون الطيب المهذب جدا يمكن أن يقسو علىَّ إلى هذا الحد الكريه ! ..

صار من الواضح أن الجرسون يترصدنى عن عمد بعد انصراف القطار الفاصل بين شقى الليل وخلت قاعة البوفيه العريضة المترامية المزدانة بترابيزاتها وكراسيها الجلدية الوثيرة المضيافة الحنون وأرضها الناعمة المزينة

بمربعات ملونة من الخشب الرقيق الأملس ، وبدا أن الجرسون لم يعد وراءه من عمل سوى فجاء وارتكن بمؤخرته على الترابيزة المقابلة وأشعل سيجارة وشبك ذراعيه على صدره وراح يدخن فى فروغ بال ونظراته كالمغناطيس تتصيد عينى كلما انطبقت جفونى على بعضها ، فكان لزاما علىَّ أن أظل مبحلقا فى وجهه وتمنيت لو أن معى سـيجارة إذن لأشـعلتها الآن فى مواجهـته وصـحصحت بهـا عينى ..

لاح لى الجرسون طيبا ما فى ذلك شك برغم ذلك . طويل القامة هو ، رفيع مستطيل الوجه والأنف واسع الفم بشنب غنجه ، حليق الذقن يربط حول عنقه ما يسمى بالـ «بابيون» الأسود ، يضع يده دائما فى جيب المريلة الأنيقة البيضاء حيث تشخلل البرايز والشلنات ! ..

لاح لى كائننى واثق من أن الجرسون الطيب لن يقل بأصله معى ، لن يطردنى صراحة على الأقل .. ثم اتضح لى أن الجرسون لن يفعل ذلك احتراما لى فأنا فى الواقع لا أدفع بقشيشا بل لا أدفع أصلا ! .. ثم اتضح لى فجأة أننى جالس هاهنا بحجة انتظار ذلك الرجل الذى يحترمنى الجرسون إكراما لخاطره ، إنه «كامل بيك عبد الغفار» ابن الناس الذوات فى أقاليم المنوفية ذوى الأملاك الشاسعة العريقة ، هو شخص كما قالب السكر المحمر ، طويل سمهرى فى قوامه نبل ورجولة وإقدام واستئمان واسع النطاق ، أنيق الملبس على الدوام، فى عقد الثلاثينـات من عمره ، على ثقافة مبهرة حقا يحمل على الدوام ذخائر من الأداب الأجنبية الثمينة بلغاتها الأصلية حيث يجلس ونحن من حوله يقرأ علينا ما استحسنه من روائع شيكسبير ودموع تشيكوف وملهاة بلزاك ومآسى ديستيوفسكى وأشعار بيرون ، يقرأ ويترجم لنا ويرسم الحدود الفاصلة بين الفن الردئ والفن الجيد ، يتجلى فتتساقط من فيه الدرر الثمينة التى نحس فور

استماعنا لها أننا قد صرنا من المثقفين الأصلاء ، ينتهز الفرصة ويمتدح عملا فنيا لواحد ممن يجلسون معنا فى أواخر الليالى فى ضيافته طوال الجلسة لا يد تعلو على يده لدرجة أن من يمعنون فى التهذب معه وتوقيره لا يجرؤون على إخراج علب سجائرهم فى محضره إذ أن الترابيزات المضمومة أمامنا على شرفه منثور عليها عشرات من العلب المفتوحة تنادى المدخنين ولا تفرغ مهما أحلو الكلام وتواتر التوليع بدون وعى ، ونحن نسمع فى كل حين أن فلانا وعلانا من لوامع الشبان فى القصة والشعر والمسرح والنقد من تلاميذه وإن كانوا أكبر منه سنا ، أحس بمواهبهم منذ وقت مبكر واقتنع بها فاحتضنهم وصار ينفق عليهم بكرم لا مزيد عليه ويتوسط لهم لدى أصدقائه من رؤساء التحرير والهيئات لكى ينشروا لهم إنتاجهم وقد ينشر لأحدهم كتابا على نفقته الخاصة ويسعى لدى النقاد وأصحاب العواميد كى ينظروا له بعين الرعاية ، وهو يعرف أن شبانا كثيرين ينصبون عليه فيقترضون نقودا كبيرة ينقذون بها أنفسهم من كوارث مزعومة ثم يختفون لأشهر طويلة فيظل هو يواصل السؤال عنهم فى ود ضاحك ساخر دون أن يصرح بشئ لكنه يجعل من أمرها أنسا حقيقيا ولكننا نشعر بألمه حين تجمع الصدفة بينه وبين أحدهم فيروح يقرعه على ضيق أفقه ولابد أن ينهى اللقاء بأن يعزم عليه بنقود أخرى أو قد يغمزه بها فى السر ، وكان كثيرا ما يردد بحميمية بالغة قول اسكندر ديماس الإبن لإسكندر ديماس الأب معاتبا له على إسرافه : يا أبى إنك كمن يلقى بأمواله من النافذة ، وكيف رد أبوه عليه قائلا : لا بأس يا بنى طالما أن هناك من سيلتقطها ! ..

تذكرت كل هذا بصحصحة مفاجئة كان سببها سحب الدخان المنبعثة من فم الجرسون فى غزارة متواصلة الأمر الذى أقنعنى بأنه شرب ذوب عدساية أفيون فى مطلع الليل أصابته بشراهة فى التهام دخان السجائر .. وظننت أننى بلغت حدا من بحلقتى فيه يكفيه للإقتناع بأننى صاح عن حق فيحل عنى

ويعتقنى لوجه الله . ولقد تركنى الجرسون بالفعل يأسا منى أو لقضاء حاجة ، فأردت أن أكون أخبث منه فأظل مفنجل العينين حتى إذا ما دهمنى فجأة ليمتحن صحوى فوجئ بأننى صاح بالفعل لم أستغفله . غير أن ظهرى كان يؤلمنى ويرغمنى على الإنحناء بل الانكفاء ، فاكتفيت بأن عدلت ظهرى على مسند الكرسى وأرحته عليه تماما ومددت ساقى عن آخرهما وطرقعت قدمى وتثاءبت ثم تمطعت جيدا حتى طقطقت عظامى وكادت تتفسخ ثم عدت فأرحت ظهرى وسندت مرفقى على مسند الكرسى وصرت أحدق فى الفراغ لبرهة طويلة جدا وكل همى أن أفصل بين الجفن والجفن من كتل العماص الجاف واللزج معا بشكل متجدد ، لكن دماغى رغما عنى ارتد مستندا على حافة مسند الكرسى ، ومالبثت حتى شعرت بأن هواء يدخل فى فم مفتوح أغلب الظن أنه فمى ويخرج كاسحا مز [illegible] ـسيق فيتوالى فى أذنى صوت كقاذفات القنابل المدوية فأرتعد وأفصل بين جعونى على الفور منتبها بشهقة والريالة تسيل على ذقنى من بين شفتى ، أمسحها بسرعة كأننى أمحو دليل الإتهام القاطع . أنظر حوالى متلصصا أبحث عن الجرسون ، لا أجد أثرا لأى أحد فى طول القاعة وعرضها ، أسند رأسى ثانية محاولا إغلاق فمى بشدة وحسم قاطع . يغيب دوى القنابل الشاخرة ، أرانى واقفا فى الفجر فى سوق بلدتنا أتفرج على ثور ذبيح وصوت الشخير والفحيح يخرج من ثنايا عروق رقبته المجزورة .. وكان ثمة صراخ ملتاع ينبعث قادما من وراء بيوت السوق لعله نذير بموت أحد ولعله نواح صاحبة الثور الذى قضى نحبه الآن ! .. لكن الصراخ ظل يشتد ويزداد عنفا وشراسة حتى تيقظت فزعا وقد انفض الاشتباك نهائيا بين جفونى ، وكان صفير القطار قد شمل الكرة الأرضية كلها وهو يدخل الرصيف بدوى عظيم الهول ! .. وكان الجرسون اللعين قد تسلل وانزوى واقفا على مقربة منى منذ وقت دون أن أشعر به ، وقد راح يصفق كفا على كف فى أسف عميق عميق ! ..

ثم رأيتنى أعتدل فى جلستى محاولا استبيان لون الظلام خارج القاعة استداراً للون الصباح الإردوازى المنشود . وكنت أحس بقلق مفاجئ يشتد متصاعدا مع إحساسى بالتعاسة كعادتى كلما انصرم الليل دون أن يحضر صديقنا المهيب الجليل الحميم . لكن سرعان ما انتفض قلبى فجأة وتوجع من قرصة الألم .. حيث قد اتضح لى أن صديقى الحميم المهيب قد مات منذ بضع سنوات ! .. ثم لاح لى أننى كنت فى قرارة نفسى أعرف هذه الحقيقة ولقد بكيت منها عشرات الليالى والأيام .. ثم لاح لى أننى كنت أضمر إخفاء هذه الحقيقة عن نفسى لسبب من الأسباب .. ثم اتضح لى بجلاء أننى كنت أتعمد الإيحاء للجرسون بأننى لم أعلم بخبر موت صديقى بعد وأننى لهذا انتظر مجيئه كالعادة وهدفى أن يشعر الجرسون نحوى بالرثاء فيتركنى أغفو بعض لحظات أتحمل المسير بموجبها طوال النهار فى شوارع المدينة بحثا عن عمل أو بالأحرى عن كسرة خبز محشوة بالفول وكوب شاى .. على أن الجرسون كان قد قرر أن يكون نذلا ، وظهر الشريط الأحمر القانى فى بياض عينيه ، وأيقنت أنه طاردى لا محالة بقلة ذوق بل بغلظة . حينئذ لمت نفسى ونهضت واقفا ، ثم حييته بصفاقة وعدوت خارجا من القاعة إلى رصيف المحطة وقد اصطبغ الليل باللون التركوازى الحزين . وكنت أدبر فى ذهنى أمر ضرورة البحث عن مكان جديد يسهر حتى الصباح غير بوفيه المحطة ومنطقة المحطة برمتها . وكنت أجتاز البوابة الكبيرة خارجا إلى ميدان رمسيس ومع ذلك شعرت أن الطرقات السخيفة لا تزال تطاردنى وتثقب أذنى فكورت قبضتى من الغضب واستدرت فى انتفاضة شرسة لأهشم وجه ذلك الجرسون القذر ، فاصطدمت قبضتى بشئ ـ كاد يهشمها فصحت متوجعا ببكاء حقيقى غسل الجفون فقبل أن أفتحهما ـركت أن هذا هو فض الاشتباك الحقيقى بين جفونى وما قبلها كان شيئا عابرا

كعبور كل سنوات عمرى السابقة كعبور القذيفة بانسياب فى الفراغ اللا نهائى البعيد حيث يتضائل صوت انفجارها دون أن يصيب مقتلا . وكان الصوت اللعين الخبيث المرعب قد استأنف رنينه بجوار أذنى مباشرة ، فلما فتحت عينى فى تحفز شرس وجدت زوجتى تقف بجوار السرير باسمة مازحة وهى تطرقع لى بملعقة الشاى على الصينية الموضوعة فوق الكومودينو ، وإذا بى وبكل شراسة أضرب الصينية بيدى فأقلب شاى الحليب الصباحى على الأرض فتتكسر الأكواب وتتلوث المفروشات كلها بالبقع ، وإذا بى أتحول إلى غجرى طويل اللسان قليل الحياء يسب للزوجة المسكينة ديك الذين خلفوها . ثم أننى انتبهت فجأة كأن يدا قد هزت قلبى بعنف لتفيقه ، فأدركت أن هذه هى لحظة فض الاشتباك الحقيقى بين جفونى وماقبلها لم يكن إلا وهما عابرا ، أدركت كذلك أننى قد أخطأت بالغ الخطأ وتلبسنى العار من فوقى لتحتى ، فما لبثت حتى اندفعت باكيا وتلقفت زوجتى فى حضنى وصرت أربت على ظهرها معتذرا أقبل رأسها فى استرضاء وهى من فرط الذهول فى ذهول لا تكف عن التساؤل فى خوف وشك عظيمين : هو فيه إيه ؟! حصل إيه ؟! . وأنا أردد خلفها دامعا : مش عارف ! مش عارف . لكنها حين نظرت فى وجهى باشفاق وعطف ومسحت دموعى بكفها أدركت أن هذه هى لحظة فض الاشتباك الحقيقى بين جفونى وما قبلها كان فلفصة ونضالا ، وقد سطع الصفاء فى عينىّ تماما حتى تمكنت من رؤية نملة تعاود الكرة مرات ومرات لتخرج من تحت بلاطة غليظة وتندفع نحو خيط من خيوط الشمس السائلة من خلل شيش النافذة على الجدار . وحينئذ تمطعت واقفا وأنا أواصل الإستغفار والإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تقدمت إلى الشباك ففتحته على مصراعيه فتدفقت الشمس فى أحضاننا بشوق سرمدى حبيب .